

كِتَابٌ

صُنْحُ الْأَسَدِ

نَالِقٌ

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثاني

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣١ هـ
م ١٩١٣

فهرست الجزء الثانى

من كتاب صبح الأعشى

صحيفة

- ٦ النوع الثامن عشر - المعرفة بالأحكام السلطانية
- الطرف الثامن - فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتّابة
- ٧ الخ، ويشتمل على أنواع
- النوع الأول - مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنسانى ، وهو على
- ٨ ضريين
- النوع الثانى - مما يحتاج إلى وصفه هى دوابّ الركوب، وهى أربعة
- أصناف
- ١٧ النوع الثالث - ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش الخ ، وهو
- أصناف
- ٣٦ النوع الرابع - فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور ، وهو على أربعة
- أصناف
- ٥٢ النوع الخامس - ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار ، وفيه اثنا
- عشر صنفاً
- ٩٤ النوع السادس - نفيس الطيب ، وفيه أربعة أصناف
- ١١٣ النوع السابع - ما يحتاج إلى وصفه من الآلات ، وهى أصناف
- ١٢٥ النوع الثامن - مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه
- مقصدان
- ١٤٦ النوع التاسع - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العلويات مما بين السماء
- والأرض ، وهى على أصناف
- ١٦٦

صيفة

- النوع العاشر - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،
 ١٧٧ وهي على أصناف
 الطرف الثالث - في صناعة الكلام ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه ،
 ١٨٣ وفيه مقصدان
 الفصل الثالث - في معرفة الأزمنة والأوقات الخ ، وفيه أربعة أطراف
 ٣٢٩ الطرف الأول - في الأيام ، وفيه ست جمل
 ٣٢٩ الطرف الثاني - في الشهور ، وهي على قسمين طبيعي واصطلاحى
 ٣٥٨ الطرف الثالث - في السنين ، وفيه ثلاث جمل
 ٣٨٦ الطرف الرابع - في أعياد الام ومواسمها ، وفيه خمس جمل
 ٤٠٦ **الباب الثانى** - فيما يحتاج إليه الكاتب من الامور العملية ، وهو الخط
 ٤٣٠ وتوابعه ولواحقه ، وفيه فصلان
 الفصل الأول - في ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله الخ ،
 ٤٣٠ وفيه ثلاثة أطراف
 الطرف الأول - في الدواة وآلاتها ، وفيه مقصدان
 ٤٣٠ الطرف الثاني - في الآلات التى تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة
 ٤٣٤ آلة الخ
 الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة الخ ،
 ٤٧٢ وفيه ثلاث جمل

(تم فهرست الجزء الثانى من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى

فى الكلام على نفس الخط)

بسم الله الرحمن الرحيم

النوع الثامن عشر

(المعرفة بالأحكام السلطانية)

ليعرف^(١) كيف يخلص قلمه على حكم الشريعة المطهرة ، وما يشترط في كل ولاية من الشروط ، فينبه عليها ويقف عندها ، وما يلزم رب كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له ، فيورده في وصاياه . وقد أورد أفضى القضاة أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي رحمه الله في الأحكام السلطانية ما فيه مَقْنَع من ذلك ؛ ونحن نورد في هذا الكتاب ، بُدَّةً من كل باب ، مما به يستغنى الناظر فيه عن مراجعة غيره . والذي تكلم عليه الماوردي من الوظائف الأصول الإمامة ، والوزارة ، وتقليد الإمارة على البلاد ، وتقليد الإمارة على الجهاد ، والولاية على ضروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية النّقابة على ذوى الأنساب ، والولاية على إقامة الصلوات ، والولاية على الحج ، والولاية على الصدقات ، وقَسَم الفئء والغنيمة ، ووضع الجزية والخراج ، ومعرفة ما تختلف أحكامه من البلاد ، وإحياء الموات ، واستخراج المياه ، والحجى ، والأوقاف ، وأحكام الإقطاع ، وأحكام الديوان ، وأحكام الجرائم ، وأحكام الحِسبة . وأنا أقتصر من ذلك هنا على ما تفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ، دون ما عداه من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

(١) أى الكاتب . (٢) هو علي بن محمد بن حبيب انظر كشف الظنون .

هذه الولايات، وما يوجب توليتها، وما يعتير في متوليها من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا تولها، وما ينافي أمورها، ويحائب أحوالها، عرف ما أتى من ذلك، وما يذّر، فيكون ما ينشئه من البيعات، والعهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجري مجرى ذلك جارياً منه على السداد، ماشياً على القواعد الشرعية التي من حاد عنها ضلّ، ومن سلك خلاف طريقها زلّ. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمهادنات والمفاسحات، وما يجري مجرى ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية، وما يجب على الكاتب فيها، وقّأها حقها، وأتى بذكر ما يتعلق بها من الشروط، وجرى في وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها، بجرى الأمر في ذلك على السداد، ومشت كتابته فيها على أتم المراد؛ إن كتب بيعة، أو عهداً للخليفة، تعرّض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة، ونصب إمام للناس يقوم بأمرهم، وتعرّض إلى اجتماع شروط الخلافة في المولى، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرّض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه درج بالوفاة، وأن المولى استحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرّض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سنن الطريق، والعدول عن منهج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثاني. وإن كان عهداً تعرّض فيه إلى عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب في ذلك الغرض، وجرى فيه على سواء الصراط، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى من سائر الولايات على ما سيأتي ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه فقرة من بيعة أنشأتها توضح ما أشرت إليه من ذلك.

فن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى دليل تنقطع دون نقضه الأطماع؛ وتنبؤ عن سماع ما يخالفه الأسماع .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى اجتماع شروط الخلافة في الموثى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين ، هو الذى جمع شروطها فوقاًها ، وأحاط منها بصفات الكمال وأستوفاه ؛ ورامت به أدنى مراتبها فبلغت أغياها، وتسور معاليها فرفق إلى أعلاها، واتحد بها فكان صورتها ومعناها .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى عقد البيعة : بجمع أهل الحل والعقد، المعبرين للأعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء ، وأهل الخير والصلحاء ؛ وأرباب الرأى والنصحاء ؛ وآسة شارهم فى ذلك فصوبوه، ولم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى القبول ، وقابل عقدها بالقبول محضر من القضاة والشهود فلزمت ، ومضى حكمها على الصحة فانبرمت ، إلى غير ذلك مما يخرط فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام الساطانية، يتعين عليه معرفة ماعدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالمهندسة ونحوها، وسيأتى التنبيه فيما يجب على كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الطرف الثانى

(فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه على اختلاف أنواعها ؛ ويشتمل على أنواع)

النوع الأول

(مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنساني ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أوصافه الجسمية ، وهي على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء ؛ وهي عدة أمور)

منها حُسن اللون ؛ والألوان في البشر ؛ ترجع إلى ثلاثة أصول : وهي البياض ،
والشُمرة ، والسّواد ؛ ويعبر عن السّواد بشدة الأدمة ، وربما عبر عن البياض برقة
الشُمرة . ويستحسن من هذه الألوان البياض ؛ وأحسن البياض ما كان مُشرباً
بمجرة ؛ وقد جاء في حديث ضمام بن ثعلبة أنه حين سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم
عند وفوده عليه بقوله : ”أيكم ابن عبد المطلب ؟ قيل هو ذاك الأغر المتكى“ ،
والأغرهو المُشرب بمجرة ، اخذاً من المغرة : وهي الصّبغ المعروف . وقد جاء في وصفه
صلى الله عليه وسلم انه ”أزهرُ ألون“ . والأزهر هو الأبيض بصفرة خفيفة .
والشُمرة مستحسنة عند كثير من الناس ، وهو الغالب في لون العرب ، وقد قيل
في قوله صلى الله عليه وسلم ، ”بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود“ إن المراد بالأحمر العجم
لغلبة البياض فيهم ، والمراد بالأسود العرب لغلبة الشُمرة فيهم ؛ أما السّواد فإنه غير
مدحوح بل قد ذمَّ الله تعالى السّواد ، ومدح البياض بقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ﴾ الآية . على أن كثيراً من الناس قد جَنَحُوا إلى استحسان السودان والميل إليهم ،
وتأنقوا في الاحتفال بأمرهم ؛ وقد نص أصحابنا الشافعية على أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من القمر فانت طالق لم تطلق وإن كانت زنجية سوداء، فقد قال تعالى
﴿وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ . وبالجملة فالحسن فى كل لون مستحسن والله القائل :

إِنَّ الْمَلِيحَ مَلِيحٌ * يُحِبُّ فِي كُلِّ لَوْنٍ

ومنها حُسْنُ القَدِّ؛ وأحسنُ القدود الربعة: وهو المعتدل القامة، الذى لا طَوَلَ فيه ولا قَصَرَ، وليس كما يقع فى بعض الازدهان من أنَّ المراد منه دُونَ الاعتدال . وقد جاء فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم، "أَنَّهُ كَانَ رُبْعَةً". ويستحسن فى القَدِّ القَوَامُ والرَّشَاقَةُ، ويشبَّه بالمرح والغُصْنِ، وأكثر ما يشبه به فى ذلك أغصان البان لقوامها .

ومنها سواد الشعر؛ وأكثر ما يكون ذلك فى السُّمُر، فإن اجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك فى غاية من الحسن؛ ويشبَّه سواد الشعر بالليل؛ وربما وقعت المبالغة فيه فشبه بفحمة الليل، وبُدجى الليل، وبفحمة الدُّجى؛ وقد يشبه بالآبنوس ونحوه مما يغلب فيه حَلَاكُ السَّوَادِ. وقد اختلف الناس فى جُعودَةِ الشعر وسُبُوطته أيهما أحسن؟ فذهب قوم إلى استحسان الجُعودة: وهى انقباض الشعر بعض انقباض وهو مما يستحسنه العرب، وإليه ذهب الفقهاء حتى لو شرط البائع فى عبد كونه جعد الشعر وظهر سَبِطَ الشعر ردَّ بذلك بخلاف العكس. وذهب آخرون إلى استحسان السُّبُوطَةِ، وهى استرسال الشعر وانبساطه من غير انكماش؛ وأكثر ما يوجد ذلك فى الترك وَمَنْ فى معناهم . ثم الذاهبون إلى استحسان الجُعودة يستحسنون التواء شعر الصَّدغ؛ ويشبهونه بالواو تارةً وبالْعَقْرِبَاءِ أُخْرَى .

ومنها وضوح الجبين، وسعة الجبهة، وانحسار الشعر عنها؛ فيستقيح الغم: وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها وسامة الوجه وحُسنُ الحَيَا . ويشبَّه الوجه فى الحسن بالشمس، وبالْقَمَرِ،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس والقمر أتم من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة؛ وقد جاء في بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم: "هل كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟ فقال بل كالشمس والقمر".

ويستحسن في الوجه حمرة الوجنتين؛ ويشبه لونهما بالورد، والشقيق، والعقيق، وبالعمد، وما يجرى مجرى ذلك مما تغلب فيه الحمرة المشرقة.

ومنها بلج الحاجبين وزججهما، فالبلج انقطاع شعر الحاجبين: بأن لا يكون بينهما شعر يصل ما بينهما، وهو خلاف القرن؛ وربما استحسن الخفى من القرن، وهو الذى دق فيه شعر ما بين الحاجبين حتى لا يظهر فيه إلا خضرة خفية. والزجاج دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلى مؤخر العين، وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "أنه كان أزج الحاجبين".

ويستحسن في الحاجبين سواد شعرهما، وأن يكونا مقوسين؛ ويشبه تقويسهما بالنون تارة، وبالقوس أخرى.

ومنها حسن العينين؛ ويستحسن في العين الحور: وهو خلوص بياض العين، والتجل وهو سعتها ويقال فيه حينئذ أنجل وربما قيل أعين، ومنه قيل للحور عين، والدجج: وهو شدة سواد الحدقة، والكحل: وهو أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة. وتشبه العين بالصاد تارة، وبالجم أخرى. وتشبه بالترجس وربما شبهت بنور الباقلي؛ وأعترض بأن فيه حولا. وربما شبهت العين بالسيف، وبالسهم، وبالسنان. وقد يستحسن في العينين الفتور وضعف الأجفان.

ومنها حسن الأنف؛ ويستحسن فيه القنأ: وهو ارتفاع وسط الأنف قليلا عن طرفيه مع دقة فيه، وهو الغالب في العرب؛ وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم "أنه كان أفنى الأنف". ويستحسن فيه الشمم أيضا: وهو استواء قصبه الأنف وعلو أرنبته. ويشبه الأنف بالسيف في بريقه.

ومنها حسن الفم . ويستحسن فيه الضيق . ويشبه الميم ، وبالصاد ، وبالخاتم .
ومنها حسن الشفتين . ويُستحسن فيهما الجمرة . وتشبه حمرتهما بما تُشبه به
الوجنة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللمى : وهو سمرة
تعلو حمرتهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الشَّنب : وهو بياض وبريق يعلوهما .
وتشبه الأسنان في البياض وحسن النظم باللؤلؤ ، وبالبرد ، وبالطلع : وهو نبت أبيض ،
ولأفاح ، وبالحبيب : وهو الذى يعلو الكأس عند شجّه بالماء . وقد تشبه بالجوهر ،
ويستحسن فيها الأشر : وهو تحديد الأسنان كما يقع في كثير من الصبيان ، ويستحسن
في السنخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه . ويشبه بالعقيق والورد وسائر ما يشبه به الخلد
ومنها حسن الحيد : وهو العنق . ويستحسن فيه طوله وبياضه من الأبيض .
ويشبه بإبريق فضة .

ومنها دقة الخصر ، وهو معقد الإزار حتى إنهم يشبهونه بدور دملج ، ودور
خَلخال وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة في الرجال والنساء جميعا فإنها
في النساء أكّد . فإن الأمر في الحسن منوط بهن ، فهما كانت المرأة أحسن كان
أعظم لسانها ، وأعز لمكانها ، وقد قيل لرجل من بني عُذرة : ما بال الرجل منك
يموت في هوى امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يا بني عُذرة - فقال "أما والله لو رأيتم
النواظر الدخج ، فوقها الحواجب الرُّجّ ، تحتها المباءم الفلج ، لا تتخذتمودا اللات والعزى !"
وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى
ذكره هنا .

(١) أى مزجه يقال شج الخمر بالماء إذا مزجها به . انظر اللسان

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن اللحية ، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ إن المراد اللحية ، على خلاف في ذلك . ويستحسن في اللحية أستاذتها وتوسطها في المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسنت اللحية من الرجل كملت محاسنه . وتزيد الأحداث على الرجال في الحُسْن بمقدمات ذلك : فيستحسن منهم خُضرة الشارب ، وخُضرة العارض والعارض ، ويشبه كل منهما بالآس ، وبالريحان ، وبدبيب النمل ونحو ذلك . ويشبه العذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قُزَح ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ على أن أهل الفِرَاسة قد استحسنوا في الرجل أموراً تخالف ما تقدم .

منها سعة الفم وغِلَظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين إن ذلك مما يدل على الشجاعة وهو أمر مطلوب في الرجل كما تقدم .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

وما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسميّة السَّمنُ ، فهو أمر مطلوب في المرأة ما لم يُفْرِط ويخرج عن الحد المطلوب ؛ ففى الصحيحين من حديث أم زرع " بنت أبي زرع وما بنت أبي زرع ؟ ملء كسائها ، وغِطَّ جارتها " إشارة إلى امتلائها بالشحم . ووصف أعمر ابى امرأة فقال " بَيْضَاءُ رُغْبُوبُهُ ، بِالْهَشْمِ مَكْرُوبُهُ ، بِالْمِسْكِ مَشْبُوبُهُ " . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخِفَّة وقلة اللحم لأجل قوة النهضة ، وسرعة الحركة في الحرب وغيره ، والسَّمن يمنع ذلك ، مع ما يقال إن فيه تبليداً للذهن قال بعضهم : " ما رأيت حَبْراً سميناً إلا محمد بن الحسن " يعنى

صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه . وربما أستحسن قلة اللحم فى المرأة أيضا ،
وتوصف حينئذ بالهيف .

ومن ذلك ثقل الرِّدف فهو مما يمتدح به فى النساء بخلاف الرجل فإن ذلك
فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكى فى ذلك أن رجلا أخذ خطرا من قوم على أن يغضب
معاوية بن أبى سفيان مع غلبة حلمه ، فعمد إلى معاوية وهو ساجد فى الصلاة ،
فوضع يده على عجزته وقال : ما أشبه هذه العجيزة بعجيزة هند ! - يعنى أم معاوية ، فلما
سلم من صلاته ، التفت إلى ذلك الرجل وقال : ” يا هذا إن أبى سفيان كان محتاجا
من هند إلى ذلك وإن كان أحد جعل لك شيئا على ذلك فخذ ” .

ومما يستحسن فى المرأة طول الشعر فى الرأس ، ودقة العظم ، وصغر القدم ،
ونعومة الجسد ، وقلة شعر البدن ، فى أمور أخرى يطول ذكرها .

الضرب الثانى

(الصفات الخارجة عن الجسد ، وهى على ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلى أصليين : العقل والعفة ، ويدخل تحت كل من هذين الأصلين
عدّة من أوصاف المدح . فأما العقل فيدخل تحته العلم . وصفاته المعرفة ، والحياء ،
والبيان ، والسياسة ، والكفاية ، والصّدق بالحق ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك
مما يجرى هذا المجرى . ولا يخفى أن هذه الأوصاف مطلوبة فى الرجال والنساء
جميعا وإن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العفة فيدخل تحتها القناعة ، وقلة الشره ، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه رجل ولا امرأة ؛ وإذا رُكِبَ العقلُ مع العفة حدثت عنهما صفاتٌ أخرى مما يتمدح به : كالتزاهة ، والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، ونحو ذلك مما ينخرط في هذا السلك .

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلى أصليين أيضا : وهما العدل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصليين عدة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخل تحت العدل السَّماحة ، والتبُّع بالذائل ، وإجابة السائل ، وقرئ الضيف ، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدة أوصاف كالحماية والدِّفاع ، والأخذ بالثأر ، والنَّكاية في العدو ، والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير في المهامِة الموحشة ، وما أشبه ذلك ؛ وإذا رُكِبَ العقل مع الشجاعة حدثت عنهما صفات أخرى مما يتمدح به كالصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

ويرجع إلى أصليين مذمومين في الرجل : وهما الجبن والبخل ؛ وذلك أن المرأة إذا جَبُنَتْ كَفَّتْ عن المساوى خوفا على نفسها أو عرضها ، وإذا بَخِلَتْ حَفِظَتْ مال زوجها عن الضياع والإتلاف ؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال المدحوة أربعة أوصاف : اثنان يشتركون فيهما مع النساء - وهما العقل والعفة ؛ واثنان ينفردون بهما عن النساء وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء المدحوة أربعة أيضا اثنان يشتركن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة ، واثنان ينفردن بهما عن الرجال وهما

الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قدامة بن جعفر الكاتب في نقد الشعر : ”ومذائح الرجال تنقسم بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدي والتحصُّر، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلو الرتبة والأفراد عن المثل والقرين : كقول النابغة في النعمان بن المنذر .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَدَبَّدَبُ
بَأَنِكَ شَمْسُ الْمُلُوكِ كَوَاكِبُ * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبُ

وما يجري مجرى ذلك ؛ ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والدربة ؛ وحسن التنفيذ والسياسة ، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة في إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قيل :

بِدَيْهِتِهِ مِثْلُ تَفْكِيرِهِ * مَتَى رَمَتْهُ فَهُوَ مُسْتَجْمِعُ

وكما قيل :

يُرَى سَاكِنَ الْأَوْصَالِ بِاسِطَ وَجْهِهِ * يُرِيكَ الْهُوَيْنَى وَالْأُمُورُ تَطِيرُ

وَيُمدَحُ القائد يعني الأمير الذي يقود الجيش بما يجانس البأس والتجدة ، ويدخل في باب البطش والبسالة ، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة والخلق والبذل والعطية ، كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما في أكثر الأمور موجودان في ذوى بُعد الهمة ، والإقدام والصولة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ مِمَّا يَنْوَبُهُ * فَتَى بِأَسِهِ شَطْرُ وَفَى جُودِهِ شَطْرُ

فَلَا مِنْ بُغَاةِ الْخَيْرِ فِي عَيْنِهِ قَدَّيْ * وَلَا مِنْ زُرَّيْرِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ وَقَرَّ
قال: "وتمدح السُّوقَة والمتعيشون بأصناف الحِرَف وضُروب المكاسب والصَّعاليك
بما يضاهي الفضائل النفسانية من العقل والعِفَّة والعدل والشَّجاعة، خاليا عن مثل
مدح الملوك ومن تقدَّم ذكره من الوزراء والكُتَّاب والقوَّاد
ويمدح ذوو الشَّجاعة منهم بالإقدام والفتك والتشمير والتيقُّظ والصبر مع التحدُّق
والسَّباحة وقلة الآكثراث بالخطوب الملمة ونحو ذلك".

قلت : ويؤخذ مما ذكره قدامه أن القضاة والعلماء يُوصَفون بما يليق بمجملهم من
ذلك فيوصف العالم بثقابة الذهن، وحِدَّة الفهم، وسَعَة الباع في الفضل، ومايجرى
بجُرى ذلك، ويوصفُ القضاة بذلك وبالعدل والعفة ومباينة الجور ونحو ذلك،
وستقف في قسم الولايات في نسخ البيعات والعهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض
والمراسيم ونحوها من ذلك^(١) بما يتضح لك به سواء السبيل .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَاتِبَ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنَ النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ
كَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مِنْهُ ، فَرَبَّمَا أَحْتَاجَ إِلَى الْكِتَابَةِ بِذِمِّ شَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ عَنْدهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مَا يَنْفِقُ مَعَهُ : كَمَا حَكَى أَنَّ بَعْضَ
الْعَمَالِ بَعَثَ إِلَى الرَّشِيدِ بَعْدَ أَسْوَدَ فَقَلَّبَ كِتَابَهُ وَوَقَّعَ عَلَيْهِ "أَمَا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَوْ وَجَدْتَ
عَدَدًا أَقَلَّ مِنَ الْوَاحِدِ ، أَوْ لَوْنَا شَرًّا مِنَ السَّوَادِ ، بَعَثْتَ بِهِ إِلَيْنَا وَالسَّلَامَ" .

وَلَا يَخْفَى أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ صِفَةَ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ فَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ
مَعَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الْجَسْمِيَّةِ : كَالْحَدَبِ وَالْحَوْلِ وَنَحْوَهُمَا ، وَمِنْ
الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ : كَسُوءِ الْخُلُقِ وَبَدَاةِ اللِّسَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا مَقْنَعٌ فِي الْإِرْشَادِ
إِلَى الْمَرَادِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْقَصْدِ .

(١) أى على ما يتضح . (٢) لعله منه .

النوع الثانى

(مما يحتاج إلى وصفه هى دوابّ الركوب ، وهى أربعة أصناف)

الصنف الأول

(الخيـل)

ويحتاج إلى المعرفة بوصفها فى مواضع ؛ من أهمها وصفها عند بحث شئ منها فى الإنعام والهدايا ، والجواب عن ذلك . ووصفها فى ترتيب الجيوش والمواكب وذكرها فى مجالات الحرب ، وما يجرى مجرى ذلك . ويشتمل الغرض منه على معرفة أصنافها ، وألوانها ، وشيأتها ، وما يُستحسن ويستقبح من صفاتها ؛ ومعرفة الدوائر التى تكون فيها ؛ والبصر بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فثلاثة

الأول - العرّاب : وهى أفضلها وأعلاها قيمةً ، وأغلاها ثمنًا ، تطلب للسبق واللقاق ؛ والملوك تتعالى فى أثمانها وتعدّها لمهم الحرب . وتوجد ببلاد العرب ومحلاتهم فى أقطار الأرض : كالحجاز ، ونجد ، واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر ، وبرقة ، وبلاد المغرب وغيرها .

الثانى - العجميّات : وهى البراذين ويقال لها الهماليج ، وتعرف الآن بالألكاديش وتُجلب من بلاد الترك ، ومن بلاد الروم . وغالب ما توجد مشقوقة المناخر ، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشى .

الثالث - المولّد بين العرب والبراذين : فإن كان الأب عجمياً والأم عربية قيل له هجين ، وإن كان بالعكس قيل له مُقرِف ؛ وهى تكون فى الجحرى والمبشّى متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانها فقد ذكر ابن أبي أصيبع أن أصول الألوان فيها ترجع إلى أربعة ألوان، وما سواها مفرع عنها .

الأول - البياض : وقيل أن يخلص من لون يخالطه ؛ فإن صفا بياضه قيل فيه أشهب قرطاسي ؛ فإن كان أذناه وقوائم وعُرفه وذيله سودا ، قيل مُطَرَّف ، فإن خالط البياض شعر أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهب كافوري ، وإن كان السواد فيه أغلب قيل أشهب حديدي ، وأشهب أشمط ، وأشهب محلس ^(١) ، فإن كان فيه نُكَّتْ سود قيل أشهب مفلس ، فإن اتسعت قليلا قيل أشهب مدنر ، فإن كان في شهبته طرائق ، قيل أشهب مجزع ، فإن كان فيه بقع من أي لون كان دون البياض قيل مبقع ، فإن صغرت تلك البقع قيل أبقع ، فإن تفرقت واختلقت مقاديرها قيل أشيم ، فإن تعادل ذلك اللون مع البياض مع صغر النقط من اللونين قيل أمش ، فإن تناهت في الصغر ، قيل أبرش ، فإن كان البياض نُكَّتا صغيرة في ذلك اللون قيل موقوف ، فإن كان شيء من ذلك كله في عضو واحد قيد به ، مثل قولك موقوف القطة ، وأمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثاني - السواد : فإذا كان الفرس شديد السواد قيل فيه أدهم ، فإن آشتد سواده قيل أدهم غيبي ، فإن علا السواد خضرة قيل أخوى والجمع حو ، فإن خالط سواده سُقرة قيل أدبس ، فإن أنضم إليه أدنى حمرة أو صفرة قيل أحم ، فإن ضرب سواده إلى يسير بياض قيل أورق ، ونحوه الأكهب ، وفي دونه من السواد يقال أربد .

الثالث - الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة ، وعُرفه وذيله أسودان ، قيل فيه أورد والجمع وراد والأئني ورده ؛ فإن خالط حمته سواد فهو كمي ، الذكر والأئني فيه سواء ؛ فإن صفت حمته شيئا قليلا قيل كمي مدمي ، فإن كان صافيا قليلا

(١) في الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان في مادة ح ل س .

الحمرة وعُمرُفه وذيله أشقران قيل أشقر . فإن كان أحمر وذيله وعمرُفه كذلك قيل أمغر ؛ فإن خالط شقرة الأشقر أو الكيت شقرة بيضاء قيل صناعي أخذاً من الصناب وهو الخردل بالزبيب ، فإن كانت حمرة كصدا الحديد ، قيل أصداً ، فإن زاد فيه السواد شيئاً يسيراً قيل أجاي والأسم الجؤوة .

الرابع - الصفرة : فإن كانت صفرة خالصة تُشبه لون الذهب وعُمرُفه وذيله أصهبان مائلان إلى البياض قيل أصفر خالص ، فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطزف وهو الذي يسمونه في زماننا الحبشي ، فإن كان أصفر ممتزجاً ببياض قيل أشهب سوسني ، فإن كان في أكارعه خطوط سود قيل موشي .

وأما شياتها وهي البياض المخالف للونها ، فمنها الغزة : وهي البياض الذي يكون في وجه الفرس إذا كان قدره فوق الدرهم ، فإن كان دون الدرهم قيل في الفرس أفرح^(١) والعامّة تقول فيه أغر شعرات ؛ فإن جاوز البياض قدر الدرهم قيل فيه أعرم ، ثم أول رتبة الغزة يقال له النجم ، فإن سالت الغزة ورقّت ولم تجاوز جبهته ، قيل فيه أغر عصفوري ، فإن تبادت حتى جلّت خيشومه ولم تبلغ بحفّته ، قيل أغر شمراخي ، فإن ملأت جبهته ولم تبلغ العينين قيل أشدخ ، فإن أصابت جميع وجهه إلا أنه ينظر في سواد ، قيل مبرقع ؛ فإن فشّت حتى جاوزت عينه وأبيضت منها أشفاره ، قيل مُغرب ؛ فإن أصابت منه خدّاً دون خدّ قيل لطيّم أيمن أو أيسر ؛ فإن كان بشفته العليا بياض قيل أرثم ؛ وإن كان بالسفلى بياض قيل ألمظ ، فإن نالهما جميعاً قيل أرثم ألمظ .

(١) وقع في الأصل أعرم بإعجام العين وهو تصحيف .

(٢) في الأصل ألمظ بالنون والطاء وهو تصحيف .

ومنها التحجيل في الرجلين وما في معنى ذلك ؛ إن كان البياض في مؤخر الرُسخ لم يستدِرْ عليه قيل في الفرس مُنْعَل ؛ وإن كان في الأربع قيل مُنْعَل الأربع ؛ أو في بعضها أضيف إليه فقيل مُنْعَل اليدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليمنى أو اليسرى ؛ فإن استدار على الرُسخ وهو المَقْصَل الذي يكتنفه الوظيف والحافر وكان في إحدى الرجلين ، قيل أَرَجَلٌ ، وإن كان في الرجلين جميعا قيل مُحَدَّم وأخدَم ؛ فإن جاوز رُسخ الرجل واتصل بالوظيف : وهو ما بين الكعب وبين أسفله ولم يجاوز ثلثيه ، قيل مُحَجَّل ، أخذاً من الحَجَل : وهو الخالخال ؛ فإن كان في رجل واحدة ، قيل مُحَجَّل الرجل اليمنى أو الرجل اليسرى ؛ فإن كان في الرجلين جميعا قيل مُحَجَّل الرجلين ؛ فإن كان معه في إحدى اليدين بياض يجاوز الرُسخ إلى دون ثلثي الوظيف قيل مُحَجَّل الثلاث مطلق اليد اليمنى أو اليسرى ؛ فإن كان البياض في اليد الأخرى كذلك ، قيل مُحَجَّل الأربع ؛ فإن كان البياض في اليدين فقط قيل أَعَصَم ، سواء جاوز الرُسخ أم لا ؛ ولا يُطلق التحجيل على اليدين أو إحداهما إلا بانضمام إلى تحجيل الرجلين أو أحدهما ؛ فإن كان في اليد الواحدة قيل أَعَصَم اليد اليمنى أو اليسرى ؛ وإن كان فيهما قيل أَعَصَم اليدين ، وإن كان التحجيل في يد ورجل من جانب واحد قيل مُمَسَّك ؛ وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُمَسَّك الأيمن مطلق الأيسر ؛ وإن كان بالعكس قيل مُمَسَّك الأيسر مطلق الأيمن ؛ وإن كان التحجيل في يد ورجل من خلاف فهو الشَّكَّال . وقيل الشَّكَّال بياض القائمتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائم ، فإن تعدى البياض حتى جاوز عُرْقوبَي الرجلين أو ركبتيَّ اليدين ، قيل فيه مُجَبَّب ؛ فإن علا البياض حقوى رجليه ومِرْفَقَيْ يديه قيل أَبْلَقُ ، فإن زاد على ذلك حتى بلغ الأنفَ والأعضاء ، قيل أَبْلَقُ مُسْرَوَل ؛ فإن آخض البياض بيديه

(١) كذا في الأصل بالقاف ولعله مصحف عن النون لأن الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه أما الحنو فهو الاعوجاج والغرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأنفَ الخ .

وطال حتى بلغ مرقته قيل أقفز ومقفز ؛ فإن كان البياض في الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعرقوب ولا بالركبة قيل موقوف .

ومنها الشيات التي تتخلل سائر جسدها ؛ فإن كان الفرس مبيض الأذنين أو في أذنيه نقش بياض دون سائر لونه قيل فيه أذرا ، وإن كان مبيض الرأس قيل أصقع ، فإن أبيض فقا قيل أقنف ؛ فإن شابت ناصيته قيل أسعف ، فإن أبيضت جميعها قيل أصبغ الناصية ؛ فإن غشى البياض جميع رأسه قيل أغشى ، وربما قيل فيه أرخم ؛ فإن أبيض رأسه وعنقه جميعا قيل أدرع ؛ فإن أبيض ظهره قيل أرحل ، فإن كان ذلك البياض من أثر الدبر قيل مصرد ، فإن أبيض بطنه قيل أنبط ، فإن أبيض جنباه قيل أخصف ، فإن كان البياض بأحد جنبيه قيل أخصف الجنب الأيمن أو الأيسر ، فإن أبيض كفه قيل آزر ؛ فإن أبيض عرض ذنبه من أعلاه قيل أشعل ؛ فإن أبيض بعض هله دون بعض قيل محصل ؛ فإن أبيض جميع هله قيل أصبغ هلب الذنب ؛ فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بهيم ومضمت من أى لون كان .

وأما ما يستحسن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل : يستحب في الفرس دقة الأذنين وطولهما وانتصابهما ، ودقة أطرافهما ، وقرب ما بينهما ، وكل ذلك من علامات العتق . وفي الناصية اعتدال شعرها في الطول ، بحيث لا تكون خفيفة الشعر ولا مفترطة في كثرته . ويقال في هذه الناصية الجثلة . ويستحب مع ذلك لين الشكير (وهو ما طاف بجنب الناصية من الزغب) . ويستحب عظم الرأس وطوله وسعة الجبهة ، وأسالة الخد ، وملاسته ، ودقته ، وقلة لحم الوجه ، وعري الناهضين (وهما عظمان في الخد) وسعة العين ، وصفاء الخدقة ؛ وذلك كله من علامات العتق . ويستحب في العين السمو والحدّة ورقّة الجفون وبعد نظره . قال ابن قتيبة : وهم يصفونها بالقبل والشوس والحوص ، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقة ، وإنما

تفعله لعزة أنفسها . ويستحب في المنخر السعة : لأنه إذا ضاق شقَّ عليه النفس . قال وربما شقَّ منخره لذلك وبعد ما بين المنخرين . ويستحب في الفم الهرت (وهو طول شقِّ شدقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نفسه ، ورقة الجحفلتين وهما الشفتان لأنه دليل العتق ، وطول اللسان ليكثر ريقه فلا ينهر ، ورقته لأنه أسرع لضمه العلف ، وصفاء الصهيل لأنه دليل صحة رئته وسهولة نفسه . ويستحب في العنق الطول فقد كان سلمان بن ربيعة يفرق بين العتاق والهجن فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيل إليها واحدا واحدا فثابتى سُنْبَكِه منها ثم شرب هَجْنَه ، وما شرب ولم يثن سُنْبَكِه جعله عتيقا لأن في أعناق الهجن قصرا فلا تنال الماء حتى تثنى سُنْبَكِها ؛ وقد روى أنه هَجَّنَ فرس عمرو بن معدى كرب فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال سلمان أدع بإناء فيه ماء ثم أتى بفرس عتيق لاشك في عنته فأشعر في الإناء فصصف بين سُنْبَكِيهِ ومدَّ عنته فشرب . ثم قال اتنوني بهجين لاشك فيه فأشعر فبرك فشرب ، ثم أتى بفرس عمرو بن معدى كرب فأشعر فصصف بين سُنْبَكِيهِ ومدَّ عنته ثم ثنى أحد سُنْبَكِيهِ قليلا فشرب فقال عمر أنت سلمان الخيل . ويستحب فيها مع ذلك الكبرلأنه أقرب لانتقياده وعطفه ، وغلظ مُرْكَبِ عنته ودقَّة مدبجته . ويستحب فيه ارتفاع الكتفين والحارِك والكاهل ، وقصر الظهر وعَرْض الصَّهوة (وهي مقعد الفارس من الظهر) وارتفاع القَطَاة (وهي مقعد الرِّدف من الظهر أيضا) وقلة لحم المتين وهما ماتحت دفتي السرج من الظهر . ويستحب في الكفل الاستواء والاستدارة والملاسة والتدوير . ويستحب طول السَّيْب : وهو الشعر المسترسل في ذيله ، وقصر العَسيب : وهو عَظْم الذنب وجلده ؛ ولذلك قال بعض الأعراب ” اختره طويل الذنب قصير الدَّنب “ يعنى طويل الشعر قصير العَسيب . قال ابن قتيبة

ويستحب أن يرفع ذنبه عند العدو، ويقال إن ذلك من شدة الصُّلب . ويستحب
 عَرْض الصدر : وهو ما عَرَضَ حيثُ ملتقى أعلى لبيّه، ويسمى اللَّبَان والكَلَكَل ؛
 وكذلك آرتفاعه عن الأرض مع دِقَّة الزَّوَر، وهو ما استدق من صدره بين يديه،
 بحيث يقرب ما بين المِرْقَين لأنه أشد له وأقوى لجريه . ويستحب فيه عِرْضُ
 الكتف وغلظه وقصر النَّسَا : وهو عِرْق في الساق مستبطن الفخذ، وشنجه، وقصر
 وظيف اليد : وهو قَصَب يديه، وقصر الرُّسْغ، ودِقَّة إبرة العُرْقوب وتحديدته : لأنه
 أشد لقَصَب الساق وطُول وظيف الرجل ليخذف الأرض بها فيكون أشد لعدوه،
 وغلظُ عَظْم القوائم، وغلظُ الحَبَال : وهى عَصَب الذراعين، ولُطْف الرُّكْبَة، وقُرب
 ما بين الركبتين، وشِدَّة كَعْبِهِ : لأنَّ ضَعْف الكعب داعية الجُرد، وأنحاء الرجلين
 وتَوَثُّرهما، وبعُد ما بين الرجلين : وهو الفَحَج : لأنه أشد لتمكُّن رجله من الأرض .
 ويستحب صفاء الحافر، وصلابته، وسعته، وكونه أزرق أو أخضر غير مشوب ببياض :
 لأنَّ البياض دليل الضعف فيه، وأن يكون مع ذلك فيه تَعَبُّبٌ، ولُطْفٌ سُورَه :
 وهى شئ فى باطن حافره كالنوى : لأنه إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره، وأن
 تكون أطراف سَنابكه وهى مقادِم حوافره رقيقة . ويستحب فيه مع ذلك كَلَّة
 اتساع إهابه وهو جلده، ورقَّة أديمه، وصفاء لونه، ولين شعره، وكثرة عُرْفِه، وكثرة
 نومه، وسعة خطوه، وخِفَّة عِنايه، ولين ظهره، وحُسْن استقلاله فى أول سيره،
 وخِفَّة وَقْع قوائمه على الأرض إذا مشى، وشِدَّة وقعها إذا عَدَا، مع حِدَّة نفسه وسُرعة
 عدوه، واتساع طرقتيه، وقد يغتفر القَطَاف فى المشى فى دوابِّ الجُرَى . ثم إنه قد
 يحتمل فوات آلة الحسن والفرَّاهة فى المشى ولا يُغْتَفَر النقص فى آلة الجَوْدَة وشِدَّة
 العدو والصَّبْر : لأنَّ بهما يدرك ما يَطْلُب، وينجو مما يَهْرُب .

(١) فى اللسان الجرد ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يَمْنَع المشى والسعى .

وأما ما يُستقبح ويُذم من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب، بعضها خلقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية البدن : وهو بُعد ما بين اليدين، والصّم وهو أن لا يسمع : وعلامته أن يراه يصرّ أذنيه أبدا إلى خلف، وإذا جرّ خلفه خشبة ونحوها لا يشعر ولم ينفر عنها، والحذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحو العينين أو الخدين كالذان الكلاب السلوقيّة ، والطول وهو أن تطول إحدى أذنيه وتقصر الأخرى، وكونه أسكّ : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السّفا : وهو قلة شعر الناصية، والغمّ : وهو أن يكثر شعر الناصية ويطول حتى يغطّي العين : وهو عيب خفيف والسّفا^(١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القرح : وهو أن يكون البياض الذي في الوجه دون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجّل ونحوه فلا يكره حينئذ، فإن كان في وسط البياض في الوجه سواد كان عيبا يُتشاءم به .

ومنها العشا : وهو أن لا يُبصر ليلا فيصير بمثابة نصف فرس لأنه لا ينتفع به في الليل دون النهار، وكونه قائم العين : وهو الذي يكون على ناظره سواد يضرب للخصرة والكُدرة يقل معها بصره، والحول : وهو أن يكون بإحدى عينيه بياض خارج سواد الحدقة من فوق، ويكون خلاف العين الأخرى وهو مع ذلك مما يتبرّك به بعض الناس ويقول : إذا كان ذلك في العينين كان أعظم لبركته، والخيف : وهو أن تكون إحدى عينيه زرقاء : وهو مما يُتشاءم به لاسيما إذا كانت الزرقاة في العين اليسرى، فإن أزرقّت العينان جميعا كان أقلّ لشؤمه، وغُور العينين : وهو دخولهما في وجهه، والغرب : وهو بياض أشفار العينين، يكون عنه ضعف بصره في القمر والحز الشديد، والكُمنة : وهو أن يبصر قدامه، ولا يبصر عن يمينه ولا شماله .

(١) أى ان السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) في الخط إسقاط لا وفي المطبوع اثباتها وهو الظاهر .

ومنها القَنَّا : وهو أَحَدِيْدَاب في الأنف ، ويكون في الهُجْن ، والحنَس : وهو أن يُرى فوق مَنْخَرِهِ منخسفاً : لأنه يضيق نفسه إذا رَكَض .

ومنها القَطَس : وهو أن تكون أسنانه العُلْيَا داخلَة عن أسنانه السُفْلَى ، والطَّبْطَبَة وهو أن تسترنيَّ بِحَفَلَتِهِ السُفْلَى فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهدل ، وأن يكون في حنكه شامةٌ سوداء وسائرُفه أبيض .

ومنها قَصَر اللسان لأنه إذا قَصُر لسانه قلَّ ريقه فيُسرع إليه العطش ، والخرَس وعلامته أن تراه يصهل ولا يُجَحِّم ، وهو عيب لطيف .

ومنها القَصَر : وهو غلظ في العنق ، واللَّفَف : وهو استدارة فيه مع قصر ، والدَّنَن وهو طُمَأْنِينَة في أصل العنق ، والهنع : وهو طُمَأْنِينَة في وَسَط العنق ، والقَوْد : وهو يُبَس في العنق بحيث لا يقدر الفرس أن يدير عنقه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشى ، وهو عيب شديد ، والجَسَأ : وهو يُبَس المعطف .

ومنها الكَتَف : وهو انفراج يكون في أعلى كَتِفَي الفرس مما يلي الكاهل ؛ والقَعَس : وهو أن يطمئن الصُّلب من الظهر وترتفع القَطَاة ، والبَزَخ : وهو أن يطمئن الصُّلب والقَطَاة جميعا ، وهو عيب رديء يضرُّ بالعمل ؛ وكَوْن الكَفَل فيه تحديد ويكون العُجْز صغيرا ، والفرق : وهو نُقْصَان إحدى حَرْفَتَي الورَكَيْنِ ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسوح الكفل ولا عيب فيه .

ومنها الدَّنَن : وهو تَطَامُن الصدر ودُّنُوهُ من الأرض ، وهو من أسوأ العيوب ، والزَّوَر : وهو دخول إحدى فَهْدَتَي الصدر وخروج الأخرى .

ومنها الحَضَم : وهو استقامة الصُّلُوع ودخول أعاليها ؛ والإخْطاف : وهو لحوق ما خلف الحَزَم من بطنه ، والتَّجَل : وهو خروج الخاصرة ورقة الصَّفَاق .

ومنها العَصَل : وهو التواء عَصَب الذَّنْب حتى يبرز بعض باطنه الذي لا شعر عليه ، والكَشَف : وهو أكثر من ذلك ، والصَّبَغ : وهو بياض الذَّنْب ، والشَّعْل : وهو أن يبيض عَرْض الذنب وهو وسطه .

ومنها الفَحَج وهو إفراط بُعد ما بين الكعبيين ، والحَلَل : وهو رَخَاوة الكعبيين ، ويلتحق به تقويس اليدين ، وهو عيب فاحش ، والطَّرَق : وهو أن ترى ركبتيه مفسوختين كالمقوستين إلى داخل ، وهو عيب فاحش ، والقَسَط وهو أن ترى رجلاه متصبتين غير مُحَبَّبتين ، والبَدَد : وهو بُعد ما بين اليدين ، والفَحَج وهو إفراط بُعد ما بين العرقوين ، والقَفَد : وهو أنتصاب الرُّسْغ وإقباله على الحافر ولا يكون إلا في الرُّجُل ، والصدَف : وهو تداني الفخذين وتباعد الحافرين في التواء من الرُّسْغين بحيث ترى رُسْغَيْ يديه مفتوحين ، والتَّوْجِيه : وهو نحوه منه إلا أنه أقل من ذلك ، والقَدَع وهو التواء الرُّسْغ من عَرْضه البوحشي من الجانبين من رأس الشَّطِي ، ووطؤه على وحشي حافريه جميعا وهو الجانب الخارج ، والارتماش : وهو أن يصك بمرض حافره عَرْض مُجَابِئِهِ من اليد الأخرى وذلك لضعف يده ، والحنَف : وهو أن يكون حافرا يديه مكبوين إلى داخل ، والنَقْد : وهو أن يرى الحافر كالمتمشعر ، والشرح : وهو أن يكون ذو الحافر له بيضة واحدة ، والأرْح : وهو أن يمس الأرض بباطن حافره . ومنها البَدَد في اليدين : وهو أن يكون إذا مشى يدير حافره إلى خارج عند الثقل وليس فيه ضرر في العمل ، والتلثف وهو أن يخط بيديه مستوى لا يرفعهما إلى بطنه وهو خلاف البَدَد .

ومنها التَّلْوِيح : وهو أن يكون الفرس إذا ضربته حرك ذنبه ، وهو عيب فاحش في الجُورَة لأنه ربما بالت الحجر ورشت به صاحبا .

الضرب الثاني

(العيوب الحادثة وهي عِدَّة عيوب)

منها الحَدَب ؛ ويكون في الظهر بمثابة حَدَبَةِ الإنسان ، وهو عيب فاحش ، والغَدَّة وتكون في الظهر أيضا بإزاء السرة .

ومنها العنق : وهو انتفاخ وورم بقدر الرمانة أو أقل مما يلي الخاصرة ؛ وهو عيب فاحش لاعلاج فيه .

ومنها الحَمَر - وهو عيب يحدث عن ثَجَمَةِ الشعر ، وربما كان من شرب الماء على التعب فيحدث عنه ثَقُل الصدر .

ومنها الانتشار : وهو انتفاخ العَصَب بواسطة التَّعَب ؛ ويكون من فوق الرُّسْغ إلى آخر الركبة ، وهو عيب فاحش .

ومنها تحرك الشَّظَاة : وهو عظم لاصق بالذراع ؛ وهو على الفرس أشق من الانتشار .

ومنها الرُّوح : وهو داء يكون منه غَلَطٌ في القوائم كمثل داء الفيل في البشر .

ومنها المَشَش : وهو داء يكون في بدء أمره ماءً أصفر ، ثم يصير دماً ، ثم يصير عظماً . ويكون على الوظيف وفي مَفْصِل الركبة ؛ وهو على العَصَب والركبة شر منه على الوظيف .

ومنها القَمَع ، ويكون في الرجلين في طرف العُرْقوبين ؛ وهو غَلَطٌ يعتريهما . والمَلَح ، ويكون في الرجلين تحت القَمَع من خَلْف : وهو انتفاخٌ مستطيلٌ لا يضر بالعمل ؛ والجَرْد : وهو كالعظم الناقى يكون في الرجلين تحت العُرْقوبين على المَفْصِل من داخل ومن خارج ؛ وهو عيب فاحش تُول منه الدابة إلى العَطَب ؛ والنَّفَخ :

وهو آتفتاخ يكون في مواضع الجَرَد . وهو من دواعي الجَرَد؛ والعُقَال : وهو أن تَقْلِصَ رجله ، وذلك يكون في عَصَب الرجل الواحدة دون الأخرى ، وربما كان في الرجلين جميعاً ، وهو عيب فاحش يضرُّ بالعمل ، وهو في البرد أشدَّ منه في الحر . ومنها الشَّقَاق : وهو داء يصيبه في أرساغه ، وربما أرتفع إلى وظيفه ، والسرطان : وهو داء يأخذ في الرُّسْغ فيبيس عروقه حتى يتقلب حافره .

ومنها العَرَبُ : وهو جُسوءٌ في رُسْغ رجله . والدَّخَس : وهو ورم يكون في حافره . والقَفَد : وهو تشنج عصب رُسْغه حتى يتقلب حافره إلى داخل فيمشي على ظاهر الحافر .

ومنها النَّمْلَة : وهي شق في الحافر من ظاهره : والرَّهْسة : وهي ما يكون في الحافر من صَدْمَة ونحوها ، والعامة تقولها بالصاد . والقَشْر وهو أن تتقشر حوافره ، وهو عيب فاحش ، والنَّسُور : وهو الذي تسميه العامة الوُقُرة : وهو داء يحدث في نُسُور الدابة فإذا قُطِع سال الدم منه .

ومنها الأدْرَة : وهي عِظَم الخُصْيَتَيْن ، وربما عَظُمَت خُصْيَتاه في الصيف^(١) وأحمرت في الشتاء . والمُدْلَى : وهو الذي يدلّ ذكره ثم لا يردّه ، وهو عيب قبيح بحيث يقبح ركوب الفرس الذي به هذا العيب .

ومنها البرَص : وهو بياض يعتري الفرس في مَرَقَّاته : كالجُفْلَة وجُفُون العينين وبين الفَخِذَيْن والخُصْيَتَيْن .

ومنها الخُلْد : وهو داء شديد ينقب موضعه من بدن الدابة يسيل منه ماء أصفر ، فإذا كُربى بالنار برأ وانفتح موضع آخر ، فلا يزال كذلك حتى تعطب الدابة ، وهو

عيب فاحش ؛ في عيوب أخرى يطول ذكرها . وفي كتب البيطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله علاج منه وبيان مالا علاج له .

وأما الدوائر التي تكون في الخيل فقد عدها العرب ثمانى عشرة دائرة ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأولى دائرة الحياء وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللطاة : وهى دائرة تكون في وسط الجهة . الثالثة دائرة النطيح : وهى دائرة ثانية في الجهة بأن يكون في الجهة دائرتان . الرابعة دائرة اللهزيمة : وهى دائرة تكون في لهزيمة الفرس . الخامسة دائرة المقود^(١) : وهى التى تكون في موضع القلادة . السادسة دائرة السمامة : وهى دائرة تكون في وسط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البقيتين : وهما دائرتان في نحر الفرس فيما قاله الأصمعي . وقال أبو عبيد البنيقة الشعر المختلف في منتهى الخاصرة والشاكلة . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة في باطن الحلق إلى أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللبد . الحادية عشرة دائرة الهقعة : وهى دائرة تكون في عرض الزور . الثانية عشرة دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون في الزور بأن تكون فيه دائرتان في الشقين في كل شق منهما دائرة وتسمى النافذة دائرة الحزام أيضا . الثالثة عشرة والرابعة عشرة دائرتا الحرب : وهما اللتان يكونان تحت الصقرين وهما رأسا المجبتين اللتين هما العظمان النائتان المشرفان على الخاصرتين كأنهما صقران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصقرين : وهما دائرتان بين المجبتين والقصريين . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناحس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاعرتين . قال ابن قتيبة وهم يكرهون منها أربع دوائر - وهى دائرة الهقعة مع ذكره أن أبى الخيل المهقوع . ودائرة القالع . ودائرة الناحس . ودائرة النطيح . قال وما سوى ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

(١) في المخصص . الموم .

وذكر صاحب زهر الآداب في اللغة أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المقود^(١)، ودائرة السَّامة، ودائرة الحقعة احتجاجاً بأن أبق الخيل المَهْقُوع؛ ويكرهون دائرة النّطّيح، ودائرة اللّهزمة، ودائرة القالع .

ورأيت في بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر دائرة المقود ودائرة السَّامة، ودائرة الحقعة وما عدا ذلك فهو مكروه، وكره حكاء الهند دوائر أخرى ذكروها وهي أن يكون في مقدّم يده دائرة، أو في أصل ذنبه من الجانبين دائرتان أو على ناصيته دائرة، أو على مخجّره دائرة، أو في بحفّله السفلى دائرة، أو على سُرته دائرة، أو على منسجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل فأقول ما تَصَع الحجرة جنيهاً قيل مهر، والأنثى مهرة . فإذا فُصل عن أمه قيل فُلُو . فإذا استكمل حولاً قيل حَوَى والأنثى حَوِيَّة . فإذا دخل في الثانية قيل جَدَع والأنثى جَدَعَة . فإذا دخل في الثالثة قيل ثَنَى والأنثى ثَنِيَّة . فإذا دخل في الرابعة قيل رَبَاع والأنثى رَبَاعِيَّة . فإذا دخل في الخامسة قيل قَارِح للذكر والأنثى . وفي الغالب يلقى أسنانه في السنة الثالثة، وربما تأخر إلّاؤها إلى السنة الرابعة : وذلك إذا كان أبواه شابين، وقد يلقى أسنانه في حول واحد : وذلك إذا كان أبواه هَرَمِينَ، ثم لكل مُهر اثنتا عشرة سنّاً : ست من فوق وست من أسفل، ويلهما من كل جانب ناب، ويلهما الأضراس . وتنبت ثناياه بعد وضعه بخمسة أيام . وتنبت رباعيّاته بعد ذلك إلى مدّة شهرين . وتنبت قوارحه بعد ذلك إلى ثمانية أشهر . ويختص التبديل منها بالأسنان الاثنتي عشرة دون الأنياب والأضراس . وربما ألقى المهر بعض أسنانه، ثم لا تنبت . وإذا قَرِح المهر أصفرت أسنانه، وأسودت رؤوسها وطالت فيبقى كذلك خمس سنين، فإذا جاوزت ذلك

أبيضت وحَفِي رُؤوسها ، ثم تنقل فتصير كلون العسل خمس سنين ، ثم تبيض فتصير كلون الغبار ويزداد طولها . وربما دَلَس النّخّاسون فنشروا أسنانها وسوّوها .
ومما وجد في الكتب القديمة أنّ الفرس تتحرّك ثنایاه في سبع وعشرين سنة ، وتتحرك الرّباعیات في ثمان وعشرين سنة ، وتتحرك القوارح في تسع وعشرين سنة ، ثم تسقط الثنایا في ثلاثين سنة ، والرّباعیات في إحدى وثلاثين سنة ، والقوارح في اثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما الفرس في الخيل فاعلم أنّ المهر وإن ظهرت فيه علامات النّجابة أو العكس لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيقبّح منه ما كان حسناً ، ويحسن منه ما كان قبيحاً ، وإنما يتفرّس فيه إذا ركب له العلف ، وذهب عنه الحُم الرّضاع . وأفضل الفِراسة في المهر أخذه في الجری ، فإنه صنعته التي خلق عليها وإليها يؤول ، فإذا أحسن الأخذ في الجری فهو جَوَاد ، ولكنه ربما تغير أخذه للجری إذا ركب لضعف فيه حينئذ ، وقصور عن بلوغ مدى قوّته ؛ وقد لا يجرى جدّاً ويجرى ثنيّاً ، وقد لا يجرى ثنيّاً ويجرى رباعياً ، وقد لا يجرى رباعياً ويجرى قارحاً حين تجتمع له قوّته . ويعرف ضعف الضعيف منها بتأويه تحت فارسه وعجزه عنه وفترته إذا نزل عنه .

ومما يدل على جَوْدَةِ الفرس وحُسن جريه أنه يراه إذا أخذ في الجری سمّاً بهاديه ، وأثبت رأسه ، ولم يستعن بهما في حُضره واجتمعت قوائمه ، وسبّح بيديه وصرّح برجليه ، ولها في حُضره ، وامتدّ ، وبسط ضبعيه حتّى لا يحد مزيدا ، وتكون يدها في قرن ، ورجلاه في قرن ، فإذا كان الفرس كذلك فهو الجَوَاد السابق . وقد قيل : إن خير الخيل الذي إذا مشى تكفّأ ، وإذا عدا بسط يديه ، وإذا أدبر جفأ ، وإذا أقبل أفعى .

الصف الثاني

(البغال)

وفيها نوعية من الخيل والحُمير: من حيث إنها تتولد بين حصان وأتان، أو بين حمار وحِجرة^(١). وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء: من العلماء، والوزراء، والحكام وسائر رؤساء المتعممين. وإنه صلى الله عليه وسلم، في يوم أحد كان راجعا بغلة، ولولا شرفها ونفاستها وقيامها مقام الخيل لما ركبها النبي صلى الله عليه وسلم في موطن الحرب؛ وألوانها وأسنانها على ما تقدم في الخيل، ويستحسن فيها غالب ما يستحسن في الخيل؛ وقد قيل إن خيار ما يقتنى من البغال ما أشئتت قوائمه، وعظمت قصرته، وعثقه وهامته، وصفت عيناه، ورحب جوفه، وعرض كفله، وسلم من جميع العيوب والعلل،

ومما يستحسن في البغال دون الخيل السفا: وهو خفة شعر الناصية. وأن يكون يديها ورجليها خطوط مختلفة: جل ما تكون للسّور: ويقال إن خير ما يختار للسرّج والركوب البغال المصرية: لأن أمهاتها عتاق ومجن، وخيار ما يحتاج إليه للسرايا والمواكب والرّكض مع الخيل بغال الجزيرة وإفريقية.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن في البغلات منها شدة محبة للدواب إذا ربطت معها وفسادا للدواب إذا اعتادتها حتى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة. ويحسن في البغال الخصى، وفي البغلات التّحويص، ولا يعاب ركوب شيء منها حينئذ إذا كان نفيسا.

(١) قد تكرر في هذا المقام تأنيث الحجر بالهاء وفي القاموس مانعه والحجر الأنثى من الخيل وبالهاء.

لحن قال شارحه وهو غامى مسترذل ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فتنبه.

الصف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الغرض منها على معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ؛ وما يُستقبح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلى نوعين . الأول البَحَاتِي : وهي جمال جُفَاة القُدُود ، طويلة الوَبر ، تجلب من بلاد الترك . الثاني العَرَاب وهي الإبل العربية وأصنافها لا يأخذها الحُصر . وأما ألوانها فترجع إلى ثلاثة أصول .

الأول البياض ، فالجمل إذا كان خالص البياض قيل آدم والأثني أدماء على الضد من بني آدم ، فإن خالط البياض يسير شُقْرة قيل أعيس والأثني عيساء .

الثاني الحمرة فإن أحمر وغلبت عليه الشُقْرة قيل أصهب والأثني صهباء ، فإن خلصت حمرة قيل أحمر والأثني حراء ؛ فإن خالط حمرة قُنُو قيل كُيت ، فإن صفت حمرة قيل أحمر مدني ، فإن خالط الحمرة خُضرة قيل أحوي ، فإن خالطها صُفرة قيل أحمر رادني بكسر الدال . فإن خالطها سواد قيل أرْمَك والأثني رَمَكاء . فإن كانت حمرة كَصَدِّ الحديد قيل أجاجي .

الثالث السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أكُف ، فإن خالط السواد صُفرة قيل أحوي ، فإن علق بسواده بياض قيل أورق . فإن زادت ورقة حتى أظلم بياضه قيل أدهم ، فإن أشتد سواده قيل جَوْن ، فإن كان بين الغبرة والحمرة قيل خَوَّار والأثني خَوَّارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يُعرف أذكر أم أنثى سَلِيل . فإن بان أنه ذكر قيل سَقْب ، وإن بان أنه أنثى قيل حائل . ثم هو حوَّار حتى

يُفْطَم ، فإذا فُطِمَ وفُصِّلَ عن أمه قيل فصيل . وذلك في آخر السنة الأولى من وضعه ، فإذا دخل في الثانية قيل ابن مَخَاض : لأن أمَّهُ فيها تكون من المخاض (وهي الحوامل) والأُنثى بنت مخاض ، فإذا دخل في الثالثة قيل ابن لَبُون : لأن أمَّهُ فيها تكون ذات لبن والأُنثى بنت لبون ، وإذا دخل في الرابعة قيل حَقٌّ : لأنه يستحق أن يحمل عليه والأُنثى حَقَّة ، فإذا دخل في الخامسة قيل جَذَع والأُنثى جَذَعَة ، فإذا دخل في السادسة قيل ثَنَى لأنه يُلْقَى فيها ثَنِيَّتَهُ والأُنثى ثَنِيَّة . فإذا دخل في السابعة قيل رَبَاع (بفتح الراء) لأن فيها يلقي رَبَاعِيَّتَهُ والأُنثى رَبَاعِيَّة بالتخفيف ، فإذا دخل في الثامنة قيل سَدِيس وسَدَس الذكور والأُنثى فيه سواء ، وربما قيل في الأُنثى سَدِيدِيَّة . فإذا دخل في التاسعة قيل بَازِلٌ لأنه فيها يَبْزُلُ نابُهُ ، والذكر والأُنثى فيه سواء ؛ وقد يقال فيه فاطر ، فإذا دخل في العاشرة قيل مُحْلِف ؛ وليس وراء ذلك للإبل ضَبْطٌ بل يقال مُحْلِف عامٍ ومُحْلِف عامين فأكثر ، فإذا علا السن بعد ذلك قيل فيه عَوْد والأُنثى عَوْدَة ، فإن علا عن ذلك قيل حَقْر ، فإن تكسرت أنيابه لطول هَرَمِهِ قيل ثَلْب والأُنثى ثَلْبَة ، ويقال في الناقة إذا كان فيها بعضُ الشباب عَزُوم ، وربما قيل شَارِف .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت في بعض المصنِّفات أن كلَّ ما يستحب في الفَرَس يستحب في البعير خلا عِرَاض غَارِبِهِ ، وقتل مِرْقَفِهِ ، ونكس جاعِرَتِهِ وهي أعلى الورِك ، وأنْدَلَق بطنه ، وتفَرَّشَ رجله ، فإن ذلك يستحب في الإبل دون الخيل .

وقد صرح الشعراء في أشعارهم بعدّة أوصاف مستحسنة في الناقة ، منها دقة الأُذُن ، وتحديد أطرافها ، وكِبَرُ الرأس ، وأَسْطَالَة الوجه ، وعِظَمُ الوجنتين ، وقُنُو الأنف ، وطول العُنُق وغلظه ، ودقة المَذْبَج ، وطول الظهر ، وعظم السَّام . وهي الكَوَماء ، وطول ذنبها ، وكثرة شعره ، غليظة الأطراف ، قليلة لحم القوائم ، ليست

رَهْلَةً ، ولا مسترخيةً ؛ وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْسَاءَ الجلد ، تَامَةً الخلق ، قَوِيَّةً ، صُلْبَةً ، خَفِيفَةً ، سَرِيعَةً السير .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هِجَانٌ من نِتَاجِ مَهْرَةٍ : وهى قبيلة من قُضَاعَةَ باليمن ، والعيديَّةُ منسوبة إلى بنى العِيد من قبيلة مَهْرَةٍ المذكورة ، والأُرْحِيَّةُ منسوبة إلى بنى أَرْحَب ، والغُرَيْرِيَّةُ منسوبة إلى غُرَيْرٍ ، وهو فحل كريم مشهور فى العرب . والشَّدَقِيَّةُ منسوبة إلى شَذَقَم : فحل كريم أيضا ، والجَدِيلِيَّةُ منسوبة إلى جَدِيل : فحل كريم ، والدَّاعِرِيَّةُ منسوبة إلى دَاعِر : فحل كريم كذلك . قال فى كفاية المتحفظ ، والشَّدَنِيَّةُ منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النَّفِيسُ الغالى الثمين وخيرها حُمُرُ الديار المصرية ، وأحسنها ما أُتِيَ به من صعيدها . وهى تنتهى فى الأَثْمَانِ إلى ما يقارب أثمانِ أوساطِ الخيل ، وربما يميَّزُ العالى القدر منها على المنحط القدر من الخيل ، والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تَامَ الخلق ، حديد النفس . ولا عيب فى ركوب الحمار ولا هَيْصَةٌ فَقْدُ ثَبَت ^(١) فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم ، ”رَكَبَ الحمار“ ولا عبرة برَفْعٍ من رَفَعٍ عن ركوبه بعد أن ركبهُ النبى صلى الله عليه وسلم .

(١) مراده ولا قص ولكن لم يقف فى مادة ر ه ص ولا و ه ص على هذا المعنى .

النوع الثالث

(ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده؛ وهو أصناف)

الصنف الأول

(جليل الوحش)

وهو ما يتخذ المملوك للزينة وما في معناها؛ ويحتاج الكاتب إليه لوصفه في الهدايا والمواكب، وما يجري مجراها.

والمعول عليه من ذلك خمسة أضرب.

الأول الأسد - ويجمع على أسد وأسود وآساد، ويقال له أيضا اللبث والضئيم، والضغام، والهزبر، والهيصم، والهرماس، والفرافصة، وحيدرة، والقسورة. وله أسماء كثيرة سوى هذه، لا تكاد تدخل تحت الحصر، حتى قال ابن خالويه للأسد خمسمائة اسم. ويقال لولده السبل ولأنثاه اللبوة. قال ابن السندي في كتابه "المصايد والمطارد": وإذا تأملت أصناف الحيوان وبحت صورها وما أعطيت من الأسلحة ومقادير الخلق، وجدت الأسد أعظم خلقه، وأكثر أبدية، وأشد إقداما من جميعها، ليست له غريزة في الهرب البتة.

ومن خصائصه وعجيب خلقه أن عظم عنقه عظم واحد ليست له خرز عظام كما في غيره من الحيوان بدليل أنه لا يلوى عنقه، ولا يلتفت، ومع ذلك فهو يتلع الشيء العظيم، ولبوته لا تلد إلا جروا واحدا، وإنها تضعه كاللحمة ليس فيه حس ولا حركة فتحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه المرة بعد المرة حتى يتحرك، ثم تأتي أمه فتضعه، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر، وهو قليل الشرب للماء وإن كان لا يفارق الغياض، وله صبر على

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقه، وليس يُلْقَى رَجِيعُهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْيَوْمِ، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلى خَلْفٍ كما تبول الحِمَال، وهو أَشَدُّ السَّبَاعِ ضَرَاوَةً عَلَى أَكْلِ بَنِي آدَمَ، وإذا أَقْتَرَسَ فَرِيْسَةً وَأَكَلَ مِنْهَا، لَا يَعُودُ إِلَيْهَا، وَلَا يَطْأُ أَثَرَهُ شَيْءٌ مِنَ السَّبَاعِ . قَالَ ابْنُ السَّنْدِيِّ فِي " الْمَصَايِدِ وَالْمَطَارِدِ " وَلَا يَأْكُلُ مِنْ فَرِيْسَةٍ غَيْرِهِ مِنَ السَّبَاعِ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ يَهْرُبُ مِنَ الْهَرَبِ، وَمِنَ الْحُرُو، وَمِنَ الدَّيْكِ الْأَبْيَضِ، وَإِنَّهُ إِذَا رَأَى النَّارَ عَرَضَتْ لَهُ فِكْرَةٌ أَوْ رَشَتْهُ بَهْتَةً، وَأَنَّهُ يَهْرُبُ مِنْ عَوَاءِ الْحُرُو إِذَا عُرِكَتْ أُذُنُهُ، وَيَقَالُ إِنْ جَلَدَهُ إِذَا جَعَلَ فِيهَا يَخَافُ عَلَيْهِ السُّوسُ مِنَ الثِّيَابِ وَغَيْرِهَا أَمِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّهُ إِذَا عَمَلَ مِنْهُ وَتَرَقَّوسَ وَأُضِيفَ إِلَى أَوْتَارٍ مِنْ قِرَاءٍ وَمِمْيٍ أَوْ غَيْرِهَا أَبْطَلَ أَصْوَاتَهَا وَعَلَا صَوْتَهُ عَلَيْهَا، وَمِنْ طَبْعِهِ أَنَّهُ لَا يَشْرَبُ مَاءً وَلَقَّ فِيهِ كَلْبٌ وَإِنْ مَاتَ عَطَشًا .

الثاني الثَّمُورُ - جَمْعُ نَمِرٍ (بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِ الْمِيمِ) وَيَجْمَعُ أَيْضًا عَلَى أَنْمَارٍ وَنِمَارٍ، وَالْأَثْنَى نَمْرَةً؛ وَهُوَ حَيَوَانٌ مُرَقَّعٌ اللَّوْنُ بَسَوَادَ وَبَيَاضَ، أَقْرَبُ شَيْءٍ مِنْ خِلْقَةِ الْفَهْدِ، وَهُوَ أَخْبَثُ مِنَ الْأَسَدِ، لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ . قَالَ : ابْنُ السَّنْدِيِّ : وَهُوَ وَدُودٌ لِّجَمِيعِ الْحَيَوَانِ، عَدُوٌّ لِلنَّسْرِ، وَيَنَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَالْحَيَوَانُ يُطِيفُ بِهِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِ، أَسْتَحْسَنَانَا لِحُلْدَتِهِ .

وهو جنسان أحدهما عظيم الجثَّة، صغير الذنب، والثاني صغير الجثَّة عظيم الذنب . قَالَ فِي " الْمَصَايِدِ وَالْمَطَارِدِ " وَيَصَادُ بِالْحُمْرِ لِأَنَّهُ يَجْهَأُ . قَالَ : وَمَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ تَمَسَّحَ بِشَحْمِ ضَبُعٍ وَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ .

الثالث الْكَرْكَدَنْ - (بِفَتْحِ الْكَافَيْنِ وَسُكُونِ الرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَفَتْحِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَنُونٍ مُشَدَّدَةٍ فِي الْآخِرِ) قَالَ الزَّخْمَشَرِيُّ فِي " رُبْعِ الْأَبْرَارِ " : وَهُوَ وَحْشٌ يَكُونُ بِبِلَادِ الْهِنْدِ يُسَمَّى الْحِمَارُ الْهِنْدِيُّ، لَهُ قَرْنٌ وَاحِدٌ فِي جِهَتِهِ يَبْلُغُ غِلْظُهُ شَبْرَيْنِ؛ وَهُوَ

(١) ضبطه في القاموس بشدة الدال أي وتخفيف النون وقال العامة تشدد النون

محدد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة : وأنه ربما نطح الفيل فبعجه بقرته ، وأن أنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئاً من الحيوان حتى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبته له وهرباً منه .

الرابع الفيل - وهو حيوان يؤتى به من بلاد الهند والحبشة . قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكن الماء ، وهو من ذوات الخراطيم ، وخرطومُه أنه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفاً ، وهو يده ، وبه يتناول الطعام والشراب ، ومنه يُعنى ويحترق فيه الصوت كما يحترق الزامر في القصبة بالنفخ . قال : وأصحابنا يزعمون أن بينه وبين السنور عداوة وأن الفيل يهرب منه هرباً شديداً . وذكر صاحب "الحيل في الحروب" ^(١) أنه يقصر عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينفر في الحروب . وقد ذكر الجوزى أن للفيل إقداماً على السبع . قال الجاحظ : وهو يعادى البعوض لأنه يثقب جلده بقرصه ، ومن ثم يرى الفيل دائماً يحرك آذانه ليطرد عنه الناموس ، وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى حتى لو أن إنساناً كان جالساً وجاء الفيل من خلفه لما شعر به . وذكر عبد القاهر البغدادى ^(٢) أن الفيلة تحمل سبع سنين ، وقيل سنتين ، وقيل ثلاث قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرفه داخل حلقه وأصله من خارج على العكس من سائر الحيوان ، وأن ثديها على كبدها وترضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الغزالى أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضراب آرتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزرافة - (بفتح الزاى وضمتها) وهى حيوان يؤتى به من بلاد الحبشة واليمن ، طويل اليدين ، قصير الرجلين ، ذنبه وحوافره كذنب البقر وحوافرها ،

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) فى حياة الحيوان عبد اللطيف وسيأتى بعد صحائف على الصواب مراراً .

(٣) كذا فى الأصل وعبارة الحياة ولا ينزوع عليها اذا وضعت الا بعد ثلاث سنين .

ورقبته ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه موشى بالبياض والصفرة . قال الجاحظ :
وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من نُوق الحبشة وبين بقر الوحش وبين
الذئب - وهو ذكر الضباع . وذلك أن الذئب يعرض للناقة فيسبدها فتلقح بولد ينجى
خلقه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عرّض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى
الولد زرافةً ، وإن كان ذكرًا تعرّض للمهاة فالتحها فيأتى الولد زرافة أيضا . قال :
ومنهم من يزعم أن الزرافة الأنثى لا تلّتح من الزرافة الذكر . ثم قال وهذا مشهور
باليمن والحبشة . ثم إن كانت أسنانها سودا دلت على هرمها ، وإن كانت بيضا
دلت على حداثة سنّها .

ومن أمراضها الكلب (وهو كالجنون يعتريها كما يعتري الكلب فيقتها) وكلّ
من عضته وهى على هذه الحالة قتلته إلا ابن آدم فإنه ربما عولج فسلم . ومن
أمراضها أيضا الذئبة والتقرس .

الصنف الثانى

(معلّيات الصيد)

وقد يعبر عنها بالضوّارى . وهى كل ما يقبل التعليم من الوحوش كائنا ما كان
حتى حكى عن السودان القناص أنه بلغ من حذقه أنه ضرى ذبّا حتى أصطاد به
الطباء وما دونها ، وألقه حتى رجع إليه من ثلاثين فرسخا ، وضرى أسدا حتى أصطاد
به حمر الوحش . ويقال إن ابن عرس يُجعل حبل فى عنقه ويدخل على الثعلب
فلا يخرج إلا به . وهى على ضربين .

الأول الفهودة .. جمع فهْد بكسر الهاء . وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من
أسد ومرة أو من نمر ولبوة ، وهو من السباع التى تصاد ثم تؤنّس حتى تصيد ،

(١) فى المصباح الجمع فهود كفلس وفلوس وكذا بقية معاجم اللغة فلعل ما فى الاصل من التعريف
والتصنيف وهو الأقرب .

وهو من الحيوان المحتد الأسنان ، وأسنانه يدخل بعضها في بعض كالكلب وغيره قال : في "التعريف" وأول من صاد به كسرى أنوشروان أحد ملوك الطبقة الأخيرة من الفرس قال : في "المصايد والمطارد" ويصطادونه بضروب من الصيد . منها الصوت الحسن فإنه يصنع إليه إصغاء شديدا .

ومنها كده وإتاعه حتى يحمى ويعيا وينهر ويخفى ، فإذا أخذ غطيت عيناه وأدخل في وعاء ، وجعل في بيت مادام وحشيا ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدعه يرى الدنيا ، ويجعل له مربكا كظهر الدابة يعودده ركوبه ويطعمه على يده فلا يزال كذلك حتى يتأنس ، فإذا ركب مؤخر الدابة فقد صار داجنا وصاد . وفي طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتى يضرب بنومه المثل فيقال "أَنُومَ مِنْ فَهْدٍ" . وكثرة الحياء حتى إنه لا يعلم أنه عاطل أثى بين يدي الإنس ، وقد عني بمراعاته في ذلك فلم يوقف عليه . وإن كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ابن السندی عن بعض الفهّادة أن سائسه إذا أمرّ يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده على فرجه نفر وعضّ يده . ومنها الغضب حتى إنه إذا أرسل على صيد فلم يحصله احتد ، وإن لم يأخذ سائسه في تسليته قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب "المصايد والمطارد" والمسّن من الفهود إذا صيد كان أسرع في الصيد من الحرو الذي يُربى ويؤدّب ، والأثى أصيد من الذكر كعامة إناث الجوارح . قال : وليس شيء من الوحش في قدر جرم الفهد إلا والفهد أفضل منه . قال : في "المصايد والمطارد" وضدّ الفهد الطباء والوعول على اختلاف أجناسها .

الثاني الكلاب - جمع كلب ويجمع على أكلب أيضا وعلى كليب كعبد وعبيد والأثى كلبه ، وتجمع على كلبات بالفتح ، وهو حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء

مَشْتَرَكِ الطَّبَاعِ بَيْنَ السَّبْعِ وَالْبَهِيمَةِ: لِأَنَّهُ لَوْ تَمَّ لَهُ طِبَاعُ السَّبْعِيَّةِ لَمَا أَلْفَ النَّاسَ وَلَوْ تَمَّ لَهُ طِبَاعُ الْبَهِيمَةِ لَمَا أَكَلَ اللَّحْمَ . وَيُقَالُ إِنَّهُ يَحْتَمِلُ وَأُنْثَاهُ تَحِيضٌ ، وَتَحْمِلُ أُنْثَاهُ سَتِينَ يَوْمًا ، وَرَبْمَا حَمَلَتْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَسْفِدُ بَعْدَ سَنَةٍ ، وَرَبْمَا تَقْدَمُ عَلَى ذَلِكَ . وَلَهَا عِنْدَ السَّفَادِ اشْتَبَاكٌ عَظِيمٌ ، وَإِذَا سَفَدَ الْأَثَى كَلْبَانِ مُخْتَلِفَانِ أَتَتْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ بِلَوْنِهِ . وَفِيهِ مِنْ اقْتِضَاءِ الْآثَارِ وَشَمِّ الرَّائِحَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَالْمَيْتَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ الْغَرِيضِ .

وَمَنْ طَبَعَهُ أَنَّهُ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ شَاهِدًا أَوْ غَائِبًا ، ذَا كَرَا أَوْ غَافِلًا ، وَنَائِمًا أَوْ يَقْظَانَ ، وَهُوَ يَقْظُ حَيَوَانٌ فِي اللَّيْلِ ، وَإِذَا نَامَ كَسَرَ أَجْفَانِ عَيْنَيْهِ وَلَا يُطَبِّقُهَا لِحَقَّةِ نَوْدِهِ . وَمِنْ عَجِيبِ شَأْنِهِ أَنَّهُ يَكْرُمُ الرَّئِيسَ مِنَ النَّاسِ فَلَا يَنْبَحُهُ وَإِنَّمَا يَنْبَحُ أَوْ بَاشَ النَّاسَ . وَمَنْ طَبَعَهُ أَنْ الضَّبْعَ إِذَا مَشَتْ عَلَى ظِلِّهِ فِي الْقَمَرِ رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْهَا فَتَأْكَلُهُ ، وَإِذَا ظَفَرَ بِكَلْبٍ غَرِيبٍ كَادَ يَفْتَرِسُهُ .

وَقَدْ أَجَازَ الشَّارِعَ اتِّخَاذَهَا لِلصَّيْدِ وَنَحْوِهِ ، وَأَبَاحَ صَيْدَهَا مَعَ نَجَاسَةِ عَيْنِهَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا لِلصَّيْدِ دَارًا أَحَدُ مُلُوكِ الْفُرْسِ قَالَ فِي "المَصَائِدِ" وَالْمَطَارِدِ : وَإِذَا كَسَرَ الْكَلْبُ الْأَرَانِبَ فَهُوَ نَهَايَةُ وَإِنْ كَانَ يُطَبِّقُ فَوْقَ ذَلِكَ . وَالْكَلْبُ يَمْسِكُ لِصَاحِبِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مِنَ الصَّيْدِ بِخِلَافِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ . قَالَ : وَإِنَاثُهَا أَسْرَعُ تَعَلُّمًا مِنَ الذَّكَورِ ، وَأَطْوَلُ أَعْمَارًا حَتَّى إِنَّهَا تَعِيشُ عَشْرِينَ سَنَةً .

وَمِنْ خَاصِيَةِ الْكَلْبِ أَنَّهُ إِذَا عَايَنَ الطَّبَّاءَ قَرِيبَةً كَانَتْ أَوْ بَعِيدَةً ، عَرَفَ مِنْهَا الْعَلِيلَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَالْعِزَّ مِنَ التَّيْسِ فَيَتَّبِعُ التَّيْسَ مِنْهَا دُونَ الْعِزِّ وَإِنْ كَانَ التَّيْسُ أَشَدَّ عَدُوًّا وَأَبْعَدَ وَثْبَةً: لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ التَّيْسَ إِذَا عَدَا شَوَّطًا أَوْ شَوَّطِينَ غَلَبَ عَلَيْهِ الْبَوْلُ وَلَا يَسْتَطِيعُ إِرْسَالَهُ فِي عَدُوِّهِ فَيَقْلُ عِنْدَ ذَلِكَ عَدُوَّهُ وَيَقْصُرُ مَدَى خُطَاهُ فَيَدْرِكُهُ الْكَلْبُ ، بِخِلَافِ الْعِزِّ فَإِنَّهَا إِذَا اعْتَرَاهَا الْبَوْلُ أَرْسَلَتْهُ لَسَعَةً مَسِيلَهُ ، وَالْكَلْبُ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ طَبْعًا ،

وكذلك يعرف حجرة الأرناب والثعالب وإن ركبها الثلج والجليد بشمه فيقف عليه ويشير مافيها من الوحش ؛ وإذا صعد منه أرنب إلى أعلى جبل شاهق ، كان له من النلطف في الارتقاء والصعود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميت من المتأوت .

ومن خصائص الأئني أنها تحمل ستين يوما ويبقى حرّوها بعد الولادة اثني عشر يوما أعمى . وأكثر ما تضع ثمانية أجراء ، وربما وضعت واحدا فقط ، ورأس الكلب كله عظم واحد ، والكلب يطرح مقادير أسنانه ويخلفها ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يلقى منها شيئا حتى ينبت في مكانه غيره ، والفرق بين الذكر والأئني أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأئني تبول مقمية وربما رفعت رجلها ، والذكر يهيج للسفاد في السنة قبل الأئني ، وأسنان الذكر أكثر ومضغه أشد . قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة ثم البيض إذا كانت عيونها سوداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" أن الأبيض أفره والأسود أصبر على الحرّ والبرد . ومن علامة النجاسة والفرأهة فيه أن يكون تحت حنكه طاقة شعر مفردة غليظة ، وأن يكون شعر خديه جافيا . ومن علامة الفرأهة طول ما بين يديه ورجليه وقصر ظهره وصغر رأسه وطول عنقه وغصّف أذنيه وبعدهما بينهما ، وزرقة عينيه ، وضخامة مقلتيه ، وتوحدته ، وطول خطمه وذقنه ، وسعة شدقه ، وتوقجهته وعرضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين ، طويل الصدر ، غليظه ، قريه من الأرض ، ناتي الزور ، غليظ العضدين مستقيم اليدين ، منظم الأظافر ، عريض ما بين مفاصل الأعطاف ، عريض ما بين عظمي أصل الفخذين مع طولها وشدة لحمها ، دقيق الوسط ، مستقيم الرجلين ، قصير الساقين ، غير محني الركبتين ، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابة ، وإن الكلبة

إذا ولدت واحدا كان أفره من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفره من الأنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهها وإذا ألقيت الجراء وهي صغار في مكان ندى فأبها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكلب (بفتح اللام) وهو داء كالجنون يعتري الكلب يؤثر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جراء صغار .

ومن عجيب ما يحكى في ذلك أن رجلا عضه كلب فلتاقاه بكفه فأصابته أسنانه ولعابه فشمركمه ساعة ثم نشره فتساقط منه جراء صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سلوقية (بفتح السين) وزغارية (بضم الزاى) . فأما السلوقية فمنسوبة إلى سلوق بلدة من اليمن كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماء في تقويم البلدان والمقرئ الشهابي ابن فضل الله في "التعريف" قال في "التعريف" : وهي مولدة بين الثعالب والكلاب ، ولذلك لا تقبل التعليم إلا في البطن الثالث منها ، قال : ولها سلاح جيد ، قال في "المصايد والمطارد" : ولها أنساب كأنساب الخيل ، قال : وقل أن يعرض لها مرض الكلب . وأما الزغارية فهي ألطف قدا من السلوقية ولم أدر إلى ماذا تنسب .

الصنف الثالث

(ما يعنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضربا)

الأول الحمارة العتابية - وهي حيوان في صورة البرذون موشى الجلد بالبياض والسواد يروق الناظر حسنها ، وقد كان أهدي للظاهر برقوق سقى الله عهده حمارة من هذا النوع فأقامت مدة ، ثم أعطاها فقيرا من فقراء العجم فكان يركبها كما تركب

الخليل والحير ويمشي بها في القاهرة ، ثم عوضه الناصر بن الظاهر سلطان العصر عنها عوضاً ، وأعتادها منه ، وأرسلها في هدية لابن عثمان صاحب بلاد الروم غربى الخليج القسطنطيني .

الثاني البقر الوحشية - وتعرف بالمها ، وهي دون البقر الأهلية في المقدار ، ولها قرنان في رأسها ، في كل قرن منهما شُعب ، وهي من جليل الصيد ، ويقال للفقّي منها المها ، وبها يضرب المثل في حُسن العيون وسوادها . ومن طبعه الشبق وشدة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أنثاه هربت منه خوفاً من تعبته بها وهي حامل ، وربما ركب الذكر الذكر لشدة شبقه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وكل إناث الحيوان أرق صوتاً من الذكور إلا البقر الوحشية فإن الأنثى أغخم صوتاً وأظهر من الذكر . ومواضعها من البرية الوهادت ، وما آستوى من الأرض ودنا من الماء والعُشب ، وليست مما يسكن الجبل ، ولذلك عيب في ذلك محمد بن عبد الملك الزيات كاتب المعتصم ووزيره حيث وصف ثورا من ثيرانها برعيه في الجبل . وهي مما يُصاد بالطرد على الخيل ، ويقال إن أول من طردها على الخيل ربيعة بن زرار بن معد بن عدنان فإنه أول من ركب الخيل على قول ؛ ولما ركبها رأى بقرة وحشية فطردها فلجأت إلى مكان يمكنه أخذها منه فَرَّق لها وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلق بها ، وأقدر مُعين له عليها من جوارح الطير العقاب . قال ابن السندي : ودماها أسرع إلى الجمود من دم سائر الحيوان .

الثالث الحمر الوحشية - ويقال للأنثى من حمر الوحش أتان وللذكر حمار وعير كما يقال في الحمر الإنسية ، وربما قيل الفراء ، وهو من أشد الصيد عدواً ولذلك يُضرب به المثل فيقال "كُلِّ الصَّيْدِ فِي جَنْبِ الْفَرَّاءِ" أو "فِي جَوْفِ الْفَرَّاءِ" . وبه تشبه العرب خيلها وإبلها في السرعة ، ويقال إن الحمار الوحشي لا يتزو إلا إذا

كان له من العمر ثلاثون شهرا وإن الأثى لا تَلْقَح منه حتى يتم له ثلاث سنين ،
وقيل سنتان وستة أشهر . ويوصف بشدة الغيرة على أُنثى حتى يقال إن فيها ما إذا
وُلِد له ولد ذكر كَدَم قِصْبِيَّه وخُصْيِيَّه حتى يقطعهما . قال في ” المصايد والمطارد “
وليس يتعلّق به شئ من الصّوّارى ولا الجوّارح إلا العقاب ، ولا شئ أبلغ في صيده
من الرمي بالشّباب .

الرابع الغزالان - ويقال لها الطّباء بكسر الظاء واحدها ظبيّ ، ثم الطّباء على ثلاثة
أضرب : أحدها البيض ، ويقال لها الآرام جمع رِثْم ، ومساكنها الرمل ، ويقال هي
ضأن الطّباء . وثانيها الأدم ، وهي ظبياء سُمر الظهور ، بيضُ البُطون ، طويلةُ
الأعناق والقوائم ، وهي أسرعها عدوا . ومساكنها الجبال والشّعاب . وثالثها العُفر
وهو صنف يعلوه مع البياض حمرة ، قصار الأعناق ، ومساكنها صلاب الأرض .
ويصيد جميعها الفهد والكلب والعقاب . وتُصَاد أيضا بالحباله والشّرك ، وربما
صِيدت بايقاد النار بإزائها : لأن الطّبي إذا رأى النار في الليل تأملها وأدمن النظر إليها
وعشّى بصره وذهل ، وقد يُضاف إلى النار تحريك جرس ونحوه فيزداد دُهو له فيؤخذ .
وتصَاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس الأيائل - جمع أَيْل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام
في الآخر) . وهو حيوان قريب الشّبه من الطّباء ، له قرنان في رأسه كالظبي . قال
في ” المصايد والمطارد “ وهو معتصم بالجبل قلما يحلّ السهل ، وقرونه مُصمتة
لا تجويف فيها ، ويخلّفها في كل عام غيرها ، ويتبدى في ذلك بعد مضيّ سنين من
ولادته ، وله أربع أسنان في كل ناحية من ناحيتي فيه ؛ وذكَه عَصَب لا لحم فيه .
ولا غُضْرُوف ولا عَظْم ؛ ودُم كل حيوان يجمد إلا دمه ؛ وليس للأثى منها قرونٌ
البتّة ؛ وأصوات ذكورها أحمَد من أصوات إناثها ؛ وهو يرتاح لسماع الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون دَلَّ لها، ويأكل الحيات ولا يضره سمها، وسيأتي في الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيواني من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا نحر بقرنه مع كبريت أحمر هربت الحيات .

السادس الأرناب - جمع أَرْنَب والأرنب مؤنثة ^(١) وهي حيوان صغيرة الجثة قصيرة اليدين قريب من لون الثعلب، وليس شيء مما يوصف بقصر اليدين أسرع منها . ومن خصائصها كثرة الشعر حتى إنه لينبت في بطون شديقها وتحت رجلها . وقضيب ذكر الأرنب من عظم ، وربما ركب الأثنى الذكر في السفاد، ولا ينام الأرنب الا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تطاء الأرض بباطن كفها لتعفى أثرها إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تأوى إلى ساحل البحر، وإذا طردت لجأت إلى الجبال واشتد عدوها فيها، والأثنى لاتسمن، وهي عند العرب مما يحيض، وتُسفد وهي حبل، وتلد الأول والثاني على ما في بطنها .

السابع الذئب - جمع ذئب وهو حيوان في صورة الكلب في لونه بلق بكودة والذئبة أجراً من الذئب وأشد عدواً، وأسنانه عظم مخلوق في فكيه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان . قال ابن السندي : وأخبرني أبو بكر الدقيشي أن هذه الحلقة في أسنان الضبع أيضاً، والذئب صاحب خلوة وأنفراد . ومتى رأى الإنسان قبل أن يراه أخفى صوته، وإن رآه جزع منه أجترأ عليه وساوره، وإذا تسافد هو وأنشأ التحما التحما شديداً حتى يقال إنه إذا هم عليهما داخل في هذه الحالة قتلها كيف شاء ولذلك يبعدان في هذه الحال إلى مكان لا يُريَان فيه، وإذا تهارش ذئبان فادعى أحدهما الآخر عدا الذي أدعى على المُدعى فقتله خوفاً من أخذ الثار ،

(١) في المصباح ويقع على الذكر والانثى وقد يؤنث بالهاء فتدبر .

وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليه الذئاب نُصرةً له ، وإذا لقي الفارس والأرض مثلوجة نحش الثلج بيديه ورمى به في وجه الفارس ليدهشه ثم يعقر دابته فيتمكّن منه ، ومتى وطئ الفرس أثر الذئب رعد وخرج الدخان من جسده كله ولذلك قلّ مَنْ يطرد من الفُرسان ولا يتفطن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدّم أن السودانيّ ضرّى ذئبا حتّى أصطاد له الظباء .

الثامن الثعالب - جمع ثعلب . وهو حيوان معروف ، موصوفٌ بكثرة الروغان في عذوه وبالحيل حتّى إنه يمتاوت عند رؤية الغراب فينزل عليه الغراب على ظنّ موته ليأكل منه فيقبضه هو . ومن خُبته وحيلته يختلط بكبار الوحوش وجلّتها ، قال في "المصايد والمطارِد" . ومن فضائله تشبيههم مشية الخيل بمشيته التي يقال لها الثعلبية . ومن عجائبه أن قضيبه في خلقة الأنوبة أو سطه عظم في صورة الثقب والباقي عَصَب ولحم . وهو كريم الوبر ، والأسود من وبره في الغاية القصوى ، والأبيض منه لا يكاد يُفرّق بينه وبين الفَنَك .

ومن خصائصه أنه يتبرّغ في الزرع فلا ينبت موضعه ، وربما سَفَد الكلبة فولدت كلبا في خلقة السلوقي الذي لا يُقدر على مثله . وقد تقدّم ذكر ذلك في الكلام على الكلاب السلوقية . ومواضعه الكروم والآجام ، ويصيده الفهد والكلب وجوارح الطير

التاسع الضّباع - جمع ضبع ، ويقال لها أم عامر ، وهي مما يؤكل وإن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك ، وتزعم العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثى . ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة على سطح ووطئت ظله وقع فأكلته ، وإذا أفتحم عليها مقتحم وجارها وقد سدّ جميع منافذ بحرها حتّى يمتنع

منه الضوء فلا يبقى فيه خرم إبرة، ربطها بحبل ونرح بها؛ وإن بقي ما يدخل منه الضوء، ولو قَدَرَ سَمَّ إبرة وثبت عليه فأكلته. ومن كان معه شيء من الحنظل لم تقربهُ الضبع.

العاشر سنور البر - وهو النفا، وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما التحريم وصيده يحتاج إلى علاج كبير، وربما وثب على وجوه الناس، وطرده بالخليل من أعسر الطراد، وأولى ما يصاد به الرمي، ومنهم من يعدّه في السباع قال في "المصايد والمطاردة" "وقلما أتتبع به في صيد إلا أنه يثب على الكركي وما في مقداره من الطيور فيصيده. أما السنور الأهلي، وهو الهر المعروف بغير ما كول ولا يصيد إلا الفأر وما في معناه من خشاش الأرض، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم، في الهرة ولكنها من الطوافين عليكم بمعنى أنها تطوف على النائم في بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخشاش.

الحادي عشر الذب - وهو حيوان قريب في الصورة من السبع، وهو يسكن الجبال والمغائر، والأُنثى ترفع ولدها أياما هربا به من الذر والنمل لأنها تضعه كقطعة لحم فلا تزال تنقله وتراعيه حتى تستند أعضاؤه، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصدّها فتجتمع الجوز في كفها ثم تضرب اليمنى على اليسرى وترمي إليه، فإذا شبع نزلت وربما قطعت من الشجرة العود الذي يعجز الناس عنه وتقبض عليه في موضع مقبض العصا وتشد به على الفارس وغيره فلا تُصيب به شيئا إلا أهلكته. ومن خصيسته أنه يستتر في الشتاء فلا يظهر إلا في الصيف بخلاف سائر الحيوان.

الثاني عشر الخنزير - وهو حرام بنص القرآن، نجس في مذهب الشافعي رضي الله عنه قياسا على الكلب؛ بل قالوا إنه أسوأ حالا منه لعدم حلّ آقتنائه إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد. وهو حيوان في نحو مقدار الحمار وشعره كالإبر

وله نابان بارزان من فكّه الأسفل . ومن خاصّته أنه لا يُلْقَى شيئا من أسنانه ، بخلاف سائر الحيوان فإنها تلقى أسنانتها خلا الأضراس ، وهو كثير السّفاد ، كثير النّسل ، حتّى إنه ربما بلغت عدّة ختانيصه ^(١) وهى أولاده اثني عشر ^(١) خصوصا . قال فى "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البرى الجاهل الذى لا يقبل التأديب والتعليم ، ويقبل السّمّن سريعا ، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سمّت .

الثالث عشر السّمور - (بفتح السين وبالميم المشدّدة المضمومة على وزن السّفود والكُوب) . وهو حيوان برى يشبه السّنور ، وقد يكون أكبر منه . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو حيوان جرىء ليس فى الحيوان أجراً منه على الإنسان ، لا يُصاد إلا بالخيّل ، ووقع للنوى فى تهذيب الأسماء واللغات أن السّمور طير ، ولعله سبق قلم منه وأغرب ابن هشام البستى فى شرح الفصيح فقال : إنه ضرب من الجن . والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم . وحكمه حلّ أكله ، ومنه يتخذ نفيس الفراء التى لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان من يدانى الملوك لحُسْنها ودِفائِها ، وأحسنه ما كان منه شديد النعومة مائلا إلى السواد .

الرابع عشر الفَنَك - (بفتح الفاء والنون) وهو دَوِيَّةٌ لطيفة ، لها وبر حسن أبيض يخالطه بعض حرمة يُتخذ من جلوده الفراء . قال ابن البيطار : وفروه أطيّب من جميع الفراء ، ومزاجه أبرد من السّمور وأحر من السنجاب ، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيرا ما يجلب من بلاد الصّقالبة .

الخامس عشر القاقم - (بقافين الثانية منهما مضمومة) وهو دَوِيَّةٌ فى قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم ، ومنه يُتخذ الفراء ، وهو أبرد مزاجا وأرطب من السّنجاب ، ولذلك كان لونه البياض ، وهو أعز قيمة من السنجاب .

(١) فى الأصل بالسين وهو تصحيف أنظر كتب اللغة .

السادس عشر الدَّلَق - (بفتح الدال المهملة واللام وقاف في الآخر) فارسيّ معرّب ، وهو دُوَيْيَّة تقرب من السَّمُور . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو يقرّس في بعض الأحيان ويكرّج في الدم . وذكر ابن فارس أنه التمس . وقد ذكر الرافعي أنه يسمّى ابن مُقرّض والمعروف أن الدَّلَق حيوان يتخذ منه الفراء .

السابع عشر السَّنَجَاب - وهو حيوان أكبر من الفأر ووبره في غاية النعومة وجلده في نهاية القوة . وحكمه الحُلّ ، وقال بتحرّيمه بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده الفراء النفيسة التي يلبسها أعيان الناس ورؤسائهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صعد الشجر العالي ، وفيها يأوي ، ومنها يأكل ، وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالبة ، وأحسن ألوانه الأزرق ، ثم إنه يقال إنه ربما تبقى زُرْقته ^(١) لأنه يُنْحَق ولا يذكي ، فإن صح ذلك فهو ميتة لا يطهر شعره بالدباغ على أظهر القولين من مذهب الشافعي رضي الله عنه خلافا للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وابن أبي عَصْرُون فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزي عن الشافعي وأختره الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله .

الثامن عشر سنّور الزّباد - وهو في صورة السنّور الأهليّ إلا أنه أطول ذنبا منه وأكبر جثّة ، ولونه إلى السواد أميل ، وربما كان أتمر ، وهو يُجَاب من بلاد الهند والسند ، والزّباد فيه شبه بالوسخ الأسود اللزج ، ذفر الرائحة ، يخالطه طيب كطيب المسك ، ويوجد في باطن إبطه ، وباطن أخفأذه ، وباطن ذنبه ، وحول ذره . فيؤخذ من هذه الأماكن بمِلْعَقَة ونحوها .

التاسع عشر السنّور الأهليّ - (وهو الهر) ويقال في أصل خلقه إن أهل السفينة شكوا إلى نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح على وجه الأسد بيده فعطس فخرج السنّور من أنفه ولذلك هو يشبه في التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة

(١) كذا بالأصل .

للإنسان في خصال . منها أنه يَعْطُسُ ، ويتشاءب ، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلعابه كأنه يغسله ؛ وإذا آتسخ شيء من بدنه نظَّفه ، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويسمُّه حتى تخفى رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يسمَّه الفأر فيهرب ؛ وهو يهيج للسَّفاد في آخر الشتاء ، ويكثر الصباح حينئذ ، وتحمل الأثني منه مرة في السنة ، وتُقيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألفت منزلا منع غيره من السنانير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تملق لهم وترقق ، وإذا أختطف شيئا هرب به خوف المعاقبة عليه . والهرة إذا جاءت أكلت أولادها - ويقال إنها تفعل ذلك من شدة الحنوّ . وقد ذكر القزويني أن نوعا من السنانير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذننها إلى ذنبها .

العشرون النمّس - قال الجوهري : وهو دُوَيْبَّةٌ عريضة كأنها قطعة قديد ، تكون بأرض مصر تقتل الثعبان ، والنمّس بمصر معروف - وهو حيوان قصير اليدين والرجلين أغبر اللون ، طويل الذنب ، يصيد الدجاج ، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربما صيد وأنس فتأنس .

فإذا علم الكاتب صفات الوحوش وخصائصها ، عرف كيف يُورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها مواردَه في الوصف ، وكيف يصف ضواري الصيد كالقَهْد وكيف يصف وحوش الصيد كالظباء ، وبقر الوحش ، وحمر الوحش وغيرها . وكذلك ما يقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وَتَجْتَنِبُ الْأَسْوَدَ وَرُودَ مَاءٍ * إِذَا كَانَ الْكَلَابُ يَلْعَنُ فِيهِ

وكما أنشد الجاحظ :

جاءت مع الأفشين في هودج * تُرْجَى إِلَى الْبَصْرَةِ أَجْنَادَهَا

كأنَّهَا فِي فِعْلِهَا هِرَّةٌ * تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ أَوْلَادَهَا

مشيرا بذلك إلى ما تقدم من أكل الهرة أولادها وغير ذلك مما يجري هذا المجرى وسيأتى ذكر ما فى معنى ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة المعدّة لذلك إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلى ذلك فى رسائل الصيد، وإهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكأية قدم البندق، وما يجرى مجرى ذلك؛ وهو على أربعة أصناف .

الصنف الأول

(الجوارح)

وهى يُصاد بها الطير والوحش؛ ويحتاج الكاتب إلى وصفها فى الرسائل الصيدية وفى إهداء شئ من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجئنة المعتبر فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى الإناث؛ أما ذكرها فإنها أطف فى المقدار وأضعف فى الصيد على ما أتى بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى . قال فى "التعريف" ويستحب فى الجوارح كبرها متها، ونتو صدرها، وآتساع حماليتها، وقوة إبصارها، وحنة مناسرها، وصفاء ألوانها، ونعومة ريشها، وقوة قوادمها، وتكاثف خوافيها، وثقل مجملها، وخفة وثباتها، وأشدادها فى الطلب، ونهمها فى الأكل؛ وقد قسمها فى "التعريف" إلى قسمين : صقور وبزاة، وفرق بينهما بأن الصقر ما كان أسود العين والبازى ما كان أصفر العين على اختلاف المسميات، ثم قال "أما العقاب فإنه لا يعد فى الصقور ولا فى البزاة وهو معدود فى الجوارح، وفى الطير الجليل". وبالجمله فالجوارح على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(العقاب ، وهو ضربان)

الضرب الأول - المخصوص باسم العقاب وهى مؤنثة لاتذكر، وجمع على عقبان وأعقب . قال فى "المصايد والمطارد" وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر فى الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فمنها سوداء دجوجية ، وخُدَاريّة ، وهى التى لابیاض فيها . ومنها البقعاء - وهى التى يخالط سوادها بياض . ومنها الشقراء - وهى التى فى رأسها نُقْطُ بياض . قال أبو عبيدة ويونس : ويقال لذكر العقاب الغرنُ بفتح الغين والراء المهملة - ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الحرم ، لأنساوى شيئا ، تلعب بها الصبيان . والعقاب من أسرع الطير طيارا ، فقد حكى أن عقابا حملت كف عبد الرحمن بن عتاب ابن أسيد المسمى ببعسوب قريش ، المقتول يوم الجمل بالكوفة ، فألقته بمكة فأخذت فوجد بها حلقة فعرف أنها كفه ، وأرخ ذلك الوقت فتبين أنها ألقته يوم الجمل الذى قتل فيه ، وأول من صاها أهل المغرب ، فلما نظرت الروم إلى شدة أمرها وإفراط سلاحها قال حکاؤهم هذا لايفى خيرهُ بشره .

وصفة الوثيق النجيب منها وثاقه الخلق ، وثبوت الأركان ، وحمرة اللون ، وغُور العين بالحاليق ، وأن تكون صقعاء ، عجزاء ، لاسيما ما كان منها من أرض سرت أو جبال المغرب . وهى تصيد الظباء والتعالب والأرانب ، وقد تصيد حمر الوحش ، وطريق صيدها إياها أنها إذا نظرت حمار الوحش رمت بنفسها فى الماء حتى يبتل جناحاها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يعلق بهما ، ثم تطير طيارا ثقيلًا حتى تقع على هامته فتصفق على عينيه بجناحيها فيمتلئان ترابا من ذلك

التراب الذى علق بجناحيها ، فلا تستطيع المسير بعد ذلك فيدركها القانص فيأخذها وربما كسرت الأدمى .

ومما يحكى فى ذلك أن قيصر ملك الروم أهدى إلى كسرى ملك الفرس عقابا ، وكتب إليه إنها تعمل أكثر من عمل الصقور ، فأمر بها كسرى فأرسلت على ظي فاقتنصته ، فأعجبه ما رأى منها فأنصرف وجوعها ليصيد بها فوثبت على صبي له فقتلته ، فقال كسرى : إن قيصر قد جعل بيننا وبينه دما نائرا بغير جيش . ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر تمرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فهذا يقتل الظباء وأمثالها من الوحش ، وكنتم ماصنعت العقاب فأعجب قيصر حسن النمر ووافق صفته ما وصف من الفهد وغفل عنه فافترس بعض فتيانه فقال صادنا كسرى .

ومن شأنها أنها لا تطلب شيئا من الوحش الذى تصيده ، وهى لا تقرب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها ، ولا تزال مرقبة على مرقب عال ، فإذا رأت بعض سباع الطير قد صاد شيئا آنقضت عليه ، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها ، فإن جاءت لم يمتنع عليها الذئب فى صيدها ، وربما أغتالت البراة فقتلتها ،

ومن خصائصها أنها أشد إخفاء لفرأخها من سائر الطير . قال غطريف بن قدامة الغساني صاحب صيد هشام بن عبد الملك : "وأول من لعب بالعقاب أهل المغرب" ، فلما عرفوا أسرارها نقذوه إلى ملك الروم فاستدعى جميع حكامه فقال لهم : أنظروا فى قوة هذا الطير ، وعظم سلاحه ، كيف تجب تربيته ، وتعرفوا أسرارها فى صيده وتعليمه ، وكيف ينبغى أن يكون . فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد فى سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير . وعند العداوة والغضب كل الأجناس عنده من سائر الحيوان

على اختلاف أنواعه واحد لقوة غضبه وشدة بأسه فهو لا يستعظم آدمي ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثاني - الزُجج (بضم الزاي وفتح الميم المشددة ثم جيم) والعامة تبدل الزاي جيما والجيم زايًا - وهو طائر معروف تصيد به الملوك الوحش ، وأهل البيزرة يعدونه من خفاف الطير الجوارح ، إلا أنهم يصفونه بالغدر وقلة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بقاء ،

ومن عادته أنه يصيد على وجه الأرض . وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث : الزُجج طائر دون العقاب حرته غالبية ، والعجم تسميه دُوبراً دَرَان ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثاني

(من الجوارح البزاة . وهي ما أصفرت عينه ،

وهي على خمسة أضرب)

الأول - البازي المختص في زماننا باسم البازي ؛ وفي ضبطه ثلاث لغات أفصحها بازى بكسر الزاي وتخفيف الياء في الآخر ، والثاني بازٍ بغير ياء في آخره ، والثالث بازى بانباء الياء وتشديدها حكاها ابن سيده ؛ ويقال في التثنية بازِيَان وفي الجمع بَوَازٍ وبُزاة - ولفظه مشتق من البزوان - وهو الوثب . وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران . وهو من أشرف الطيور الجوارح ، وأحرصها على طلب صيده . ففي أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطبرستان ومعه منديل فيه شيء ملفف ، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شلو بازٍ ودراجة ، فأطلقه عليها فأحسَّت به ، وكانت قد أمرت بإحراق قصب قد أفسد أرضا لي فتعاملت الدراجة حتى

أفتحمت النار هاربة من البازي، وأشدت طلبه لها وحرصه عليها فلم تردّه النار عنها وأتحمها في أثرها فأسرعت فيهما فأدركهما وقد أحترقا، فأحضرهما إلى الأمير ليراهما فيرى بهما ثمرة إفراط الحرص وإفراط الجبن . وهو من أشدّ الحيوان كبرا وأضيقها خلقا . قال القزويني ولا يكون إلا أنثى، وذكرها نوع آخر من حدأة أو شاهين أو غيرهما . ولذلك تختلف أشكالها . والبازي قليل الصبر على العطش ومأواه مساقط الشجر .

ومن فضيلته أن الصيد فيه طبيعة لأنه يؤخذ من وكره فرخا من غير أن يكون يصيد مع أبويه فيصيد ابتداء وقريحة من غير تضرية ، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يجب ولم يصد، وإذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عود أكثر مما يوجد عنده في تلك الحال وجري على ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومهر فيه . قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعدد ريش جناح البازي عشرون ريشة ، أربع قوادم ، وأربع مناكب ، وأربع أباهر ، وأربع كلى ، وأربع خواف . ويقال سبع قوادم ، وسبع خواف ، وسائر لغب . والخواف أخف من القوادم .

والمستحب من صفاته صغر المنسر، والرأس، وغلظ العنق، وسعة اللحين ، ودائرتي الأذنين والشدين ، وسعة الحذقة، وطول القوادم، وقصر الخوافي والذنب، وشدة اللحم، وعرض ما بين المنكبين والزور، وسعة الحوصلاء، وسعة ما ينتقل إليه طعمه، وعرض الخالب، ورزانة المحمل، وغلظ خطوط الصدر، ودكاء القلب، والتسمير، وكثرة الأكل ، وتتابع النهش، وسرعة الاستمراء ، وشدة الانتفاض، وضخامة السلاح، وبعد الذرق . وأن تراه كأنه مفعيا^(١) إذا استقبلته على يد حامله تشبها^(١) بالغراب الأبقع . قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمختار من ألوانها الأحمر

(١) كذا في الأصل .

الأكثر سوادا ، الغليظُ خطوط الصدر ، والأشهبُ الشديدُ الشَّبهة ، الشَّبيه بالابيض ، والأصفر المدبَّج الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ على نجابته ، والبازي يصيد الكلب ، والأرنب ، والغزال ، والكُرْكِي ومافى معناه ، والدُّرَّاج ، والمجمل ، وسائر الحمام ، والبَطَّ ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازي عدمُ الإباق فإنه إن صاد بقي على فريسته وإن لم يصد وقف مكانه فلا يحتاج إلى كد ولا تعب ولا طَرْد خيل . وأول من صاده من الملوك قُسطنطين ملك الروم - وذلك أنه مر يوما يلحف جبل فرأى بازياً يطير ثم نزل على شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك ، فأعجبته صورته ، وراقه حسن لباسه ، فأمر بأن يصاد له جملةً من البُزاة فصيدت له وحملت إليه فأرتبطها في مجلسه ، فعرض لبعضها في بعض الايام أيم فوثب عليه قتلته - فقال : هذا ملك يُغضبه ما يغضب الملوك فنصب له بين يديه كندرة ، وكان هناك ثعلب داجنٌ ، وهو الذي يربى في البيوت فوثب عليه فما أُلَّت إلا جريحا - فقال هذا ملك جبار لا يمتثل ضيما - ثم مرَّ به طائر فكسره ونهش منه - فقال هذا ملك نوعه لما جاع أخذ طعامه بسلطان وقدره - فحمله على يده وصاد به .

الثاني الزُّرْق - (بضم الزاي المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف في الآخر) وهو ذكر البازي قال في "المصايد والمطارِد" وهو يصيد ما يصيد البازي من دق الطير ولا ينتهى إلى صيد الكُرْكِي .

(٢) الثالث الفقيمى - وهو بازٍ قَصيفٌ قليل الصيد ذاهل النفس .

الرابع الباشق - (بكسر الشين وفتحها) فارسي معرَّب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحية انظار القاموس (٢) في حياة الحيوان العقبى ولم تجدهما في القاموس .

وصفاته الحمودة كصفات البازي الحمودة . وأفضلها أنقلها وزنا قال في "المصايد والمطارد" وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال في حياة الحيوان : إنه يصيد أنغر ما يصيده البازي وهو الدُّراج والحَمَام والورْشان، وإذا قوى على صيده لا يتركه إلا أن يتلف أحدهما .

الخامس البَيْدق - وهو دون الباشق، وصيده العصافير .

القسم الثالث

(من الجوارح الصقور - وهي السُّود العيون من الجوارح ؛ وهي ضربان)

الضرب الأول - الشَّواهين (واحداهن شاهين) وهي صنفان . الأول المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلماء بالجوارح أن الشَّواهين هي أسرع الجوارح كلها وأشجعها وأخفها وأحسنها قلبا، وإقبالا، وإدبارا، وأشدّها ضراوة على الصيد؛ إلا أنهم عابوها بالإبقاء وما يعتريها من شدة الحرّص، حتى إنها ربما ضربت نفسها على الغلظ من الأرض فماتت، وهي أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح - ويقال إن صدرها عَصَب مجدول مائج . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تعلّق بكفها، وهم يحدّدون منها ماقرنص داجنًا دون ماقرنص وحشيًا .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كاسمه يعني كالميزان المسمّى بالشاهين، فإنها لا تتجمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع؛ بل حالها معتدل كاعتدال الميزان . ويقال إن الحمام يخافها أكثر مما يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صفاتها فيما ذكره صاحب "المصايد والمطارد" الأحمر اللون إذا كان عظيم الهامة، واسع العينين حادّهما، سائل السُّفْعَتَيْن، تامّ المنسر، طويل العُق، رَحْب الصدر، ممتلئ الزَّور، عريض الوَسَط، جليل الفخذين، قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ، غليظ دائرة الخصر ، قليل الريش لينه ، تام الخواقي ، متلي العكوة ، رقيق الذنب إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هي المحمودة وأن السواد هو أصل لونها وإنما آتلفت إلى لون البراري خالت . قال والجر منها تكون في الأرياف والمواضع السهلة ، والشهب في الجبال والبراري . ثم قال ولا يصيد منها الكركي والخبرج إلا البحرية . وأول من صادها فيما يقال قسطنطين ملك الروم أيضا ، وذلك أنه رأى شاهينا محلقا على طير الماء يصطاده فأعجبه ماعين من فرأته ، وسرعة طيرانه وحسن صيده ، فإنه رآه يحلق في طيرانه حتى يلحق بعنان الجؤ ثم يعود في طرفه عين فيضرب طير الماء فيأخذه قناصا . فقال ينبغي أن يصاد هذا الطائر ويعلم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أعجوبة في أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحله على يده . قال في "المصايد والمطارد" وأنه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة على رأس الملك حتى ينزل فتقع حوله إلى أن ركب بها ملك منهم ، وساروهي على رأسه فطار طائر فانتقض بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه وأعجب الملك به فصرأها على الصيد وصاد بها .

وقال ابن عفير : كانت ملوك العرب إذا ركب في مواكبها طيروا الشواهين فوق رؤوسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثاني من الشواهين الأنويه ^(١) قال في "المصايد والمطارد" وهو دون الشاهين في القوة ، وله سرعة لا تزيد على صيد العصافير .

الضرب الثاني - من الصقور ماعدا الشواهين وهي أصناف .

الأول السنقر . قال في "التعريف" وهو أشرف الجوارح وإن كان لا ذكر له

(١) لم نعر على هذا الاسم .

في القديم . قال والسَّاقِرُ يُجَلَّبُ من البحر الشامي مغالًى في أثمائها . ثم قال وكان الواحد منها يبلغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وأنخط عن تلك الهضبة .

الثاني - المخصوص في زماننا باسم الصَّقْر ويجمع على أَصْقَرُ وَصُقُورُ وَصُقُورَةٌ قال في "التعريف" والعرب تسمى هذا النوع الحُرَّ . ويقال له الأَكْدَرُ، والأَجْدَلُ . قال في "المصايد والمطارِد" ويقال لها يَقَالُ الطير : لأنها أصبر على الأذى، وأحمل لخليط الغذاء، وأحسن إلقا ، وأشدَّ إقداماً على جِلَّةِ الطير، ومِرَاجُهُ أبرد من البازي والشاهين، وبسبب ذلك يُضَرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى على الطير لأنه يفوته، وهو أهدي من البازي نفساً، وأسرع استئناساً بالناس وأكثرها قنعا، وأبرد مزاجاً ، لا يشرب ماءً وإن أقام دهرًا . ونوع يُوصَفُ بِالْبَخَرِ وتتن الفم ومسكنه المغائر والكهوف وصدوع الجبال دون رعوس الأشجار وأعلى الجبال، والعرب تحدُّ من الصُّقُور ما قرنص وحشياً ، وتذم ما قرنص داجياً ، وتقول إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهي تصيد الكُرْكُيَّ وما في معناه، والبَطَّ وسائر طير الماء .

والصقور من أثبت الجوارح جناتنا في الطيران ، وأحرصها في اتباع الصيد، حتى يحكى أن بعض ملوك مصر أرسل صقرا على كركي صبيحة يوم الجمعة بمصر فبينما الناس يصلُّون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركي بالجامع الأموي بدمشق ، فأخذ فوجد فيه لَوْحُ السلطان فعرف به ، فكتب نائب الشام إلى السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيدته . قال في "المصايد والمطارِد" ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأَبْعَثَ، وأحوى، وأبيض، وأُخْرَجَ، وهو الذي فيه نقط بيض . قال ويستحب في الصقر أن يكون أحمر اللون، عظيم الهامة، واسع العينين، تام المنسر، طويل العنق، رَحْبُ الصَّدر، ممتلئ الزَّور، عريض الوَسَط، جليل الفَخَذين، قصير الساقين، قريب القعدة من القفا، طويل الجناحين، قصير الذنب، سبط الكف،

غليظ الأصابع فيروزجها، أسود اللسان . قال وتجمع هذه الصفات القرآهة والوَاقَة
والسرعة . قال أدهم بن محرز : وأقول من لعب بالصقر الحارث بن معاوية بن
كندة الكندي - خرج يوما الى الصيد فرأى صيادين قد نصبوا شباكاً عِدَّةً ، فوقع
فيها عصافير عِدَّة فحين رآها صقر من الجوّ آنقض عليها يطلبها فأمر الحارث بنصب
الشباك للصقور فنصبت لها فأصطاد منها جملة . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعي
له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العُشّ وعلمت
أصطادت أجود صيد لأن صيدها طبيعي بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوكر
ثم كبر فإنه لا يصطاد غير طعمه فلذلك يُنهي عن تربية الصقر .

الثالث الكُونَج - قال في حياة الحيوان نسبته من الصقور كنسبة الزُرَق إلى
البازي إلا أنه أحر منه ، ولذلك كان أخف جناحاً وأقلّ بجراً . قال ويصيد أشياء
من طير المساء ويعجز عن الغزال لصغره .

الرابع الكُوهِيَّة - وهي موثاة بالبياض والسواد يخالط لونها صُفْرَة ، قال
في " التعريف " وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة ، وهي قريبة الشكل من الصقر .

السادس اليُؤْيُؤ - (بضم الياء المثناة تحت وهمة بعدها وضم الثانية وهمة بعدها
أيضاً) قال في " المصايد والمطارد " وتسميه أهل مصر والشام الجَلَم ، وبهذا سماه
في " التعريف " وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزُرْقَة ، وهي مع صغرها
يجمع الاثنان منها على الذكر فيصيده ، وسموه الجَلَم أخذاً من الجَلَم : وهو المقص
تشبيهاً به لأن له سرعة كسرعة المقص في قطعه ، ومزاجه بالنسبة إلى الباشق بارد
رطب لأنه أصبر نفساً منه ، وأثقل حركة . وهو يشرب الماء شرباً ضرورياً كما
يشربه الباشق ، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حار يابس ولذلك هو أشجع منه . ويقال

إن أول من ضمَّاه على الصيد وأصطاد به بهرام جور : أحد ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يُؤبَّأ يطارد قُنْبَرَةً ، ويراوغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتى صادها ، فأمر بتأديبه والصيد به .

الصنف الثاني

(الطير الجليل)

وهو المعبر عنه بطير الواجب ، وبه تعنى رماة البندق ونحوها ، وتفتخر بإصابته وصَّره ويحتاج إليه في الرسائل الصيدية ، وفي كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعة عشر طائراً ، وهى على ضربين .

الضرب الأول - طيور الشتاء - وهى التى يكثر وجودها فيه - وهى عشرة طيور .
الأول الكُرْكُيُّ - وهو طائر أغبر ، طويل الساقين ، فى قدر الإوزة ، ويجمع على كَرَائِكٍ ، وفى طبعه خور يحمله على التعارُس ، حتى إنه إذا اجتمع جماعة من الكَرَائِكِ لابدَّ لها من حارس يحرسها بالنوبة بينها . ومن شأن الذى يحرس منها أن يهتف بصوت خفى كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته ، قام واحد من كان نائماً يحرس مكانه حتى يقضى كلُّ منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفّاً واحداً ، يقدِّمها واحد منها كالرئيس لها وهى تتبعه ، يكون ذلك حيناً ثم يخلفه آخرُ منها مقدِّماً حتى يصير الذى كان مقدِّماً مؤخِّراً ، وفى طبعها التناصر والتعاضد . ومن خاصتها أن أنثاها لا تقعد للسفاد بل يسفدها وهى قائمة ، ويكون سفاده سريعاً كالصفور . وذكر جميع بن عمير التميمى أن الكَرَائِكِ تبيض فى السماء ، ولا تقع فراخها ، وكذب المحدثون فى ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القزوينى فى عجائب المخلوقات ، والكُرْكُيُّ لا يمشى على الأرض إلا بإحدى رجليه

ويعلق الأخرى ، وإن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تُخسف به الأرض قال في "المصايد والمطارد" وهو من أبعد الطير صَوْتًا يُسَمَع على أميال . قال وإذا تقدّم مجيئها في الفصل آسَدَلْ بذلك على قوّة الشتاء. ويقال إن الكراكيّ أتى إلى مصر من بلاد الترك . وفي طلبه وصيده تتعالى ملوك مصر تغاليا لا يدرك حدّه، وتتفق في ذلك الأموال الجمة التي لانهاية لها . وكان لهم من علو الشأن بذلك ما لا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نزاع .

الثاني الإوز - بكسر الهمزة وفتح الواو - واحده إوزة وجمعوه على إوزون والمراد هنا الإوز المعروف بالتركيّ ، وهو طير في قدر الإوز البلديّ أبيض اللون . وله تجنّز في مشيته كالجلجل ، وهو من جملة طير الماء مقطوع بحلّ أكله .

الثالث اللّغّ - وهو دون الإوز في المقدار، لونه كلون الإوز الحبشيّ إلى السواد، أبيض الجفن، أصفر العين . ويعرف في مصر بالعراقيّ، ويأتى إليها في مبادئ طلوع زرعها في زمن إتيان الكراكيّ إليها . ومن شأنها أن يتقدّمها واحد منها كالديل لها، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدا كالجل ودليلها في وسطها متقدّم عليها بعض التقدّم . وقد يصفّ خلفه صفيّ ممتدّين يلقياها في زاوية حادة حتى يصير كأنه حرف جيم بلا عراقة، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبرت حدث في بياض بطونها وصدورها نقطٌ سود، والفرخ منها لا يعتريه ذلك .

الرابع الحُبرج - (بضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجيم في الآخر) - وهو الحُبَّارِيّ . قال في "المصايد والمطارد" ويقع على الذكر والأُنثى ويجمع على حُبَّارِيَّات وذَكَر غيره أن واحده وجمعه سواء. وبعضهم يقول إن الحُبرج هو ذكر الحُبَّارِيّ . قال في "المصايد والمطارد" وهو طائر في قَدْرِ الديك، كثير الرّيش : ويقال لها دَجاجة البرّ . قال في حياة الحيوان : وهى طائر طويل العنق،

رَمَادَى اللون ، في مُتْقَارِه بَعْضُ طُول ، يقال لذكر الحَبَارَى الخَرْبُ (يفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة في الآخر) - ويجمع على خِرَابٍ وأخْرَابٍ وخِرَابَان .

ومن خاصته أن الجارح إذا أعتنقها أرسلت عليه ذَرْقًا حاصلًا معها ، متى أحبت أرسلته ، فيه حِدَّةٌ تَمَعَّطُ ريشه ، ولذلك يقال : سَلَّحُهَا سِلَاحُهَا . قال في حياة الحيوان : وهى من أشد الطير طَيْرَانَا ، وأبعدها شَوْطًا ، فإنها تُصَاد بالبصرة فيوجد في حواصلها الحبة الخضراء التى شجرها البُطْمُ ، ومنابتها تُحوم بلاد الشام ، وإذا تُنِف ريشها وأبطأ نباته ماتت كمدًا - قال وهى من أكثر الطير جَهْدًا فى تحصيل الرزق ، ومع ذلك تموت جوعًا بهذا السبب . قال فى "المصايد والمطارِد" : وهى مما يُعَاف لأنها تأكل كلَّ شئ حتى الخنافس - وقال فى حياة الحيوان : حكها الحلُّ لأنها من الطيبات ، وأستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينَةَ مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حُبَارَى" ويقال لولدها اليَجْبُور ، وربما قيل له نَهَارِكَمَا يقال لولد الكِرْوَان ليل .

الخامس التَّمُّ - يفتح التاء وتشديد الميم - وهو طائر فى قدر الإوز أبيض اللون ، طويل العنق ، أحمر المنقار ، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرًا .

السادس الصوغ - بضم الصاد المهملة وغيث معجمة فى الآخر - وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض ، أحمر الصدر ، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار .
السابع العُنَّاز - بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة فى الآخر - وهو طائر أسود اللون ، أبيض الصدر ، أحمر الرجلين والمنقار .

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره فى فصل الصاد المعجمة من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليتنبه .

الثامن العقاب وقد تقدم ذكره في الكلام على الجوارح حيث هو معدود منها ومن طير الواجب، ومما يتعلق بهذا المكان أنها الأسود، والخواخية، والسُّفْع، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يأوى الجبال، وما يأوى الصحارى، وما يأوى الغياض، وما يأوى حول المَدُن.

وقد تقدم ذكر الخلاف في أن ذكرها من جنسها أو من جنس آخر في الكلام على الجوارح. وحكمها تحريم الأكل لأنها من ذوات الحناب من الطير، واختلف في قتلها هل هو مستحب أم لا بجزم الرافعي والنووي من أصحابنا الشافعية في الحج باستحباب قتلها. وجزم النووي في شرح المذهب بأنها من القسم الذي لا يستحب قتله ولا يكره، وهو ما يجتمع فيه نفع ومضرة، وبه جزم القاضي أبو الطيب رحمه الله. التاسع النسر بفتح النون، ويجمع في القلة على أنسر. وفي الكثرة على أنسور، وسُمي أنسرًا لأنه ينسر الشيء ويتبعه. والنسر ذو منسر وليس بذى مخالب وإنما له أظفار حداد المخالب، وهو يسفد كما يسفد الديك. وزعم قوم أن الأئشي منه تبيض من نظر الذكر إليها وهي لا تحضن بيضها، وإنما تبيض في الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حر الشمس للبيض مقام الحضان. والنسر حاذ البصر يرى الحيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسة شمه في الغاية، ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته، وهو أشد الطير طيراناً وأقواها جناحاً حتى يقال إنه يطير ما بين المشرق والمغرب في يوم واحد. وإذا وقع على جيفة وعليها عقبان تأخرت ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو في غاية الشره والنهم في الأكل إذا وقع على جيفة وأمتلأ منها لم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس في هذه الحالة، والأئشي منه تخاف على بيضها وفراخها الحفّاش فتفرش في أوكارها ورق الدلب لتستر منه

الْحُقَاقَشَ ، وهو من أشد الطير حُزناً على فراق إلفه حتى إذا فارق أحدهما الآخر مات حُزناً .

وهو من أطول الطير أعماراً حتى يقال إنه يُعمر ألف سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الحيف .

العاشر الأنيسة - قال في حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُماة وإنما أسمه الأنييس . قال : وهو طائر حاد البصر ، يشبه صوته صوت الجمل ، وماواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة بالأشجار ، وله لونٌ حسن ، وتدير في معاشه . وقال أرسطو : إنه يتولد من الشِّقْرَاق والغراب . وذلك بين في لونه . ويقال إنه يحب الأتس ، ويقبل الأدب والتربية ، وفي صَفِيهِه وَقَرَقَرْتُهُ أعاجيبٌ ، حتى إنه ربما أفصح بالأصوات كالقُمريِّ ، وغذائه الفاكهة واللحم وغير ذلك . ومن شأنه ألفة الغياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستخبث . فإن صح تولده من الشِّقْرَاق والغراب فينبغي تحريمه . والأنيسة ذات ألوان مختلفة ، بدنُّها يميل إلى الغُبرة ، وعُنُقُها يشتمل على خضرة وزُرْقَةٍ ، ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزُّها وجوداً .

الضرب الثاني طيور الصيف - وهي التي يكثر وجودها فيه ، وهي أربعة أطياف . الأول الكي بضم الكاف : وهو طير أغبر اللون إلى البياض ، أحمر المتقار والحوصلَة ، رجلاه تَضِرُّ بان إلى السواد .

الثاني الغِرَنُوق - بكسر الغين المعجمة وفتح النون - ويقال فيه غُرَنِيق - بضم الغين وفتح النون ، ويجمع على غُرَانِيق . قال الجوهري : وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق ، وتبعه الرخشمي على ذلك . وقال أبو خيرة : وسمي غُرَنِيقاً لبياضه . وقال صاحب "المصايد والمطارِد" الغرنيق كركي إلا أنه أخضر طويل المتقار ،

(١) لم نعر عليه في حياة الحيوان ولم يذكر في معاجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركى إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله دؤابتان في رأسه .
وقال : ومن خصائصها أن ريشها في شببتها يكون رمادياً ، فإذا كبرت أسود وليس
ذلك في سائر الطير ، فإن الريش لا يتحول بياضه إلى السواد بل يتحول سواده إلى
البياض : كما في الغربان والعصافير والخطاطيف .

الثالث المرزم - وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة ، طويل الرجلين والعنق ،
وهو حلال الأكل .

الرابع الشبيط - بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمى
اللقلق أيضاً ، ويعرف بالبلارج^(١) . وكنيته عند أهل العراق أبو خديج - وهو طائر أبيض ،
أسود طرفي الجناحين ، ورجلاه ومنقاره حمر ، وهو يأكل الحيات ولكنه يوصف
بالفطنة والذكاء . وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما في شرح المهذب والروضة
الحرمة وإن كان من طير الماء .

وسياتى الكلام على ما يحمل من هذه الطيور الأربعة عشر بأعناقها وما يحمل منها
بأسياها فيما يتعلق بمصطلح الرامة في الكلام على كتابة قدم البندق في موضعه إن شاء
الله تعالى . وطيور الواجب كلها حلال إلا النسر والعقاب .

الصنف الثالث

(ما عدا الطير الجليل مما يُصَاد بالحوارج وغيرها ، وهو على ضربين)

الضرب الأول ما يحمل أكله - وهو أنواع كثيرة لا يأخذه الحصر ، ونحن نقتصر
على ذكر المشهور من أنواعه .

فمنها النعام - وهو اسم جنس الواحدة نعام ، وهو طائر معروف مرگب من

(١) مصحف لم نهند إليه . ولعله البارح .

صورتى بجل وطائر ولذلك تسميه الترك دواقش بمعنى طير بجل ، وتسميه الفرس
أشترمرك ، ومعناه بجل وطائر . ويجمع النعامة على نعامات ، ويسمى ذكرها الظائم ؛
ومن المتكلمين على طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طيرانها ؛
ومن الناس من يظن أنها متولدة من بجل وطير ولم يصح ذلك . ومساكنها الرمل ،
وتضع بيضها سطورا مستطيلا بحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن
الأخرى ، ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحُصن : لأنها لا تستطيع ضم جميع
البيض تحتها ، وإذا خرجت للطعم فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت
بيضها ، فربما حضنت هذه بيض هذه ، وربما حضنت هذه بيض هذه ؛
ولذلك توصف في الطير بالحق ؛ ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فنه ماتحضنه ، ومنه
ما تجعله غذاء لها ، ومنه ما تفتحه وتجعله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى
به أفراخها إذا خرجت . وليس للنعام حاسة سمع ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه
عن سماعه حتى يقال إنه يسم رائحة القناص من بعد ؛ والعرب تقول إن النعامة
ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها . وهو لا يشرب ماء ، وإن طال عليه الأمد ،
ولذلك يسكن البرارى التى لا ماء فيها . وأكثر ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح .
ومن خصائصها أنها تتلع العظم الصلب والحجر والحديد فتذيقه معدتها حتى تدفعه
كلما ، وتتلع الحجر فيطفئه جوفها ، وإذا رأت فى أذن صغير لؤلؤة أو حلقة آخطقتها .
وحكمه حل أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سم وحي .

ومنها الإوز - بكسر الهمزة وفتح الواو - وهو أسم جنس واحد إوزة ، وجمعوه
على إوزون ، وهو مما يحب السباحة فى البحر ، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح
فى الحال ، وإذا حضنت الأنتى قام الذكر يحرسها لا يفارقها ، ويخرج فرخها فى دون
الشهر من البيضة . وهو من الطيبات ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم .

ومنها البط، وهو من طيور الماء واحده بطّة للذكر والأُنثى وليس بعربي، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القِرْثُ - بكسر القاف، ويسمى مُلَاعِبَ ظله . وهو طائر صغير الحرم من طيور الماء، سريع الاختطاف، لا يزال مرفرفاً على وجه الماء على جانب كطيران الحداة، يهوى بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعا، ويرفع الأخرى حذرا؛ فإن أبصر في الماء ما يستقلّ بجملة من السمك أو غيره آنقضّ عليه كالسهم المرسل فأخرجه من قعر الماء، وإن أبصر في الجوّ جارحا، مرّ في الأرض . وبه يضرب المثل في الإقبال على الخير والإدبار عن الشر، فيقال: "كأنه قِرْثُ، إن رأى خيرا تدلّ، أو رأى شرا توَلَّى".

ومنها الغَطَّاسُ - ويقال له الغَوَاصُ ، وهو طائر أسود نحو الإوزة ، يفوص في الماء فيستخرج السمك فيأكله، وهم فيه في حياة الحيوان فجعله القِرْثُ .

ومنها الدجَّاجُ - بفتح الدال المهملة وكسرها وضمها، حكاه ابن معن الدمشقيّ وابن مالك وغيرهما ، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم ، والواحدة دجاجة والذكر والأُنثى فيه سواء . قال ابن سيده : سُميت دجاجة لإقبالها وإدبارها، يقال : دَجَّ القوم إذا مَشَوْا بتقارب خَطْوٍ، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا، والفرخ يخرج من البيضة بالحَضْنِ، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا، ظريفا، سريع الحركة، يُدعى فيُجِيبُ، ثم كلما مرّت عليه الأيام حمق ونقص حسنه . ومما يعرف به الذكر من الأُنثى في حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمنقاره فإن اضطرب فهو ذكر، وإلا فهو أنثى . والدجاج يبيض في جميع السنة، وربما باضت الدجاجة في اليوم مرتين، ويتم خلق البيض في عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فإذا أصابها الهواء تصلبت . وتشتمل البيضة على بياض وصفرة ويسمى المَح ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له في البيضة يتغذاه من سُرته ، وربما كان للبيضة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فإذا كبرت الدجاجة ، لم يبق لبيضاها مَحٌ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن في البيوت ، وقد ورد في سُنَنِ ابن ماجه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أمر الاغنياء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبد اللطيف البغدادي : أمر كل قوم من الكسب بحسب مقدرتهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمر بها سائر السباع فلا تخافها فإذا مر بها ابن آوى وهى على سطح رمت نفسها إليه ، وهى توصف بقله النوم وسرعة الانتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخور طباعها .

ومن الدجاج نوع يقال له الحبشى . أرقط اللون ، متوحش ، وربما ألف البيوت . والحكم في الجميع الحل .

ومنها الديك - وهو ذكر الدجاج ، ويجمع على دِيَكَةٍ ودِيُوك ، وهو أبله الطبيعة حتى إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالى بمعرفة الأوقات حتى ربح الرافعى من مذهب الشافعى رضى الله عنه اعتماد الديك المحزب وفاقاً للمُتَوَلَّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسيطا لا يُحِلُّ فيه شئ طال الليل أم قصر . لكن قد ورد في معجم الطبرانى وغيره : إن لله سبحانه وتعالى ديكاً أبيض ، جناحه مَوْشِيَان بالزَّبَرَجَد والياقوت واللؤلؤ ، له جناحٌ بالمشرق وجناحٌ بالمغرب ، رأسه تحت العرش ، وقوائمُه في الهواء ، يُؤذِّنُ كلَّ سَحَرٍ فيسمع تلك

الصبيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين : الجن والإنس ، فعند ذلك يُجيبه
 دُيُوك الأرض ؛ وحينئذ فيكون الديك في ذلك تابعا . وقد ورد عدة أحاديث
 في النهى عن سَبِّ الديك ، ومدح الديك الأبيض ، والحثُّ على آخذه .

ومن حميد خصال الديك أنه يسوى بين دجاجة : ولا يُؤثِرُ واحدة على الأخرى .
 ويقال إنه يبيض في السنة بيضة ؛ ويفرق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن يبيضته
 أصغر من بيضة الدجاجة ، وهى مدورة لا تحديد فى رأسها .

ومنها القَطَا - بفتح القاف : وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع على قَطَوَاتٍ
 وَقَطِيَّاتٍ ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات ، ويسمى قَطَاً لحكاية صوته : لأنه يصيح
 ” قَطَا قَطَا “ ولذلك تصفها العرب بالصدق . قال الجوهري ، وهو معدود من
 الحَمَام ، وبه قال ابن قتيبة ، وعليه جرى الرافعي في الحج والأطعمة : قال الشيخ
 محب الدين الطبري : والمشهور خلافه .

ثم القِطَا نوعان : كُدْرِيٌّ وجُونِيٌّ ، وزاد الجوهري نوعا ثالثا وهو القَطَاط ،
 فالكدرى غُبر اللون ، رُقش البطون والظهور ، صفر الحلق ، قصار الأذنان .
 والجُونِيٌّ سُودُ بطون الأجنحة والقوادم ، وظهرا غُبر أرقط ، تعلوه صُفرة ، وهى
 أكبر جرماً من الكدرى ، تعِدِلُ كُلَّ جُونِيَّةٍ كُدْرِيَّتَيْنِ ، والكدرية تُفَصِّحُ باسمها
 فى صياحها ، والجُونِيَّةُ لا تفصح بل تُقْرِقُ بصوت فى حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض فى القَفْرِ على مسافة
 بعيدة من الماء . وتطلب الماء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من
 أفاحيصها فى طلب الماء عند طلوع الفجر فتقطع إلى حين طلوع الشمس مسيرة
 سبع مراحل ، فترد الماء فتشرب ثم تُقِيمُ على الماء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلى

الماء ثانية . والجؤنية تخرج إلى الماء قبل الكُدْرِيَّة ؛ وهى توصف بالهداية فتأتى أفاحيصها ليلا ونهارا فلا تفضل عنها ؛ وتوصف بحسن المشى ، وبقلة النوم .

ومنها الكَرَوَانُ - بفتح الكاف والراء - وهو طائر فى قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينام الليل ؛ ويجمع على كِرَوَان بكسر الكاف والأثني كَرَوَانَة .

ومنها المَجَلُّ - بفتح الحاء المهملة والجيم ، وهو طائر على قدر الحمام كالقَطَا ، أحمر المنقار والرجلين ؛ ويسمى دَجَاج البر ؛ ويقع على الذكر والأثني ؛ وقد يقال له القَبْجُ أيضا بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم فى الآخر ، يقال للذكر والأثني منه قَبْجَة ، ويسمى الذكر منه أَلْعَقُوب ^(١) ؛ والقَبْج بفتح القاف والموحدة وجيم فى الآخر ، ويقال فى الأثني منه مَجَلَة . وهو صنفان : نَجْدِيٌّ وَتِهَامِيٌّ ، فالنجدى أحمر الرجلين ، والنهامى فيه بياض وخضرة ؛ ومن شأنه أنه يأتى إلى مصر عند هيجان زرعها ويصبح صياحا حسنا ، تقول العاقمة : إنه يقول فى صياحه : "طَابَ دَقِيقُ السَّبَلِ" . ومن شأن الأثني منه إذا لم تَلْقَحْ ، أنها تُمْرَغ فى التراب وتصبه على أصول ريشها فتَلْقَحُ ؛ ويقال : إنها تَلْقَح بسماع صوت الذكر ، وبريح يهب من قبيله ؛ وإذا باضت ميز الذكر الذكور منها فخصنها ، وتحضن الأثني الإناث . وكذلك فى التربية ، وفرخها يخرج كاسيا يزغب الريش كما فى الدجاج ؛ وفى "المصايد والمطارد" أن القَبْج كثير السَّفَاد ، وأنه إذا اشتغلت عنه الأثني ورأى بيضا ، كسره . قال التوحيدى : ويعيش الحجل عشرين وعشرين ، يعمل عشرين ، يجلس الذكر فى واحد والأثني فى واحد ؛ وهو من أشد الطيور غيرة على أنثاه حتى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأثني ، فمن غلب منهما دانت له .

(١) هذا معطوف على القَبْج الاوّل اشارة الى لغة أخرى وليس معلوما على يعقوب كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتي عُشَّ غيره فيأخذ بيضه ويحضنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التي باضتها؛ وفيه من قوة الطيران ما يظنه من لم يحققه عند طيرانه أنه حجر رُمي بمِقْلَاع لسرعته .

ومنها القُمْرِيُّ - بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع على قَمَارَى غير مصروف . قال في المحكم : ويجمع على قُمْرٍ أيضاً؛ والأشئ منه قُمْرِيَّةٌ، ويقال للذكر منه الْوَرَشَانُ - بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة، ويقال له أيضاً سَاقُ حُرٍّ . قال الْبَطْلَوِيُّ : وسمي سَاقُ حُرٍّ حكاية لصوته كأنه يقول ذلك، ويكنى أبا الأخضر، وأبا عمران، وأبا الناجية . قال ابن السمعاني : والقُمْرِيُّ مذكوب إلى القُمْرِ، وهي بلدة تشبه الحص ليابضها . قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سيده القُمْرِيُّ طير صغير، وعده في المحكم من الحمام . ويقال : إن الهوام تهرب من صوت القمارى . قال القزويني : ومن خاصية القمارى أنها إذا ماتت ذكورها لم تنزواج إناثها؛ والورشان الذي هو ذكر القُمْرِ يوصف بالحنو على أولاده حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها في يد القانص . قال عطاء : وهو يقول في صياحه "لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْغَرَابِ" . ومنه نوع أسود حجازي يقال له النوى، شجي الصوت جداً .

ومنها الفاختة - بالفاء والخاء المعجمة والتاء المثناة والجمع الفواخت بفتح الفاء وكسر الخاء : وهي طائر من ذوات الأطواق، حجازية في قدر الحمام، حسنة الصوت، ويقال إن الحيات تهرب من صوتها . حتى يحكى أن الحيات كثرت بأرض، فشكا أهلها ذلك إلى بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخت إليها فانقطعت الحيات عنها؛ وفي طبعها الأئس بالناس؛ وتعيش في الدور، إلا أن العرب تسمها بالكذب فإن صوتها عندهم تقول فيه هذا أوان الرطب، وهي تقول ذلك والنخل لم يُطْلِعْ بعد، ولذلك تقول العرب في أمثالهم : "أَكْذَبُ من فاخته" .

ومنها الدَّبْسِيُّ - بضم الدال، وهو طائر صغير منسوب إلى دِبْسِ الرُّطَبِ - بكسر الدال، وذلك أنهم يُغَيِّرُونَ في النسب فيقولون في النسبة إلى الدَّهْرِ دُهَيْرِيٌّ ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام. ثم هو أصناف: مصريٌّ، وحجازيٌّ، وعراقيٌّ؛ وكلها متقاربة، لكن أخرها المصريُّ، ولونه الدُّكْنَةُ، وقيل هو ذكر اليمام. وفي طبع الدَّبْسِيِّ أن لا يُرَى ساقطاً على وجه الأرض، بل في الشتاء له مَشَقٌّ، وفي الصيف له مَصِيفٌ، لا يعرف له وَكْرٌ.

(١) ومنها الشَّقِيْنُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ثم نون: وهو الذي تسميه العامة بمصر اليمام، وهو دون الحمام في المقدار ولونه الحمر مع كُودَةٍ، وفي صوته ترجيع وتحزين. ومن شأنها أنها تحسنُ أصواتها إذا اختلطت. ومن طبعه أنه إذا قَعْدَ أَشَاه، لم يزل أعزَّبَ إلى أن يموت، وكذلك الأثني إذا قَعْدَتْ ذكرها؛ وفيه أُلْفَةٌ للبيوت، وعنده احتباس.

(٢) ومنها الدَّرَاجُ - بفتح الدال، وكنيته أبو الحجاج وأبو خَطَّار: وهو طائر ظاهر جناحيه أغبر وباطنهما أسود، على خِلْقَةِ الْقَطَا إلا أنه أَلْطَفُ. وهو يطلق على الذكر والأثني؛ والجاحظ يعدُّه من جنس الحَمَامِ لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام، والناس يعبرون عن صوته بأنه يقول "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ". ويقال إنه طائر مبارك؛ وهو كثير التاج، يبشر بِقُدُومِ الرِّبْع؛ وهو يصلح بهبوب الشمال، وصفاء الهواء، ويسوء حاله بهبوب الجنوب حتى لا يقدر على الطيران.

ومنها العُصْفُورُ - بضم العين، وحكى ابن رَشِيقٍ في كتاب الغرائب فتحها، والأثني عُصْفُورَةٌ، وكنيته أبو الصَّفْوِ، وأبو مُحَرِّز، وأبو مُرَاحِم، وأبو يعقوب. قال حمزة:

(١) الذي في حياة الحيوان أنه بالكسرا.

(٢) في حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال أما الذي بالفتح فهو القنفذ.

سمى عصفورا لأنه عصى وفر، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالدورى، ووكزه العُمران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلت مدينة من أهلها ذهبت العصافير منها؛ وهو كثير السَّفَاد حتى إنه ربما سَفَدَ في الساعة الواحدة مائة مرة، ولفرخه تدرّب على الطيران حتى إنه يدعى فيجيب . قال الجاحظ : بلغنى أنه يرجع من فرسخ .

ومنها الشَّخْرُورُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة ، وهو طائر أسود فَوْيَقَ العصفور له صوت شجيّ ، ويكون بأرض الشام كثيرا .

ومنها الهَزَّارُ - بفتح الهاء والزاى المعجمة ، طائر نحو العصفور له صوت حسن ويسمى العنْدَلِيب أيضا ويجمع على عَنَادِل .

ومنها البُلْبُلُ - بضم الموحدين وسكون اللام الأولى والثانية ، وهو طائر أسود فوق العصفور ، والجحرى منه فوق ذلك ؛ ويقال له الثُّغْرُ - بضم النون وفتح الغين المعجمة وراء مهملة فى الآخر، والكُعَيْتُ - بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة فوقية فى الآخر، والجَمِيلُ - بضم الجيم، وقد ثبت فى الصحيحين من رواية أنس رضى الله عنه أنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلُقًا، وكان لى أخٌ لأمِّي فَطِيمٌ يقال له عُمَيْرٌ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال : يا أبا عُمَيْر، ما فَعَلَ الثُّغَيْرُ؟ لثُغْرَ كان يلعب به " .

ومنها السَّمَانِي - بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدد ميمه، وهو طائر معروف فوق العصفور ويجمع على سَمَانِيَّات : وهو من الطيور التى لا يعرف من أين تأتى، بل يأتى فى البحر الملح يغوص بأحد جناحيه فى الماء ويقمى الآخر كالقَلْع للسفينة

(١) قال فى حياة الحيوان انه كسحنون وكذلك ضبطه فى القاموس بالضم .

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناصخ .

فتدفعه الريح حتى يأتى الساحل ؛ وكثيرا ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت في الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحسون - وتسميه أهل الجزيرة والشام وحلب وتوابعها زيقية ، وهو طائر فطن ، ويسميه الأندلسيون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه سينا ؛ وهو عصفور ذو ألوان : حمرة وصفرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة ؛ وهو قابل للتعليم يُعَلَّمُ أخذ الشيء كالفلس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيان به لصاحبه .

ومنها أبو برّاقش - بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتلون ألوانا ، وبه يضرب المثل في التلون .

ومنها الزاغ - بزى وغين معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغربان صغير أخضر اللون لطيف الشكل حسن المنظر ، وقد يكون أحمر المتقار والرجلين ، وهو الذى يقال له غراب الزيتون ، سمي بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغدأف - بضم الغين المعجمة وبالذال المهملة والفاء في آخره ، وهو غراب ^(١) الغيط ويجمع على غدافان بكسر الغين ؛ قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدري : هو غراب صغير أسود لونه كلون الرماد ، وقد قال النووي في الروضة بتحريمه وإن كان الرافعي قد جزم بحلّه ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع - وهو غراب أسود المتقار ؛ وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثاني - ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس - ويجمع على طاوايس ، وهو طائر في نحو مقدار الإوزة حسن

(١) الذى فى القاموس وحياة الحيوان غراب القيط .

اللون ، والذكر منه غايَةٌ في الحُسْنِ ؛ له في رأسه ريش خضر قائمة كالشربوش ، وفي ذنبه ريش أخضر طويل في أحسن منظرٍ ، وليس للأُنثى شئ من ذلك ؛ وهو في الطير كالفرس في الدواب عزا وحُسنًا ؛ وفي طبعه الزَّهْوُ بنفسه والحِيلَاءُ والإعجاب بريشه ، والأُنثى منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفي هذا الحد يكمل ريش الذكر ويتم لونه ، ويبضه مرة واحدة في السنة ، ويكون بيضه من آتنتي عشرة بيضة إلى ما حولها ، ولا يبيض متتابعًا ، وسَفَادُهُ في أيام الربيع ، وفي الخريف يُلقِي ريشه كما يُلقِي الشجر ورقه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ؛ وهو كثير العبث بالأُنثى إذا حَصَنَتْ وربما كسر بيضها ؛ ولذلك يُحْضَنُ بيضه تحت الدجاج لكن لا تقوى الدجاجة على حَضْنِ أكثر من بيضتين منها ، وتُعَاهِدُ الدجاجة بالطَّعْمَةِ والسقية وهي راقدة عليه ، كيلا تقوم عنه فيفسد بالهواء إلا أن ما تحضنه الدجاجة يكون ناقص الحنة عما تحضنه أنثاه ، وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ؛ ومدة حضنه ثلاثون يومًا ؛ وفرخه يخرج من البيضة كالفرج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها السَّمْنَدُلُ - بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وفتح الدال المهملة .
ولام في الآخر ، وقال الجوهرى : السَّمْنَدُلُ بغير ميم . وقال ابن خَلَّكَانَ : السَّمْنَدُلُ بغير لام : وهو طائر يكون بأرض الصِّين والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتى يقال إنه يبيض ويُفَرِّخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها ، ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها فإذا آتسخت ألقيت في النار فتأكل النار وسخها ولا تتأثر هي في نفسها . قال ابن خَلَّكَانَ في ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على هيئة حزام الدابة في طوله وعرضه ، فالقيت في النار فأثرت فيها فغمس أحد جوانبها في الزيت وجعل في النار فأشتعل وبق زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو على حاله

لم يتغير، قال : ورأيت بخط عبداللطيف البغدادى أنه أُهْدَى للظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعة منه عرض ذراع فى طول ذراعين ، فغمست فى الزيت وقربت من النار فاشتعلت حتى فنى الزيت ، ثم عادت بيضاء كما كانت ، وبعضهم يقول إنه وحش كالثعلب وإن ذلك يعمل من وبره .

ومنها البيّغاء - بيّعين مفتوحين الأولى منهما مخففة والثانية مشددة وغين معجمة بعدها ثم ألف ؛ وهو المعبر عنه بالدرّة بدال مهملة مضمومة ، وقال ابن السمعاني فى الأنساب : هى باسكان الباء الثانية ، وهى طائر أخضر اللون فى قدر الحمام يحاكى ما يسمعه من اللفظ ؛ ثم هى على ضريين : هِنْدِيٌّ وهى أكبر جثة ومنقارها أحمر ، ونُوِيٌّ وهى أدونها ومنقارها أسود ، ويقال : إن منها نوعا أبيض ، ويذكر أنه أُهْدَى لمعز الدولة ابن بويه بيّغاء بيضاء اللون سوداء المنقار والرجلين ، على رأسها ذؤابة فسّسيّة ؛ وهى طائر دُمِث الأخلاق ، ثاقب الفهم ، له قوّة على حكاية الأصوات وقبول التلقين ، تختذه الملوك والأكابريّين بما يسمع . ومن شأنه أنه يتناول طعمه برجله كما يتناول الإنسان بيده ؛ والهنديّ منه أقرب إلى التعليم من النوبيّ .

ومنها أبو زُرِّيقيّ - بزاي مضمومة ثم راء مهملة وفى آخره قاف ، ويقال له القيق بكسر القاف والزُرِّيَابُ بزاي معجمة مكسورة ثم راء مهملة ساكنة ثم ياء مثناة تحت وبعد الألف باء موحدة ؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم ، سريع الإدراك لما يعلم ، وقد يزيد على البيّغاء إذا أنجب ، بل إذا تعلم جاء بالحروف مبينة حتى يظن سامعه أنه إنسان ، بخلاف البيّغاء فإنها لا تفصح كل الإفصاح .

ومن غريب ما يحكى فى أمره ما حكاه صاحب "مَنَظِقِ الطير" أن رجلا خرج من بغداد ومعه أربعائة درهم ، لا يملك غيرها ، فوجد فى طريقه عتّة من فراخه

فاشترها بما معه ثم رجع إلى بغداد فعلةها في أفاص في حانوته ، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلها إلا واحدا كان أضعفها وأصغرها فتقل ذلك عليه وبات ليلته تلك يتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادى يا غياث المستغيثين أغنى ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذي بقى يصيح بلسان فصيح : يا غياث المستغيثين أغنى ، فأجتمع الناس عليه يسمعون صوته فأجتازت جارية للخليفة فأشترته منه بألف درهم .

ومنها الهدد - بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما ، وهو طائر معروف ذو خطوط موشية وألوان ، ويجمع على هداهد ، ويذكر عنه أنه يرى الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج ، قوة ركبها الله تعالى فيه ، ولذلك عُني به سليمان عليه السلام مع صغره كما قاله البيهقي في "شعب الإيمان" . ويقال : إنه كان دليلا لسليمان عليه السلام على الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة في التنزيل . وقد ذكر الزمخشري أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هدهدا آخر ، فحكي له عظيم ملك سليمان ، فحكي له ذلك الهدد عظيم ملك بلقيس باليمن ، فذهب ليكشف الخبر فلم يرجع إلا بعد العصر ، فلما عاد إليه توعده فأرعى رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه ، وقال : يا نبي الله أذكر وقوفك بين يدي الله ! فأرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخطاف - بضم الخاء المعجمة ويجمع على خطاطيف ، وهو طائر في قدر العصفور ، أسود ، وباطن جناحيه إلى الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يعرض عن أقواتهم ويقتات البعوض والذباب . ومن شأنه السكنى في البيوت المعمورة بالناس في أفاحيص بينيها من الطين ، ويختار منها السقوف والأماكن التي لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبي في تفسيره في سورة النمل أن سبب قرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض ، استوحش ، فأنسه الله تعالى بالخطاف وألزمه البيوت فهو لا يفارق بني آدم أنسألهم ، ولخفاش يعاديه

فلذلك إذا أفرخ جعل في عُشِّه قُضْبَانَ الكَرَفِيسَ لِيَنْفِرَ الْخُفَّاشَ عنها .

ومن عادته أنه لَا يُفْرِخُ في عُشِّ عَتِيقٍ حَتَّى يُطَيِّنَهُ بِطِينٍ جَدِيدٍ، وَلَا يَلْقَى شَيْئًا مِنْ ذَرْقِهِ في عُشِّه بَلْ يَلْقِيهِ إِلَى مَا شَاءَ ؛ وَإِذَا سَمِعَ حَسَّ الرِّعْدِ يَكَادُ يَمُوتُ ، وَيُوجَدُ في عُشِّهِ حَجَرُ الْيَرْقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق على من به الْيَرْقَانُ أو شرب من سُحَالَتِهِ بَرِيءٌ ؛ وَإِنَّمَا يَأْتِي بِهَذَا الْحَجَرِ إِذَا أَصَابَ فِرَاحَهُ الْيَرْقَانُ ، وَلِذَلِكَ يَحْتَالُ بَعْضُ النَّاسِ بِلَطْخِ فِرَاحِهِ بِالزَّعْفَرَانِ لِيُظَنَّ أَنَّ الْيَرْقَانَ قَدْ أَصَابَهَا فَيَأْتِي إِلَيْهَا بِهَذَا الْحَجَرِ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ .

ومن الخطاطيف نوع آخر أَلَطْفُ قَدْرَا مِنْ هَذَا ، يَسْكُنُ شَطُوطَ الْأَنْهَارِ وَجَوَانِبَ الْمِيَاهِ ، وَعَدَّوْا مِنْ أَنْوَاعِهِ أَيْضًا الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ مِصْرَ الْخُضَيْرِيَّ ، وَهُوَ طَائِرٌ أَخْضَرُ دُونَ الْبَبْغَاءِ فِي الْمَقْدَارِ لَا يَزَالُ طَائِرًا وَهُوَ يَصِيحُ ، يَقْتَاتُ الْقَرَّاشَ وَالذَّبَابَ .

ومنها الصُّرْدُ - بضم الصاد وفتح المزملة ودال مهملة في الآخر ، ويجمع على صِرْدَانٍ . قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ : سَمِيَ صُرْدًا ، حِكَايَةً لَصَوْتِهِ ، وَيُسَمَّى الْوَاقِ بِكَسْرِ الْقَافِ ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو كَثِيرٍ ، وَهُوَ طَائِرٌ فَوْقَ الْعَصْفُورِ ، نَصْفُهُ أَبْيَضُ وَنَصْفُهُ أَسْوَدُ ، ضَخْمُ الرَّأْسِ ، ضَخْمُ الْمَنْقَارِ وَالْبَرَّانِ ، لَا يُرَى إِلَّا فِي شَعْفَةِ أَوْ شَجَرَةٍ بِحَيْثُ لَا يَتِمَدُّ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَهُ صَفِيرٌ مُخْتَلَفٌ . وَمِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ يَصِيدُ الْعَصَافِيرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، فَيَصَفِّرُ لِكُلِّ طَيْرٍ يَرِيدُ صَيْدَهُ بِلَفْتِهِ ، يَدْعُوهُ إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْهُ فَيَنْبِ عَلَيْهِ فَيَأْكُلُهُ ، وَالْعَرَبُ تُنْشَاءُ بِهِ وَتَنْفِرُ مِنْ صِيَاحِهِ ، وَهُوَ مِمَّا وَرَدَتْ الشَّرِيعَةُ بِالْهَيْ عَنْ قَتْلِهِ .

ومنها الْعَقَّاقُ - بعيين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة ، وربما قيل فيه الْقَعْقَعُ عَلَى الْقَلْبِ ، قَالَ الْجَاهِظُ : سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْقُ فِرَاحَهُ فَيَتَرَكُهُمْ أَيْامًا بِلَا طُعْمٍ . وَيُقَالُ لَصَوْتِهِ الْعَقَّعْمَةُ : وَهُوَ طَائِرٌ عَلَى قَدْرِ الْحَمَامَةِ فِي شَكْلِ الْغُرَابِ وَجَنَاحَاهُ أَكْبَرُ مِنْ جَنَاحِي الْحَمَامَةِ ، ذَوَاوَيْنِ : أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ ، طَوِيلُ الذَّنَبِ . وَمِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ

لا يَأْوِي تحت سَقَف ولا يَسْتَظِل به ، بل يَهْيئ وَكْرَه في المَوَاضِع المُشْرِفَة ، وفي طبعه الزنا والخيانة ، ويوصف بالسرقة والخُبث ، وإذا رأى حُلِيًّا أو عِقْدًا ، أَخْطَفَه ؛ والعرب تضرب به المَثَل في جميع ذلك ، وإذا باضت الأُنثى منه أَخَفَتْ بيضها بورق الدُّلْبِ خوفاً عليه من الخُفَّاش ، فإنه متى قُوب من البيض مَذَرَ وتغير من ساعته . ويقال إنه ينجأ قُوته كما ينجؤه الإنسان والنملة إلا أنه ينسى ما ينجؤه ، وبعضهم يعتده في جملة الغُرَبان ، وفيه وجه عندنا بحل أكله .

ومنها الشَّقْرَاقُ - بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية ، ويجوز فيه كسر الشين أيضاً ، وربما قلبوه فقالوا الشَّرْقَاق ، ويسمى الأَخِيل أيضاً ، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضر مُشْبَع الخُضرة ، حسن المنظر في أجنحته سواد ، والعرب تُنشأ به . وفي طبعه الشره حتى إنه يَسْرِق فِرَاحَ غيره وعدّه الجاحظ نوعاً من الغُرَبان ، ويكثر ببلاد الشام والروم وخِرَاسَانَ . ولا يزال متباعداً من الإنسان ، يألف الرّوَّابِي ورؤوس الجبال ، إلا أنه يَحْضُنُّ بيضه في عوَالِي العُمُرَان التي لا تَنَالُها الأيدي . وعُشُّه شديد البُنيان ، وله مَشَتَّى ومَصِيف . قال الجاحظ : وهو كثير الاستغاثَة ، إذا مرَّ به طائر ضربه ينجأه وصاح كأنه هو المضروب . وفيه وجه بحل أكله .

ومنها الغُرَابُ الأَبْقَع - قال الجوهري : وهو الذي فيه بياض وسواد ، ويسمى غراب الدين أيضاً ، قال صاحب "المجالسة" سمي بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حين أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع . قال ابن قتيبة : وجعل فاسقاً لأجل ذلك ، ويسمى الأعور إتماً لأنه يُغْمَضُ إحدى عينيه لقوة بصره ، وإما لصفاء عينيه وحدة بصره من باب الأضداد . ومن طبعه الخيانة والسرقة والعرب تُنشأ به وتكره صوته . وقد سبق القول على ذلك في أوابد العرب من هذه المقالة .

ومن طبع الغراب الأستار عند السَّفاد وأنه يَسْفِدُهَا مواجهة مُلْقاة على ظهرها ،
والأشْيُ تبيض أربع بيضات ونحسا ، وإذا خرجت الفِراخ من البيض نفر عنها
الأبوان لبشاعة مَنْظَرِها حينئذ فتغذى من البعوض والذباب الكائن في عَشِّها حتى
ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها، وعلى الأثنى الحَصْنُ وعلى الذكر أن يأتيها بالطَّعم ؛
وفيه حَذَرٌ شديد وتناصُر، حتى إنه إذا صاح الغراب مستنصرا آجتماع إليه عدَّة
من الغُربان .

ومنها الغُراب الأسود الكبير - وهو الجَلَبَلِيّ ؛ وفيه وجه بجله .
ومنها الحِدَاةُ - بكسر الحاء والهمز الطائر المعروف ويجمع على حَدَاٍ وحِدَاٍن .
ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ ، وهي لا تصيد بل تخطف ، ومن طبعها أنها تَصُفُّ
في الطيران وليس ذلك لشيء من الكواسر غيرها ، وزعم ابن وحشية وابن زهر أن
الحِدَاةَ والعُقَابَ يتبدلان فتصير الحِدَاةُ عُقَابًا والعُقَابُ حَدَاةً . وربما قيل الغراب
بدل العُقَابِ ؛ ويقال : إنها تصير سنَّةً ذكرا وسنَّةً أنثى ، ويقال : إنها أحسن الطير
بجاورة لما جاورها من الطير حتى لو ماتت جوعا لاتعدو على فرخ جارتها . وفي طبعها
أنها إنما تختطف ممن تختطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتى يقال إنها عسراء ؛
وقد ثبت في الصحيحين حل قتلها في الحل والحرم .

ومنها الرَّحْمَةُ - بفتح الراء المهملة والحاء المعجمة ، وكنيتها أم جَعْرَان ، وأم رِسَالَةَ
وأم عَجِيبة ، وأم قَيْس ، وأم كثير . ويقال لها الآنُوقُ بفتح الهمزة ؛ وهي طائر أبقع بياض
وسواد فوق الحِدَاةِ في المقدار تأكل الحَيْفَ ، وهي معدودة في بُغَاثِ الطير ، وهي
تسكن رؤوس الجبال العالية وأبعدها من أماكن أعدائه ، ولذلك تضرب العرب المثل

بيضه فيقولون : ”أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ“ والأُنثَى لا تمكن من نفسها غير ذكراها
وتبيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البومة - بضم الباء الموحدة وفتح الميم - للذكر والأنثى : وهو طائر من طير
الليل في قَدْر الإوزة ، لها وجه مستدير بالريش النابت حوله ، يشبه وجه الآدمي
في صفرة عينين وتوقد ههما ؛ ويقال للذكر منها الصَّدَى والضَّوْعُ - بضم الضاد
المعجمة - والفيَّاد - بالفاء وتشديد المثناة تحت ، ويقال للأنثى الهامة . وكنية الأنثى
أُمُّ الْخَرَّابِ ، وأُمُّ الصَّيَّيَانِ ؛ ولها في الليل قُوَّة سلطان لا يحتملها شيء من الطير ؛
تدخل على كل طائر في وكره في الليل فتُخْرِجه منه وتأكل فراخه ويبيضه ، ولا تنام
الليل ؛ والطير بجملته يُعَادِيها من أجل ذلك ، فإذا رَأَوْهَا في النهار قتلوها وتَفَقَّو ريشها ،
ومن ثم يجعلها الصيَّادون في شبا كههم ليقع عليها الطير فيقتنصونها ؛ فهي لا تظهر
بالنهار لذلك . ونقل المسعودي في مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنع من
ظهورها في النهار خوفاً من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصوّر في نفسها
أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنى الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يحكى ما ذكره الطرطوشي في ”سراج الملوك“ : أن عبد الملك بن مروان
أرق ليلة فاستدعى سميّاً يحدثه ، فكان مما حدثه أن قال : يا أمير المؤمنين كان
بالبصرة بومة وبالموصل بومة فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بنتها لأبنها -
فقاتلت بومة البصرة : لأفعل حتى تجعلى في صداقها مائة ضيعة خراب - فقالت بومة
الموصل : لأقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة
فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للظالم .

ومنها البُؤة - بضم الباء وفتح الحمزة - قال الجوهري : وهو طائر يشبه البومة إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيلة في أدب الكاتب نحوه ، ويقال له البُوهة أيضا ، وهي من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التي يسميها الناس في زماننا المصاصة ويزعمون أنها تنزل على الأطفال فتمصُّ أنوفهم .

ومنها الخُفَّاش - بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء وبالشين المعجمة ، ويجمع على خَفَافِيشَ - وهو طائر غريب الشكل والوصف لاريش عليه ، وأجنحته جلدة لاصقة بيده ، وقيل لا صفة بجنبه ، وسمى خُفَّاشا لأنه لا يبصر نهارا ، وبه سمي الرجل أخفش ، والعامة تسميه الوطواط ، وقيل الخُفَّاش الصغير ، والوطواط الكبير ، ويقال إن الوطواط هو الخُطَّاف لا الخُفَّاش . وليس هو من الطير في شيء ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، ويحيض ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويول كما تبول ذوات الأربع ، ويُرِضع ولده من ثديه . ولما كان لا يبصر نهارا آلتبس وقتا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هيجان البعوض فالبعوض يخرج في ذلك الوقت يطلب قُوته من دماء الحيوان ، والخُفَّاش يخرج اطلب الطَّعم فيقع طالب رزق على طالب رزق ، ويقال إنه هو الذي خلقه المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مبينا لغيره من الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبَغْضَةً له وتسطو عليه ، فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منها لا يأكل اللحم قتله ، وهو شديد الطيران ، سريع التقلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه ، وهو موصوف بطول العمر حتى يقال : إنه أطول عمرا من النَّسْرِ ، وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يَسْفِدُ وهو طائر في الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) لم يهزه أحد من اللغويين بل ذكره في باب الهاء وقد رسم في الصحاح بالواو وكذا في القاموس وقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه حنواً عليه، وربما أَرْضَعَتْ
الأنثى ولدها وهي طائرة. وفي طباعه أنه متى أصابه ورق الدلب خدر ولم يطر،
وقد ورد النهي عن قتله .

فإذا عرف الكاتب أحوال الطير وخواصها، تصرف فيها بحسب ما يحتاج إليه
في نظمه ونثره كما في قول الشاعر :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها، * نيم، فالخاوف كلهن أمانُ
وأصطد بها العتقاء فهي حبال، * وأفتد بها الجوزاء فهي عنانُ

إشارة إلى عظم العتقاء وعدم القدرة على مقاومتها، ومع ذلك تنقاد بالسعد. وكما
في قول أبي الفتح كشاجم، مخاطباً لولده يطلب البر منه :

اتَّخِذْ فِي خَلَّةٍ فِي الْكَرَاكِي * اتَّخِذْ فِيكَ خَلَّةَ الْوَطْوَاطِ
أنا إن لم تَبْرِّني في عناء * فيبري ترجو جواز السراط

يشير إلى ما تقدم من أن في طبع الكركي بر والديه إذا كبراً، كما أن في طبع
الوطواط بر أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه؛ وكما في قول الشاعر :

مثل النهار يزيد إِبْصَارَ الْوَرَى * نُوراً، وَيُعْنِي أَعْيُنَ الْخُفَّاسِ

إشارة إلى أن الخفَّاس لا يُبْصِرُ نهاراً، بخلاف سائر أرباب الأبصار؛ وكما قيل
في وصف شارد عن القتال :

وَهُمْ تَرْكُوهُ أَسْلَحَ مِنْ حُبَارَى، * رَأَى صَقْرًا، وَأَشْرَدَ مِنْ نَعَامِ^(١)

يريد ما تقدم مما يعرض للباري من إرسالها سَلَحَهَا على الجارح عند اقتناصه
لها، وأت النعام في غاية ما يكون في البرية من الشراد والنقار، ونحو ذلك مما
يجرى هذا المجرى .

(١) ورد هذا البيت في حياة الحيوان هكذا : وهم تركوك رأيت

الصنف الرابع

(الحمام)

وقد اختلف في الحمام في أصل اللغة فنقل الازهرى عن الشافعى رضى الله عنه أن الحمام يطلق على كل ماعب وهدر وإن تفرقت أسماؤه، فدخل فيه الحمام، واليمام، والدبابسى، والقمارى، والفواخت وغيرها. وذهب الأصمعى إلى أن الحمام يطلق على كل ذات طوق كالفواخت والقمارى وأشباهاها. ونقل أبو عبيد عن الكسائى سماعا منه أن الحمام هو الذى لا يألّف البيوت، وأن اليمام هو الذى يألّف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمام هذا النوع المخصوص المعروف .

ثم هو على قسمين .

أحدهما ما ليس له أهتداء في الطيران من المسافة البعيدة . والثانى ماله أهتداء، ويعرف بالحمام الهدى وهو المراد هنا ؛ وقد أعتنى الناس بشأنه في القديم والحديث، وأهتم بأمره الخلفاء : كالمهدى ثالث خلفاء بنى العباس، والواثق، والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق، لاسيما بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في آفتنائه، ولهجوا بذكره، وبالغوا في أثمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار ؛ ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار ؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراة بعشرين دينارا ، وإنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب، وإنه كان لا يتمتع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبار عنها، والوصف لأثرها والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى بكر بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر، وكان فى فضله وعقله ودينه وورعه ما لم يكن عليه قاض، بجمادات لهم مع ثقات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، وكان الحمام عندهم متجرا من المتاجر لا يروون بذلك بأما .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ - يعني في الديار المصرية والبلاد الشامية - من الموصِل وأق أول من آتني به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله في سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد آتني بعض المصنفين بأمره ، حتى صَنَفَ فيه أبو الحسن بن ملاعب القواس البغدادى ، كتابا للناصر لدين الله العباسي ، ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر ، وريشه ، والوشوم التي توشم في كل عضو ، وألوان الطيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعض المسافات التي أُرْسِلَتْ منها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري مجرى ذلك . وذكر في "التعريف" أن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمام الحمام" ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأول

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القواس : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلى ذكر ألوان ستة .

اللون الأول البياض - ومنه الأبيض الصافي ، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة ؛ فإن كان الغالب في شُقرته البياض ، قيل فِضِّي ؛ فإن زاد ، قيل أشقر .
اللون الثاني الخضرة - إن كانت خضرته مُشَبَّعة إلى السواد ، قيل أخضر مسنن ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل نَبَّيُّ الخضرة ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل صافي الخضرة ؛ فإن تكثرت خضرته بأن لم يكن صافي الخضرة ، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرَة - وهي عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلى البياض، فإن كان صافيا، قيل أصفر قرطاسي .

اللون الرابع الحمرة - إذا كان شديد الحمرة، قيل عُنَّايي، فإن كان دون ذلك، قيل نَمْرِي، فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقِي، فإن كانت حُمْرته تضرب إلى الخضرة، قيل أ كُفَّا، فإن كانت حمرته تضرب إلى البياض، قيل أحمر صدقي .

اللون الخامس السواد - إذا كان شديد السواد لا بياض فيه، قيل أسود مُطْبِق، فإن كان لون سواده ناقصا، قيل أسود أخلس، فإن كان سواده يضرب إلى الخضرة، قيل أسود رَمَادِي، فإن كان في سواده مائية، قيل أسود بَرَّاق، فإن كان ساقاه أيضا أسودين، قيل أسود حالك وأسود زَنْجِي .

اللون السادس النَمْرِي - وهو أن يكون في الطائر نقط يخالف بعضها بعضا، ويختلف الحال فيه باختلاف كبر النقط وصغرها، فتارة يقال مدنر، وتارة يقال ملمع، وتارة يقال أبرش، وتارة يقال مُوشَّخ، وتارة يقال أبقع، وتارة يقال أبلق، وتارة يقال دبَّاسي، وتارة يقال مُدَّرَع إلى غير ذلك مما لا يُستوفى كثرة . ثم إن كان الطائر أكل العينين وحول عينيه حمرة، قيل فقيع، فإن كان أصفر العين، قيل أصفر زَرِينِي، فإن كان أبيض العنق، قيل هَلَالِي، وهو أحسنها، والأصفر العين بعده، فإن كانت العين بيضاء وفيها حمرة، قيل رُمَانِي العين .

الامر الثاني

(في عدد ريش الجناحين والذنب المعتد به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، في كل جناح منهما عشر ريشات، الأولى منها - وهي التي في طرف الجناح - تسمى الصمة، والثانية وهي التي بعدها تسمى

المُضَافَةُ الرَّئِيسِيَّةُ ، والثالثة وهى التى بعدها تُسمى الواسطية ، والرابعة وهى التى بعدها تسمى المُضَافَةُ ، والخامسة وهى التى بعدها تسمى المنظفة ، والسادسة وهى التى بعدها تسمى المنجذرة ، والسابعة وهى التى بعدها تسمى الناقصة ، والثامنة وهى التى بعدها تسمى المؤنسة ، والتاسعة وهى التى بعدها تسمى الزائلة ، والعاشرية وهى التى بعدها تسمى المعينة .

وبعضهم يسمى الأولى الصغيرة ، والثانية الرقيقة ، والثالثة الموفية ، والرابعة الباحلة ، والخامسة الحيرة ، والسادسة الصرافة ، والسابعة ممسكة الرمى ، والثامنة والتاسعة الحافظتين ، والعاشرية المملكة .

وربما كان فى كل جناح إحدى عشرة ريشة فيسمى الطائر حينئذ أعلم .
ولهذه الريشات العشر عشر ريشات مع كل واحدة منها رادفة : وهى الريش الصَّغَارُ التى تغطى قصب الجناح من ظاهره ، ولكل ريشة من هذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطى قصبها ، لكل واحدة منها اسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا الخَوَافِى ، وهى الريش المسطَّر مع العشر ريشات الطَّوَالِ المنقلب برعوسه إلى مؤخر الجناح . وهى تسع ريشات ، الأولى منها تسمى الحدقة ، والثانية الرِّمَّةُ ، والثالثة الغرَّةُ ، والرابعة الحز ، والخامسة الجائرة ، والسادسة المسائمة ، والسابعة الملازمة ، والثامنة الشعثة ، والتاسعة اللامعة . وبعضهم يسمى الأولى بنت الملكة ، والثانية الإبرة ، والثالثة المقشعة ، والرابعة الصافية ، والخامسة المصفية ، والسادسة المصفرة ، والسابعة الزرقاء ، والثامنة السوداء ، والتاسعة المزرقَّة . وعد فيها عاشرية تسمى المخضرة - ولكل ريشة من الريشات التسع ريشة صغيرة تغطى قصبها لها اسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافى الغفار ، ولكل ريشة من الغفار ريشة صغيرة من باطنها تغطى قصبها .

ومن ريش الجناحين المَقَوَّات : وهي ثلاث ريشات في طَرْف الجناح ، تسمى الزوائد . ومن فوقها ثلاث ريشات صفراء تغطي قصبتهَا ، تسمى العَوَاشِي ، وأصلها مع أصل^(١) أيضا .

وأما الذَّنْبُ ، فالمعتبر فيه اثنتا عشرة ريشة من كل جانب : منه ست ريشات تسمى الأولى منها الغزالة ، والثانية العُرُوس ، والثالثة الباشقة ، والرابعة الباقية ، والخامسة المجاورة ، والسادسة العمود ، ومن الجانب الآخر كذلك .

الأمر الثالث

(الفرق بين الذكر والأنثى)

وقد ذكروا بينهما فروقا ؛ منها أن الأنثى إذا تمشت ، قَدَمَتِ الرَّجُلَ اليسرى ؛ والذكر يُقَدِّمُ الرَّجُلَ اليمنى . ومنها أن يرى الذكر مُقْتَدِرًا في الأرض مُسْتَشِيطًا ، والأنثى بالضد من ذلك ؛ ومنها أن ريش الذكر أعرض وأطول وأحسن استواءً من الأنثى ؛ ومنها أن مَذَنَجَ الذكر يكون عريضاً ومَذَنَجَ الأنثى دقيقاً ؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريضاً والخدَّ والأنثى بالضد من ذلك ؛ ومنها أن الأنثى إذا طارت فتحت جناحيها والذكر إذا طار أخرج عَشْرِيه .

الأمر الرابع

(في بيان صفة الطائر الفاره)

قال أبو الحسن القواس : علامته أن يكون رأسه مكعباً ، وعينه معتدلةً ، غير ناتئة ولا غائرة ، ولا فاترة ، ولا قلقة متزعجة ؛ وأن يكون منقاره غليظاً قصيراً ؛ وأن يكون وسط المنخيرين ، مُكَلَّمًا الْقَرِطَمَتَيْنِ ، أَهْرَتَ الشَّدَقَيْنِ ، واسع الصدر ، نَقِيَّ الرِّيشِ ،

(١) - لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يفيد المقام تأمل .

طويل الفخذين ، قصير الساقين ، غليظ الاصابع ، شثن البرائن ، طويل القوائم من غير إفراط .

ويستحب فيه قصر الذنب ، ودقته ، واجتماع ريشه من غير تفرق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القصر أقرب ؛ وأن يكون جوجه : وهو جانب الصدر طويلا ممتدا ، وعقه طويلا منتصبا ، وريش قوائمه وخوافيه مبنيًا متطابقا بعضه مع بعض من غير تفرق ولا تمعط ، وأن يكون شديد اللحم ، مكتنزا غير رخو ولا رهيل . ويستحب فيه أيضا أن يكون قليل الرعدة عند الفرع ، سريع اللقطة للحب ، خفيف الحركة والنهوض ، والتزول من غير طيش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مسطحا لا أحدب ولا أوقص ، ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدره ، ويرفع عنقه ، ويفتح ما بين نخديه شبه البازي .

ومن علامة فراسته أنه إذا طال عليه الطيران ^(١) وأراد النزول على سطحه أن لا يذلّ رجليه حتى يقع صدره على سطحه لانه إذا دلت ساقيه ، كان عيبا عظيما يقولون قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدّى جميع ما عنده من القوة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المغرّز ، وطول الذنب ، وتفرق الريش .

الأمر الخامس

(الفراصة في الطائر من حال صغره قبل الطيران)

قالوا من علامة الطائر الفاره في صغره أن يكون حديد النظر ، شديد الحذر ، خفيف اللحم ، قليل الريش ، سريع النهضة ، كثير التلّفت في الجوّ ، ممتدّ العظم ، مستويا ، لطيف الذنب ، خارج العنق ، قصير الساقين ، طويل الفخذين ، محجّلا ،

(١) لعلّ الجار ومجروره من زيادة النسخ .

مذيل المتقار، مدور القراطيم، مضاعف المحاجر، يلزم موضعا واحدا من صغره إلى ازدواجه، فإذا ازدوج على السطح يكون حريصا على طائرته، حسن الأخلاق معها لا يطردُها طرد الكلاب، ولا يغتال غيلة الذئاب، قليل الذرق، كثير الدهن، مُدبلا بنفسه، كأنه يعلم أنه فاره. فإن كان فيه بعض هذه الخصال، كانت فرائته على قدر ما فيه من ذلك.

قال أبو الحسن الكاتب: ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيه الحركة وهو تحت أبيه وأمه، وكلما جمعه لتضمه تحتها، خرج من تحتها ويعتلق للفروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جلحا، وريش جسده وجناحه مستطيلا عند نبعه من جسده، وأن يطول ريشه حتى يغطي ظهره ولا ينتشر إلا بعد ذلك، وأن يكون من جَوْجُو الصدر إلى مَغْرِزِهِ أقصر من بطنه إلى رأس برائته.

وفي الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المتقار ليس فيه بياض، ورأس متقاره وأصله سواء، لاتحديد في رأسه، عريض القراطيم، غليظ الشدين، منتشر المنخرين، جهورى الصوت، غائر العين، قال أبو الحسن القواس: ولا تكون هذه الصفة إلا في الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم.

الأمر السادس

(بيان الزمان والمكان اللاتيين بالإفراخ)

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف أيلول، وتشرين الأول، وتشرين الثانى، وأذار، ونيسان، وإيار، فإذا وقع الإفراخ فى شئ من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوياء، مُجَبَّاء، أذكاء، ونُهِوا عن الإفراخ فى كانون الأول، وكانون الثانى، وشباط، وآب، وتموز، وحزيران، فإن الذى يُفْرِخ فيه لا يزال ناقص البدن، قليل الفطنة، يلقى ريشه فى السنة مرتين فيضعف.

وأما المكان فقد حكى عن إقليم الهندى أن أولى ما أفرخ الحمام بالشطوح ،
وذلك أن الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونة الهواء وحرّ الموضع فيصير له عادة
ثم لا ينهض حتى يعرف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزقّ والعائف فيعرف السطح
حق المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصعود والهبوط . وربما أخذه إلى الرعى
بالصحراء فلا يكمل حتى يصير شهما غارفا بأموال الطيران . بخلاف ما إذا أفرخ
بالسفل فإنه يتربّ جسده على برودة النىء ولين الهواء ، فإذا كل وترقّ إلى السطح
لقيه خشونة الهواء وقوة الحرّ ، فيحدث له الحرّ الجامد بفؤاده الكجّاد والدقّ .

الأمر السابع

(فى مسافة الطيران)

قد تقدّم أن طائرا طار من الخليج القسطنطينيّ إلى البصرة ، وأن الحمام كان
يُرسل من مصر إلى البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد فى كتابه ”جنى المحل وجنى
النحل“ أن العزيز ثنائى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه
مارأى القراصية البلبلية ، وأنه يحب أن يراها ، وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر
حمام من الشام ، فكتب الوزير بطاقة يأمر فيها من بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام
المصرى ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البلبلية وترسل ففعل ذلك فلم
يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القراصية فطاع بها إلى العزيز من يومه . وذكر
أيضا فى كتابه ”المغرب فى أخبار المغرب“ أن الوزير اليازورى المغربى وزير
المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينة تونس من افريقية من بلاد المغرب إلى
مصر فجاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القواس في كتابه في الحمام أنَّ حماما طار من عبادان إلى الكوفة ، وأن حماما طار من التُّرْنَاوْذ إلى الأُبَلَّةِ ونحو ذلك ، وسيأتى الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية في المقالة العاشرة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

النوع الخامس

(ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطة الملوك فلا بد أن يكون عارفا بصفات الجواهر وأثمانها والنفيس منها وخواصها لأنه ربما جرى ذكر شيء من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة في رفعة محله ، وعلو مقداره ، وهذا هو الذى عوّل عليه صاحب "موادّ البيان" في احتياج الكاتب إلى ذلك . والثاني أن يحتاج إلى وصف شيء من ذلك مع هدية تصدر عن ملكه أو هدية تصل إليه ، مع ما يحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والاستعارات التى هى عمود البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لا يحسن التعبير عنها ؛ ألا ترى إلى تشبيهات ابن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقع في نهاية الحُسْن ، وغاية الكمال لمعرفته بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبر كالمعاينة" وقد أعتنى الناس بالتصنيف فى الأحجار فى القديم والحديث .

فمن صنف فيه فى القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطا ليس ، وبلينوس ، وياقوس الإنطاكى .

ومن صنف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبى خالد المعروف بابن الجزار ، ويعقوب بن إسحاق الكندى وغيرهما . وأحسن مصنف فيه مصنف أبى العباس أحمد بن يوسف التيفاشى .

والذى يتعلق الغرض منه بذلك اثنا عشر صنفا .

الصنف الأول

(اللؤلؤ)

وهو يتكون في باطن الصدف ، وهو حيوانٌ من حيوان البحر الملح له جلد عظمي كالخزلون ، ويغوص عليه الغواصون ، فيستخرجونه من قعر البحر ، ويضعون به فيستخرجونه منه . وله مغاصات كثيرة ، إلا أن مظان النفيس منه بسرنديب من الهند ، وبكيش ، وعمان ، والبحرين من أرض فارس ، وأخضره أولو جزيرة خاراك ، بين كيش والبحرين .

أما ما يوجد منه ببحر القلزم وسائر بحار الحجاز فردى ، ولو كانت الدرّة منه في نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجيد اللؤلؤ في الجملة هو الشفاف الشديد البياض ، الكبير الحرم ، الكثير الوزن ، المستدير الشكل ، الذي لا تضرّيس فيه ، ولا تفرطح ، ولا أعوجاج . ومن عيوبه أن يكون في الحبة تفرطح ، أو أعوجاج ، أو يلصق بها قشر أو دودة ، أو تكون مجوفة غير مصمتة ، أو يكون ثقبها متسعا .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع في الدرّة أوصاف الجوّدة ، فما زاد على وزن درهمين ، ولو حبة يسمّى درّا . فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سمّيت حبة بلؤلؤ ، وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمّى حبة أيضا ، ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجوّدة فيها ، وتسمّى الحبة المستديرة الشكل عند الجوهريين الفارة ، وفي عرف العامة المدحرجة . ومن طبع الجواهر أنه يتكون قشورا رقاقا طبقة على طبقة حتى لو لم يكن كذلك فليس على أصل الخلقة بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سحق وسقى مع سمن البقر نفع من السموم .

وقال ارسطوطاليس : من وقف على حل اللؤلؤ من كبار وصغاره حتى يصير ماء رَجَاجاً ثم طلى به البرص أذهب به ، وقيمة الدرّة التي زنتها درهمان وحبّة مشلا أو وحبّتان مع اجتماع شرائط الجوّدة فيها سبعمائة دينار ، فإن كان اثنتان على هذه الصفة كانت قيمتهما ألفي دينار كل واحدة ألف دينار لاتفاقهما في النظم ، والتي زنتها مثقال وهي بصفة الجودة قيمتها ثلثمائة دينار ، فإن كان اثنتان زنتها مثقال وهما بهذه الصفة على شكل واحد لاتفرّق بينهما في الشكل والصورة ، كانت قيمتهما أكثر من سبعمائة دينار . وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية أنه كان عند خلفائهم درّة تسمّى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه في المواكب العظام على ماسياتي ذكره في الكلام على ترتيب دولتهم في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ويضّرّ جميع الأدهان ، والمخوضات بأسرها لاسيما الليمون ، ووهج النار ، والعرق ، وذفر الرائحة ، والاحتكاك بالأشياء الخشنة ، ويجلوه ماء حماض الأترج إلا أنه إذا أُنجِج عليه به قشره ونقص وزنه ، فإن كانت صفوته من أصل تكونه في البحر فلا سبيل إلى جلاؤها .

الصنف الثاني

(الياقوت)

قال بلينيوس : وهو حجر ذهبي ، وهو حصيّ يتكوّن بجزيرة خلف سرّنديب من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخاً ، دورها نحو ستين فرسخاً في مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الرّاهون تُحدّر منه الرياح والسيول الياقوت فيلتقط ، والياقوت حصاؤه . وهو الجبل الذي أهبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام ، فإذا لم تُحدّر السيول منه

شيئا، عمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان فذبجوه وسلخوا جلده وقطعوه قطعاً كباراً وتركوه في سفح ذلك الجبل فيختطفه سُور تاوى إلى ذلك الجبل فتصعد بالعم إلى أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذه النسور وتنزل به إلى أسفل فيسقط منه ما علو به من الياقوت؛ فإذا أخذ كان لونه مظلماً ثم يشف بملاقة الشمس ويظهر لونه على أى لون كان .

ثم هو على أربعة أضرب .

الضرب الأول الأحمر - ومنه البهرمان ، ولونه كلون العصفُر الشديد الحمره الناصع في القوة الذى لا يشوب حرته شائبة، ويسمى الرمانى؛ لمشايعته حب الرمان الرائق الحب؛ وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنا .

ومنه الخيرى : وهو شبيه بلون الخيرى : وهو المنشور، ويتفاضل في قوة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوردى : وهو كلون الورد ويتفاضل في شدة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردى الذى يضرب إلى البياض، والسماقى الذى يضرب إلى السواد. الضرب الثانى الأصفر - وأعلاه الجلتارى، وهو أشده صفرة، وأكثره شعاعاً ومائتة، ودونه الخلقى، وهو أقل صفرة منه، ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع .

وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال إلى البياض .

الضرب الثالث الأبيض - ومنه المهائى : وهو أشدها وأكثرها ماءً وأقواها شعاعاً، ومنه الذكر : وهو أثقل من المهائى وأقل شعاعاً وأصلب حجراً، وهو أدون أصناف

الياقوت وأقلها ثمنًا . وأجود الياقوت الأحمر البهرمانى والرمانى والوردى النير المشرق
اللون الشفاف ، الذى ينفذه البصر بسرعة . وعيوبه الشعرة : وهى شبه تشقيق يرى
فيه ، والسوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شئ من ترابية المعدن .
ومن أردأ صفاته قبح الشكل .

ومن خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة كما يقطعها الماس ، وليس يقطعه هو
على أى لون كان غير الماس .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينحك على خشب العُشْر الذى تجلى به جميع الأحجار ، بل
طريق جلالة أن يكسر الخزغ اليمانى ويحرق حتى يصير كالنورة ثم يسحق بالماء
حتى يصير كأنه الغراء ثم يحك على وجه صفيحة من نحاس حجر الياقوت ، فينجل
ويصير من أشد الجواهر صقالةً .

ومن خواصه أنه ليس لشيء من الأحجار المُسَفَّة شعاعٌ مثله ، وأنه أثقل من
سائر الأحجار المساوية له فى المقدار ، وأنه يصبر على النار فلا يتكلس بها كما يتكلس
غيره من الحجارة النفيسة ، وإذا خرج من النار بردًا بسرعة حتى إن الإنسان يضعه
فى فيه عَقِبَ إخراجِه من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة
وغيرها يتحول إلى البياض ، أما الحمره فإنها تقوى بالنار ، بل إذا كان فى الفص نُكْتَةٌ
حمراء ، فإنها تَنْسَعُ بالنار وتنسط فى الحجر . بخلاف النكتة السوداء فيه ، فإنها تنقص
بالنار فذهب حمرة بالنار فليس بياقوت بل ياقوت أبيض مصبوغ ، أو حجر
يشبه الياقوت .

ومن منافع ما ذكره أراطا ليس ، أن التختم به يمنع صاحبه أن يصيبه
الطاعون إذا ظهر فى بلد هوفيه ، وأنه يعظم لاسه فى عيون الناس ، ويسهل عليه

قضاء الحوائج، وتيسر له أسباب المعاش، ويقوى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لا تقع على من تختم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وأمتحانه أن يُحكَّ به ما يشبهه من الأحجار، فإنه يجرَّحُها بأسرها ولا تؤثر فيهِ . قال التيفاشي : وقيمة الأحمر الخالص على ما جرى عليه العرف بمصر والعراق أن الحجر إذا كان زنته نصف درهم، كانت قيمته ستة مثاقيل من الذهب الخالص، والحجر الذي زنته درهم قيمته ستة عشر دينارا، والحجر الذي زنته مثقال قيمته دينارين القيروط، والحجر الذي زنته مثقال وثلاث قيمته ثلاثة دنائير القيراط إلى ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائته وكبر جرمه حتى ربما بلغ ما زنته مثقال من جوده مائة مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهاية في الصَّبْغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالحك كثير من حرمة، وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم دينارين، وقيمة الأزرق والمساهاني كل درهم بأربعة دنائير، وقيمة الأبيض على النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص في الصَّبْغ والمائية مع القرب من المعدن والبعد عنه، وقد ذكر ابن الطوير في ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجر ياقوت أحمر في صورة هلال زنته أحد عشر مثقالا يُعرف بالخافر، يجعل على جبين الخليفة بين عينيه مع الدرة المتقدمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

(البَلَخْشُ)

قال في مسالك الأبصار : ويسمى اللَّعَل . قال بلينوس : وأعتقد في الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعد عن الياقوتية علل من اليُس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحُر، ومعدن البَلَخْش الذي يتكون فيه بنواحي بَلَخْشَان، والعجم

تقول : بَدْخْشَانْ بذال معجمة وهى من بلاد الترك تتاخم الصين . قال التيفاشى :
وأخبرنى من رأى مَعْدَنَه من التَّجَارِ أَنه وجد منه فى المعدن حجرا وفى باطنه ما لم
يكل طبخه وأنعقاده بعد ، والحجر مجتمع عليه ، وهو على ثلاثة أضرب : أحمر مَعْقَرٌ
وأخضر زَبْرَجِدِيٌّ ، وأصفر ، والأحمر أجوده . قال التيفاشى : وليس لجميعه شىء من
خواص الياقوت ومنافعه ، وإنما فضيلته تشبه به فى الصَّبْغِ والمائية والشعاع
لا غير . قال : وقيمته فى الجملة غالبا على النصف من قيمة الياقوت الجيد . قال
فى مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد
لا يوجد بعد التعب والإنفاق ، ولهذا عُرِى وجوده ، وَغَلَّتْ قيمته ، وكثر طالبه ،
والتفتت الأعناق إلى التحلى به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا من البَلَّخْشِ
قطعة وصلت مع تاجر فى أيام العادل كتبغا وأحضرت إليه وهو بِدَمَشَقْ ، وكانت
قطعة جليلة مثلية على هيئة المُشِيطِ العُودِيِّ . وهى فى نهاية الحسن وغاية الجُودَةِ ،
زنتها خمسون درهما ، كاد المجلس يُضَيء منها ، فأحضر الصاحبُ نَجْمَ الدين الحنفى
الجوهريَّ وسأله عن قيمتها فقال له نجمُ الدين الجوهريُّ : إنما يعرف قيمتها من
رأى مثلها ، وأنا وأنت والسلطان ومن حضر لم نرمثلها فكيف نعرف قيمتها ؟
فأُجِبَ بكلامه ، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع (عين الهر)

قال التيفاشى : وهو فى معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرة به أقدته عن
الياقوتية ، ولذلك إنما يوجد فى مَعْدِنِ الياقوت المتقدم ذكره ، وتخرجه الرياح

(١) فى ياقوت أنها فى أعلى طхарستان متاخمة لبلاد الترك .

والسيول كما تُخرجُ الياقوتَ على ما تقدّم ، قال : ولم أجده في كتب الأحجار ، وكأنه مُحدّثُ الظهور بأيدي الناس ، والغالب على لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة ، إلا أنه ترى في باطنه نُكْثَةً على قدر ناظر الحجر الحامل للنور المتحرك في فَصٍّ مقلته وعلى لونه : على السواد ، وإذا تحرك الفص إلى جهة ، تحركت تلك النكتة بخلاف جهته . فإن مال إلى جهة اليمين ، مالت النكتة إلى جهة اليسار وبالعكس ، وكذلك الأعلى والأسفل ، وإن كسر الحجر أو قطع على أقل جزء ، ظهرت تلك النكتة في كل جزء من أجزائه ، ولذلك يسمى عين الهر .

وأجوده ما أشتد بياض أبيضه وشفيفه ، وكثرت مائية النكتة التي فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها وإشراقها ، ولا يخفى أن حُسنَ الشكل وكِبَرَ الحرم يزيدان في قيمته كسائر الأحجار . قال التيفاشي : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء . ونقل عن بعض ثقات الجوهريين أنه يجمع سائر الخواص التي في الياقوت البهرمانى في منافعه ، ويزيد عليه بأن لا ينقص مال حامله ولا تعثره الآفات ، وأنه إذا كان في يد رجل وحضر مصافّ حرب وهُزِمَ حزبه فالتقى نفسه بين القتلى ، رآه كل من يمرّ به من أعدائه كأنه مقتول متشحط في دمه ، وإن ثمنه بالهند مع قُرب معدنه أغلى من ثمنه ببلاد المغرب بكثير ، لعلمهم بخواصه ، وقيّمته تختلف بحسب الرغبة فيه ، وإذا وقع ببلاد المغرب بيع المثلّال منه بنخسة دنانير ، ويزيد على ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشي عن بعض التجار أن حجرا منه يبيع في المعبر من بلاد الهند بمائة ونحسين ديناراً وأنه يبيع منه حجر ببلاد القُرس بسبعمائة دينار .

الصنف الخامس

(الماس)

قال بليزوس في كتاب الأحجار : وأبتدأ في معدنه لينعقد ذهابا ، فأبعدته العوارض عن ذلك ، وهو يتكون في معدن الياقوت المقدم ذكره وتخرجه الرياح والسيول من معدنه كما تخرج الياقوت ، وهو ضربان : أحدهما أبيض شديد البياض يشبه البلور يسمى البلوري لذلك ، والثاني يخالط بياضه صفرة فيصير كلون الزجاج الفرعوني ، ويعبر عنه بالزيتي . قال الكندي : والذي عاينته من هذا الحجر ما بين الخردلة إلى الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه ، وإذا وضع على سندال حديد ودق بالمطرقة لم ينكسر ، وغاص في وجه السندال والمطرقة وكسرها ، ولا يلتصق بشيء من الأجساد إلا هشم ويحو النقوش التي في الأحجار كلها . وإنما يكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يجعل داخل شيء من الشمع ويدخل في أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمه الحديد ، فينكسر حينئذ ؛ أو يجعل في أسرب وهو الرصاص ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتمى أكله فما سقطت منه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وأبتلعها أو طار بها ، ومتى أبتلع منه الإنسان قطعة ، ولو أصغر ما يكون خرقت أمعاءه وقتلته على الفور . قال أرسطوطاليس : وبينه وبين الذهب محبة يشبه به حيث كان .

ومن خاصته أن كل قطعة تؤخذ منه تكون ذات زوايا قائمة الرأس : ست زوايا وثمان زوايا وأكثر ، وأقله ثلاث زوايا ، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا ،

وبه يثقب الدرّ والياقوت والزُّمُرْدُ وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يُرْكَبَ في رأس منقار حديد منه قطعةٌ بقدر ما يراد من سعة الثَّقْبِ وضيِّقه ثم يثقب به، فيثقب بسرعة .

ومن منفعتيه فيما ذكره ارسطوطاليس أن مَنْ كان به الحصاة الحادثة في المثانة في مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقتها في مِرْوَدِ نُحَاسٍ مُصْطَكِي الصاقا مُحْكَمًا ثم أدخل المِرْوَدَ إلى الحصاة فإنها تثقبها . قال أحمد بن أبي خالد : وبذلك عاجلت وصيفا الخادم من حصاة أصابته وأمتنع من الشق عليها بالحديد . وقال ابن بوسطر : وإذا علّق على البطن من الخارج، نفع من المغس الشديد ومن فساد المعدة؛ وقيمته الوُسْطَى فيما ذكره التيفاشي أن زنة قيراط منه بدينارين؛ ونقل عن الكِنْدِيِّ أن أغلى ما شاهد منه ببغداد المِثقال بثمانين ديناراً وأرخَصَ ما شاهد منه ببغداد أيضاً المِثقال بخمسة عشر ديناراً، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصلح لِفَصٍّ قدر نصف مِثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلقة ثلاثة أضعاف وأربعة وخمسة .

الصنف السادس

(الزُّمُرْدُ)

يقال بالذال المعجمة والمهملية . قال بليّوس : والزُّمُرْدُ أبتدأ لينعقد ياقوتا، وكان لونه أحمر إلا أنه لشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرّض له السواد وامتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضر؛ ومعدنه الذي يتكوّن فيه في التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية، يوجد في جبل هناك ثمثد كالجسْر فيه معادن . قال في مسالك الأبصار : وبين قوص ثمانية أيام بالسير

المعتدل ولا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والماء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر في موضع يعرف بغدير أعين . فنه ما يوجد قطعاً صغاراً كالخصى منبثة في تراب المعدن وهي الفصوص وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع وهو القصب وهو أجوده . قال في مسالك الأبصار : وتلك العروق منبثة في حجر أبيض تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشي : ويوجد على بعضه تربة كالكحل الشديد السواد، وهو أشده خضرة وأكثره ماء . وقد ذكر المؤيد صاحب حمّاه في تاريخه أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله لما استولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبة زمرّد طولها أربعة أذرع أو نحوها . وهو على ثلاثة أضرب .

الأول الذبّابي - وهو شديد الخضرة، لا يشوب خضرته شيء آخر من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرهما، حسن الصبغ، جيد المائية، شديد الشعاع، ويسمى ذبابيا لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي : وهو من أحسن الألوان خضرة وبصيصا . قال في مسالك الأبصار : وهو أقل من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثاني الرّيحاني - وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الرّيحان .

الثالث السلقي - وخضرته أشبه شيء بلون السلقي .

الرابع الصابوني - ولونه كلون الصابون الأخضر، قال في "مسالك الأبصار" : وإذا استخرج الزمرّد من المعدن، جعل في زيت الكّان ثم لفّ في قطن وصرّ في خرقة كّان ونحوها، ولم يزل العمل في هذا المعدن إلى إنشاء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فترك لكثرة كلفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبّابي، ويزداد حسنه بكثر الحرم، وأستواء القصبة،

وعدم الأعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابى اختلاف الصِّبْغ بحيث يكون موضع منه مخالفاً للموضع الآخر ، وعدم الاستواء فى الشكل ، والتشعير : وهو شبه شقوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرخاوة ، وخفة الوزن ، وشدة الملاسة والصِّقال والنُّعومة ، وزيادة الحضرة والمائية إذا ركب على البطانة ، وهو ينخل بالنار ويتكلس فيها ، ولا يثبت ثبات الياقوت .

ومن خاصية الذبابى التى أمتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعى إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، آنفقت عيونها . قال التيفاشى : وقد جربت ذلك فى قطعة زمرّد ذبابى خالص ، فخصّلت أفعى وجعلتها فى طشت وألصقته بشمع فى رأس سهم وقربته من عينا فسمعت قعقة خفية كما فى قتل ضوابة فنظرت إلى عيناها فإذا هما قد برزتا على وجهها وضعت حركتها . وبهذه الخاصة يمتحن الزمرّد الخالص من غيره كما يمتحن الياقوت بالصبر على النار .

ومن منافع أن من أدمن نظره أذهب عن بصره الكلال ، ومن تختم به دفع عنه داء الصرع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ، ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ، وإذا كان فى موضع لم تقر به ذوات السموم ، وإذا سُجِّل منه وزن ثمان شعيرات وسقيته شارب السم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ، وإذا تختم به من به نفث الدم أو إسهاله ، منع من ذلك ، وإذا علّق على المعدة من خارج ، نفع من وجعها ، وشرب حكا كته ينفع من الجذام . وقيمة الذبابى الخالص فى الحجر الذى زنته درهم أربعة دنانير القيراط ، ويتضاعف بحسب كبره ، وينقص بحسب صغره ، إلا أنه لا ينقص بالصغر نقص غيره من الأحجار لوجود خاصيته فى الكبير والصغير والمعوّج والمستقيم . أما بقية أصناف الزمرّد ، فإنه لاقيمة لها يعتد بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابى .

الصنف السابع

(الزبرجد)

وهو حجر أخضر يتكوّن في معدن الزمرّد؛ ولذلك يظنه كثير من الناس نوعاً منه إلا أنه أقل وجوداً من الزمرّد . قال التيفاشي : أما في هذا الزمان فإنه لا يوجد في المعدن أصلاً، وإنما الموجود منه بأيدي الناس فصوص تستخرج بالنش من الآثار القديمة بالإسكندرية؛ وذكر أنه رأى منه فصاً في يد رجل أخبره أنه استخرجه من هناك، زنته درهم، لا يكاد البصر يفلع عنه لرقّة مائه، وحسن صفائه . وأجوده الأخضر المعتدل الخضرة، الحسن المائية، الرقيق المستشفّ، الذي ينقده البصر بسرعة؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون؛ وليس فيه شيء من خواص الزمرّد إلا أن إدمان النظر إليه يحلو البصر . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصنف الثامن

(الفيروزج)

وهو حجر نحاسي يتكوّن في معادن النحاس من الأبخرة الصاعدة منها، إلا أنه لا يوجد في جميع معادن النحاس؛ ومعدنه الذي يوجد فيه نيسابور، ومنه يحلب إلى سائر البلدان؛ ومنه نوع آخر يوجد في نساور إلا أن النيسابوري خير منه؛ وهو ضربان بسحاق^(١) وخلنجي، والخالص منه العتيق هو البسحاق وأجوده الأزرق الصافي اللون، المشرق الصفاء، الشديد الصقالة، المستوى الصبغ؛ وأكثر ما يكون فصوصاً؛ وذكر الكندي أنه رأى منه حجراً زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصفاء الحق ويكدر بكدرته وإذا مسه الدهن أذهب حسنه وغير لونه، والعرق يطفئ لونه، والمسك إذا باشره، أفسده وأذهب حسنه؛

(١) في مفردات ابن البيطار سنجابي ولعل ما في الأصل تصحيف .

وإذا وضع الفص الجيد منه إلى جانب ماهودونه في الجودّة، أذهب بهجته ؛ وإذا وضع إلى جانب الدهنّج غلب الدهنّج على لونه فأذهب بهجته ولو كان الفص الفيّورج في غاية الحسن والجودّة .

ومن منافعه أنه يحلو البصر بالنظر إليه ؛ وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب ؛ وقيّمته تختلف باختلاف الجودّة اختلافًا كثيرًا فربما كان الفصان منه زتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثنى الآخر درهم . وبالجملّة فالخيلنجي الجيد على النصف من البسحاق الجيد . قال التيفاشي : وأهل المغرب أكثر الناس له طلبا وأشدّهم في ثمنه مغالاة، وربما بلغوا بالفص منه عشرة دنانير مغربية ويحوصون على التحم به، وربما زعموا أنه يدخل في أعمال الكيمياء .

الصنف التاسع

(الدهنّج)

وقد ذكر أرسطوطاليس أنه أيضا حجر نحاسي يتكوّن في معادن النحاس يرتفع من أبحرتهما وينعقد، لكنه لا يوجد في جميع معادن كرمّان وسجستان من بلاد فارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سليم من برية المغرب، في مواضع أخرى كثيرة . وأجود أنواعه أربعة : وهي الافرندي، والهندي، والكّرمانّي، والكركي ؛ وأجوده في الجملّة الأخضر المشبع الخضرة، الشبيه اللون بالزمرّد، معرّق بخضرة حسنة، فيه أهلةٌ وعيون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صلبًا أملس يقبل الصّقاله .

ومن خاصته في نفسه أن فيه رخاوة بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نصب للسكاكين ومرّت عليه أعداد سنين ، ذهب نوره لرخاوته وأتحل ، ولذلك إذا حكّ أنكح سريعًا، وإذا خرط خرزا أو أواني أو غير ذلك، كان في خرطه سهولة،

وإذا وقع في الزيت آشتدت خضرته وحسن، فإن غُفِلَ عنه حتى يطول بُيُتُهُ في الزيت، مال إلى السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به على مواضع لدغ العقرب، سكنه بعض السكون ؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل وذلك به موضع القوبة الحادثة من المرة السوداء، أذهبها .

ومن عجيب خواصه أنه إذا سقى من سُحَّالته شارب سُمَّ نفعه بعض النفع ؛ وإن شرب منه من لم يشرب سما، كان سما مفرطاً يُنْقِطُ الأمعاء، ويُلهِبُ البدن ، ويحدث فيه سما لا يبرأ سريعاً، لاسيما إذا حُكَّ بحديدة ؛ ومن أمسكه في فيه ومصه أضربه ؛ وقيمته أن الافريدي الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوب بن إسحاق الكندي أنه رأى منه صحيفة تسع ثلاثين رطلا .

الصنف العاشر

(البُلُورُ)

قال بليнос : وهو حجر بُورَقِيٌّ وأصله الياقوتية إلا أنه قعدت به أعراض عن بلوغ رتبة الياقوت ؛ وقد اختلف أصحاب الشافعية رحمهم الله في تقاسته على وجهين، أحدهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه، والثاني أنه ليس بنفيس لأن نقاسته في صنعته لا في جوهره . ويوجد بأماكن، منها بترية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده ، ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو في غاية الجودة ، ومنه معادن توجد بأرمينية تميل إلى الصفرة الزجاجية . وقد ذكر التيفاشي أنه ظهر في زمنه معدنٌ منه بالقرب من مراكش من المغرب

(١) في مفردات ابن الططار بزا . وهي أرض .

الأقصى إلا أن فيه شعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلس كبير: أرضا وحيطانا . ونقل عن بغض التجار أن بالقرب من غزنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينا وبين كاشغر، جبلين من بلور خالص مطلين على وادٍ بينهما وأنه يُقَطَّع في الليل لتأثير شعاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار في الأعين . وأجوده أصفاه وأنقاها وأشغفه وأبيضه وأسلمه من التشعير، فإن كان مع ذلك كبير الحرم، آنية أو غيرها كان غاية في نوعه . وقد ذكر الكندي أن في البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المعدن أكبر من مائة من . ونقل التيفاشي : أنه كان بقصر شهاب الدين الغوري صاحب غزنة أربع خوابٍ للماء كل خابية تسع ثلاث روابيا . ماء على محامل من بلور، كل محمل مائين ثلاثة قناطر إلى أربعة . وذكر أيضا أنه رأى منه صورة ديك مخروط من صنعة الفرنج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه في أظفار الديك .

ومن خاصته ما ذكره أفرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصبغ .

ومن خاصته أيضا أنه إذا استقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذي يخرج منه إلى حرقه سوداء، أحرقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه أن من تحتم به أو علقه عليه لم يرمم سوء . وقيمته تختلف بحسب كبر آنيته وصغرها وإحكام صنعتها . قال التيفاشي : وبالجملة فالقطعة التي تحمل^(١) منه رطلا إذا كانت شديدة الصفاء سالمة من التشعير، تساوى عشرة دنانير مصرية .

(١) مراده وزن ولكنه كثيرا ما يستعمل بعض لغات العامة .

الصف الحادى عشر (المرجان)

وهو حجر أحمر في صورة الأحجار المتشعبة الأغصان؛ ومعدنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القلزم بساحل إفريقية، يعرف بمرسى الخرز، ينبت بقاعه كما ينبت النبات، وتعمل له شباك قوية مثقلة بالرصاص، وتدار عليه حتى يلتفّ فيها، ويجذب جذبا عنيقا فيطلع فيها المرجان. وربما وجد ببعض بلاد الفريجة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز، ومنه يجلب إلى بلاد المشرق. ولأهل الهند فيه رغبة عظيمة؛ وإذا استخرج، حك على مسنّ الماء، ويحلّ بالسنبادج المعجون بالماء على رخامة فيظهر لونه، ويحسن؛ ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقى. وأجوده ما عظم حرمة، وأستوت قصباته، وأشتدت حرته، وسلم من التسويس: وهو حروق توجد في باطنه حتى ربما كان منه شئ خاوي كالعظم؛ وأردؤه مامل منه إلى البياض أو كثرت عقده وكان فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سلامته من العقد لوجود التشعب فيه، فإن اتفق أن تقع منه قطعة مضمّنة مستوية لا عقد فيها ولا تشطيب، كانت في نهاية الجوده. وقد يوجد منه قطع كبار فتحمل إلى صاحب إفريقية فيعمل له منها دوى وأنصبه سكاكين. قال التيفاشى: رأيت منها محبرة طول شبر ونصف، في عرض ثلاث أصابع، وارتفاع مثلها؛ بغطائها في غاية الجمرة وصفاء اللون. وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها: أنه كان لخلفاء الفاطميين دواة من المرجان تُحمل مع الخليفة إذا ركب في المراكب العظام أمام راجب على فرس، كما سيأتى ذكره في الكلام على المسالك والممالك، في المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومن خاصته في نفسه أنه إذا ألقى في الخل لآن وأبيض؛ وإن طال مكثه فيه

أَنحَلَ ، وَإِذَا اتَّخَذَ مِنْهُ خَاتَمٌ أَوْ غَيْرُهُ وَلَبَسَ جَمِيعَهُ بِالشَّمْعِ ثُمَّ نَقَشَ فِي الشَّمْعِ بِإِبْرَةِ
بَحِثٍ يَنْكَشِفُ جَرْمَ الْمَرْجَانِ وَجَعَلَ فِي خَلِّ الْخَمْرِ الْحَاقِقِ يَوْمًا وَلَيْلَةً أَوْ يَوْمَيْنِ
وَلَيْلَتَيْنِ ثُمَّ أَخْرَجَ وَأَزِيلَ عَنْهُ الشَّمْعُ ، ظَهَرَتِ الْكِتَابَةُ فِيهِ حَقْفًا بِتَأْثِيرِ الْخَلِّ فِيهِ ،
وَبَقِيَةُ الْخَاتَمِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ . قَالَ التِّيفَاشِيُّ : وَقَدْ جَرَبْنَا ذَلِكَ مَرَارًا ، وَمَتَى أَلْقَى
فِي الدَّهْنِ ظَهَرَتْ حُمْرَتُهُ وَأَشْرَقَ لَوْنُهَا .

وَمِنْ مَنَافِعِهِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْإِسْكَانْدَرُ أَنَّهُ إِذَا عَلِقَ عَلَى الْمَصْرُوعِ أَوْ مَنْ بِهِ التَّقَرُّسُ ،
نَفَعَهُ ، وَإِنْ أَحْرَقَ وَأَسْتَنَّى بِهِ ، زَادَ فِي بَيَاضِ الْأَسْنَانِ وَقَلَعَ الْخَفَرَ مِنْهَا وَقَوَّى اللَّائِمَةَ ،
وَطَرِيقَ إِحْرَاقِهِ أَنْ يَجْعَلَ فِي كَوْزٍ نَخَارَ وَيُطَيِّنَ رَأْسَهُ وَيُوضَعُ فِي تَوْرِ لَيْلَةٍ ، وَإِذَا سَحِقَ
وَشَرِبَهُ مِنْ بِهِ عَسَرِ الْبَوْلِ ، نَفَعَهُ ذَلِكَ ، وَيَحَالُ أَوْرَامُ الطَّحَالِ بِشَرِبِهِ ، وَإِذَا عَلِقَ
عَلَى الْمَعْدَةِ نَفَعَ مِنْ جَمِيعِ عِلَالِهَا كَمَا فِي الزُّمَرْدِ ، وَإِذَا أَحْرَقَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَشَرِبَ مِنْهُ
ثَلَاثَةَ دَوَائِقَ مَعَ دَائِقِ وَنَصْفِ صَمْغِ عَرَبِيِّ بَيَاضِ الْبَيْضِ وَشَرِبَ بِمَاءٍ بَارِدٍ ، نَفَعَ
مَنْ نَقِثَ الدَّمُ . قَالَ التِّيفَاشِيُّ : وَقِيمَتُهُ بِإِفْرِيقَةِ غَشِيَا الرُّطَلِ الْمَصْرِيِّ مِنْ خَمْسَةِ
دَنَانِيرَ إِلَى سَبْعَةِ مَغْرِبِيَّةٍ ، وَهِيَ بِقَدْرِ دِينَارَيْنِ إِلَى مَا يَقَارِبُهُمَا مِنَ الذَّهَبِ الْمَصْرِيِّ ،
وَبِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عَلَى ضِعْفَيْنِ ذَلِكَ وَثَلَاثَةِ أَضْعَافِهِ ، وَمِنْ اسْكَانْدَرِيَّةٍ يَحْمَلُ إِلَى سَائِرِ
الْبِلَادِ ، وَيَخْتَلِفُ سَعْرُهُ بِحَسَبِ قَرْبِ الْبِلَادِ وَبَعْدِهَا ، وَقَلَّتْهُ ، وَكَثُرَتْهُ ، وَصَغُرَتْهُ ،
وَجَوَدَتْهُ ، وَرَدَاءَتْهُ ، وَحَسِنَ صَنْعَتُهُ .

الصنف الثاني عشر

(البادزهر الحيواني)

وهو حجر خفيف هَسَّ . وأصل تكوُّنه في الحيوان المعروف بالأَيْلَ بتخوم الصين .
وإن هذا الحيوان هناك يأكل الحيات ، قد اعتاد ذلك غذاء له ، فيحدث عن ذلك

وجود هذا الحجر منه على ماسياتي بيانه ، وقد اختلف الناس في أى موضع يكون من هذا الحيوان ، فقليل إنه يتكوّن في مآقي عينيه من الدموع التى تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويترثى الحجر حتى يكبر فيَحْتَكُ فيسقط عنه . وقيل يكون في قلبه فيصاّد لأجله ويذبح ويستخرج منه . وقيل في مرارته . قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأخضر المُشْرَبُ بالحمرة والمشرّب بالبياض . وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل . وأجوده الخالص الأصفر الخفيف الهش . ويستدل على خلوصه بكونه ذا طبقات رقاق متراكبة كما في اللؤلؤ ، وبه نقط خفية سود ، وأن يكون أبيض المحكّ مرّ المذاق . قال التيفاشي : وكثيرا ما يُغشّ فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيوانى ولكنها تميز عن البادزهر الحقيقى بأن المصنوع أغبر كمد اللون ساذج غير منقط ، والبادزهر الحقيقى الخالص أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالتمش ، وطبقاته أرق من طبقات لمصنوع بكثير ، وهو أحسن من المصنوع وأهش ومحكّه أبيض .

ومن خاصته في نفسه أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يخشّنه ويغيّر لونه وسائر صفاته حتى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشي أنه كان معه حجر منه ، فجعله مع ذهب في كيس وسافر به فأحتك بالذهب فتغير لونه ونقص وزنه حتى ظن أنه غير عليه ، وأنه ربطه بعد ذلك في خرقة وتركه أياما فعاد في الصفة إلى ما كان ، إلا أنه بقى على نقص ما ذهب منه .

ومن منافعه دفع السموم القاتلة وغير القاتلة ، حارّة كانت أو باردة : من حيوان كانت أو من نبات ، وأنه ينفع من عضّ الحوام ونهشها ولدغها ، وليس في جميع الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم . وقد قيل إن معنى لفظ بادزهر للنافي للسم ، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتى عشرة شعيرة مسحوقة

أو مسحولة أو محكوكة على المبرّد زيت الزيتون أو بالماء ، أخرج السم من جسده بالعرق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق وذّر على موضع النেশة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله . قال ابن جمع : وإن حُكّ منه على مسنّ في كل يوم وزن نصف دائق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والاحتياط ، قاوم السموم القبالة ولم تحش له غائلة ولا إثارة خلط ؛ ومن تخمّ منه بوزن أثنتي عشرة شعيرة في فصّ خاتم ثم وُضع ذلك الفصّ على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوام ذوات السموم ، نفع منها نفعا بينا ، وإن وضع على فم الملدوغ أو من سُقي سما نفعه . قلت : هذه هي الأحجار النفيسة الملوكة التي تلتفت الملوك إليها وتعنى بشأنها ، أما غيرها من الأحجار كالبنفش ، والعقيق ، والجَزَع ، والمِغناطيس ، واليشم ، والسبج ، والألّا زُورْد وغيرها مما ذكره المصنفون في الأحجار فلا أعتدّاد به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكره .

النوع السادس

(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله في هدية وما يجري مجرى ذلك ، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصنف الأول

(المسك)

وهو أجلّها . قال محمد بن أحمد التيمي المقدسي في كتابه "طيب العروس" : وأصل المسك من دابة ذات أربع ، أشبه شيء بالظبي الصغير ، قيل لها قرن واحد ، وقيل قرنان ، غير أن له نايتين رقيقين أبيضين في فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين

في وجهه كالخزير . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضل دموى يجتمع من جسمها إلى سرتها ، بمنزلة المواد التي تنصب إلى الأعضاء في كل سنة في وقت معلوم ، فيقع الورم في سرتها ويجتمع إليها دم غليظ أسود فيشتد وجعها حتى يمسك عن الرغى وورود المياه حتى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الطباء تصاد وتذبح وتؤخذ سررها بما عليها من الشعر ، والمسك فيها دم عييط : وهى النواخ ، فإن كانت النابخة كثيرة الدم ، أكنفى بما فيها ، وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زيد فيها من غيرها ، ويصب فيها الرصاص المذاب وتحاط بالخصوص وتعلق في حلق مستراح أربعين يوما ، ثم تخرج وتعلق في موضع آخر حتى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها ، ثم تصير النواخ في مزود صغار وتخطها التبخار وتحملها . وقيل انه ينبت لهذه الطباء حين يعرض لها هذا العارض بناء كالمناوة في طول عظم الذراع لتأتى الطباء فتحك سررها بذلك البناء فتسقط النواخ ، حتى إنه يوجد في تلك المراغة ألوف من النواخ ما بين رطب وجامد .

ثم قيل إن هذه الطباء توجد بمغازات بين الصين وبين التبت والصغد من بلاد الترك ، وإن أهل التبت يلتقطون ما قرب إليهم ، وقد قيل إن المسك يحمل إلى التبت من أرض بينها وبين التبت مسيرة شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التي ينسب إليها ، إما باعتبار أصل وجوده فيها ، وإما باعتبار مصيره إليها . وأجوده في الجملة ما طاب مرعى ظيئه ، ومرعى ظيائه النبات الذى يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفى أن بعض نبات الطيب أطيب رائحة من بعض حتى يقال إن منه ما رائحته كرائحة المسك . وقيل أجوده ما كمل في الطهي قبل بينوته عنه . وقال أحمد بن يعقوب : وأجود المسك في الرائحة والنظر ما كان قحاحيا تشبه رائحته رائحة التفاح اللباني ،

وكان لونه يغلب عليه الصفرة ، ومقاديره وسطا بين الحلال والرقاق ، ثم ما هو أشد سوادا منه إلا أنه يقاربه في الرأى والمنظر ، ثم ما هو أشد سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمة . قال : وبلغنى عن تجار الهند أن من المسك صنفين آخرين يُخْذَانِ من نبات أرض : أحدهما لا يفسد بطول المكث ، والثانى يفسد بطول المكث ، والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها على ترتيبها في الفضل مقدما منها في الذكر الأفضل فالأفضل على ما رتبته أحد .

الأول الثبتي - وهو ما حملة التجار من الثبت إلى خراسان على الظهر لطيب مرعاه ، وحملة في البر ، دون البحر .

الثاني الصغددي - وهو ما حمل من الصغد من بلاد الترك على الظهر إلى خراسان .
الثالث الصيني - وإنما نقصت رتبته لأن مرعاه في الطيب دون مرعى الثبتي ، ولما يلحقه من عفونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصيني ما يؤتى به من خانقو : وهي مدينة الصين العظمى ، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين ، ومنها يحمل في البحر إلى بحر فارس ، فإذا قرب من بلد الأبله ارتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندي - وهو ما يحمل من الثبت إلى الهند ثم يحمل من الهند إلى الديبل ثم يحمل في البحر إلى سيرااف من بلاد العجم ، وثمان من البحرين ، وعدن من اليمن ، وغيرها من النواحي . وسبب انحطاط رتبته عن الصيني وإن كان من جنس الثبتي مع أنه أقرب مسافة من الصيني ما ذكره المسعودي : أنه إذا حمل إلى الهند أخذه كفر الهند فلطخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يبدلونه بغيره ، ويبيعه سدنة الأصنام فيطول مكثه على الأصنام تضعف رائحته . على أن محمد بن العباس قد فضل الهندي على الصيني لقرب مسافة حملة في البحر .

الخامس القنبارى - ويؤتى به من بلد تسمى قنبار بين الصين والتبت . قال أحمد بن يعقوب : وهو مسك جيد إلا أنه دون التبتى فى القيمة ، والجوهر ، واللون ، والرائحة . قال : وربما غلطوا به فنسبوه إلى التبتى .

السادس الطُّغْرُغْزَى - وهو مسك رزين يضرب إلى السَّوَاد ، يؤتى به من أرض الترك الطُّغْرُغْزَى وهم التتر ، وهو بطىء السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربما غلطوا به أيضا .

السابع القصارى - ويؤتى به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين . قال ابن يعقوب : وقد يُلْحَق بالصينى إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة . الثامن الحزيرى - وهو مسك أصفر ، حسن الرائحة ، يشابه التبتى إلا أن فيه زعارة . التاسع الجبلى - وهو مسك يؤتى به من السند من أرض الموليان ، وهو كبير النوافح حسن اللون إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر العصامى - وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج من النافخة التى زنتها أوقية زنة درهم واحد من المسك . قلت : أما المسك الدارى فإنه منسوب إلى دارين : وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تجار الهند ، ويحمل منها إلى الأقطار وليست بمعين للمسك .

الصنف الثانى

(العنبر)

قال محمد بن أحمد التيمى : والأصل الصحيح فيه أنه ينبع من صُخُور وعيون فى الأرض ، يجتمع فى قرار البحر ، فإذا تكاثف اجتذبتة الدهانة التى هى فيه على

أقنطافه من موضعه الذى تعلّق به ، وطفاً على وجه الماء ، وهو حارّ ذائب فتقطّعه
الريّح وأمواج البحر قطعاً كباراً وصغاراً فترمى به الريح إلى السواحل ، لا يستطيع
أحد أن يدنو منه لشدة حره وفورانته ، فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمد ، فيجمعه
أهل السواحل . قال أحمد بن يعقوب : وربما ابتاعته سمكة عظيمة يقال لها
الكال وهو فائر فلا يستقرّ في جوفها حتّى تموت فتطفو ويطرحها البحر إلى الساحل
فيشقّ جوفها ويُستخرج منها ؛ ويسمّى العنبر السّمكى ، والعنبر المبلّوع . قال التميمي :
وهو في لونه شبيه بالنار ، ردىء في الطيب : للشهوة التى يكتسبها من السمك .
قال : وربما طرح البحر القطعة العنبر فيبصرها طائر أسود كالخُطّاف فيعرف عليها
يجناحيه ، فإذا سقط عليها ليختطف بمنقاره منها تعلّق بمنقاره ومخاليه بها فيموت
ويبقى ويبقى منقاره ومخاليه فيها ، ويعرف بالعنبر المناقيرى .

قال التميمي : ولأهل سواحل البحر التى يوجد بها العنبر يُحبّ يركبونها مؤدّبةً
تعرف العنبر ، يسرون عليها في ليالى القمر على شاطئ البحر فإذا رأت العنبر وقد نام
راكبها أو غفل ، بركت بصاحبها حتّى ينزل عنها فيأخذها .

قال التميمي : وألوان العنبر مختلفةٌ . منها الأبيض : وهو الأشهب ، والأزرق ،
والرمادى ، والجزازى : وهو الأبرش ، والصفائح : وهو الأحمر ، وهما أدنى العنبر
قدراً . قال : وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّة رائحةً ، وذكاً بغير زعارة .

قال أحمد بن يعقوب : وأنواع العنبر كثيرة ، وأصنافه مختلفة ، ومعادنه متباينة .
وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره ، والذى وقفت على ذكره منه ستة أضرب .

الأول الشّحرى - وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشّحر من أرض
اليمن . قال : وهو أجود أنواع العنبر ، وأرفعه ، وأفضله ، وأحسنه لوناً ، وأصفاه جوهرًا
وأغلاه قيمةً .

الثاني الزنجي - وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزنج وما والاها . قال التيمي : وزعم الحسين بن يزيد السيرافي أنه أجود العنبر وأفضله ، ويؤتى به منها إلى عدن ، ولونه البياض .

الثالث السلاهطي - قال التيمي : وأجوده الأزرق الدسم الكثير الدهن ، وهو الذي يستعمل في الغوالي .

الرابع القاقلي - وهو ما يؤتى به من بحر قاقلة من بلاد الهند إلى عدن من بلاد اليمن ، وهو أشهب جيد الريح ، حسن المنظر خفيف ، وفيه يدس يسير . وهو دون السلاهطي لا يصلح للغوالي إلا عن ضرورة . وهو صالح للذرائر والمكسات .

الخامس الهندي - وهو ما يؤتى به من سواحل الهند الداخلية ، ويحمل إلى البصرة وغيرها ، ومنه نوع يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس ، يأتون به إلى قرب عمان تشتريه منهم أصحاب المراكب .

السادس المغربي - وهو ما يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر ، وهو أردأ الأنواع كلها . وهو شبيه في لونه بالعنبر الشحري . قال التيمي : ويغالط به فيه . قال التيمي : ومن العنبر صنف يعرف بالنَّد ، وتقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهة ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لين يمتد فما كان منه عذب الرائحة حسن الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف أحدها الشحري : وهو أسود فيه صفرة ، يحضب اليد إذا لمس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له على النار . وإنما يستعمل في الغوالي إذا عثر العنبر السلاهطي ، ومنه الزنجي : وهو نظير الشحري في المنظر ودونه في الرائحة : وهو أسود بغير صفرة ، ومنه الخمري : وهو يحضب اليد وأصول الشعر خضبا جيدا ، ولا ينفع في الطيب .

قلت : أما المعروف في زماننا بالعنبر مما يلبسه النساء فإنما يقال له الند ، وفيه جزء من العنبر . قال في نهاية الأرب : وهو على ثلاثة أضرب .

الأول المثلث - وهو أجودها وأعطرها ، وهو يركب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيب ، وجزء من العود الهندي الطيب ، وجزء من المسك الطيب .

الثاني وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيب عشرة مثاقيل ، ومن الند العتيق الجيد عشرة مثاقيل ، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث - وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيل من الخام عشرة مثاقيل من الند العتيق وثلاثون مثقالا من العود ، ومن المسك ما أحب .

الصف الثالث

(العود)

قال التيمي : أخبرني أبي عن جماعة من أهل المعرفة أنه شجر عظيم تنبت ببلاد الهند ، فمنه ما يجلب من أرض قشمر الداخلة : من أرض سرنديب ، ومن قسار ، وما اتصل بتلك النواحي ، وأنه لا تصير له رائحة إلا بعد أن يعتق . ويقشر فإذا قشر وجفف ، حمل إلى النواحي حينئذ . قال : وأخبرني بعض العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشجرة ، بخلاف ما قارب القشركا في الآبوس والعناب ونحوهما من الأشجار التي داخلها فيه دهانة وما في خارجها خشب أبيض ، وأنه يقطع ويقلع ظاهره من الخشب الأبيض ، ويدفن في التراب سنين حتى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكى محمد بن العباس أنه يكون في أودية بين جبال شاهقة ، لا وصول

لأحد إليها لصعوبة مسلكها، فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفن بكثرة السيول لِمَمَرِ
الزَّمان فتأكل الأرض ما فيه من الخشب ويبقى صميمُ العود وخالصه فتجتره السيول
وتُخْرِجُه من الأودية إلى البحر فتقذفه الأمواج إلى السواحل فيلتقطه أهل السواحل
ويجمعونه فيبيعونه . ويقال إنه يأتي به قوم في المراكب إلى ساحل الهند فيقفون على
البعد بحيث لا ترى أشخاصهم، ثم يطلعون ليلاً فيضعونه بفرصة تلك البلاد، ويخرج
أهل البلد نهاراً فيضعون بإزائه بضائع ويتركونها إلى الليل، فيأتى أصحابُ العود فمن
أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه وإلا تركه، فيزيدونه حتى يُعجبه فيأخذه، كما يحكى
في السُّمُورِ وغيره في ساكني أقصى الشمال .

وأجود العود ما كان صلباً، رزينا، ظاهر الرطوبة، كثير المائية والذهنية، الذي
له صبر على النار، وغليان، وبقاء في الثياب .

أما اللون فأفضله الأسود والأزرق الذي لا يبيض فيه، ثم منهم من يفضل
الأسود على الأزرق، ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .
وهو على ثمانية عشر ضرباً .

الأول المندلي - نسبة إلى معدنه، وهو مكان يقال له المندل من بلاد الهند .
قال محمد بن العباس الخشكي : وهو أرفع أنواع العود وأفضلها وأجودها وأبقاها
على النار وأعبقها بالثياب . على أن التجار لم تكن تجلبه في الجاهلية وإلى آخر الدولة
الأموية^(١)، ولا ترغب في حمله للراة في رايحته إلى أن دخل الحسين بن برمك إلى بلاد
الهند هارباً من بني أمية، ورأى العود المندلي فاستجاده ورغب التجار في حمله،
فلما غلب بنو العباس على بني أمية، وحضر بنو برمك إليهم وقرَّبوهم، دخل الحسين

(١) هكذا بالاصل .

أبن برك يوما على المنصور فرآه يتبخر بالعود القمارى فأعلمه أن عنده ماهو أطيب منه ، فأمره بإحضاره ، فأحضره إليه فاستحسنه ، وأمر أن يكتب إلى الهند بحمل الكثير منه ، فاشتهر بين الناس وعز من يومئذ ، وأحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل وتمنع من تكوُّنه^(١) في الثياب .

الثانى القامرونى - وهو مايجلب من القامرون : وهو مكان مرتفع من الهند . وقيل القامرون اسم لشجر من شجر العود ، وهو أغلى العود ثمنا وأرفعه قدرا .

قال التيمى : وهو قليل لا يكاد يجلب إلا فى بعض الحين ، وهو عود رطب جدا ، شديد سواد اللون ، رزى ، كثير الماء . وذكر الحسين بن يزيد السيرافى أنه ربما ختم عليه فأنطبع وقيل ألحتم لينه . قال : ويكون فيه ما قيمة المن منه مائتا دينار .

الثالث السمندورى - وهو مايجلب من بلاد سمندور ، وهى بلد سفالة الهند ، ويسمى لطيب رائحته ريحان العود ، وبعضه يفضل بعضا . قال التيمى : وتكون القطعة الضخمة منه متا واحدا .

الرابع القمارى - وهو ما يجلب من قمار ، وهى أرض سفالة الهند ، وبعضه يفضل بعضا أيضا ، وتكون القطعة منه نصف رطل إلى مادون ذلك .

الخامس القاقلى - وهو ما يجلب من جزائر بحر قاقلة ، وهو عود حسن اللون ، شديد الصلابة دسم ، فيه ريحانية حمرة ، وله بقاء في الثياب إلا أن قناره ربما تغير على النار فيذبنى . أن لا يستقصى إلى آخره .

السادس الصنى - وهو ما يجلب من بلد يقال لها الصنف ببلاد الصين ، وهو من أحلى الأعواد وأبقاها في الثياب . قال التيمى : ومنهم من يفضلها على القاقلى^(٢) ويرى أنه أطيب وأعقب وآمن من القنار ، وربما قدموه على القمارى أيضا . قالوا :

(١) فى الاصل تلوثه وهو تصحيف (٢) فى ياقوت . وهو من أردل العود لافرق بينه وبين الحشب الاليسير .

وأجود الصَّنْفِيَّ الأسودُ الكثير الماء، وتكون القطعة منه مناً وأكثر وأقل. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندي والقهاري.

السابع الصندفوري - وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنْفِيَّ. ويقال إنه صِنْفٌ منه ولذلك كانت قيمته لاحقاً بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورزانة، وصلابة؛ إلا أنه ليس بالقِطْع الكبار.

الثامن الصَّيْنِيَّ - ويؤتى به من الصين، وهو عود حسن اللون، أول رائحته تشاكل رائحة الهندي إلا أن قُتَارَهُ غير محمود، وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقل.

التاسع القطعي - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصَّيْنِيَّ. العاشر القسور - وهو عود رطب حُلُو طيب الرائحة؛ وهو أعذب رائحة من القطعي إلا أنه دونه في القيمة.

الحادي عشر الكلهي - وهو عود رطب يَمْضَغ، وفيه زَعَارَةٌ، وشدة مرارة للدهانة التي فيه، وهو من أعبق الأعواد في الثياب وأبقاها. الثاني عشر العولاتي - وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواحي قمار من أرض الهند.

الثالث عشر اللوقيني - وهو ما يجلب من لوقين: وهي طرف من أطراف الهند وله حُمْرَةٌ في الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد في الرائحة والقيمة.

الرابع عشر المبانطائي - وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثل قيمة اللوقيني، وهو خفيف ليس بالحسن اللون. قال أحمد بن العباس: وهو قطع كبار، مُلَسَّ لا عَقْدَ فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنما يَصْلُحُ للأدوية.

الخامس عشر القندغلى - ويؤتى به من ناحية كله^(١) ، وهى ساحل الزنج ، وهو يشبه القمارى إلا أنه لا طيب لرائحته .

السادس عشر السمولى - وهو عود حسن المنظر ، فيه حمرة وله بقاء فى الثياب .

السابع عشر الرانجى - وهو عود يشبه قرون الثيران ، لا ذكاء له ، ولا بقاء فى الثياب .

الثامن عشر المحرم - سمي بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشك الناس فى أمره ، فخرمه السلطان ومنعه فسمى المحرم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصنغى والقاقلى صنفا يقال له العطلى يؤتى به من الصين ، وهو عود صلب خفيف حسن المنظر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل . منها الأفلىق - وهو عود يؤتى به من أرض الصين ، يكون فى العظم مثل الخشب الرانجى الغلاظ يباع المن منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح فى قشوره ، وداخله خشب خفيف مثل الخلاف ، وإذا وضع على الجمر وجد له فى أوله رائحة حلوة طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصنف الرابع

(الصندل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند ، وهو على سبعة أضرب .

الأول المقاصيرى - وهو الأصفر ، الدسم ، الرزين ، الذى كأنه مسح بالزعفران الذى الرائحة . وأختلف فى سبب تسميته بالمقاصيرى فقل نسبة إلى بلد تسمى

(١) الذى فى معجم البلدان لياقوت أنها كوة وأما كة فقد قال إنها فرضة بالهند اه .

مقاصير؛ وقيل إن بعض خلفاء بني العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومحاطيه مقاصير منه؛ وهو شجر عظام يُقَطَّع رطباً، وأجوده ما أصفَر لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زَعَارَةٌ . قال التيمي : وهو يدخل في طيب النساء : الرطب واليابس؛ وفي البرميكات، والمثلثات، والذرائر؛ ويتخذ منه قلائد، ويدخل في الأدوية؛ ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأَسِرَّةُ وإنه يأمر بقطع ما يحمل منه من اليمن إلى غيرها من البلاد قِطْعاً صغاراً حتى لا يكون منها ما يعمل سريراً لغيره من الملوك .

الثاني الأبيض منه الطيب الريح - وهو من جنس المقاصيري المتقدم ذكره لا يخالفه في شيء إلا في البياض؛ ويقال إن المقاصيري هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث الجَوْزِي - وهو صُلبُ العود أبيض، يَضْرِبُ لونه إلى السُّمْرَةِ، ويؤتى به من موضع يقال له الجَوْزُ، وهو طيب الرائحة إلا أنه أضعف رائحة من الذي قبله .

الرابع السَّائِسُ ويقال الكَلُوس - وهو صندل أصفَر طيب الرائحة إلا أن في رائحته زَعَارَةً؛ ويستعمل في الذرائر، والمثلثات : في الطيب والبُخُورَات .

الخامس، يضرب لونه إلى الحمرة - وهو على نحو من الذي قبله .

السادس صندل جعد الشعرة - لا بَسَاطَةَ فيه إذا شقق بل يكون فيه تجعید كما في خشب الزيتون، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لا يستعمل في شيء سوى البُخُورَات والمثلثات .

السابع أحمر اللون - وهو خشب حسن اللون، ثقيل الوزن لا رائحة له، إلا أنه يتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدُّوِيِّ وقِطْعِ الشَّطْرَنْجِ ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلى وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدى أو يرد هدية، ويجرى ذكره في مكاتبات الملوك، أما ما عدا ذلك من أصناف الطيب كالسُنْبُل، والقَرْنِفَل، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

(ما يحتاج إلى وصفه من الآلات : وهى أصناف)

الصنف الأول

(الآلات الملوكية)

ويحتاج الكاتب إلى وصفها عند وصف المواكب الحفيلة ، التى يركب فيها السلطان وهى عدة آلات .

منها الخَاتَمُ بفتح التاء وكسرها، وحكى فيه ابن قتيبة والجوهري وغيرهما خِتَامٌ وخَاتَمٌ ، وهو ما يجعل فى الإصبع من الحلى ، وهو مأخوذ من الختم ، وهو الطبع : سمي بذلك لأنه يختم بنقشه على الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتى فى الكلام على خَتَمِ الكتب ” أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى بعض ملوك الأعاجم ف قيل له إنهم لا يقرءون كتابا غير مختوم فأتخذ خاتما من ورق وجعل نقشه محمد رسول الله وأقتدى به فى ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلى أن جعلوا للكتب طابعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه ” ديوان الخاتم ” وأقتفى الملوك أثرهم فى ذلك ، ثم غلب بمملكتنا وماناهزها الاكتفاء فى المكاتبات باللصاق ، وصار اسم الخاتم مقصورا على ما يجعل فى الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ، وصارت الملوك إنما تلبس الخواتم بفضوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تجملا ، وربما بعثت بها فى تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وأقرفه .

ومنها المُنْدِيل بكسر الميم ، وهو مَنْدِيل يُجْعَلُ فِي الْمِنْطَقَةِ الْمَشْدُودَةِ فِي الْوَسْطِ مَعَ الصُّلُوقِ وَغَيْرِهِ ، ثُمَّ جَرَى أَصْطِلَاحُ الْمُلُوكِ عَلَى الْبَعْثِ بِهِ فِي الْأَمَانَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْخَاتَمِ ؛ وَالْمُنْدِيلُ آلَةٌ قَدِيمَةٌ لِلْمُلُوكِ ؛ فَقَدْ حَكَى أَنَّهُ كَانَ لِلْأَفْضَلِ بْنِ أَمِيرِ الْجِيُوشِ أَحَدِ زُرَّاءِ الْفَاطَمِيِّينَ مِائَةُ بَذْلَةٍ مَعْلُوقَةٌ عَلَى أَوْتَادٍ مِنْ ذَهَبٍ ، عَلَى كُلِّ بَذْلَةٍ مِنْهَا مَنْدِيلٌ مِنْ لَوْنِهَا ؛ وَلَمْ يَكُنِ الْمُنْدِيلُ مِنْ آلَاتِ الْخِلَافَةِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ مِنْ آلَاتِهَا الْبُرْدَةُ عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْخِلَافَةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها التَّخْتُ ، وَيُقَالُ لَهُ السَّرِيرُ : وَهُوَ مَا يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ فِي الْمَوَاقِبِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ مِنْ رُسُومِ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، رَفْعَةً لِمَكَانِ الْمَلِكِ فِي الْجُلُوسِ عَنْ غَيْرِهِ حَتَّى لَا يَسَاوِيهِ غَيْرُهُ مِنْ جُلَسَائِهِ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزُ أَنَّهُ كَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُرْسِيٌّ يَقُولُهُ ” وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ” وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ كُرْسِيٌّ مِنْ عَاجٍ مُغَشًى بِالذَّهَبِ .

ثُمَّ هَذِهِ الْأَسِرَّةُ تَخْتَلِفُ بِأَخْتِلَافِ حَالِ الْمُلُوكِ ، فَتَارَةٌ تَكُونُ مِنْ أُبْنِيَةِ رُخَامٍ وَنَحْوِهِ ، وَتَارَةٌ تَكُونُ مِنْ خَشَبٍ ، وَتَارَةٌ مِنْ فُرُشٍ مَحْشُوءَةٍ مَتْرَاكِبَةً ؛ وَقَدْ حَكَى أَنَّهُ كَانَ لِلْمُلُوكِ الْفُرْسُ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ يَجْلِسُونَ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ مِصْرَ يَجْلِسُ مَعَ قَوْمِهِ عَلَى الْأَرْضِ غَيْرَ مَرْتَفِعٍ عَلَيْهِمْ ، وَيَأْتِيهِ الْمُقَوِّقُسُ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ ، يَجْلُ مَعَهُ عَلَى الْأَيْدِي ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ فَلَا يَمْنَعُهُ عَمْرُو مِنْ ذَلِكَ ، إِجْرَاءً لَهُ عَلَى عَادَتِهِ فِي الْمُلْكِ فِيمَا قِيلَ ، لَمَّا عَقَدَهُ لَهُ مِنَ الذِّمَّةِ وَاتَّخَذَهُ مَعَهُ مِنَ الْعَهْدِ .

ومنها الْمِظْلَةُ ، وَأَسْمَاهَا بِالْفَارْسِيَةِ الْخِزْرَ بَنُونَ بَيْنَ الْجَحِيمِ وَالزَّأَى الْمَعْجَمَةِ ، وَيَعْبَرُ عَنْهَا الْعَامَّةُ الْآنَ بِالْقُبَّةِ وَالطَّيْرِ : وَهِيَ قُبَّةٌ مِنْ حَرِيرٍ أَصْفَرٍ ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ ، عَلَى رَأْسِ رَجَبٍ أَمِيرٍ يَكُونُ رَاكِبًا بِجِذَاءِ الْمَلِكِ ، يُظْلِلُ بِهَا حَالَةَ الرُّكُوبِ مِنَ الشَّمْسِ فِي الْمَوَاقِبِ

العظام، وسيأتى ذكرها فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . وهذه الدولة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها الرقبة : وهى لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُرِزَت بالذهب الزركش حتى غلب عليها وصار الحرير غير مرئى فيها، تشد على رقبة فرس الملك فى المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطى لظهر الفرس وكفله .

ومنها الغاشية، وهى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يظنها الناظر كلها ذهباً ، يلقبها على يديه يمينا وشمالا .

ومنها الجفتاه ، وهى فرسان أشهبان قريبا الشبه ، بربتين من زركش ، وعدة تضاهى عدة مركوب السلطان كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان ، يعلوهما مملوكان من المحاليك السلطانية قريبي الشبه أيضا، على رأس كل منهما قبعة من زركش مشابهة للآخر .

ومنها المنطقة بكسر الميم : وهى ما يشد فى الوسط، وعنها يعبر أهل زماننا بالحياصة، وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : على بن أبى طالب رضى الله عنه كان له منطقة . وهذه الآلة قد ذكرها فى "التعريف" فى الآلات الملوكية، على أن ملوك الزمان لم تجر لهم عادة بشد منطقة، وإنما يليسها الملك للأمرء عند إلباسهم الخلع والشاريف، وهى تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص، ومنها ما ليس كذلك .

ومنها الأعلام : وهى الرايات التى تُحمل خلف السلطان عند ركوبه، وهى من شعار الملك القديمة، وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعقد لأمرء

سراياه الرايات عند بعثها ؛ ثم قد يعبر عن بعضها بالعصائب جمع عصاية : وهي الألوية ، أخذنا من عصاية الرأس : لأن الراية تعصب رأس الرمح من أعلاه ؛ وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق ، والسنجق باللغة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح ، والرمح هو آلة الطعن يسمى بذلك مجازا .

ومنها الطبول ، ويقال لها الدبادب ، والبوقات ، والزممر المعروف بالصهان الذي يضرب به عشية كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها ، وهي المعبر عنها بالطبلخاناه ، وهي من شعار الملوك القديم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن الطبل في بلاد المغرب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة المغرب في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى . والسر فيها إرهاب العدو ، وتخذيذه كما كتب به أرسطو في كتاب "السياسة" للإسكندر ، أو تقوية النفوس وتشجيعها على الحرب كما قاله الغزالي رحمه الله في "الإحياء" وكما كثرت أعدادها ، كان أنعم لشأن الملك وأبلغ في رفعة شأنه . وقد حكى أن دبابد الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر في "التعريف" من جملة الآلات الملوكية الدواة ، والقلم ، والمِرْملة . ولا يخفى أنها بالآلات الكتاب أليق وإن كان السلطان لا يستغني عنها ؛ وسيأتي الكلام عليها في الكلام على آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(آلات الركوب - وهي عدة آلات)

منها السرج - وهو ما يقعد فيه الراكب على ظهر الفرس ؛ وأشكال قوابله مختلفة ؛ ثم من السرج ما يكون مغشى بالذهب ، وهو مما يصلح للوك .

ومنها ما يكون مغشًى بالفضة البيضاء؛ وكل منها قد يكون منقوشاً وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها ما يكون ساذجاً .

ومنها اللِّجام - وهو الذي يكون في ذكَّ الفرس يمنعُه من الجَمَاح؛ وقولبه أيضاً، مختلفة؛ ثم منها ما يكون مطلياً بالذهب، ومنها ما يكون مطلياً بالفضة، ومنها ما يكون ساذجاً، ومنها ما يكون رأسه وجنباه محلياً بالفضة، ومنها ما يكون غير محلي .

ومنها الكنبوش - وهو ما يستر به مؤخرُ ظهر الفرس وكَفْلُهُ؛ وهو تارة يكون من الذهب الزركش، وتارة يكون من الخايش : وهى الفضة الملبَّسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم؛ وبه يركب القضاة وأهل العلم .

ومنها العباءة بالمد - وهى التى تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المِهْمَاز - وهو آلة من حديد تكون في رجل الفارس، فوق كعبه، فوق الخلف وما في معناه؛ ومؤخره إصبع محدّد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في المشى أو جدّت في العدو . وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فضة، وتارة يكون من حديد مطلي بالذهب أو الفضة؛ وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه .

ومنها الكُور - وهو ما يقعُ فيه الراكب في ظهر النجيب : وهو الهَجِين، والعرب تسميه الرَّحْل؛ ثم قد يكون مقدّمه ومؤخره مغشًى بالذهب أو الفضة، وقد يكون غير مغشًى .

ومنها الزَّمام - وهو ما يُقاد به النَّجِيب، ويضبطه به الراكب كما يضبطُ الفارس الفرس بالعنان .

ومنها الرِّكَّابُ - وهو ما تجعل فيه الرَّجُلُ عند الركوب، وكانت العرب تعتاده

من الجلد والخشب ، ثم حُدِلَ عن ذلك إلى الحديد . قال أبو هلال العسكري :
 في كتابه ”الأوائل“ وأول من آتخذه من الحديد المَهْلَبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ، وكانت
 رُكْبُ الْعَرَبِ مِنْ خَشَبٍ فَكَانَ الْفَارَسُ يَصُكُّ الرَّابِكَ^(١) بِرُكَابِهِ فَيُوْهِنُ مِرْفَقَهُ ،
 وَمِنْهَا السَّوْطُ - وهو ما يكون بيد الراكب يَضْرِبُ بِهِ الْفَرَسَ أَوِ النَّجِيبَ ،
 وَأَهْلُ زَمَانِنَا يَعْبُرُونَ عَنْهُ بِالْمِقْرَعَةِ لِأَنَّهُ يُقْرَعُ بِهِ الْمَرْكُوبُ إِذَا تَقَاعَسَ ، وَهُوَ بَدَلُ
 الْقَضِيبِ الَّذِي كَانَ لِلْخَلْفَاءِ عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْخِلَافَةِ
 فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث

(آلات السفر؛ وهي عدة آلات)

مِنْهَا الْمِحْفَةُ بِكَسْرِ الْمِيمِ : وَهِيَ تَحْمِلُ عَلَى أَعْلَاهُ قُبَّةٌ ، وَلَهُ أَرْبَعَةُ سَوَاعِدَ : سَاعِدَانِ
 أَمَامَهَا وَسَاعِدَانِ خَلْفَهَا ، تَكُونُ مَغْطَاةً بِالْجُودِ تَارَةً وَبِالْحَرِيرِ أُخْرَى ، تُحْمَلُ عَلَى بَغْلَيْنِ
 أَوْ بَعِيرَيْنِ يَكُونُ أَحَدُهُمَا فِي مَقْدَمَتِهَا ، وَالْآخَرُ فِي مُؤَخَّرَتِهَا ، إِذَا رَكِبَ فِيهَا الرَّابِكَ
 صَارَ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ عَلَى سَرِيرٍ ، لَا يَلْحَقُهُ أَنْزَعَاجٌ ، وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْمُلُوكِ وَالْأَكْبَرِ
 بِاسْتِصْحَابِهَا فِي السَّفَرِ خَشْيَةً مَا يَعْزِضُ مِنَ الْمَرَضِ .

وَمِنْهَا الْمِحْمَلُ بِكَسْرِ الْمِيمِ الْأَوَّلَى وَفَتْحِ الثَّانِيَةِ : وَهُوَ آتَةٌ كَالْمِحْفَةِ إِلَّا أَنَّهُ يَحْمَلُ عَلَى
 أَعْلَى ظَهْرِ الْجَمَلِ بِخِلَافِ الْمِحْفَةِ فَإِنَّهَا تَحْمَلُ بَيْنَ جَمْلَيْنِ أَوْ بَغْلَيْنِ .

وَمِنْهَا الْفَوَانِيسُ ، جَمْعُ فَاوْنُوسٍ ، وَهِيَ آتَةٌ كُرِّيَّةٌ ذَاتُ أَضْلَاعٍ مِنْ حَدِيدٍ ، مَغْشَاةٌ
 بِخُرْقَةٍ مِنْ رَقِيقِ الْكَتَّانِ الصَّافِي الْبَيَاضِ يَتَّخِذُ لِلْإِسْتِضَاءَةِ بِغُرْزِ الشَّمْعَةِ فِي أَسْفَلِ بَاطِنِهِ

(١) لعله المركوب .

(٢) ضبطه في القاموس والصاحح كعجاس . ولعل ما في الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آتة .

فَيَشْفُ عَنْ ضَوْئِهَا ؛ وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَحْمَلَ مِنْهَا اثْنَانِ أَمَامَ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ فِي السَّفَرِ فِي اللَّيْلِ .

وَمِنْهَا الْمَشَاعِلُ جَمْعُ مَشْعَلٍ : وَهِيَ آلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ كَالْقَفْصِ مَفْتُوحُ الْأَعْلَى ، وَفِي أَسْفَلِهِ حُرْقَةٌ لَطِيفَةٌ ، تَوْقِدُ فِيهِ النَّارَ بِالْحَطْبِ فَيَبْسُطُ ضَوْءَهُ ، يَحْمَلُ أَمَامَ السُّلْطَانِ وَنَحْوِهِ فِي السَّفَرِ لَيْلًا أَيْضًا .

وَمِنْهَا الْحِيَامُ جَمْعُ خَيْمَةٍ ، وَيُقَالُ لَهَا الْفُسْطَاطُ وَالْقُبَّةُ أَيْضًا ؛ وَهِيَ بَيوتٌ تُتَّخَذُ مِنْ نَحْرَقِ الْقُطْنِ الْغَلِيظِ وَنَحْوِهِ ، تَحْمَلُ فِي السَّفَرِ لَوَايَةَ الْحَرْ وَالْبَرِّ ؛ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُتَّخِذُهَا مِنَ الْأَدِيمِ ، وَقَدْ آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ” وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ “ ، وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي فِي سَعَتِهَا ، وَتَنْتَاهِي بِكِبَرِهَا . وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ لِبَعْضِ خُلَفَائِهِمْ خَيْمَةٌ تُسَمَّى الْقَاتُولُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ فَرَّاشًا مِنَ الْفَرَّاشِينَ وَقَعَ مِنْ أَعْلَى عَمُودِهَا فَتَاتَ لَطُولُهُ .

وَمِنْهَا الْخُرُكَاهُ : وَهِيَ بَيْتٌ مِنْ خَشَبٍ مَصْنُوعٌ عَلَى هَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ وَيَغْشَى بِالْجُودِ وَنَحْوِهِ ، تَحْمَلُ فِي السَّفَرِ لِتَكُونَ فِي الْخَيْمَةِ لِلْبَيْتِ فِي الشِّتَاءِ لَوَايَةَ الْبَرِّ .

وَمِنْهَا الْقُدُورُ، جَمْعُ قَدْرٍ: وَهِيَ الْآلَةُ الَّتِي يَطْبَخُ فِيهَا وَتَكُونُ مِنْ نَحَاسٍ غَالِبًا، وَرَبَّمَا كَانَتْ مِنْ بَرَامٍ . وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي بِكَثْرَتِهَا وَعِظَمِهَا : لِأَنَّهَا مِنْ دَلَائِلِ كَرَمِ الْمَلِكِ وَكَثْرَةِ رَجَالِهِ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَظِيمِ قَدْرِ مَا كَانَتْ الْجَنُّ تَعْمَلُهُ لَهُ مِنَ الْقُدُورِ بِقَوْلِهِ ” يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِجَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ “ .

وَمِنْهَا الْأَثَافِي ، وَهِيَ الْآلَةُ الْمَثَلَّةُ الَّتِي تَعَلَّقُ عَلَيْهَا الْقَدْرُ عِنْدَ الطَّبْخِ ، وَتَكُونُ مِنْ حَدِيدٍ .

ومنها النار التي يوقد بها للطبخ ونحوه؛ وقد تقدم في الكلام على نيران العرب ذكر نار القرى، وهي نار كانت تُرْفَعُ ليلاً ليراها الضيف فيمتهدى بها إلى الحى .

ومنها الحَفَانُ جمع جَفَنَةٍ : وهي الآنية التي يوضع فيها الطعام ، وقد تقدم في الكلام على القدور أنها مما كانت الحن تعمله اسليمان عليه السلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بِكِبَرِ الحَفَانِ لدلالاتها على الكرم ، وفي ذلك يقول الأعشى في مدح المُحَلَّقِ لَيْلَةَ بات عليه :

نفى الدَّامَ عَنْ آلِ المُحَلَّقِ جَفَنَةً * بَكَائِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِيِّ تَفْهَقُ

قيل أراد بالشيخ العراقى كسرى، فشبهه جفنته بجفنته .

ومنها حَيَاضُ الماء : وهي حياض من جلد تحمل في السفر ليقبى الماء فيها لسقى الدواب ونحوها، وكبر قدرها دليل على رِفْعَةِ قدر صاحبها ونخامته : لدلالاتها على كثرة دوابه، واتساع عسكره .

الصنف الرابع

(آلات السلاح ؛ وهي عدة آلات)

منها السَّيْف : وهو معروف . وسيأتى في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هَلَكَ لأنه به يقع الهَلَكُ .

وأعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرٍ : وهو المعبر عنه بالفولاذ، قيل سيف فولاذ، وإن كان من حديد أنثى : وهو المعبر عنه في زماننا بالحديد، قيل سيف أنثى ؛ فإن كان مثنه من حديد أنثى وحداه من حديد ذكر كما في سيوف الفِرْنَجَةِ ، قيل سيف مُدَّكَرٌ ، ويقال إن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردت ، صارت حديدا، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا، فتحجىء في غاية الحُسْنِ والمُضَاءِ .

(١) هكذا في الأصل ولعلها مصحفة عن بردت .

(١) ثم إن كان عريض الصفيح ، قيل له صفيحة ؛ وإن كان محداً لطيفاً ، قيل له قَصِيْبٌ ؛ فإن كان قصيراً قيل أُثَرٌ ؛ فإن كان قصراً بحيث يحمل تحت الثياب ويُشتمَل عليه ، قيل مشمَلٌ بكسر الميم ؛ فإن كان له حد واحد وجانبه الآخر جاف ، قيل فيه صمّامة ، وهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه خُزُوز مستطيلة قيل فيه فقّارات ، وبذلك سمي سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الفقار ، يروى أنه كان فيه سبع عشرة فقارة . ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذي طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هِنْدِيٌّ ومُهَنْدٌ ، وفيما طبع باليمن يَمَانٍ ، وفيما طبع بالمَشَارِف : وهى قُرَى من قُرَى العرب قريبة من ريف العراق ، قيل له مَشَرَفِيٌّ ؛ فإن كان من المعدن المسمّى بَقُسَّاس : وهو معدن موصوف بجودة الحديد قيل له قُسَّاسِيٌّ ، وتارة ينسب السيف إلى صاحبه كالسيف السَّرِيحِيّ نسبة إلى قَيْن من قِيُون العرب اسمه سَرِيح معروف عندهم بحسن الصنعة . ويوصف السيف بالحُسام : وهو القاطع أخذاً من الحُسم : وهو القطع ، وبالصارم : وهو الذى لا ينبو عن الضربة . والناس يبالغون فى تحلية السيوف فتارة تُرَصَّع بالجواهر ، وتارة يُحَلَّوْنَها بالذهب ، وتارة يحلونّها بالفضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحلية .

ومنها الرُّمَحُ : وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما متخذ من القنأ ، وهو قَصَب مسدود الداخل ، ينبت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قنأة ، ويقال لمفصلها أُنَابِيْبٌ ، ولعقدتها كُغُوبٌ ؛ فإن كان قد نُسأ فى نباته مستقيماً بحيث لا يحتاج إلى تثقيف ، قيل له الصَّعْدَةُ - بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن احتاج إلى تقويم مقوم قيل له مثَقَفٌ . ويوصَفُ القنأ بالخطيِّ - بفتح الخاء المعجمة ، نسبة إلى

(١) لعله مدقاً (٢) كذا بالأصل . وصوابه مطمئنة كما فى المخصص واللسان .

الْخَطُّ : وهى بلدة بالبحرين تجلبُ إليها الرِّمَاحُ من الهند ، وتنقل منها إلى بلاد العرب ، وليست تُنبت القَنَا كما تَوَهَّمه ابنُ أصْبَغٍ فى أرجوزته المذهبية .
 الثانى ما يُتَّخَذُ من الخشب كالزَّان ونحوه ، ويسمى الذَّالِ (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقال للحديد الذى فى أعلى الرُّمْحِ السَّنان ، وللذى فى أسفلهُ الرُّجُ والعَقَب .
 ويوصف الرُّمْحُ بالأَسْمَرُ : لأن لون القَنَا السُّمْرُ ، وبالعَسَّال : وهو الذى يضطرب فى هزّه ، وبالدُّن : وهو اللين ، وبالسُّمَهْرَى نسبة إلى بلدة يقال لها سَمَهْرَة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السُّمَهْرَة ، وهى الصَّلابة .

ومنها الطَّبر ، وهو باللغة الفارسية الفأس ، ولذلك يسمى السُّكَّرُ الصُّلبُ بالطَّبَرَزْد يعنى الذى يكسر بالفأس . وإلى الطَّبر تنسب الطَّبَرْدَارِيَّة : وهم الذين يحملون الأُطْبار حولَ السلطان على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ومنها السَّكِين ، وسيأتى ذكرها فى آلات الدَّوَاة فى الكلام على آلات الكتابة وإنما سميت سَكِينًا لأنها تُسَكِّن حركة الحيوان . وتسمى المُدْيَة أيضًا لأنها تقطع مدى الأَجَل ، وهذه الاشتقاقَات أُولَى بآلة الحرب من آلة الكتابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلف أحوالها بحسب الحاجة إليها ، فتكون لكل شىء بحسب ما يناسبه .

ومنها القَوْس ، وهى مؤنثة . والقَيْسَى على ضربين : أحدهما العربية ، وهى التى من خشب فقط ، ثم إن كانت من عُودٍ واحد قيل لها قَضِيب ، وإن كانت من فَلَاقَيْنِ قيل لها فَلَاق . الثانى الفارسية : وهى التى تُرَكَّب من أجزاء : من الخشب والقُرْن والعَقَب والغراء . ولأجزاءها أسماء يختص كل جزء منها اسم ، فوضع إمساك

الرامي من القوس يسمى المَقْبِضُ ، ومجرى السهم فوق قَبِضِ الرامي يسمى كَبِدِ القوس ، وما يُعْطَف من القوس يسمى سِيَّةَ القوس ، وما فوق المَقْبِض من القوس ، وهو ماعلى يمين الرامي يسمى رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ماعلى يسار الرامي يسمى رِجْلُ القوس .

ومنها النَّشَاب ، والنَّبَلُ ، فالنَّبَلُ ما يرمى به عن القِسيِّ العربية ، والنَّشَاب ما يرمى به عن القِسيِّ الفارسيَّة حكاية الأزهرى ، ومجرى الوتر من السهم يسمى القُوق ، وحديدُه يسمى النَّصْلُ ، والرَّيشُ يسمى القُدْدُ ، والسهم قبل تركيب الريش يسمى القِدْحُ (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) .

ومنها الكِنَانَةُ ، ويقال لها الجَعْبَةُ : وهى بكسر الكاف : وهى ظَرْفُ السهام ، وتكون تارة من جلد ، وتارة من خَشَب .

ومنها الدَّبُّوسُ ، ويسمى العامود : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومن فى معناه . ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهى آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدَّبُّوس .

ومنها البِيضَةُ : وهى آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه ما يرسل على القفا والأذان ، وربما كان ذلك من زَرَدٍ .

ومنها المِغْفَرُ ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضا ، وقد تكون من زَرَدٍ أيضا .
ومنها الدَّرْعُ : وهو جُبَّة من الزَرَدِ المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السميوف والسهام ، وهى تذكر وتؤنث ، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه ألين

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى ﴿وَالنَّالَةُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروعُ الفائقةُ إلى نَسِجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السِّلْوَقِيَّةُ نسبةً إلى سَلُوقٍ ، قريةٌ من قُرَى اليمن ، وربما قيل دُرُوعٌ حَطُومِيَّةٌ بضم الحاء المهملة نسبةً لحطوم رجل من عبدِ القَيْسِ .
وأعلم أن لَيْسَ العرب في الحرب كان الزرد ، أما الآن ، فقد غلب عمل القَرَقَلَاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض .

ومنها التُّرْسُ : وهو الآلة التي يتقي بها الضرب والرمي عن الوجه ونحوه ، وتسمى الجُنَّةُ أيضا بضم الجيم أخذًا من الاجتنان وهو الاختفاء ، وربما قيل لها الجَحْفَةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ، ثم هي تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيذان مضموم بعضها إلى بعض بنحيط القطن ونحوه ، فإن كانت من جلد ، قيل لها دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخامس

(آلات الحصار ، وهي عدة آلات)

منها المَنْجَنِيقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقافٍ في الآخر ، وحكى ابن الجوالقي فيه كسر الميم ، وحكى فيه أيضا منجنوق بالواو وَمَنْجَمِيقٍ بإبدال النون الثانية ميما ، وهو اسم أعجمي ، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ، ويجمع على مجانيق ومناجيق . قال الجوهرى : وأصله مَنْ جَى نيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ابن خلكان : تفسير مَنْ وتفسير جى ايش ، وتفسير نيك جيد ، قال ابن قتيبة في كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكري

(١) لعل زيادة الواو من تحريف النسخ . والصواب حَطُومِيَّةُ نسبةً إلى حُطَم رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

في "الأوائل" : وهو آلة من خشب لها دَفَتَانِ قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ الْمَنْجَنِيقِ التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع الْمَنْجَنِيقَ جَذِيمَةُ الْأَبْرَشُ مَلِكُ الْحِيرَةِ على العرب . وذكر الواحدى في تفسير سورة الأنبياء : أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يقدروا على القرب من النار ليلقوه فيها ، فجاءهم الأعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقتلوا به في النار ، فكان أول منجنيق عمل .

ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات : وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرى به الحجر .

ومنها السهم الخطاية ^(١) ، وهي سهام عظام يرمى بها عن قسي عظام توتر بلوالب يجزها ويرمى عنها فتكاد تحرق الحجر .

ومنها مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يرمى عنها بالنقط . وحالها مختلف : بعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تحرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرتال بالمصرى إلى ما يزيد على مائة رطل ، وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية ، شَعْبَانَ بن حُسَيْن ، في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، بها مدفعا قد صنع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف الحديد رُمي عنه من الميدان ببندقية من حديد عظيمة محماة ، وقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة .

(١) لعله مصحف والذي يؤخذ من المخصص أن السهم الخطاي هو السهم الغليظ الحادر فلعل هذا منه كما يفيد التفسير بعد تأمل .

ومنها قوارير النَّفْطِ، وهى قدور ونحوها يجعل فيها النَّفْطُ ويرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق، على أن القوارير فى اللغة أسم للزجاج وإنما استعملت فى آلات النَّفْطِ مجازاً .

ومنها الستائر، وهى آلات الوقاية من الطوارق، وما فى معناها مما يستبره على الأسوار والسفن التى يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد ، وهى عدة آلات)

منها قوس البُنْدُق (ويسمى الجُلَّاهِق) قوس يتخذ من القنأ ويلف عليه الحرير ويفترى، وفى وسط وتره قطعة دائرة تسمى الجوزة، توضع فيها البُنْدُقَةُ عند الرمى .
ومنها الجراوة ، وهى آلة من جلد يجعل فيها البُنْدُقُ الطين الذى يرمى به عن القوس المتقدم ذكره .

ومنها الشَّبَاكُ ، وهى آلة تتخذ تعقد من خيطان وتنصب لاقتناص الصيد، وكذلك تطرح فى الماء فيصاد بها السمك .

ومنها الزُّبْطَانَةُ^(١)، وهى آلة من خشب مستطيلة كالرمح مجوفة الداخل يجعل الصائد بُنْدُقَةً من طين صغيرة فى فيه ، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدة فتصيب الطير فترميه، وهى كثيرة الإصابة .

ومنها الفَخُّ، وهو آلة مَبْوَسَةٌ لها دَفَّتَانِ تفتحان قسراً، وتعاقدان فى طرف شظاة ونحوها إذا أصابها الصيد، أنطبقت عليه .

ومنها الصَّنَانِيرُ جمع صِنَارَةٍ، وهى حديدة معقفة محددة الرأس يصاد بها السمك .

(١) فى الأصل الزبربطانة . والصحيح من القاموس .

الصف السابع

(آلات المعاملة، وهى عدة آلات)

منها الميزان، وهو أحد الآلات التى يقع بها تقدير المقدرات، فالموازين قديمة
الوضع قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة
القِسْطِ بِالْوِزْنِ كما أخبر تعالى عنه بقوله ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. قال أبو هلال
العسكرى: وأول من اتخذ الموازين من الحديد عبد الله بن عامر. قال: وأول
من وضع الأوزان سمير اليهودى، وذلك أن المجاج ضرب الدراهم بأمر عبد الملك
آبن مروان ونهى أن يضربها أحد غيره، فضربها سمير فأمر المجاج بقتله لأجترائه
عليه. فقال سمير: أنا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلى، فوضع الأوزان: وزن
ألف، وخمسمائة، وثلاثمائة، إلى وزن رُبْع قيراط، وجعلها حديدا، فعفا عنه. وكان
الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره، وأكثرها يؤخذ عددا.
ومنها الذراع، مؤنثة، وهى إحدى الآلات التى تقدر بها المقادير أيضا، بها تقدر
الأرضون، ويقاس البزوما فى معناه، ولم تزل الناس قديما وحديثا يتعاملون بها على
اختلافها، وقد ورد ذكرها فى القراءات الكريمة فى قوله تعالى ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾. وقد ذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية سبع أذرع.
إحداها العُمريَّة، وهى الذراع التى قدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى
الله عنه لمسح سواد العراق. قال موسى بن طلحة: وطولها ذراع وقبضة وإبهام.
قال الحكم بن عتيبة: عمده عمر رضى الله عنه إلى أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا،
فجمع منها ثلاثة وأخذ الثلث منها وزاد عليها قبضة وإبهاما قائمة، ثم ختم فى طرفها
بالرصاص، وبعث بذلك إلى حذيفة وعثمان بن حنيف فسحا بها السواد.

الثانية الهاشمية ، وتسمى الزيادة . قال : وهي أربع وعشرون إصبعاً ، كل إصبع سبع شعيرات مُعَدَّلَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرًا لِبَطْنٍ ، كل شعيرة عرض سبع شَعَرَاتٍ من شعر الِرْدُونِ ؛ وهذه الذراع التي يعتمدها الفقهاء في الشرعيات ، وبها قدروا البريد المعتبر في مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عَبَّروا عنها بذراع الملك ؛ وسميت بالهاشمية لأن أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس أَعْتَبَرَهَا وَعَمِلَ بِمَقْتَضَاهَا في المساحة وَتَبَعَ سَائِرُ خُلَفَائِهِمْ على ذلك ، وبنو العباس من بني هاشم ، فنسبت إلى بني هاشم مباينةً لِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ . قال المَاورِدِيُّ : وتسمى الزِّيَادِيَّةُ : لأن زيادا مسح بها السَّوَادَ أيضا .

الثالثة البِلَالِيَّةُ ، وهي أنقص من الهاشمية المقدم ذكرها ثلاثة أرباع عُشْرِهَا ؛ وإنما سُمِّيَتِ البِلَالِيَّةُ لِأَنَّ بِلَالَ بن أَبِي بُرْدَةَ بن أَبِي مُوسَى الأشعري هو الذي وضعها ، وذكر أنها ذراعُ جَدِّهِ أَبِي مُوسَى .

الرابعة السَّوْدَاءُ ، وهي دون البلالية باصبعين وثلاثي إصبع ؛ وأول من وضعها الرشيد ، قدَّرها بذراع خادم أسود ، كان قائما على رأسه . قال المَاورِدِيُّ : وهي التي يتعامل بها الناس في ذرع البزِّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخامسة اليُوسُفِيَّةُ ، وهي دون الذراع السوداء بثلاثي إصبع ؛ وأول من وضعها أبو يوسف صاحبُ أبي حنيفة . قال المَاورِدِيُّ : وبها يَدْرَعُ القضاةُ الدُّورَ ببغداد .

السادسة القصبة ، وهي أنقص من الذراع السوداء بإصبع وثلاثي إصبع ؛ وأول من وضعها ابن أبي ليلى القاضي . قال المَاورِدِيُّ : وبها يتعامل أهل كَلَوَازِي .

السابعة المهرانية، قال الماوردي : وهي بالذراع السوداء ذراعان وثلاث ذراع ؛ وأول من وضعها المأمون ، وهي التي يتعامل بها في حفر الأنهار ونحوها .
ومنها المقص (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة ، ويُنْتَفَعُ به في أمور مختلفة .

الصف الثامن (آلات اللَّعِبِ ، وهي عِدَّةُ آلات)

منها التَّرْدُ (بفتح التون وسكون الراء المهملة) وهو من حَكَمِ الفُرْسِ ، وضعه أردشير بن بابك أول طبقة الأكاسرة ، من ملوكهم ، ولذلك قيل له نَرْدَشِير ، وضعه مثالا للدنيا وأهلها ، فرتب الرقعة اثني عشر بيتا بعدد شهور السنة ، والمهاريك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصوص بثلاثة الأفلاك ، ورميها مثل ثقلها ودورانها ، والثَّقَطُ فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة ، وهي الشمس ، ويقابله اليك ، والبنج ، ويقابله الدو ، والجهار ، ويقابله الثا ، وجعل ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر : تارة له وتارة عليه ، وهو يصرف المهاريك على ما جاءت به النقوش ، إلا أنه إذا كان عنده حُسْنُ نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه ، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة ؛ لكن قد وردت الشريعة بذقه قال صلى الله عليه وسلم " مَنْ لَعِبَ بِالنَّردَشِيرِ فكأنما غَمَسَ يده في لحم خنزير " وفي رواية " ملعون مَنْ لَعِبَ بِالنَّردَشِيرِ " . وفي تحريره عند أصحابنا الشافعية وجهان ، أحدهما التحريم ، والثاني الكراهة . وإذا قلنا حرام ، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة .

ومنها الشَّطْرَنْجُ ، بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان ، والأولى منهما

(١) الذي في القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوله وفي لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من باب جردحل .

أفصح، وهو فارسيّ معرّب، وأصله بالفارسية شش رنك، ومعناه ستة ألوان وهي الشاه (والمراد بها الملك) والفرزان، والفيل، والفرس، والرّخ، والبيدق، ثم الشّطرنج من أوضاع حكماء الهند وحكّهم . وضعه صصه بن داهر الهنديّ لبهيب ملك الهند مساواة لأردشير بن بابك في وضعه النرد، وعرضه على حكماء زمانه فقبضوا بتفضيله، ثم عرضه على الملك وعزّفه أمره، فقال: أحتمك على، فتمنى عليه عدد تضعيف بيوته، من قمحة إلى نهاية البيوت، فاستصغره همته وأنكر عليه مواجهته بطلب نزر يسير، فقال هذه طلّيتي فأمر له بذلك، فحسّبه أرباب دواوينه فقالوا للملك: إنه لم يكن عندنا ما يقارب القليل من ذلك، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان، فكان إعجابه بالأمر الثاني أكثر من الأوّل. قال ابن خلكان: ولقد كان في نفسي من هذه المبالغة شيء حتّى اجتمع بي بعض حساب الإسكندرية فأوضح لي ذلك وبينه، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر، فأثبت فيه اثنين وثلاثين ألفا وسبعائة وثمانية وستين حبة، وقال: تجعل هذه الجملة مقدار قدح، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه وية، ثم أنقل من الويات إلى الإردب، ولم يزل يُضعّفها حتّى آتته في البيت الأربعين إلى مائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعائة واثنين وستين إردبا وثلاثي إردب، وقال: هذا المقدار شونة، ثم ضاعف الشّون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة، وقال: هذا المقدار مدينة، ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلى الرابع والستين، وهو نهايتها، فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة، وقال: تعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد قال الصّلاح الصّفديّ في شرح اللامية: وآخر ما اقتضاه تضعيف رقعة الشّطرنج ثمانية عشر ألف ألف ست مرات، وأربعمائة وستة وأربعون ألفا خمس مرات،

وسبعمائة وأربعة وأربعون ألفاً أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفاً ثلاث مرات ،
وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسمائة وأحد وخمسون ألفاً وستمائة وخمس عشرة
حبة عددا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصارى : إذا جمع هذا العدد هرماً واحداً مكعباً ، كان
طوله ستين ميلاً ، وعرضه كذلك ، وارتفاعه كذلك ، بالميل الذى هو أربعة
آلاف ذراع .

واللعب بالشطرنج مباح ، وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازى رحمه الله
فى "المهذب" أن سعيد بن جبّير الإمام الكبير التابعى المشهور كان يلعب الشطرنج
عن استبدار . ومن يضرب به المثل فى لعب الشطرنج الصولى : وهو أبو بكر محمد
أبن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين الكاتب ، ويقال إن المأمون كان
لا يجيد لعب الشطرنج ، فكان يقول : عجبا منى كيف أدبر ملك الأرض من الشرق
إلى الغرب ولا أحسن تدير رقعة : ذراعين فى ذراعين . ثم فى حله عند أصحابنا
الشافعية ثلاثة أوجه أصحها أنه مكروه والثانى أنه مباح والثالث حرام ، فإن اقترن به
رهن من الجانيين أو أحدهما ، فإنه محرم بلا نزاع .

الصنف التاسع

(آلات الطرب : وهى عدة آلات)

منها العود : وهو آلة من خشب مخمقة ، له عنق ورأسه ممال إلى خلفه ، وهو
آلة قديمة ، وتسميه العرب المزهر بكسر الميم ، وهو أنغر آلات الطرب وأرفعها قدرا
وأطيبها سماعا ، حتى يقال إنه قيل له هل يُسمع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال
رأسه إلى خلفه فهى مماله لأجل ذلك .

ومنها الجُنك، قال في "التعريف" : وهو آلة مُحَدَّثَةٌ طيبة النَّعْمَةِ، لذيد السماع يقارب العود في حسنه، وشكله مباين لشكل العود، ورأسه ممال إلى أسفل؛ يقال إنه قيل له : هل يُسَمَّعُ أحسنُ منك؟ فقال : نعم، يريد العود .

ومنها الرَّيَابُ (بفتح الراء) : وهي آلة مَجُوفَةٌ مَرَكَبٌ عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر مُرَمَّرٌ عليها بقوس وتره من شعر فيسمع لها حِسٌّ طَيِّبٌ، وأكثر من يعانها العرب .
ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكَنْجَة لطيف القدر في تدويره، أطيب حسا وأشجى من الرَّيَاب .

ومنها الدُّفُّ (بضم الدال) : وهو معروف، ثم إن كان بغير صُنُوج، وهي المعبر عنها في زمننا بالصراصير، حلَّ سَمَاعُهُ، أو بَصُنُوج، فالأصح كذلك .

ومنها الشَّبَابَةُ (بفتح الشين) : وهي الآلة المتخذة من القَصَبِ المَجُوفِ، ويقال لها اليرَاع أيضا تسمية لها بأسم ما اتخذت منه، وهو اليراع يعني القَصَبَ، وربما عبر عنها بالمِزمار العراقي؛ وتصحيح مذهب الشافعي رضى الله عنه يختلف فيها فالرافعي رحمه الله يميز سَمَاعَهَا والنَّوَوِيُّ يمنع من ذلك .

الصنف العاشر

(المسكرات وآلاتها، وهي عدّة أشياء)

منها الخمرُ : وهي ما اتخذ من عصير العنب خاصّة، وهي محرمة بنص القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ وأبو حنيفة يبيحها للتداوى والعطش، ولم تَبَّحْ عند الشافعية إلا لإساعة لقمة المغصوص خاصّة، وشاربها يحثد بالأنفاق؛ وحكم بنجاستها تغليظا في الزجر عنها، وأباح أبو حنيفة المُتَلَثِّثَ : وهو ماذهب ثلثاه وبقي ثلثه وقال بطهارته، وجرى عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة .

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنما يقال له نبيذ ؛ وقد ذهب الشافعي رضي الله عنه إلى القول بتنجيسه والحد بشربه وإن لم ينته منه إلى قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفة الحد في القدر الذي لا يُسْكِر ؛

ثم للخمير أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمى الخمر لأنها تُخمر العقل : أى تغطيه ، والحميّا لأنها تُخمى الجسد ، والعقار لأنها تعافر الدنّ : أى تطول مدتها فيه إلى غير ذلك من الأسماء التي تكاد تتجاوز مائة .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذي يُصب منه ؛ والإبريق في أصل اللغة ماله خرطوم يُصب منه .

ومنها القدح : وهو إناء من زجاج ونحوه يُصب فيه من الإبريق المقدم ذكره .
ومنها الكأس : وهو القدح بعد امتلائه ، ولا يسمى كأساً إذا كان فارغاً بل قدحاً كما تقدم .

ومنها الكؤب بالباء الموحدة : وهو الذي لأُعروّة له يُمسك بها ، أما إذا كانت له عروة ، فإنه يقال له كوز بالزاي المعجمة .

قلت : والعجب ممن يُذهب طبيّاته في حياته الدنيا ، ويفوز بما وصّفه المראה وطبعه إزالة العقل الذي به تُدرَك اللذة ، ويفوت النعيم المقيم في دار البقاء ! فقد ورد "أن من شرب الخمر في الدنيا لم يطعمها في الآخرة" . قال العلماء : إذا رآها ، لا يشتهيها ولم تطلبها نفسه ، وقد وصف الله تعالى حال نحر الجنة بقوله : "يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ" . وأتبع ذلك بكمال النعمة في قوله : "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا" .

اللهم لا عيشَ إلَّا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خيرا ما عندك بشر ما عندنا .
ومنها الحَشِيشَةُ التي يأكلها سَفَلَةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأطباء الشَّهْدَانِج ،
وعبر عنها ابن البيطار في مفرداته بالقَنْبِ الهِنْدِي . وهي مدمومة شرعا ، مضرة طبعاً ،
تُفْسِدُ المزاج ، وتؤثر فيه الجَفَافُ وغلبة السوداء ، وتفسد الذهن ، وتورث مَسَاءةَ
الأخلاق ، وتَحْطُّ قَدْرَ متعاطيها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة
المتكاثرة . وكلام القاضي حُسَيْن يدل على أنه لا يحد متعاطيها وإن فُسِّقَ ، فإنه قال :
وغير الخمر مثل البَنْجِ ، وجَوْزِ مَائِلٍ ، والأفيون لا يحد متعاطيه بحال ؛ بل إن تعمد تناوله
فُسِّقَ به ، وإن تناوله غَلَطًا أو للتداوى به ، لم يُفَسِّقْ ؛ وقد أفرد ابن القسطلاني
الحشيشة بتصنيف سماه ”تَكْرِمَةُ المَعِيشَةِ“ ، في ذم الحشيشة “ ذكر الكثير من معانيها
ومساوى متعاطيها ، أعادنا الله تعالى من ذلك .

النوع الثامن

(مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان ما يقع عليه اسم الفلك وعدد أكرهه^(١) ، وما بين كل كرتين

وحركة الأفلاك في اليوم واللييلة)

أما ما يقع عليه اسم الفلك ، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صاحب ”منهاج
الفكر“ : تواطأت الأمم على تسمية أبرام السموات أفلاكا ، وقال ابن قتيبة
في ”أدب الكاتب“ : الفلك مدار النجوم الذي يضمها ، وأحتج بقوله تعالى بعد

(١) في القاموس الأكر لغة في الكرة . وقد جمعها المؤلف على هذه اللفظة وفي اللسان أن أكر جمع كرة
مقلوب اللام إلى موضع الفاء فأنظره .

ذكر النجوم : ”وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ“ قال : وسمى فلَكًا لاستدارته ومنه قيل فلَكَةُ المِغْزَلِ لاستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئته ، فقد اختلف علماء الهيئة في ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِّيَّةٌ لا مسطحة ، لأن أسرع الأشياء حركة السموات وأسرع الأشكال حركة الكُرَّة لأنها لا تثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أكرهه ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أكرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفاف طبقات البصلة ، بحيث يماس محدب كل كُرَّة سفلى مقرر كُرَّة أخرى عليا إذ لا خلاء بينهما عندهم . قالوا : وأقرب هذه الأكر إلى الأرض كُرَّة القمر ، ثم كُرَّة عطارد ، ثم كُرَّة الزهرة ، ثم كُرَّة الشمس ، ثم كُرَّة المريخ ، ثم كُرَّة المشتري ، ثم كُرَّة زحل ، ثم كُرَّة الكواكب الثابتة ، ثم كُرَّة الفلك الأطلس ، وسمى بالأطلس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفلك المحيط . ويسمى ^(١) فلَك الكل ، وفلك الأفلاك ، والفلك الأعلى ، والفلك الأعظم ، وحكى النوحى في ”كتاب الآراء والديانات“ أن بعض القدماء ذهب إلى أن كُرَّة الشمس أعلى من سائر كُرَّات الكواكب ، وبعدها كُرَّة القمر ، وبعدها كُرَّة الكواكب المتحركة ، ثم كُرَّة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاعتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكرسي ، والفلك التاسع هو العرش . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أن فوق الكُرَّة التاسعة كُرَّة عاشره هي المحركة لسائر الأكر . وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خلاء لانهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى أن وراءها عالم الصورة ، ثم عالم النفس ، ثم عالم السياسة ، ثم عالم العلة الأولى ، ويعنون به البارئ تعالى عن الجهة . والصوابة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أهمله في الأصل ولم نعر عليه بعد البحث .

وأما ما بين كل كُرْتَيْن ، فذهب أهل الهيئة إلى أنها متراصة لاخلاء بينها لكن قد ورد الشرع بما يخالف ذلك ، فأطبق القصاص من أهل الأثر على أن بين كل سماء وسماء خمسمائة سنة ؛ وفي سنن الترمذي أن "بين كل سماء وسماء واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة" .

وأما حركة الأفلاك اليومية ، فإن الفلك الأطلس المقدم ذكره يتحرك بما في ضمنه في اليوم والليلة حركة واحدة دورية على قطبين مائلين يسميان قطبي العالم أحدهما (١) عظمى تقطع هذا الفلك نصفين تسمى دائرة معدل النهار ، لأن الشمس متى حلت بها ، أعتدل النهار في سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرة دائرة أخرى متوهمة تقسم هذا الفلك نصفين على نقطتين متقابلتين ، يصير نصفها في شمالي معدل النهار ونصفها الآخر في جنوبيه ، ويسمى منطقة البروج ، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصة في السنة الشمسية ، ومن ثم قسمت اثني عشر قسما ويسمى كل قسم منها برجاً .

المقصد الثاني

(في ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الكواكب السبعة السيارة)

وهي زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وأشتقاق أسمائها ، ومقادير أبعادها من الأرض ، وقدر محط كل كوكب منها .

(١) في المواضع للقريري . [ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار] . فلعن في عبارة الأصل سقطا من النسخ وحرر .

فأما القمر، فأخوذ من القمرة : وهى البياض، سمي بذلك لبياضه ؛ وقد تقدم أن فلّكه أقرب الأفلاك إلى الأرض ، وهو المعبر عنه بالسما الدنيا ، ودوره ألف ومائة وخمسة وثمانون ميلاً ، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعده عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسمائة وتسعون ميلاً . وهو يسمى هلالاً الليلة الأولى والثانية والثالثة ، ثم هو قمرٌ إلى آخر الشهر . ويسمى في ليلة أربع عشرة بالبدر، قيل لمبادرته الشمس قبل الغروب ، وقيل لتامه وأمتلئه كما قيل لعشرة آلاف بدرةٍ لأنها تمام العدد ومنتهاه ؛ ويسمى ليلة في آخر الشهر، وربما استسرت ليلتين فلا يرى بمعنى أنه يختفى فلا يرى ، ويسمى هذا الاختفاء السرار .

وأما عطارد ، فعناه النافذ في الأمور ، ولذلك سمي الكاتب ؛ وهو في الفلك الثانى بعد فلّك القمر ؛ ودوره قمره سبعمائة وعشرون ميلاً ، وهو جزء من اثنين وعشرين جزءاً من الأرض ؛ وبعده ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسة آلاف وثماني مائة ميل . وأما الزهرة ، فأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ؛ وهى في الفلك الثالث من القمر ، ودوره قمرها ستة آلاف وسبعة وأربعون ميلاً ، وهى جزء من ستة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وستمائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس ، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى المحفة لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكب سفلية : وهى القمر وعطارد والزهرة ، وبين ثلاثة علوية : وهى المريخ والمشتري وزحل ، وذلك أنها فى الفلك الرابع من القمر ؛ ودور قمرها مائة ألف وثمانمائة وثمانون ميلاً ؛ وهى مثل الأرض مائة وست وستون مرة وربع وثمان مرة ، وبعدها عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وخمسة آلاف وأثنان وتسعون ألفاً ومائة وثلاثة وأربعون ميلاً .

وأما المَرِّجُ، فمأخوذ من المَرَج : وهو شجر تَحْتَكُ أغصانه فتورى النار، فسمى بذلك لشبهه بالنار في أحمراره ، وقيل المَرِّجُ في اللغة هو السهم الذى لا ريش له ، والسهم الذى لا ريش له يلتوى في سيره ، فسمى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه في سيره ؛ وهو فى الفلك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مرّةً ونصفاً ؛ وبُعْدُه عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعمائة ألف وأثنى عشر ألفاً وثمانمائة وستة وستون ميلاً .

وأما المُشْتَرَى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه اشترى الحسن لنفسه ، وقيل لأنه نجم الشراء والبيع عندهم ؛ وهو فى الفلك السادس من القمر ، ودَوْرُ قرصه أحد وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وسبعون ميلاً ، وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمان مرّةً ، وبُعْدُه عن الأرض ثمانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانية وستون ألفاً ومائتا ميل .

وأما زُحَلٌ ، فمأخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ ، سمي بذلك لبطئه في سيره ، وقد فسّره بعض المفسرين قوله تعالى ” النّجْمُ الثّاقِبُ “ ودَوْرُ قرصه تسعون ألفاً وسبعمائة وتسعة عشر ميلاً ، وبُعْدُه عن الأرض ستة وأربعون ألف ألف ومائتا ألف وسبعمائة وسبعة وسبعون ميلاً ، وأهل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَاتِلِ ، ويسمون المَرِّجَ الأحمر ، ويسمون عُطَّارِدَ الكَاتِبِ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعة بأسماء بلغتهم فيسمون زحل كيوان ، والمُشْتَرَى تير ، والمَرِّجَ بهرام ، والشمس مهر ، والزهرة أناهيد ، وعُطَّارِدَ هرمس ، والقمر ماه . وأعلم أن لكل من هذه الكواكب السبعة حركتين ، إحداهما قسريّة ، وهى حركته بحركة فلك الكل فى اليوم واللييلة حركة تامّة ، وتسمى الحركة السريعة ؛ والثانية حركة ذاتية يتحرّك فيها هو بنفسه من المغرب إلى المشرق وتسمى الحركة البطيئة ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فلكل واحد منها سيرٌ يخصه ؛ وهذه الحركة في القمر أبينُ لسرعة سيره ، إذ يقطع الفلكَ بالسير من المغرب إلى المشرق في كل ثمانية وعشرين يوما مرة . وقد مثل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمنالين ، أحدهما بحركة السفينة براكبها إلى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلى خلاف تلك الجهة ، والثاني تحرك نملة تدبُّ على دُولاب إلى ذات الشمال والدُّولاب يدور إلى ذات اليمين .

الضرب الثاني

(الكواكب الثابتة)

وهي الكواكب التي في الفلك الثامن على رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفلك لا تتحرك من المغرب إلى المشرق ، كما تتحرك السبعة السيارة ، إلا حركة يسيرة جدا ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلك الكل بها من المشرق إلى المغرب في اليوم واللييلة ؛ والذي يحتاج إلى ذكره منها الكواكب المشهورة مما تُتعرّف به الأزمنة على ما تقدم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه . وهي ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(نجوم البروج التي تنتقل فيها الشمس في فصول السنة)

وهي اثنتا عشرة صورة في آخى عشر برجاً ، بعضها من منازل القمر ، وبعضها من صور أخرى جنوبية وشمالية ، وبعضها من كواكب متفرقة لا تنسب إلى صورة .
الأول الحمل : وهو الكبش ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مقدّمه في المغرب ومؤخره لالمشرق ، وأول ما يطلع منه قمره وهو الكوكب الجنوبي المنفرد من

الكوكبين الشماليين من مَفْصِلِ اليَدِ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليمنى الكوكبُ الشَّمَالِيُّ المَضْيءُ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليسرى كوكبٌ خَفِيَ بِقَرَبِ الشَّمَالِيِّ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى لَحْيَيْهِ آخَرُ مِثْلُهُ ، وعلى مَفْصِلِ يَدِهِ الكوكبان الشماليان اللذان على عَقِبِ الرَّجْلِ اليسرى مِنَ الثَرِيَا ، وهو الذى يقال له البُطَيْنُ ، ويده وساقاه ممتدان إلى الشَّمالِ ، وكأنه إنما يظهر منه يد واحدة ورجل واحدة ، والثريا على طرف أَلْيَتِهِ .

الثانى الثَّوْرُ : وهو صورة ثور على خط وسط السماء ، مُقَدَّمُهُ إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب ، وظهره إلى الشمال ، ويده ورجلاه إلى الجنوب ، وعلى مؤخره أربعة كواكب تسمى القَطْعُ أى هى موضع ذنبه المقطوع ، والدَّبْرَانُ وجهه ، وركن الدَّبْرَانِ قَمَّةُ ، والكوكب المَضْيءُ الذى فى الدَّبْرَانِ عينه ، وكوكبان خارجان عن الدَّبْرَانِ فَرْدَةٌ قَرْنِهِ ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدَّبْرَانِ نَفْسِهِ إلى الشَّمالِ ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبهه بالمقطوع الذى جُعِلَ خَدُّهُ على رَأْسِ عُنُقِهِ ويده منحطتان إلى الجنوب ، ويظهر منه رجل واحد ويدان ، وذنبه أبتَرُ ، والثريا خارجة عنه إلى الشَّمالِ وكذلك اللَّطْخَةُ ، وهى ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبْرَانِ وليستا من صورته .

الثالث التَّوَمُ : وهو المعبر عنه فى أَلْسِنَةِ النَّاسِ بالجوْزَاءِ . قال الحسين بن يونس الحاسبُ فى كتابه فى "هيئة الصُّورِ الفلكية" : والناس مخطئون فى ذلك وإنما الجوزاء هى الصورة المعروفة بالجَبَّارِ فى الصور الجنوبية ، وقدم التوَمُ الأيمن بعض كواكب الجَبَّارِ التى على تاجه . قال : والتوَمُ على خط وسط السماء جَسَدَانِ ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجل واحدة ، والرأسان فى جهة المشرق ، ورجلاه فى جهة المغرب ، والذراع الشامى هو الرأسان ، ويده

اليمى^١ وهى التى فى جهة الشمال هى الذراع اليمانى والمضىء من الذراع اليمانى يسمى الشعري الغميضاء، ويده اليسرى ممتدة إلى التوابع.

الرابع السرطان : وهو صورة سرطان على وسط السماء، رأسه إلى الشمال ومؤخره إلى الجنوب، والنثرة على صدره، وعينه كوكبان خفيان تحت النثرة يدعيان بالجمارين وزبانه كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضوا من الآخر، يكونان شملين من التوهم ومؤخره كف الأسد.

الخامس الاسد، فى وسط السماء، فمه مفتوح إلى النثرة، وعلى رأسه كواكب مضئية، والطرف على عنقه، والجهة على صدره، وقلبه الكوكب الجنوبي المضىء من النثرة، وهو عظيم النور، وكأله كواكب خفية خارجة عن الطرف والجهة إلى الشمال والخراتان خاصرته، والصرفة ذنبه، وكفه المتقدمة فى آخر السرطان، وكفه الأخرى بعده هذه الكف إلى المشرق، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلى من الخراطين إلى الجنوب، والأخرى تحت هذه للمشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجهة شمالي منها، وسائر فقاراته إلى المشرق.

السادس العذراء، فى وسط السماء. قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السنبلة، وهو خطأ، وإنما هى حامل السنبلة، ورأسها فى الشمال بميلة إلى المغرب ورجلاها فى الجنوب، وهى مستقبلة المشرق وظهرها إلى المغرب. قال : ورأسها كواكب صغار مستديرة كاستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبى الخراطين ومنكبها أربعة كواكب تحت هذه إلى الشرق، وجناحها الأيمن ستة كواكب كهيئة الجناح.

السابع الميزان، وهو صورة ميزان، كفتها^(١) إلى جهة المشرق وقبها إلى جهة المغرب، والسمالك الأعزل على قبها من الجهة اليمى ومقابله كوكب آخر على قبها

(١) فى المصباح «الميزان مذكر» فلعل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهة الشمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلى المغرب على علاقتها، وهو على قصبة السُّبُلَةِ، وكوكبان من الغُفْرِ على محامله مع كواكب أُخَر، وزُبَانِيَا العُقْرِبِ كَفَّتَاهُ .

الثامن العُقْرِبِ، وهو صورة عَقْرَبِ على وسط السماء، رأسه في المغرب وذنبه في المشرق، وإحدى رجليه في الجنوب، والأخرى في الشمال، والغُفْرُ على رأسه والزُّبَانِيَانِ اللذان هما كَفَّتَا الميزان زُبَانِيَاهُ، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل، والإكليل على صدره، والقلب هو قلبه، ونياط القلب كوكبان خفيان والقلب في وسطهما، وهو خارج عنهما إلى الشمال، والشَّوْلَةُ ذنبه، والكواكب التي على طرفها جبهته، وإبرته لَطْخَةٌ مستطيلة فيما بين الشَّوْلَةِ والنَّعَائِمِ الصَّادِرَةِ؛ ففيه من منازل القمر خمس منازل : وهى الغُفْرُ، والزُّبَانَانِ، والإكليل، والقلب، والشَّوْلَةُ؛ وأظهر ما تكون صورة العُقْرِبِ وهو على الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاث منازل : الإكليل والقلب والشَّوْلَةُ .

التاسع القَوْسُ، ويسمى الرامى، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلى جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو في جهة المشرق، ورأسه في الشمال ورجلاه في الجنوب؛ والنَّعَائِمِ الوارِدة على وسطه، وهو على الجسَدِ الذى يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه لَطْخَةً مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب بدعان أى (١) النَّعَائِمِ، والبلْدَةُ على مَقْبِضِ القوس ويده اليمنى قابضة على رأس السهم، وهى كواكب تكون تحت لَطْخَةٍ صغيرة قريبة منها .

العاشر الجَدِّي : وهو صورة جَدِّي مستلق على ظهره مُقَدَّمُهُ في المغرب ومؤخره في المشرق، وظهره للجنوب ويداه ورجلاه إلى الشمال، وهو شبه بالمنقلب إلى القوس

(١) كذا في المخطوط ولم نهند الى ايضاحه .

وقرناه إلى بطنه، وفه إلى القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكوكب الشمالى من سعد الذابح أحد قرنيّه، والجنوبى منه قرنه الآخر، وكوكب آخر خفى تحت سهم القوس غربى سعد الذابح فهُ، وعلى كتيفه سعد بلع، وعلى وركه سعد السعد، والمضىء من سعد السعد حق وركه وشق الحوت الجنوبى على ظهره، وطرف يده ثلاثة كواكب مضئبة بقرب الالمخ فيها خفاء، وطرف رجله الكوكب المسمى رأس الدلو.

الحادى عشر الدلو: وهو صورة رجل قائم بيده دلو، رأسه إلى الشمال، ورجلاه إلى الجنوب، وظهره إلى المشرق، ووجهه إلى المغرب، والكواكب التى تسمى الحباء من سعد الأخبية رأسه، ويده اليسرى من فوق رأسه حتى تنزل إلى الدلو الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مرققة الأيسر، وبطنه يسمى الحرة، ودلوه أربعة سعد من السعد السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد نائرة، وسعد الملك، وسعد الهام وسعد الماتح، وكل سعد منها كوكبان، وعلى رجله اليسرى كوكب عظيم النور، وعلى رجله اليمنى كوكب أبيض يقرب فى العظم من الذى قبله، والفرغ المقدم خارج عن صورته إلى الشمال.

الثانى عشر الحوت: وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التى تسميها أصحاب المنازل بطن الحوت وهى شمالية، والثانية جنوبية عنها، وهى أطول منها وأخفى الكواكب، والكواكب السبعة السيارة ترسم الجنوبية منهما بمسيرهن، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السعد السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الهمام وسعد البارع وسعد الماطر، وليس الفرغ المؤخر فى جسم الحوت بل خارج عنه إلى الشمال والمغرب.

(١) الذى فى القاموس سعد مطر.

الصنف الثاني

(نجوم منازل القمر التي ينتقل فيها القمر من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه) وهي ثمان وعشرون منزلة يداخل أكثرها صور البروج الاثنى عشر المتقدمة .
الأولى الشَّرْطَانِ ، والشَّرْطَانِ ثنية شَرَط ، وهو العلامة كأنه سمي بذلك لكونه علامة على طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمى أيضا النَّطَحِ والناطح : لأنها عند أصحاب الصور قرنا الحمل ؛ وهما كوكبان يترآن بينهما قَابُ قَوْسَيْنِ ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب إلى الجانب الجنوبي ، ومنها كوكب أَلْطَفُ منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمى بعضهم هذه المنزلة الأَشْرَاطَ على الجمع لا على الثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت في المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكسة ، وواحد منها أحمر مضيء وتحتة آخر خفي والثالث في الشمال وهو أحمر مضيء .

الثانية البُطَيْنُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغِرَ فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتي ذكره في جملة المنازل ؛ والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثل أَثْنِيفِ القِدْرِ : وهي الشكل المثلث الذي ينصب عليه القدر عند الطبخ ؛ وهي على القرب منها في موضع بطن الحمل من الصورة ؛ وواحد منها مضيء وأثنان خفيان ، والخفيان يطلعان قبل المضيء .

الثالثة الثُّرَيَّا ، ويسمى النجم علما عليها ، وبه فسر قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ وهي ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهي في شكل مثلث متساوي الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جدا كالرشاش ، ومطلعها إلى الشمال عن مطلع الشَّرْطَيْنِ والبُطَيْنِ ؛ وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الانخاذ منها ؛ وهي عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذَنَبِ الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها أَلْيَةَ الحمل لقربها منه .

الرابعة الدبران ، ويسمى تالي النجم لكونه يطلع تلو الثريا ، وربما سمي حادي النجم لذلك ، ويسمى أيضا المجدح وعين الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضىء أحمر عظيم النور ، وأسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقي المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هي رأس الثور ، وأول ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلى الجنوب وفتحها إلى الشمال ، والكوكب الأحمر المضىء هو آخر ما يطلع منها ، والعرب تقول للكوكبين القريين منه : كلباه ، والباقي غنمه ، وربما قالوا : قلاصه ، ويقولون في خرافاتهم : إن الدبران خطب الثريا إلى القمر فقالت : ما أصنع بسروتي ؟ فداق إليها الكواكب المسماة بالقلاص مهراً ، فهربت منه فهو يطلبها أبداً ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثم قالوا في أمثالهم : ^(١) "أوفى من الحادي وأغدر من الثريا" .

الخامسة الهقعة ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون في عنق الفرس ، وقد مر القول عليها في الكلام على أوصاف الخيل ، وهي ثلاثة كواكب محابية صغار تسمى الأثافي ، وهي على أعلى القدم اليسرى من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهنعة : وهي خمسة أنجم على شكل الصولجان : أربعة منها على خط مستقيم ، الثالث منها يسمى قوس الجوزاء ، والخامس منعطف إلى جهة الجنوب مقدار شبر في رأى العين ، وسميت هنعة لانهطافها أخذاً من قولهم : هنت الشيء إذا عطفته ، وبعضهم يسميها النجبة ، وهي عند أصحاب الصور خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهنعة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم في صورة قوس من مقبضها النجمان اللذان يقال

(١) المراد بالحادي الدبران كما تقدم في كلامه وكما يشير إليه قول الشاعر : * كما وفي قلاص النجم حاديا * ووقع في الأصل الجارى وهو تصحيف .

(٢) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (ه ن ع) أنها تحية وجمعها تحانى .

لها الهنعة، وبعضهم يقول : إن الهنعة كوكبان مقترنان ، الشَّامِلُ منهما أضوءهُما وحذاءهُما ثلاثة كواكب تسمى التَّحَايِي ربما عدل القمر فتزل بها .

السابعة الذَّراع : وهي كوكبان : أحدهما نيرٌ والآخر مظلم ، بينهما قدر سوط في رأى العين ، وفيما بينهما كواكبٌ صِغارٌ تسميها العرب الأظفار ، وسميت هذه المنزلة بالذراع لأنها عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعتان : مقبوضةٌ وفيها يتزل القمر ، وهي جنوبية ؛ وسميت مقبوضةً لأن الأخرى أرفع منها في السماء ، ولهذا سميت مبسوطةً ، وهي مثلها في الصورة ؛ وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع في صورة الكلب الأصغر ، وربما عدل القمر عن المقبوضة فتزل بها .

الثامنة النَّثْرَةُ ، وهي لَطْخَةٌ كَقِطْعَةٍ سحاب يجعلها أصحاب الصُّور على صدر السَّرَطَان . وسميت نثرة لأن إلى جانبها نجمين صغيرين هما عند العرب على منخري الأسد ، وتسميها الحمارين ، وقيل إنها لما كانت أمام جبهة الأسد شبت بشئ نثره من أنفه ، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه ، وتسمى الآلهة أيضا وتشبه بالمعلف .

التاسعة الطَّرْفُ ، وهي كوكبان خفيان مقترنان بين يدي الجبهة ، سمي بذلك لموقعهما موقع عيني الأسد ، وقدامهما ستة كواكب صغار تسميها العرب الأشفار آثنان منها في نَسَقِ الطَّرْفِ ، والأربعة البواق بين يديه .

العاشرة الجبهة ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلى الشرق ، فهي لذلك على شكل مُثَلَّثٍ مستطيل القاعدة قصير الساقين ، وإلى الجنوب عنها نجم أحمر مضى جدا يسمى قلب الأسد يرسمه المنجمون في الأسطرلاب ، وأصحاب الصور يجعلون الجبهة على كَتِفِ الأسد .

الحادية عشرة الخراتان ، وتسمى الزُّبْرَةُ وعُرف الأسد والزبرتين ، وهما كوكبان نيران بينهما في رأى العين مقدار ذراعين ، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب ،

يَمْتَدَّانِ عِنْدَ التَّوَسُّطِ مَعَ خَطِّ الْأَسْوَاءِ، وَسَمِيَا الْخَرَائِثَانِ تَشْبِيْهًا بِثَّقِيْنَيْنِ فِي السَّمَاءِ، وَمِنْهُ نَحْرُ الْإِبْرَةِ، وَتَحْتَ هَذَيْنِ النُّجُومِ تِسْعَةُ أَنْجُمٍ صَغَارٍ. وَسَمِيَتْ الزُّبْرَةُ لِشَعْرِ يَكُونُ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَسَدِ مِمَّا يَلِي خَاصِرَتَهُ، وَعَدَّوْا الْجَمِيعَ أَحَدَ عَشَرَ كَوَكَبًا مِنْهَا نَجْمَانِ هُمَا الْخَرَائِثَانِ وَالتَّسْعَةُ الشَّعْرُ.

الثَّانِيَةُ عَشْرَةُ الصَّرْفَةُ: وَهِيَ كَوَكَبٌ نَيِّرٌ، وَهُوَ عِنْدَ أَصْحَابِ الصُّوَرِ قُنْبُ الْأَسَدِ وَالْقُنْبُ وَعَاءُ الْقَضِيبِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْكَوَكَبِ سَبْعَةُ أَنْجُمٍ صَغَارٍ طُمُسٌ مَلَاصِقَةٌ لَهُ، وَسَمِيَ هَذَا الْكَوَكَبُ بِالصَّرْفَةِ لِأَنْصِرَافِ الْحَرِّ عِنْدَ طُلُوعِهِ مَعَ الْفَجْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَأَنْصِرَافِ الْبَرْدِ إِذَا غَرَبَ مَعَ الشَّمْسِ، وَيُقَالُ الصَّرْفَةُ نَابُ الدَّهْرِ لِأَنَّهَا تَفْتَرَعُنِ فَصْلَ الزَّمَانَيْنِ، وَيَشْكَلُ مَعَ الْخَرَائِثَانِ مِثْلًا لَهُ زَاوِيَةٌ قَائِمَةٌ وَإِحْدَى سَاقِيهِ أَطْوَلُ مِنَ الْآخَرَى وَفِي قَاعِدَتِهِ قِصْرٌ.

الثَّلَاثَةُ عَشْرَةُ الْعَوَاءُ، وَهِيَ نَحْمَسَةُ كَوَاكِبَ نَيِّرَةٍ عَلَى شَكْلِ لَامٍ، كَانَ أَعْتَبَرِ ابْتِدَاؤُهَا مِنَ الشَّمَالِ وَعَظْفُهَا مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ لَكِنِ الْمَصْطَفِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ وَالْمَنْعُطُ وَاحِدٌ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا وَرَكِّي الْأَسَدِ، وَتَشْبِهُهَا الْعَرَبُ بِكَلَابِ تَعْوَى خَلْفَ الْأَسَدِ لِأَنَّهَا وَرَاءَهُ، وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ الْعَوَاءُ، وَأَصْحَابُ الصُّوَرِ يَجْعَلُونَهَا فِي السُّنْبُلَةِ عَلَى صَدْرِهَا.

الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ السَّمَاءُ، وَهُوَ السَّمَاءُ الْأَعْزَلُ: وَهُوَ كَوَكَبٌ نَيِّرٌ يَمِيلُ لَوْنُهُ إِلَى الزُّرْقَةِ وَسَمِيَ سَمَاءً لِكَوْنِهِ قَرِيبًا مِنْ سَمِيَةِ الرَّأْسِ، وَسَمِيَتْ الرَّأْسُ أَعْلَى مَا يَكُونُ مِنَ الْفَلَكَ وَسَمِيَتْ الْعَرَبُ الْأَعْزَلُ لِأَنَّهُ يَطْلُعُ إِلَى جَانِبِهِ نَجْمٌ مُضِيٌّ يَسْمُونَهُ السَّمَاءَ الرَّاحِ لِكَوَكَبٍ صَغِيرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْأَعْزَلُ لِأَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَأَحَدُهُمَا جَنُوبِيٌّ، وَهُوَ الْمُتَزَلُّ، وَأَصْحَابُ الصُّوَرِ يَثْبُتُونَ السَّمَاءَ كَيْنِ: الْأَعْزَلُ وَالرَّاحِ فِي صُورَةِ الْعِذْرَاءِ، وَهِيَ السُّنْبُلَةُ، وَالْعَرَبُ تَجْعَلُهَا سَاقِي الْأَسَدِ، وَرَبَّمَا عَدَلَ الْقَمَرُ فَتَزَلُّ بِعَجْزِ الْأَسَدِ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ كَوَاكِبَ بَيْنَ يَدَيِ السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ، يُقَالُ لَهَا عَرْشُ السَّمَاءِ، وَتَسْمَى أَيْضًا

(١) فِي لِسَانِ الْعَرَبِ كَانَهَا كِتَابَةُ أَلْفٍ ... وَيُقَالُ كَانَهَا نَوْنٌ.

الحَبَاءُ، والأَحْمَالُ، والغُرَابُ، وهذه المنزلة حد ما بين المنازل اليمانية والمنازل الشامية،
فما كان أسفل من مَطْلَعِه فهو يمانى ، وهو شِقُ الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى،
وهو شِقُّ الشَّمالِ .

الخامسة عشرة الغَفَرُ، ثلاثة كواكب خفية على خَطِّ فيه تقويس، وسميت بذلك
لخفائها مأخوذة من المَغْفِرَةِ التى تسترُ الذنبَ وتخفيه يوم القيامة، ومنه المَغْفَرُ الذى
فوق الرأس، وقيل لأنها زُبَانِيُ العُقْرَبِ، وقيل مأخوذة من الغَفَرَةِ : وهى الشعر الذى
فى طرف ذنب الأسد؛ وأصحاب الصُّور يجعلونها بين ساقَيِ الأسد.

السادسة عشرة الزُّبَانَانِ ، وهما كوكبان نيران هما عند العرب يد العُقْرَبِ يترس
بهما : أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصُّور يجعلونها كَفَتَيِ الميزان، وبينهما فى رأى
العين قدرُ قامة الرجل .

السابعة عشرة الإِثْكَيلُ ، وهو ثلاثة كواكب مجتمعة فى خفاء الغَفَرِ مصطفىةٌ
معتزلة، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها
فوق جبهة العُقْرَبِ كالنَّاجِ، وهى عند أصحاب الصُّور على عمود الميزان .

الثامنة عشرة القَلْبُ ، وهو كوكب أحمر نير مضطرب قريب من الجهة بين
كوكبين خفيين تسميهما العرب نِيَّاطَى القلب أى علاقتيه ، وسمَّته أصحاب الصُّور
قَلْبًا لوقوعه موضع القلب من صورة العُقْرَبِ ؛ والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى
قَلْبُ السمكة ، والثالث قلب الثور، والرابع قلب الأسد . وحيث ذكر القلب على
الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العُقْرَبِ هذا .

التاسعة عشرة الشُّوْلَةُ، وهى كواكب متقاطرة على تقويس فى بُرْجِ العُقْرَبِ أشبه
شئً بذنب العُقْرَبِ إذا شالته، ولذلك سميت الشُّوْلَةُ، وفى الشولة كوكبان خفيان

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبرة والحمة ، وخلفهما نجم صغير لا يزالهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما ينزل القمر الشولة على المحاذاة ولا ينحط إليها لأنها منحدره عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشولة ، وهي ستة كواكب بيض منعطفة .

العشرون النعائم ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نيرة تشكل مربعا فيه أطراف تسمى الواردة وهي المنزل ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من الحجرة شبت بنعام وردت نهارا ، والأربعة الأخرى تسمى النعائم الصادرة : لأنها لما كانت بعيدة من الحجرة شبت بنعام وردت ثم صدرت ، والواردة التي هي المنزل عند أصحاب الصور واقعة في يد الرامي الذي يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البلدة ، وهي فرجة في السماء مستديرة شبه الرقعة ليس فيها كواكب ، والبلدة في كلام العرب الفرجة من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البلدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستة كواكب مستديرة صغار خفية تشبه القوس ، وبعضهم يسميها الأذحي لأن بالقرب منها كواكب تسميها العرب البيض لقربها من النعائم ، وربما عدل القمر فتزل بالأذحي ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة على جبهة الرامي .

الثانية والعشرون سعد الذابح ، وهو كوكبان صغيران بينهما في رأي العين أقل من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع في ناحية الشمال والآخر منخفض في ناحية الجنوب سمي سعدا لأنهمال الأمطار في أيام طلوعه ، وسمى ذابحا لقوة البرد في إبان طلوعه فتموت المواشي ببرده ، وقيل سمي ذابحا لأن بالقرب من نجمة الشمالي نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شأنه التي تذبح ، ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد

بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعدها كما قاله الزجاج في مقدمة أدب الكاتب ؛ وأصحاب الصُّور يثبتون هذا السعد في موضع قرئى الجَدَى من الصورة .

الثالثة والعشرون سعدُ بُلَع ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابح في المسافة التي بينهما لكن أحد الكوكبين خَفِيٌّ ، وهو الذى يَلْعُه ؛ وهذا السعد عند أصحاب الصُّور على كَعْب ساكب الماء القريب من صورة الدَّلْو ، وسمى بُلَع لأنه في أيام طلوعه تغيب الأنهار وتزيد الآبار ، فكأن الأرض ابتلعت ماءها ، وقيل لأنه يطلع في الوقت الذى قيل فيه ”يَا أَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَأَسْمَاءُ أَقْلِعِي“ زمن نوح (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعُود ، وعدته كوكبان أيضا على ما تقدم في السعدين من البُعد ، وقيل هو ثلاثة كواكب أحدها نير والآخران دونه في النور ؛ وأصحاب الصُّور يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدَّلْو ، وربما قصر القمر فترل سعد نَاشِرَةً ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمى أصحاب الصور نجميه بالمُحَيِّين ، وهما في مؤخر الجَدَى ، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأخبية ، والناس مختلفون فيه ؛ فمنهم من يقول : إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل بَطَّة والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء ؛ ومنهم من يجعل الكوكب الذى في وسط الثلاثة عمود الخباء ، وهو عند أصحاب الصُّور على الكَتِف الشرقية من جسد ساكب الماء ، وسمى سعد الأخبية لخروج المحبَّات فيه من الثمار والحشرات ، وكانت العرب تتبرك به لأخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفَرُغ المقدم ، ويقال فيه مقدم الدَّلْو والفرغ الأول والفرغ الأعلى وعَرْقُوة الدَّلْو العليا ، وهو كوكبان نيران بينهما في رأى العين نحو من خمسة أذرع ؛ وأصحاب الصُّور يزعمون أن الشَّمَالِيَّ منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون الفَرَّغُ المؤخَّر، ويقال له مؤخر الدَّلْو السُّفْلَى، وهو كوكبان يشبهان ما تقدَّم، أحدهما شمالي والآخر جنوبي، وهما عند أصحاب الصور على مؤخر الفرس، وربما قصر القمر فتزل في الكَرَب الذي في وسط العَرَّاقِ، وربما نزل ببلدة الثعلب.

الثامنة والعشرون الحُوتُ، وهو آخر المنازل، ويقال لها السَّمكة، وتسمى الرِّشَاء أيضا، وهي ثمانية عشر كوكبا تشكل شكل سمكة رأسها في جهة الشمال وذنبها في جهة الجنوب، وفي الشرق منها كوكب تير، يسمى سُرَّة الحُوت، وبطن الحوت، وبطن السَّمكة، وقلب السَّمكة، وربما عدل القمر فتزل بالسَّمكة الصُّغرى، وهي من السَّمكة الكبرى في الشمال مثل صورتها إلا أنها أعرض منها وأقصر، وأصحاب الصور يجعلون الكوكب التير من الحوت في حد المرأة المسلسلة، ورأسها هو الشمالي من الفَرَّغ المؤخَّر.

الصنف الثالث

(من النجوم الثوابت ما ليس داخلا في شيء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرته العرب في شعرها، وشبهت به، وضربت به الأمثال) وهي عدَّة نجوم.

منها بنات نعش: وهي سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالي، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة، وهي المعبر عنها بالبنات، وتُعرف هذه بنات نعش الكبرى، وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها.

ومنهما الجدي الذي تعرف به القبلة، وهو نجم صغير على القرب من القطب الشمالي يستدل به على موضع القطب، ويقال له جدي بنات نعش الصغرى.

ومنها الْفَرْقَدَانِ ، وهما كوكبان متقاربان معدودان في بنات نَعِيشَ .
ومنها السُّمَاءُ ، وهو كوكب خفي في بنات نَعِيشَ الكبرى ، والناس يَمْتَحِنُونَ به
أبصارهم لخفائه .

ومنها السَّمَاءُ الرَّاحُ ، وهو غير الْأَعْزَلِ الْمُقَدَّمِ ذكره في منازل القمر ، سمي راحا
لكوكب يَقْدُمُهُ ، تقول العرب : هو رُحْمُهُ بخلاف الْأَعْزَلِ فإنه الذي لأَرْحُحْ معه .
ومنها النَّسْرُ الْوَاقِعُ ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثنافى ، سمي الواقع لأنهم يجعلون آثنين
منه جَنَاحِيهِ ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .

ومنها النَّسْرُ الطَّائِرُ ، سمي بذلك لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحِيهِ ، ويقولون : قد
بسطهما كأنه طائر ، والعامة تسميه الميزان .

ومنها الْكَفُّ الْخَضِيبُ ، وهو كف الثَّيِّبِ الْمَبْسُوطَةِ ، ولها كف أخرى يقال
لها الْجَدْمَاءُ ، وهي أسفل من الشَّرْطَيْنِ .

ومنها الْعَيُّوقُ ، وهو في طَرْفِ الْحَجَرَةِ الْأَيْمَنِ ، وعلى أثره ثلاثة كواكب بَيِّنَةٌ يُقَالُ
لها الْأَقْلَامُ ، وهي من مواقع الْعَيُّوقِ .

ومنها سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمر منفرد عن الكواكب ولقربه من الْأَفْقِ كأنه
أَبْدًا يضطرب ، وهو من الكواكب اليمانية ، قال ابن قُتَيْبَةَ : ومطلعه عن يسار
مُسْتَقِيلِ قِبَلَةِ الْعِرَاقِ . قال : وهو يُرَى في جميع أرض العرب ، ولا يرى في شيء
من بلاد أَرْمِينِيَّةَ .

ومنها الشَّعْرَيَانِ : الْعَبُورُ ، وكانت تعبد في الجاهلية لقوله تعالى : ”وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
الشَّعْرَى“ وهي في الجوزاء ، والشَّعْرَى الْغَمِيضَاءُ ، ومع كل واحدة منهما كوكب
يقال له الْمِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشرة، وسعد المالك، وسعد البهام، وسعد الهمام، وسعد البارع، وسعد مطر، وكل سعد منها كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع فهي متناسقة، وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدمة في منازل القمر، تكون جملة السعود عشرة.

فإذا عرّف الكاتب أحوال الأفلاك والكواكب وأسماءها وصفاتها، عرف كيف يصفها عند احتياجه إلى وصفها، وكيف يعبر عنها عند جريان ذكرها.

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتُ تَتَقَى وَتَرْقَى لِلْعَالَا أَبَدًا * مَادَامَ لِلسَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَحْكَامُ
مَهْرٍ وَمَاهٍ وَكَيَوانٍ وَتِيرُ مَعَا * وَهَرَمَسٍ وَأَنَاهِيدٍ وَبَهْرَامِ

مشيرا بذلك إلى ذكر الأفلاك السبعة، وما لها من الكواكب السبعة السيارة بالأسماء الفارسية المقدم ذكرها.

وكما قال الطغرائي في لامية العجم :

وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي، فَلَا تَعْجَبْ * لِي أَسْوَةٌ بِانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلٍ
مشيرا إلى كون فلک زحل أعلى من فلک الشمس لما تقدم أنها في الرابع، وهو في السابع.

وكما قال بعضهم يصف خضرة السماء، وما لها من الكواكب :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا، وَالشَّهْبُ فِيهَا * وَأَصْغَرُهَا لِأَكْبَرُهَا مَزَاحِمُ
بِسَاطِ زُمَرْدٍ ثُبُوتٌ عَلَيْهِ * دَنَانِيرُ يَخَالِطُهَا دَرَاهِمُ

وكما قال ذوالرمة وقد ذكر الثريا :

يَدْفُ عَلَى آثَارِهَا دَبْرَانُهَا * فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا هُوَ يَلْحَقُ
بعشرين من صغرى النجوم كأنها * وَإِيَّاهُ فِي الْخَضِرَاءِ لَوْ كَانَ يَنْطِقُ

قَلَاصُ حَدَاها رَاكِبٌ مُتَعَمِّمٌ * إِلَى الْمَاءِ مِنْ جَوْزِ التَّنُوفَةِ مُطْلَقٌ
 مشيراً إلى ما تقدّم من خِطْبَةِ الدَّبْرَانِ الثَّرِيَّا وَهَرَبِهَا مِنْهُ وَإِمَاهِرِهِ إِيَّاهَا بِالْقَلَايِصِ :
 وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي حَوْلَهَا .
 وَكَأَيْ قَالِ أَبُو الْفَرَجِ الْبَيْغَاءُ ذَا كَرَاهٍ حَالٍ مُخْتَفٍ يُرْجَى لَهُ الظُّهُورُ :
 سَتَخْطُصُّ مِنْ هَذَا السِّرَارِ وَأَيْمًا * هَلَالٌ تَوَارَى فِي السِّرَارِ فَمَا خَلَصَ
 مشيراً بذلك إلى حالة تَوَارَى الْقَمَرِ حَالَةَ السِّرَارِ ثُمَّ خُلُوصِهِ عِنْدَ إِهْلَالِهِ .

النوع التاسع

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العلويات مما بين السماء والأرض،
 وهي على أصناف)

الصف الأول

(الريح)

وهي مؤنثة، يقال هبت الريح تهبُّ هبوباً، وتجمع على رياح، وقد دل الاستقراء
 على أنها حيث وردت في القرآن الكريم في معرض العذاب، كانت بلفظ الإفراد
 وحيث وردت في معرض الرحمة، كانت بلفظ الجمع . قال تعالى في جانب العذاب :
 ”فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ“ وقال : ”إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا“ وقال
 في جانب الرحمة : ”وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ“ وقال جلّت
 قدرته : ”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“ إلى غير ذلك من الآيات . ومن ثمَّ
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتدت الريح قال : ”اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَّاحًا
 وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا“ وقد ورد القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذي يرسلها، قال تعالى :
 ”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“

وذهبت الفلاسفة إلى أنها تحدث عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دُخان يرتفع من الأرض فيضربه البرد في ارتفاعه فيتكس ويتحامل على الهواء ويحركه الهواء بشدة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الاولى الصَّبا : وهى التى تأتى من المَشْرِق، وتسمى القُبُول أيضا : لأنها فى مقابلة مُستقبل المشرق، قال فى صناعة الكُتَّاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية : لأنها تأتى من مَشْرِق الشمس ، وهى التى نُصر بها النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : ” نُصِرْتُ بالصَّبا “ .

الثانية الدَّبُورُ ، ومهَّبا من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبى ، وسميت الدَّبُورَ لأن مستقبل المشرق يستدبرها ، وتسمى الغربية لهُبوبها من جهة المغرب ، وبها هلكَ عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : ” وَأَهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ “ .

الثالثة الشَّمالُ ، ويقال فيها شَمَالٌ وشَمَالٌ وشَامِلٌ مهموزا وغير مهموز ، ومهَّبا من حد القطب الشمالى إلى مغرب الشمس ، وسميت شَمَالاً لأنها على شمال من مستقبل المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّاب : وتسمى البحرية لأنها يُسار بها فى البحر على كل حال .

الرابعة الجنوبيَّة ، ومهَّبا من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية القِليسيَّة لأنها تأتى من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضا المِريسيَّة لأن فى الجهة القبلىة بلاد المِريس : وهم ضرب من السُودان ، وهى أردأ الرياح عند اهل مصر . وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَبٍ ريحين تسمى النَّجَاء ، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عن مَهَابِّ هذه الرياح وعدلت عنها ، قال فى ” فقه اللغة “ : وإذا

جاءت بَنَفَسٍ ضَعِيفٍ وَرَوْحٍ فَهِيَ النَّسِيمُ ؛ وإنْ أَبْتَدَأَتْ بِشِدَّةٍ قِيلَ لَهَا النَّابِغَةُ ؛
فإنْ حَرَكْتَ الْأَغْصَانِ تَحْرِيكًا شَدِيدًا وَقَلَعْتَ الْأَشْجَارَ قِيلَ زَعَزَعَ ؛ فإنْ جَاءَتْ
بِالْحَصْبَاءِ قِيلَ حَاصِبَةٌ ؛ فإذا هَبَّتْ مِنَ الْأَرْضِ كَالْعَمُودِ نَحْوَ السَّمَاءِ قِيلَ لَهَا
إِعْصَارٌ . وقد وَرَدَ بِهَا الْقِرَاءَانُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” فَاصْبَا بِهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ “ وَالْعَامَّةُ
تَسْمِيهَا الزُّوْبَعَةَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُبْثِرُهَا ، وَمَنْ تَمَّ سَمَاسُهَا التَّرْكُ
نَعِيمٌ بِكَ يَعْنِي الشَّيْطَانَ ؛ فإذا كَانَتْ بَارِدَةً ، فَهِيَ الصَّرَصَرُ . وقد وَقَعَ ذِكْرُهَا
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا “ ؛ فإذا لَمْ تُقْلِحْ شَجَرًا وَلَمْ تَحْمَلْ
مَطَرًا ، فَهِيَ الْعَقِيمُ . وقد قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ عَادَ : ” إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ “
كَانَتْ لَا مَطَرَ فِيهَا .

الصَّنْفُ الثَّانِي

(السَّحَابُ)

وهو الْأَجْرَامُ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَطَرَيْنِ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ يُنْشِئُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
كَمَا أَخْبَرَ بِقَوْلِهِ : ” وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ “ وَيُسَوِّقُهَا إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ كَمَا ثَبَتَ
فِي الصَّحِيحِ ” أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ صَوْتًا مِنْ سَحَابَةٍ : أَسْقَى حَدِيقَةَ فُلَانٍ “ .

وذهب الْحَكَمَاءُ إِلَى أَنَّهُ بُحَارٌ مُتَصَاعِدٌ مِنَ الْأَرْضِ مَرْتَفِعٌ مِنَ الطَّبَقَةِ الْحَارَّةِ إِلَى
الطَّبَقَةِ الْبَارِدَةِ فَيُثْقَلُ وَيَتَكَثَّفُ وَيَنْعَقِدُ فَيَصِيرُ سَحَابًا . قَالَ التَّعَالِي فِي ” فَهْمِ اللُّغَةِ “ :
وَأَوَّلُ مَا يَنْشَأُ يُقَالُ لَهُ النَّشْءُ ؛ فإذا انْتَسَحَبَ فِي الْهَوَاءِ ، قِيلَ لَهُ سَحَابٌ ؛ فإذا تَغَيَّرَتْ
بِهِ السَّمَاءُ ، قِيلَ لَهُ غَمَامٌ ، فإنْ سَمِعَ صَوْتَ رَعْدِهِ مِنْ بَعِيدٍ قِيلَ فِيهِ عَقْرٌ ؛ فإذا أَظْلَمَ ،
قِيلَ عَارِضٌ .

وقد أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ عَادَ بِقَوْلِهِ : ” فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا“؛ فَإِنْ كَانَ بِحَيْثُ إِذَا رُؤِيَ ظَنَّ أَنَّ فِيهِ مَطَرًا، قِيلَ لَهُ مُحِيلَةٌ؛
 فَإِنْ كَانَ السَّحَابُ أَبْيَضَ، قِيلَ لَهُ مُزْنٌ؛ فَإِذَا هَرَّاقَ مَا فِيهِ، قِيلَ جَهَامٌ، وَقِيلَ
 الْجَهَامُ هُوَ الَّذِي لَا مَطَرَ فِيهِ.

وقد أُولِعَ أَهْلُ النِّظْمِ وَالنَّثَرِ بِوصفه وَتَشْبِيهِهِ.

الصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسَمَعُ مِنَ السَّحَابِ، وَقَدْ اختلفَ فِي حَقِيقَتِهِ فَرَوَى أَنَّهُ
 صَوْتُ مَلَكٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابُ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
 صَوْتُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ مَسْكَنَهُ
 السَّحَابُ؛ وَذَهَبَتِ الْفَلَّاسِفَةُ إِلَى أَنَّهُ دُخَانٌ يَتَصَاعَدُ مِنَ الْأَرْضِ وَيَرْتَفِعُ حَتَّى يَتَّصِلَ
 بِالسَّحَابِ وَيَدْخُلُ فِي تَضَاعُفِهِ وَيَبْرُدُ فَيَصِيرُ رِيحًا فِي وَسْطِ الْغَيْمِ، فَيَتَحَرَّكُ فِيهِ بِشِدَّةٍ
 فَيَحْصُلُ مِنْهُ صَوْتُ الرَّعْدِ، وَيَقَالُ مِنْهُ رَعَدَتِ السَّمَاءُ؛ فَإِذَا زَادَ صَوْتُهَا، قِيلَ
 أَرْتَجَسَتْ؛ فَإِذَا زَادَ، قِيلَ أَرَزَمَتْ وَدَوَّتْ؛ فَإِذَا أَشْتَدَّ، قِيلَ قَصَفَتْ وَقَعَقَعَتْ؛
 فَإِذَا بَلَغَ النِّهَايَةَ، قِيلَ جَلَجَلَتْ وَهَدَّهَدَتْ.

الصنف الرابع

(البرق)

وهو ضَوْءٌ يُرَى مِنْ جَوَانِبِ السَّحَابِ، وَقَدْ اختلفَ فِيهِ أَيْضًا فَرَوَى أَنَّ الرَّعْدَ
 صَوْتُ مَلَكٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ وَأَنَّ الْبَرْقَ صَخَّكُهُ؛ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
 صَخَّكُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا، وَالْفَلَّاسِفَةُ يَقُولُونَ إِنَّهُ دُخَانٌ يَرْتَفِعُ

من الأرض حتى يتصل بالسحاب كما تقدم في الرعد ، ثم تقوى حركته فيشتعل من حرارة الحركة الهواء والدخان فيصير نارا مضيئة وهو البرق ؛ ويقال ومَضَ البرق إذا لمع لَمَعَانَا قويا ، وأومض إذا لمع لَمَعَانَا خفياً ؛ فإن أطمع في المطر ثم ظهر أن لا مطر فيه ، قيل خَلَبَ ^{مِرَّةً} .

الصنف الخامس

(المطر)

وهو الماء الذي يخلقه الله تعالى في السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء .

وقد ذهب الحكماء إلى أنه يُجَار يتصاعد (من الأرض أيضا فيه أو في حرارة الشمس أو فيهما) فيجتمع ، وربما أعانت الريح على جمعه بأن تسوق البعض إلى البعض حتى يتلاحق ؛ فإذا آتته إلى الطبقة الباردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذي يتصاعد من القِدْرِ وينتهي إلى غطاء القدر وعند أدنى برودة ينعقد قطرات .

ثم للمطر زمان يكثر فيه ، وزمان يقل فيه ؛ وقد رتب العرب ذلك على أنواع الكواكب التي هي منازل القمر ، وجعلوا لكل منها نَوْءاً ينسب إليه . قال أبو حنيفة الدِّينَوْرِيُّ في ” كتاب الأنواء الكبير “ : كانت العرب تقول : لا بد لكل نَوْء كوكب من أن يكون فيه مطر ، أو ريح ، أو غيم ، أو حر ، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد اختلف في معنى النَّوء فذهب ذاهبون إلى أن النَّوء في اللغة النُّهْوض ؛ وذهب الفراء إلى أنه السَّقُوط والمِيلَان ؛ وذهب آخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعا ، على أنهم متفقون أن العرب كانت ترى الأمر للسقوط

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الأرض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع، فمن ذهب إلى أن المواد بالنوء السقوط يحريه على بابه، ومن ذهب إلى أن المراد بالنوء النهوض يقول : إنما سمي نوءاً لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النوء على السقوط وإن كان موضوعه في اللغة النهوض من باب التفاؤل كما يقال للديع سليم وللهلكة مفازة، على أن بعضهم قد ذهب إلى أن الكوكب ينوء بمعنى ينهض ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضى نوءه ودخل نوء الكوكب الذي بعده، قال أبو حنيفة الدينوري : وهو التأويل المشهور الذي لا ينزع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه، أطل هو على السقوط وكان أشبه حالاً بحال الناهض . وقد عدها أبو حنيفة ثمانية وعشرين نوءاً بعد منازل القمر المتقدمة الذكر، وذكر أن بعضها أجهر وأشهر من بعض .

الأول نوء الشرطين، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم .

الثاني نوء البطين، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود . قال ابن الأعرابي : يقال إنه ماناء البطين والدبران أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جذبا .

الثالث نوء الثريا، وهو خمس ليال وقيل سبع؛ وأثره محمود عندهم مشهور . الرابع نوء الدبران، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة؛ وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع في أشعارهم له ذكر .

الخامس نوء الهقعة، وهو ست ليال، ولا يذكر نوءها إلا بنو الجوزاء التي الهقعة رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة .

السادس نوء الهنعة، وهو ثلاث ليال لا يكاد ينفرد عن نوء الجوزاء .

السابع نوء الذراع المقبوضة، وهي خمس ليال، وقال ابن كفاية : ثلاث ليال،

وهو أول أنواء الأسد ، وأثره محمود عندهم موصوف ؛ وربما نسب إلى المِرْزَمِ ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة ، وربما نسب إلى الشَّعْرَى الغَمِيصَاءِ ، وهو كوكبها الآخر الذي هو أنور من المِرْزَمِ ؛ وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراع المبسوطة فتجمعهُمَا معا في النوء ، وهما لا ينوآن معا بل ولا يطلعان معا ، لكن لكثرة صحبة إحداها للآخرى في الذكر واجتماعهما في آسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَيَّ صورة واحدة ، وهى صورة الأسد .

الثامن نوء الثَّتَرَةِ ، وهو سبع ليال ، وله عندهم ذكر مشهور .

التاسع نوء الطَّرْفَةِ ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبة الجهة الآتية الذكر عليه .

العاشر نوء الجهة ، وهو سبع ليال ، وذكره مشهور لديهم .

الحادى عشر نوء الزُّبْرَةِ ، ونوءها أربع ليال ، وقيلما تنفرد لغلبة الجهة عليها أيضا .

الثانى عشر نوء الصَّرْفَةِ ، وهو ثلاث ليال ، ولا يكاد يوجد لها ذكر عندهم في أشعارهم .

الثالث عشر نوء العَوَاءِ ، وهو ليلة واحدة ، وليس من الانواء المشهورة .

الرابع عشر نوء السَّمَاءِ الأعزَلِ ، وهو أربع ليال ، وله ذكر مشهور ، وكثيرا ما يذكر معه السَّمَاءِ الراح ، وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان في الطلوع ، وحينئذ فإفراد السَّمَاءِ الراح بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء الغَفْرِ ، وهو ثلاث ليال ، وقيل ليلة ، وما بينه وبين نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواء الأسد ، وهى ثمانية أنواء أولها الذراع ، وآخرها نوء السَّمَاءِ ، وليس له في السماء نظير في كثرة الأنواء .

- السادس عشر نوء الزباني، وهو ثلاث ليال .
- السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .
- الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .
- التاسع عشر نوء الشولة، وهو ثلاث ليال، وقيلما يذكر .
- العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .
- الحادى والعشرون نوء البلدة، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .
- الثانى والعشرون نوء سعد الذابح، وهو ليلة واحدة .
- الثالث والعشرون نوء سعد بلع، وهو ليلة واحدة .
- الرابع والعشرون نوء سعد السعد، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .
- الخامس والعشرون نوء سعد الأخبية، وهو ليلة واحدة .
- السادس والعشرون نوء الفرغ المقدم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .
- السابع والعشرون نوء الفرغ المؤخر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .
- الثامن والعشرون نوء الحوت، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة الدينورى : والأيام في هذه الأنواء تابعة لليالى لتقدم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا هذه النجوم أنواء موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مظنة الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مطر، وقال ابن قتيبة : أول المطر الوسمى سمي بذلك لانه يسيم الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم . قال الثعالبي عن أبي عمرو : إقبال الشتاء الخريف، ثم الوسمى، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم ^(١) .

الصنف السادس

(الثلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع على الجبال وعلى سطح الأرض فتذيب الشمس منه ملاقته شدة حرارتها، ويبقى في أماكن مخصوصة من أعالي الجبال بالأمكنة الباردة جميع السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض إلى الهواء كما يتصاعد المطر فيصبيه برد شديد قبل أن ينعقد قطرات فيتساقط أجزاء لطيفة، ثم ينعقد بالأرض إذا نزل إليها؛ ويوصف بشدة البرد وشدة البياض؛ وسيأتي الكلام على ما ينقل منه من الشام إلى ملوك الديار المصرية في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى.

الصنف السابع

(البرد بفتح الراء)

وهو حب يسقط من الجو؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع في الهواء فلا تدركه البرودة حتى يجتمع قطرات، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتتهزم برودتها إلى مواطنها فتنعقد؛ وحب هذا البرد متفاوت المقادير منه ما هو قدر الجحش فما دونه، ومنه ما هو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ما هو بقدر بيض الحمام والدجاج. قال الحكماء: ولا يتصور وقوعه إلا في الخريف والربيع ويوصف بما يوصف به الثلج من شدة البرد وشدة البياض، ويشبه به أسنان الإنسان الناصعة البياض.

الصنف الثامن

(قوس قُزَح)

وهو قوس يظهر في الجُؤ من حُمرَة وخضرة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوس قُزَح ، وتسميته قوس الله لأن قُزَح اسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنى صقالة صار كالمرآة ، والمخاض له إذا كان الشمس في قفاه يرى الشمس في الهواء كما يرى الشمس في المرآة ، ويستبك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حُمرَة بين خضرتين أو خضرة بين حمرتين ، وربما لا يكون اللون المتوسط ، ويكون مرتفعاً ارتفاعاً قريباً من الأرض ، فإن كان قبل الزوال ، رُؤى ذلك القوس في المغرب ، وإن كان بعد الزوال ، رُؤى في المشرق ، وإن كانت الشمس في وسط السماء ، فلا يمكن أن يرى إلا قوساً صغيراً في الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتي ذكرها في آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالى .

الصنف التاسع

(الهالة)

وهي الدائرة التي تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البصر وبين القمر صقيل رطب ، فيرى القمر في جزء منه ، وهو الجزء الذي لو كان فيه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشيء الذي يرى في مرآة من موضع لو كانت فيه مرآة كثيرة محيطة بالبصر ، وكانت موضوعة على تلك النسبة فيرى

الشيء في كل واحدة من المرائى ، فإذا تواصلت المرائى روى في الكل ، فُتْرى
حيثُذ دائرة .

ولأهل النظم والشرفيها وصف وتشبيه .

الصنف العاشر

(الحرُّ)

وسُلطانه أواخرَ فصل الربيع وأوائلَ فصل الصيف ، والسبب فيه مسامتة
الشمس للرؤوس ، فتشتدُّ نائرةً في الهواء ويحرم الأرض ، لاسيما الحجاز وما في معناه .
وأهل النظم ، والنثر مولعون بوصف شدة حره .

الصنف الحادى عشر

(البردُ)

وسُلطانه أواخرَ فصل الخريف وأوائلَ فصل الشتاء .
وأهل النظم والنثر مُكثِّرون من ذكره ووصفه ، حتى إنه ربما أفرد بعضُ الناس
ما قيل فيه وفي وصفه بالتصنيف .

الصنف الثانى عشر

(الهَبَاءُ)

وهو الذى يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كَوَّةً يدخل منها الضوء ، فيكون
شبه عمود ممتد من الكَوَّة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيه أجزاء
لطيفة متفاوتة تُحسُّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شبه الله تعالى به أعمال الكُفَّار

في القيامة فقال جل من قائل : ” وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّتُوشًا ”
ومن الناس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هي المباد بالذرة المذكورة في القرآن
بقوله تعالى : ” فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ”
ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العاشر

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،

وهي على أصناف)

الصنف الأول

(الجبال ، والأودية ، والفقر)

فأما الجبال فهي أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادت لها
دحاها الله تعالى على الماء . وقد روى أن الكعبة كانت رابية حمراء طافية على وجه
الماء قبل أن يدحو الله الأرض ، وأن الأرض منها دحيث ، فلما مادت وأرسيّت
بالجبال ، كان أول جبل أرسى منها جبل أبي قبيس بمكة المشرفة لذلك هو أقرب
الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل أن قاف جبل محيط بالدنيا عنه تتفرع جميع
جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصف الجبال بالعظمة في القدر والعلو
وصعوبة المسلك ، وما يجرى مجرى ذلك .

وأما الأودية ، فهي وهاد في خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات
الزرع ومدارج الطرق وغير ذلك . وتوصف بالآتساع وبعمد المسافة والعُمق ، وربما
وصفت بخلاف ذلك .

وأما القفار، فهي البرارى المتسعة الأرجاء الخالية من الساكن . وتوصف بالسَّعة
وبعد المسافة وقلة الماء والإيجاش وصعوبة المسلك، وما يجري مجرى ذلك .

الصنف الثانى

(المياه الأرضية ؛ وهى على ضربين)

الضرب الأول — الماء المالح

ووقع فى لغة الإمام الشافعى رضى الله عنه الماء المالح ؛ وهو أحد العناصر
الأربعة ، وسيأتى فى الكلام على الأرض فى المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من
جميع جهاتها إلا ما اقتضته الحكمة الإلهية لعجارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها
الأعلى ، وأنه تفرعت منه بحار منبثة فى جهات الأرض لتجرى السفن فيها بما ينفع
الناس ؛ وقد ذكر الحكماء أن فى الماء المالح كثافة لا توجد فى الماء العذب ، ومن
أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب فى الماء العذب ، حتى يقال : إن
السفن التى تغرق فى البحر المالح لا تبلغ أرضه بخلاف التى تغرق فى الأنهار فإنها تنزل
إلى قعرها . وشاهد ذلك أنك إذا طرحت فى الماء العذب بيضة دجاجة ونحوها
غمرت فيه ، فإذا أذبت فى ذلك الماء ملحا بحيث يغلب على الماء وطرحت
فيه البيضة ، عامت ؛ وقد اختلف فى الماء المالح هل هو كذلك من أصل الحلقة
أو عرضت له الملوحة بسبب ملاقاه من سبخ الأرض على مذهبين ؛ ومن خصائص
البحر المالح أنه فى غاية الصفاء حتى إنه يرى ما فى قعره على القرب من شطه .
ويوصف البحر بالسعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتى يقال فى المثل "حدث
عن البحر ولا حرج" .

الضرب الثاني — الماء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأبحرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل في الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل ويحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها . وهو على ثلاثة أنماط :

النمط الأول — ماء الأنهار ، وهي ما بين صغار وكبار وقرية المدى وبعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار ، وهي سَيحُون ، وَجِيحُون ، والدجلة ، والفُرات ، ونيل مِصرَ ، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفها ماء على ما سيأتي ذكره في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى ، وفي الأنهار الجبار تسير السفن .

النمط الثاني — العيون : وهي مياه تَنبُعُ من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح في قُبَى قد حُفرت لها ، وهي منبعثة في كثير من الأقطار .

النمط الثالث — البُيَّار : وهي حفائر تحفر حتى يَنبُعَ الماء من أسفلها ويرفع فيها ارتفاعا لا يبلغ أعلاها ، وقد اختلف في الماء الذي ينبع من الأرض هل هو الذي نزل من السماء أو غيره ، فذهب ذاهبون إلى أنه هو الذي نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعالى : ” وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ” الآية ، وذهب آخرون إلى أن الذي ينبع من الأرض غير الذي نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : ” فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ” . ويوصف الماء للاستحسان بالعدوبة ، والصفاء ، والرقّة ، والحلّة ، وشدة البرد ، وفي معناه الشِّمُّ . ويسبّه في شدة البرد بالزُّلال : وهو ما يترتب داخل الثلج في تجاوزيف توجد فيه فيكون من أشد الماء برّدا .

الصنف الثالث

(النبات ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول — في أصل النبات

قد ذكر المسعودي في مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض ، خرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قضييا مودعة أصناف الثمر ، منها عشرة لها قشر : وهي الجوز ، واللوز ، والخلو ، والفستق ، والبَلوط ، والشاه بلوط ، والصنوبر ، والتاريخ ، والرمان ، والخشخاش . ومنها عشرة لثمرها نوى : وهي الزيتون ، والرطب ، والمشمش ، والخواخ ، والإجاص ، والغيراء ، والنبق ، والعناب ، والمخيطي^(١) ، والزعرور . ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى : وهي التفاح ، والسفرجل ، والكثيري ، والعنب ، والتين ، والأترج ، والخرنوب ، والتوت ، والقناء ، والبطيخ .

المقصد الثاني

(فيما يخص به أرض دون أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجد في كثير من الآفاق ، ومنه ما يختص ببعض الأماكن دون بعض ؛ وقد حكى أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية : أن بلاد سبلماسة من جنوبي بلاد المغرب الأقصى شجرة ترتفع نصف قامة أو أرجح ، ورقها كورق الغار ، إذا عمل منها إكليل ولبسه الرجل على رأسه ومشى أو عدا أو عمل عملا ، لم يتم ما دام ذلك الإكليل على رأسه ، ولا يناله من ضرر السهر وضعف القوة ما ينال من سهر وعمل . وفي بلاد إفريقية شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصف ساعة مات ، وإن مسها ماس أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هزها مات .

(١) كذا في المفردات لأبن البيطار أيضا ولكن في القاموس (وكثامة وجيز) فاعمل فيه لغة ثالثة .

قلت ومما يختص بأرض دون أرض البلسان : وهو شجرة لطيفة على نحو ذراع
تتفرع فروعاً ، لا تثبت في سائر الدنيا إلا في الديار المصرية بموضع مخصوص من بلدة
يقال لها المطرية ، على القرب من مدينة عين شمس ، وتسقى من بئر هناك ، ويقال إنه
أغتسل فيها المسيح عليه السلام ولذلك النصارى يعظمون البلسان ويتبركون به .

المقصود الثالث

(في ذكر أصناف النبات التي أولع الكُتّاب والشعراء بوصفها وتشبيهها :
وهي على ضرب)

الضرب الأول — ماله ساق

وهو الشجر ، وأكثر ما أولع أهل النظم والنثر بثمارها أو نورها ، في الوصف
والتشبيه ثراً ونظماً : كالأوز ، والفستق ، والجُلُوز : وهو البندق ، والشاه بلوط :
وهو القِصطل ، والصنوبر ، والرمان ، والجُلنار ، والإجاص ، والقراصيا ، والزعرور ،
والخوخ ، والمشمش ، والعناب ، والنبق ، والينب ، والتين ، والتوت ، والتفاح ،
والسفرجل ، والكمثرى ، واللفاح ، والخروب ، والأترج ، والنارج ، والليمون ،
والطلع ، والبلح ، والبُسْر ، والتمر ، والرَّابح : وهو جوز الهند ، والتَّجَار يسْمونه النَّارَجِيل .
وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرهما .

الضرب الثاني — ماله ساق

وقد أولعوا بالوصف والتشبيه منه ؛ فمن ذلك الزرع : من البرّ والشعير ونحوهما ،
ويتبع ذلك نور الباقلاء ، وكذلك الخشخاش ، والكنان ، والبطيخ الهندي : وهو
الأخضر ، والخُراساني : وهو العبدلي ، نسبة إلى عبد الله بن طاهر ، فإنه أول من نقله

من حُرَّاسَانِ إِلَى مِصْرَ، وَالْبَطِّيخِ الصِّينِيِّ : وهو الأصفر، والرَّسْنِيْتُ : وهو المعروف بِالْفَاحِ، وَالْقَنَاءِ، وَالْحِيَارِ، وَالْبَادُنْجَانِ، وَالسَّلْجَمِ : وهو اللَّقْتُ، وَالْحَزَرُ، وَالثُّومُ، وَالْبَصَلُ، وَالْكُرَّاثُ، وَالرَّيَّاسُ، وَالْهَلْيُونُ، وَالنَّعْنَاعُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الثالث — الفواكه المشمومة

وَالَّذِي أُولِعَ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْهُ الْوَرْدُ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ : مِنْ أَحْمَرٍ، وَأَبْيَضٍ، وَأَصْفَرٍ، وَأَزْرَقٍ، وَأَسْوَدٍ، وَالنَّسْرِينِ، وَالْبَانِ، وَالْحَلَّافِ، وَالنَّيْلَوْفَرِ، وَالْبَنْفَسَجِ، وَالْتَرَجِسِ، وَالْيَاسْمِينِ، وَالْأَسُ، وَالزَّعْفَرَانِ، وَالرَّيْحَانِ .

الضرب الرابع — الأزهار

وَالَّذِي وَقَعَ الْوَلُوعُ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْ ذَلِكَ الْحَيْرِى : وهو المنتور : من أَصْفَرٍ أَوْ أَزْرَقٍ، وَالسُّوسَنِ، وَالْأَذْرِيُونِ : وهو ورد أصفر له ريح، وَالْحَزَمِ : وهو الْخُرَامِيُّ، وَالشَّقِيقُ ^(١) . وَيُسَمَّى الشَّقَاقُ، وَيَقَالُ لَهُ شَقَائِقُ الثُّمَانِ : لِأَنَّ الثُّمَانَ بْنَ الْمُنْدَرِ حَمَى ظَهَرَ الْكَوْفَةِ وَبِهِ هَذَا النَّبَاتُ فَعُرِفَ بِهِ، وَالْبَهَّارُ : وهو تَوْرَ أَحْمَرٍ، وَالْأَقْحُوَانُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الخامس — الرياض

وهي الْأَمَاكِنُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْأَشْجَارِ، وَالْأَزْهَارِ، وَالْمِيَاهِ الْحَارِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَقَدْ آتَفَقَ جَوَابُو الْأَرْضِ عَلَى أَنَّ مِتْرَهَاتِ الْأَرْضِ أَرْبَعَةٌ مُوَاضِعَ : وهى سَعْدٌ سَمَرْقَنْدَ، وَشَعْبُ بَوَّانَ، وَنَهْرُ الْأَبْلَةِ، وَغُوطَةُ دِمَشْقَ .
وقد أكثر الشعراء فى وصف الرياض وولع الكتاب بمثل ذلك .

(١) لعله والشقيقة فى اللسان أن الشقائق لا واحد له أو واحدة شقيقة وعلل لذلك فأنظره .

الطرف الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى

(في صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في الأصول التي يبنى الكلام عليها : وهي سبعة أصول)

الأصل الأول

(المعرفة بالمعاني . والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأول

(في شرف المعاني ، وفضلها)

اعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب . فالألفاظ تابعة، والمعاني متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني؛ بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وُضعت ، وعليها بُنيت؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ : لأنه إذا كان المعنى صواباً واللفظ منحطاً ساقطاً عن أسلوب الفصاحة ، كان الكلام كالإنسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه ، وإذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميت الذي لأروحه فيه، ولو كان على أحسن الصور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" : ومما رأيته من المتدين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور ، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغنّة ، التي لا حاصل وراءها، أنهم إذا أنكرت هذه الحالة عليهم ؛ وقيل لهم إن

الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفقر على حرف واحد فقط ، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعددة ، فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلقهم عن معرفته ، وإذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهُدوا إلى طريق المعاني ، يقولون : لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ، فإنهم إنما آعتنوا بالألفاظ ، ولم يعتنوا بالمعاني آعتناءهم بالألفاظ . فلم يكنفهم جهلهم فيما آرتكبوه حتى آذعوا الأسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، وإن كانت تعنى بالألفاظ فُتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها . ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها ، وزينوها وبالغوا في تحسينها : ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لذّ لسامعه خفيظه ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها ورقّقوا حواشيها وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، فصار ذلك كإبراز صورة الحسناء في الحلل الموشاة والأثواب المحبرة ، فإننا قد نجد من المعاني الفاحرة ماشوه من حسنه بدّآذة لفظه وسوء العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكري رحمه الله : ومن عرف ترتيب المعاني وآستعمل الألفاظ على وجوهها بلغه من اللغات ثم آنتقل إلى لغة أخرى ، تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب آستخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، وحوّلها إلى اللسان العربي . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

قال في "المثل السائر": وأعلم أن المعاني الخطابية قد حُصرت أصولها، وأول من تكلم في ذلك حكماء اليونان، غير أن الحصر كلي لا جزئي، ومحال أن تُحصَر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفرعات التي لا نهاية لها، لا جرم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم، ولا يفترق إليه، فإن البدوى البادى راعى الإبل ما كان يمر شئ من ذلك بفهمه، ولا يخطر بباله، ومع هذا، فإنه كان يأتي بالسحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا. قال: ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين في هذا، وأنساق الكلام إلى شئ ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يقال له اللوغاذيا، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره، فلما وقفت عليه استجھلته، فإنه طول فيه وعرض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل هذا الذي ذكره لغو، لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا، ثم مع هذا جميعه فإن معول القوم فيما يذكرون من الكلام الخطابي أنه يُورد على مقدمتين ونتيجة، وهذا مما لم يخطر لأبي علي بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع عمله، وعند إفاضته في صوغ ماصاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال، ولو أنه فكر أولا في المقدمتين والنتيجة، ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك، لما أتى بشئ يُنتفع به، ولطال الخطب عليه. قال: بل إن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم، لم ينظموه في وقت نظمهم وعندهم فكرة في مقدمتين ولانتيجة، وإنما هذه أوضاع توضع وتطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر، وهي كما يقال:

قَعَائِقُ لَيْسَ لَهَا طَائِلٌ * كَأَنَّهَا شِعْرُ الْيُورْدِيِّ

الوجه الثاني

(في تحقيق المعاني ، ومعرفة صوابها من خطئها ، وحسنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعاني على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(ما كان من المعاني مستقيماً حسناً : كقولك رأيت زيدا ،

وهو أعلى الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال في الصناعتين : والمعنى الصحيح الثابت ينادى على نفسه بالصحة ، ولا يجوز
إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطيئاً .

فأما المعنى المستقيم الجزل من النظم ، فمن الوعظ قول النمر بن تولب يذم طول
الحياة :

يَوَدُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْغِنَى * فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ ؟

يَكَادُ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصْحَةِ * يَنْوُءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيَحْمَلُ

وقول أبي العتاهية في الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وَكُنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا !

وفي وصف الأيام قول أبي تمام :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُفَاهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

ومن الملاحق قول أمية بن أبي الصلت :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ * بَسِيبٌ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وليس بسينٍ لَأَمْرِي بَذْلٌ وَجْهَهُ * إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

وقول أبى تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مِنَا يَاهُمْ كَأَنَّهُمْ * لَا يَيْئَسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

وقول الآخر :

هُمْ الْأَوَّلَى وَهَبُوا لِلْجَدِّ أَنْفُسَهُمْ * فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا إِذَا حُمِدُوا

ومن الفخر قول معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْدَيْتُ كَفَى لِرَبِيبَةٍ * وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي !

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا * وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي !

وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصْنِنِي مُصِيبَةٌ * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتْلِي !

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَاحِيَتْ لُنُكْرٍ * مِنَ الْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي !

وَلَا مُوَثِّرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ * وَأَوْثُرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ، عَلَى أَهْلِي !

وقول الآخر :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى * إِذَا كَانَتْ الْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول الشنفرى :

أُطِيلُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ * وَأَضْرِبُ عَنْهُ الْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ

وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الْعَارِ لَمْ يُلَفَّ مَشْرَبٌ * بُعَاشَ بِهِ إِلَّا لَدَى وَمَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ * وَهَنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمْ طَرْفِي فَأَلَمْ خَدَّهُ * فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثَرُ

وَصَاحَهِ قَلْبِي فَأَلَمَ كَفِّهِ * فَمِنْ صَفَحَ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ حَفَرُ
وَمَرَّ بِفِكْرِي خَاطِرًا بَفَرَحْتِهِ * وَلَمْ أَرَ خَلْقًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ

ومن التشبيب قول القائل :

وَمِنْ نَجَّيْتُ أَنِّي أَحَبُّ إِلَيْهِمْ * وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَىٰ وَهُمْ مَعِيَ
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا * وَيَسْتَأْفَهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي

وقول الآخر :

إِنْ لَمْ أَزُرْ رَبَّكُمْ سَعِيًا عَلَىٰ حَدَقِ * فَإِنَّ وَدِّيَ مَنُوسِبٌ إِلَىٰ الْمَلَقِ
تَبَّتْ يَدِي إِنْ تَنَتْنِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ * بَيْضُ الصَّفَاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بِهَا طُرُقِي

ومن الحكمة قول المتنبي :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ * ذَا عَفْوَةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

وقول الآخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَىٰ الْقَدَىٰ * ظَلِمْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟

وقول الآخر :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهِ * عَلَىٰ شَعْبٍ أَيْ الرِّجَالِ الْمُهْدَبِ؟

ومن الهجو قول الطرمح في تميم :

تَمِيمٌ يَطْرُقُ اللَّوْمُ أَهْدَىٰ مِنَ الْقَطَا * وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ

وقول الآخر :

لَوْ أَطْلَعَ الْغُرَابُ عَلَىٰ تَمِيمٍ * وَمَا فِيهَا مِنَ السَّوَاءِ شَابَا

إلى غير ذلك من معاني الشعر الحسنة البهجة الرائقة .

ومما يخطر في هذا السلك من النثر ما يُحكى أن أعرابيا وقف على عبد الملك بن مروان برملة اللوى فقال : رحم الله امرأ لم تمنح أذناه كلامي ، وقدّم معاذة من سوء مقامي ، فإن البلاد مُجْدِبُهُ ، والحال مُسْغِيهِ ، والحياء زاجر ، يمنع من كلامكم ، والفقر عاذر ، يدعو إلى إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمر بمير ، أودعا بخير .

ومعاني القاضي الفاضل هي التي ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قلوبها على النفوس من غير حاجب ولا بواب . فمن ذلك قوله :

”يا بني أيوب لو ملكتم الدهر لا تمطيتم لياليه أداهم ، وقدّتم أيامه صوارم ، وأفنيتم شموسه وأقماره في الهباب دنائير ودراهم ، وأيامكم أعراس وما تمّ فيها على الأموال ماتم ، والجود في أيديكم حاتم ، ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم“ .

فهذا هو السّحر الحلال ، والمعاني التي تخضع لها شُمّ الجبال ، ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصنف الثاني

(ما كان مستقيا قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال في ”الصناعتين“ وإنما قُبِحَ لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير . وهذا النوع يسميه علماء المعاني التعقيد . وسماه ابن الاثير في ”المثل السائر“ المعاظلة المعنوية ، وهو تقديم ما الأولى به التأخير : كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك ؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة : لأن المعنى يختلُّ به ويضطرب . قال في ”المثل السائر“ وهو ضد

الفصاحة : لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف . فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبحت بعد خطِّ بهجتها * كأن قفراً سُومها قلباً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسوماً فقدّم خبراً كأن ، وهو خط عليها فجاء مختلاً مضطرباً ، وأقبح منه وأكثر اختلالاً قول الفرزدق :

إلى ملكٍ مأمّته من محاربٍ * أبوه ، ولا كانت كليبٌ تُصايرُهُ

يريد إلى ملك أبوه مأمّته من محارب ، والمعنى مأم أبيه من محارب ، يمدحه بذلك ذمّاً لمحارب . وكذلك قوله ، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مملّكا * أبو أمّه حتى أبوه يُقارِبُهُ

يريد وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا مملّكا أبو أمّه أبوه ، وهو خاله ، فلمّا استعمل فيه التقديم والتأخير في غير موضعه جاء مشوهاً رثاً كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين ابن الأثير" : وقد استعمل الفرزدق من التعاضل كثيراً كأنه يقصد ذلك ويتعمّده لأن مثله لا يجيء إلا متكلّفاً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على سبيلها وطبعها في الاسترسال ، لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ؛ ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ، ذهب المراد به . ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الصنف الثالث

(ما كان مستقيماً ولكنه كذب : كقولك حملت الجبل ،

وشربت ماء البحر ، وما أشبه ذلك)

وأعلم أن المعاني المستعملة في الشعر والكتابة أكثرها جارٍ على هذا الأسلوب خصوصاً المعاني الشعرية ، فإنه مقدمات تخيلية تُوجب في النفس اتقباضاً وانقباضاً على ما هو مقرر في علم المنطق . وقد قال في "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبني على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتنعة ، والنوع الخارجة عن العادة ، والألفاظ الكاذبة : من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان ، ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفعله . قال : وليس يراد منه إلا حُسْن اللفظ وجودة المعنى ، فهذا الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء عليهم السلام . قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب رحمه الله في كتابه تحرير التحجير : وأنا أقول قد اختلف في المبالغة ، فقوم يرون أن أجود الشعراً كذبه ، وخير الكلام ما بولغ فيه ، ويحتجّون بما جرى للناطقة الديباني مع حسان بن ثابت رضي الله عنه في استدراك النابغة عليه تلك المواقع المحمية في قوله :

لنا الحَفَنَاتُ الغُرُّ يَمَعْنَ بالضَّحَى * وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمًا

فإن النابغة إنما عاب على حسان ترك المبالغة ، والقصة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن روى عنه انقطاعه في يد النابغة ، وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ما خرج تخرج الصدق ، وجاء على منهج الحق ، ويزعمون أن المبالغة من مَنَعَف المتكلم وتَجَزَّه عن أن يخترع معنى ، أو يفترع

معنى من معنى ، أو يحلّى كلامه شيئا من البديع ، أو ينتخب ألفاظا موصوفة بصفات الحسن ، ويحيد تركيبها ؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يستد بها خلله ويتم نقصه : لما فيها من التهويل على السامع ، ويدّعون أنها ربما أحالت المعاني فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلى حدّ الامتناع . قال : وعندى أن هذين المذهبين مردودان . أما الأول فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيه ، وهذا قول من لا نظره لأننا نرى كثيرا من الكلام والأشعار جاريا على الصدق المحض خارجا مخرج البحث ، وهو في غاية الجودة ، ونهاية الحسن ، وتمام القوة ، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن ، والمحاسن لا تُحصر ضرورها ؛ فكيف يقال إن هذا الضرب على أنفراده يفضل سائر ضروب المحاسن على كثرتها ؛ وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان ؛ ومن كان مذهبه توخى الصدق في شعره غالبا ، ليس فوق أشعارهم غاية لمترقّ ؛ ألا ترى إلى قول زهير :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرِي مِنْ خَلِيقَةٍ * وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمَ
وإلى قول طرفة :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى * لَكَاطُولِ الْمُرْنَى وَثِنْيَاهُ فِي الْيَدِ
وإلى قوله :

سُتِئِدَى لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ
وإلى قول الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة ، وإن خلت من المبالغة ؛ والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب

مارؤى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان قاضى الصُفْرىة من الخوارج
أنها قالت له يوما : أنت أعطيت الله تعالى عهدا أن لا تكذب فى شعرك ،
فكيف قلت :

فهنالك مجزأة بن ثو * ركان أشجع من أسامه .

فقال : يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده وما سمعت بأسد فتح مدينة
قط ، وهذا حسان يقول :

وإنما الشعرُ لب المرء يعرضه * على المجالس إن كَيْسا وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قابله * بيت يقال إذا أنشدته : صدقا

على أن هؤلاء الفحول وإن رجحوا هذا المذهب ، لا يكرهون ضده ، ولا
يُحَدِّثُونَ فضله ، وقلمًا تخلو بعض أشعارهم منه إلا ان توتى الصدق كان الغالب
عليهم ، وكانوا يكثرُونَ منه ، ومن أكثر من شئ عُرِفَ به كما أن النابغة ومن تابعه
على مذهبه لا يكرهون ضد المبالغة ، وإلا فكل احتجاج جاء به على التعمان فى الاعتذار
جار مجرى الحقيقة كقوله :

حلفت فلم أترك لنفسك رية * وليس وراء الله للمرء مذهب

فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير
مصيب ، وخير الأمور أوسطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حد الإمكان ، ولم تجر مجرى الكذب
المحض ، فإنها لا تُذَمُّ بحال ، كقول قيس بن الخطيم :

طعنت ابن عبد القيس طعنة نائر * لها نقد لولا الشعاع أضاءها
ملكته بها كفى فأنهرت فقها * يرى قائم من دونها من وراءها^(١)

(١) فى اللسان ما . ولعلها رواية .

فإن ذلك من جيد المبالغة ، إذ لم يكن خارجاً مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة ؛ وكذلك قول أبي تمام .

تَكَادُ تَنْتَقِلُ الْأَرْوَاحُ لَوْ تُرِكَتْ * مِنَ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضلاً عن الجواز بتقديم كاد ، حتى قال : لَوْ تُرِكَتْ ، قال : وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه ، وعلى حده ورد قول شاعر الحماسة ، وقد بالغ في مدح ممدوحه فقال :

رَهَنْتُ يَدَيَّ بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ رَءٍ * وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ * وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فإن هذا الشاعر ألقى بيده وأظهر عجزه ، وأعترف بقصوره عن شكر رء هذا الممدوح ، وفطن أنه لو أقصر على ذلك ، لأحتمل أن يقال له : عجزك عن شكره لا يدل على كثرة رءه : لأحتمل أن يكون لضعف مادتك عن الشكر ، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شيء تعظيم ذلك الشيء ولا بد : لأحتمل أن يكون العجز لضعف الإنسان ، فأحترز عن ذلك بقوله :

* وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ *

ثم تم المعنى بأن قال للشُّكُور ، للمبالغة في الشكر ، فإن شكوراً معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدم ؛ ثم أظهر عذره في عجزه بأن قال في البيت الذي يليه :

* وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ *

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مخرج المثل السائر ليكثر دوراً أنه على الألسنة فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين ، والتنويه بذكره في كل زمان حيث قال :

* وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حد الإمكان، وجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة في الشرع، وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك، ولا يتحاشون الوقوع فيه. وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله: "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَيْبِدٍ: * أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ" *

إشارة لذلك أيضا .

فن المبالغة في الشعر المنتهية إلى حد الكذب قول البُخترى:
ولو قُستَ يوماً حِجْلُهَا بِحَقَائِبِهَا * لَكُنَا سَوَاءً، لَا بِلِ الْجِلِّ أَوْسَعُ
وَصَفَّهَا بِرِقَّةِ الْخَصْرِ وَغَلِظَ السَّاقِ حَتَّى جَعَلَ حِجْلُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى سَاقِهَا أَوْسَعَ مِنْ
حَقَائِبِهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى خَصْرِهَا، وَأَبْلَغَ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
مَنْ الْهَيْفَ لَوْ أَنَّ الْخَلَائِلَ صُبِّرَتْ * لَهَا وَثْمَةٌ، جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلَائِلُ
بِفَعْلِ الْخَلَائِلِ يَحُولُ فِي جَمِيعِ بَدَنِهَا، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَدْحِ فِي شَيْءٍ لَأَنَّ الْخَلَائِلَ
لَوْ صَارُوا شَاحِلًا لِلرَّأْسِ، لَكَانَتْ فِي غَايَةِ الدَّمَامَةِ حَتَّى تُصِيرَ فِي خِلْقَةِ الْحُرِّ وَالْهَرِّ.
وَأَبْلَغَ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ.

وَرَحْبُ صَدْرٍ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ * كَوْسَعِهِ، لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ
بِفَعْلِ صَدْرِهِ فِي السَّعَةِ وَالرُّحْبِ أَوْسَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
وَيَوْمَ كَطُولِ الذَّهْرِ فِي عَرَضٍ مِثْلِهِ * وَوَجْدَى مِنْ هَذَا وَهَذَا أَطُولُ
إِلَّا أَنَّهُ أَسْتَعْمَلَ الْعَرَضَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، إِذَا الذَّهْرُ يُوصَفُ بِالطُّولِ لَا بِالْعَرَضِ،
وَهُوَ قَدْ جَعَلَ لَهُ طَوْلًا وَعَرَضًا، وَيَقْرَبُ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

كَفَى بِجَنْسِي نُحُولًا أَنِّي رَجُلٌ * لَوْلَا غَاطَتِي إِيَّاكَ، لَمْ أَبْنِ ^(٢)

(١) الجرو مثلث الجيم (٢) المشهور في الرواية لم ترني وهي التي شرح عليها المعنوي .

فجعل كلامه هو الذى يدل عليه من شدة التحول . قال الشيخ زكى الدين بن أبى الأصابع : ومما يجرى به التمثيل فى باب المبالغة قول بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيَغْضَبُ قبل أن يَطْلُبَهَا ، وتكون إليه فيردُّها قبل أن يفهمَهَا . وقول بعض بلغاء الكُتَّاب : إن من النعمة على المُنْتِنِ عليك أن لا يخلو من مساعد ، ولا ينجس من معاند ، ولا تلحقه نقيصة المكذِب ، ولا يُكرِّهه عَوَزُ الأوصاف بالتطلب ، ولا ينتهى من القول إلى منتهى إلا وجد بعده مقتضى ووراءه منتهى . وسيأتى من المبالغة فى أوصاف الخيل والسلاح ، وغيرها فى قسم الأوصاف من ذلك ما فيه مقنع إن شاء الله تعالى .

الصنف الرابع

(ما كان محالا : وهو ما لا يمكن كونه البتة : كقولك آتيتك أمس ، وأتيتك غدا ، وما أشبه ذلك)

قال فى الصناعتين : فإن اتصل الكذب بحال ، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما ، ومررت بيقظان نائم ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع ، ومحال لعدم إمكان الجمع بين التقيضين ، وقد تقدّم فى النوع الثالث أن أكثر الشعر مبنى على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتنعة ، والنوع الخارجة عن العادة ، وذلك فى الكذب مما لا نزاع فى كثرتة فى الشعر كما تقدّم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع ، نادر فى النظم والنثر ، معدود من المعاييب ، محكوم عليه بالرد .

فمن ذلك قول عبد الرحمن بن عبد الله القسّ :

وإن إذا ما الموت حلّ بنفسها ، * يُرَأَى بنفسى قبل ذاك فأقبر

قال العسكري : هذا من المحال الذي لاوجه له ، قال : وهو شبيه بقول القائل :
إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال المتنع الذي
لا يجوز . يريد أنه قد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم
الدور ، وهو محال ، فيحكم فيه بالبطان وقطع الدور .

ومما يلحق بالمحال وينخرط في سلكه تناقض المعاني وأضطرابها .

فن ذلك قول المسيب بن عيسى في وصف ناقة :

قَسَلَّ حاجتها إذا هي أعرضت * بمخيمية سرج الديدن وساع
فكانت قنطرة بموضع كورها * ملساء بين غوامض الأوساع
وإذا أطفت بها ، أطفت بكلكلي * بيض القرايص مجفّر الأضلاع

قال في "الصناعين" : وهذا من المتناقض لأنه قال بمخيمية ، ثم قال موضع
كورها قنطرة ، وهي مجفّرة الأضلاع فكيف تكون مخيمية وهذه صفتها ؟
وقريب منه قول الحطيئة :

حارج يلاوذ بالكناس كأنه * متطوف حتى الصباح يدور
حتى إذا ما الصبح شق عموده * وعلاه أسطع من سناه منير
وحصى الكتيب بصفحته كأنه * خبث الحديد أطارهن الكبير

زعم أنه لم يزل يطوف حتى أصبح وأشرف على الكتيب ، فمن أين صار الحصى
بصفحته ؟ . وقول المرقش الأصغر :

صحا قلبه عنها على أنب دكرة * إذا خطرت دارت به الأرض قائما
وكيف صحا عنها من إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصنف الخامس

(ما كان غَلَطًا : وهو أن تريد الكلام بشئ فَيَسْبِقُ لسانك إلى خلافه ، كقولك :

ضَرَبَنِي زَيْدٌ وَأَنْتَ تَرِيدُ ضَرْبُ زَيْدًا)

قال في "الصناعتين" : فإن تعمّدت ذلك ، صار كذباً ، وهذا النوع أكثر وقوعاً من الذى قبله ، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط فى المعانى كثيرة : فمن ذلك الغلط فى الأوصاف ؛ وهى على وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكرة بما ينافية .

فمن غريب هذا النوع قول الراعى فى وصف المسك :

يَكْسُو الْمَفَارِقَ وَاللِّبَاتِ ذَا أَرْحٍ * من قُصِبِ مُعْتَلِفِ الْكَافُورِ دَرَجٍ

بفعل المسك من قُصِبِ الظُّبْيِ ، وهو معاه ، وجعل الظُّبْيَ يعتلف الكافور فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط . وقريب منه قول زهير يصف الضفادع :

يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَبَاتٍ مَاؤُهَا طَحِلٌ * على الجُدُوعِ تَخَافُ الْغَمَّ وَالْفَرَقَا^(١)

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الفرق ، ونشوءها فيه . وقريب منه قول ذى الرمة :

إذا آنجبت الظلمات ، أضحت رؤوسها * عليهن من جهد الكرى وهى صُلَعٌ

فوصف الرؤوس بالصلع . قال ابن أبي فروة : ما أغفلت هذا ، ولقد قلت لذى الرمة : ما علمت أحداً أضلع الرؤوس غيرك ، قال : أجل .

(١) فى اللسان يتخفن فبا فى الاصل رواية له .

قال في الصناعتين : ومما لم يُسمع مثله قط قول عديّ بن زيد في النجر :
والمُشْرِفُ الهَيْدَبُ يَسْعَىٰ بِهَا * أَخْضَرَ مَطْمُونًا بِمَاءِ الْحَرِيصِ
فوصف النجر بالخضرة ، والحريصُ السحابة تَحْرِصُ وجه الأرض أى تَقْشِرُهَا ،
ومنه سميت إحدى الشجَاجِ في الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .
ومنها وصف الشيء على خلاف المعهود والعادة المعروفة .
فمن ذلك قول المرّار :

وَحَالٍ عَلَىٰ خَدَيْكَ يَسْدُو كَأَنَّهُ * سَنَا الْبَدْرِ فِي دَعَجَاءِ بَادٍ دُجُونَهَا
والمعروف أن الحِيلَانَ سَوْدٌ أَوْ سُورٌ ، والحدود الحسان إنما هي البيض ، فأتى
هذا الشاعر بقلب المعنى ؛ ومثله قول الآخر :

كَأَنَّمَا الْحِيلَانُ فِي وَجْهِهِ * كَوَاكِبٌ أَحْدَقْنَ بِالْبَسْدَرِ
قال أبو هلال العسكري : ويمكن أن يُحتجَّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه
الحِيلَانَ بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

ومن ذلك قول امرئ القيس في وصف الفرس أيضا :
وَلِلْسُوطِ أَهْوَبُ وَلِلْسَاقِ دِرَّةٌ * وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعٌ أَخْرَجَ مُهْذِبِ
قال أبو هلال العسكري : فلو وصف أخس حمارٍ وأضعفه ، ما زاد على ذلك ؛
وقول القائل :

صَبَّهْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنًا * فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سَرَّاعٌ وَأَرْجُلُ
فجعل ضربها بالسوط من باب الظلم لأنها لا تتوجه إلى ذلك ؛ ومن ذلك قول
امرئ القيس :

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ خَيْفَانَةً * كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

شبه ناصية الفرس بسعف النخلة لطولها، وإذا غطى الشعر عين الفرس لم يكن كريما .

ومثله قول طرفة يصف ذنب البعير :

كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي، تَكْتَفَأُ * حِفَافِيهِ، شُكَّا فِي الْعَيْبِ بِمَسْرِدٍ
بَجَبِلِ ذَنْبِهِ كَثِيفًا، طَوِيلًا عَرِيضًا، وَإِنَّمَا تُوصَفُ النِّجَاطُ بِخَفَةِ الذَّنَبِ
وَرِقَّةِ الشَّعْرِ .

ومنها أن يجرى في مقاصد المعاني على خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول
جُنَادَةَ :

مَنْ حُبَّهَا أَتَمَّنَى أَنْ يُلَاقِيَنِي * مَنْ نَحْوِ بَلَدَتِهَا نَاجِعٌ فِينَعَاها
لَكِنَّهُ يَكُونُ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ * وَتُضْمِرُ النَّفْسُ بِأَسْمَاءٍ تَسْلَاهَا
فَإِذَا تَمَنَّى الْمَحَبَّ لِلْحَبِيبِ الْمَوْتَ فَإِذَا عَسَى أَنْ يَتَمَنَّى الْبَغِيضَ لِبَغِيضِهِ ؟
وقول الآخر :

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِقَتْلِهَا مِنْ حُبِّهَا * كَيْمَا تَكُونَ خَصِيمَتِي فِي الْحَشْرِ
فَذَكَرْتُ أَنَّ شِدَّةَ الْحَبِّ حَمَلَتْهُ عَلَى قَتْلِ مَحْبُوبَتِهِ حَتَّى تَخَاصِمَهُ فِي الْحَشْرِ لَطَلَبِ حَقِّهَا،
وَشِدَّةُ الْحَبِّ لَا تَعْمَلُ إِلَّا عَلَى الْإِكْرَامِ وَالْبِرِّ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ تَكْرَهُهُ، فَتَتْرَكَ حَقَّهَا
لَهُ حَتَّى لَا يَطُولَ وَقُوفُهَا مَعَهُ لِلنِّصَامِ، وَقَوْلُ نُصَيْبٍ :

فَإِنْ تَصِلِي، أَصْلُكَ وَإِنْ تَعُودِي * بِهِجْرٍ بَعْدَ ذَاكَ، فَلَا أَبَالِي
وَالْعَاشِقُ يَلَاطِفُ قَلْبَ مَحْبُوبِهِ وَلَا يُحَاجُّهُ، وَيَلَايِنُهُ وَلَا يُلَاجُّهُ .

الأصل الثاني

(من صناعة إنشاء الكلام النظر في الألفاظ ، والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأول

(في فضل الألفاظ وشرفها)

قد تقدم في الكلام على المعاني أن الألفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصريح يزداد حسنا بالحلل الفاحرة ، والملابس البهيّة ، والقيح يزول عنه بعض القُبْح : كما أن الحسنَ ينقصُ حسنه رِثَاءة ثيابه وعدم بهجة ملبوسه ، والقيح يزداد قبحا إلى قُبْحه . فالألفاظ ظواهر المعاني ، تحسّنُ بحسنها وتَقْبَحُ بِقُبْحِها ، وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : "ليس الشأنُ في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جَوْدَةِ اللفظ ، وصَفَائِهِ . وحسنه وبهائه ، وزاخرته ونَقَائِهِ ، وكثرة طَلَاوَتِهِ ومائِهِ ، مع صحة السَّبْكِ والتركيب ، والخلق من أودِ النظم والتأليف . قال : وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يُقْنَعُ من اللفظ بذلك حتى يكون على ما تقدّم من نعوته . ثم قال : ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسِينُ اللفظ أن الخطبَ الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام ، وإنما يدل حسنُ الكلام وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجَوْدَةُ مَقَاطِعِهِ ، وبديع مباديه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله ، وفهم مُنْشِئِهِ ؛ وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني ، وتَوَحَّى صوابُ المعاني أحسنُ من تَوَحَّى هذه الأمور في الألفاظ ، فلهذا يَتَأَنَّقُ الكاتبُ في الرسالة ، والخطيبُ في الخطبة ، والشاعرُ في القصيدة ، ويبالغون في تجويدها ، وَيُغْلَوْنَ في ترتيبها ، ليدُلُّوا على براعتهم ،

وَحِدْقِهِمْ بِصَنَاعَتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذَلِكَ فَرَمَحُوا كَدًّا كَثِيرًا ،
وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعْبًا طَوِيلًا ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلُولًا عَذْبًا ،
وَسَائِسًا سَهْلًا ، وَمَعْنَاهُ وَسَطًا ، دَخَلَ فِي جَمَلَةِ الْجَيِّدِ ، وَجَرَىٰ مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ ،
كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ ، * وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَا سِجُّ ،
وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا * وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَاغِمُ ،
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ، * وَسَالَتْ بِأَغْنَاكِ الْمِطَى الْأَبَاطِحُ
وليس تحت هذه الألفاظ كثيرٌ معنى ، وهى رائقةٌ مُعْجَبَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ : وَلَمَّا
قَضَيْنَا الْحَجَّ وَمَسَّحْنَا بِالْأَرْكَانِ ، وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ الْإِبِلِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ بَعْضُنَا
بَعْضًا ، جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُنَا الْإِبِلُ فِي بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى صَوَابًا
وَاللَّفْظُ بَارِدًا فَاتَرَكَاتِ مَسْتَجِنًا مَلْفُوظًا ، وَمَذْمُومًا مُرْدُودًا ، كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ
فِي أَبِي عَثْمَانَ سَعِيدِ بْنِ وَهَبٍ :

مَاتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ * رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يَا أَبَا عَثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي * يَا أَبَا عَثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

الوجه الثاني

(الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغي استعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذى ينبغي أن يستعمل فى النظم والنثر من الألفاظ هو الراقى البهيج الذى
تقبله النفس ، ويميل إليه الطبع ، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح فى أصل اللغة هو الظاهر البينُّ ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان
ضوءه ، وأفصح اللبن إذا تجلت عنه رغوته وظهر ، وأفصح الأعجمى وفصح إذا

أبان بعد أن لم يكن يُبينُ ، وأفصح الرجل عما في نفسه ، إذا أظهره . قال في المثل
 السائر : وأهل البيان يَقْفُونَ عند هذا التفسير ، ولا يكشفون عن السر فيه . قال :
 وبهذا القول لا تبين حقيقة الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا
 لم يكن فصيحاً جيداً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً ؛ على أنه قد يكون اللفظ
 ظاهراً الزيد ولا يكون ظاهراً العمرو ، فيكون فصيحاً عند واحد دون آخر ، وليس
 كذلك ، بل الفصيح مالم يُخْتَلَفْ في فصاحته : لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرفَ
 ما هي ، لم يبق في اللفظ المجتص بها خلاف ؛ وأيضاً فإنه لو جرى بلفظ قبيح ينبو
 عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، فينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأن
 الفصاحة وصفٌ حُسْنِ اللفظ لا وصفٌ قُبْحِه . قال : وتحقيق القول في ذلك أن
 يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البين ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة
 لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتب لغة ؛ وإنما كانت بهذه الصيغة لأنها
 تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ؛ وإنما كانت مألوفة
 الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنِها ، وذلك أن أرباب
 النظم والنثر غَرَبُوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسَبَرُوا وقَسَمُوا فاختاروا الحَسَنَ من الألفاظ
 فاستعملوه ، ونَفَوْا القبيح منها فلم يستعملوه ، فَحَسَّنُ الألفاظ سبب استعملها دون
 غيرها ، وأستعملها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ؛ فالفصيح إذن من الألفاظ هو
 الحَسَنُ . ثم قال : والمرجع في تحسين الألفاظ وقبحها إلى حاسة السمع ، فما يستلذه
 السمع منها ويميل إليه هو الحَسَنُ ، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، بدليل أن السمع
 يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشَّعْرُورِ ، ويميل إليهما ؛ ويكره صوت الغراب
 وينفر عنه ، وكذلك يكره نَهيقَ الجمار ، ولا يبعد ذلك في صهيل الفرس ، والألفاظ جارية
 هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة المُرْتَنَةِ والدَّيْمَةِ يستلذهما السمع ، ولفظة البُعَاق

قبيحة يكرها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد ، وأنت ترى لفظي المُرْنَة والدَّيْمَة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ البُعَاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل ، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذَوُّهُ غير سليم ، لا جرم أنه ذم وقدر فيه ، ولم يلتفت إليه ، وإن كان عَرَبِيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين ، فإن حقيقة الشيء إذا علمت ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعْرَجْ على ما خرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحسن حتى يتصف بأربع صفات :

الصفة الأولى

(أن لا يكون غريبا : وهو ما ليس مأنوس الاستعمال ولا ظاهر المعنى)

ويسمى الوحشي أيضا ، نسبة إلى الوحش لنفاره وعدم تأنسه وتألفه ، وربما قلب قيل الحُوشِي نسبة إلى الحوش : وهو النِّفَار . قال الجوهري : وزعم قوم أن الحُوش بلاد الجن وراء رمل يبرين ، لا يسكنها أحد من الناس ، فالغريب والوحشي والحوشي كله بمعنى .

ثم الغريب على ضربين .

الضرب الأول - ما يُعَاب استعماله مطلقا : وهو ما يحتاج في فهمه إلى بحث وتقيب ، وكشف من كتب اللغة : كقول ابن جحدر .

حَلَقْتُ بِمَا أُرْقَلْتُ حَوْلَهُ * هَمْرَجَلَةٌ خَلَقَهَا شَيْطَنٌ

وما شَبَرَقْتُ مِنْ تَوْفِيَةٍ * بها من وحى الجن زِيَرِم

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الخَبَب ، يقال منه أرقلت الناقة تُرْقَل إرقالا ، والهمرجلة الناقة السريعة ، وقال أبو زيد : الهمرجلة الناقة النجيبة الراحلة .

(١) كذا في الضوء أيضا وفيه تساهل لأن الفارمعي لا نحاش لالحاش انظر القاموس .

وَالشَّيْظُ الشَّدِيدُ الطَّوِيلُ وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْإِبْلِ وَالْخَلِيلِ وَالْأَنْثَى شَيْظَمَةٌ . وَالشَّبْرَقَةُ الْقَطْعُ ، يُقَالُ شَبْرَقْتُ الثَّوْبَ أَشْبَرَقَهُ شَبْرَقَةً إِذَا قَطَعْتَهُ ، وَشَبْرَقْتُ الطَّرِيقَ إِذَا قَطَعْتَهَا وَالتَّنَوُّفُ الْمَفَازَةُ ، وَيُقَالُ فِيهَا تَنَوُّفٌ أَيْضًا . وَالْوَحْيُ هُنَا الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، يُقَالُ سَمِعْتُ وَحَاةَ الرَّعْدِ : وَهُوَ صَوْتُهُ الْمَتَدُّ الْخَفِيُّ ، وَقَوْلُهُ زَيْزَمَ حِكَايَةً لِأَصْوَاتِ الْجَنِّ إِذَا قَالَتْ زَى زَى ؛ وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يَقُولُ حَلَفْتُ هَذِهِ الْخَلْفَةَ بِمَا سَارَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ الشَّدِيدَةُ السَّيْرِ الْعَظِيمَةِ الْخَلْقُ ، وَمَا قَطَعْتَ مِنْ مَفَازَةٍ لَا يَسْمَعُ فِيهَا إِلَّا أَصْوَاتُ الْجَنِّ ؛ وَهَذَا يُمْكِنُ لَا يَوْقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدِّ وَتَعَبٍ فِي كَشْفِهِ وَتَتَبُّعِهِ مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ .

الضرب الثاني - ما يحتاج إلى تدقيق النظر في التصريف وتخريج اللفظ على وجه بعيد : كلفظ مسرج من قول العجاج .

وَمُقَلَّةٌ وَحَاجِبٌ مُرَجَّجٌ * وَفَاحِجٌ وَمَرْسِنٌ مُسَرَّجٌ

فَالْمُقَلَّةُ شَحْمَةُ الْعَيْنِ ، وَالْحَاجِبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْمَرْجَجُ الْمُقْوَسُ مَعَ طَوِيٍّ وَدَقَّةٍ فِي طَرَفِهِ وَالْفَاحِمُ الشَّعْرُ الْأَسْوَدُ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْقَعْمِ ، وَالْمَرْسِنُ الْأَنْفُ ، وَصِفُهُ بِكَوْنِهِ مُسَرَّجًا إِمَّا أَنَّهُ كَالسَّيْفِ السَّرِيحِيِّ فِي الدَّقَّةِ وَالْإِسْتَوَاءِ ، وَالسَّرِيحِيُّ نَسْبَةٌ إِلَى قَيْنٍ يُسَمَّى سَرِيحًا تَنْسَبُ إِلَيْهِ السُّيُوفُ ، وَإِمَّا أَنَّهُ كَالسَّرَاجِ فِي الْبَرِيقِ وَاللَّمَعَانِ ؛ أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ سَرَجَ اللَّهُ وَجْهَهُ إِذَا بَهَّجَهُ وَحَسَّنَهُ . فَهَذَا وَمِثْلُهُ مِمَّا لَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ التَّصْرِيفَ وَأَتَقَنَهُ .

إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ يَخْتَلِفُ فِي الْغَرَابَةِ وَعَدَمِهَا بِاخْتِلَافِ النَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ مَأْلُوفًا مُتَدَاوِلًا لِالِاسْتِعْمَالِ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا فِي زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا عِنْدَ قَوْمٍ ، مُسْتَعْمَلًا مَأْلُوفًا عِنْدَ آخَرِينَ .

وهو أربعة أصناف .

الصنف الأول

(المألوف المتداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما تداول استعماله الأول والآخِر من الزمان القديم وإلى زماننا : كالسما والارض ، والليل والنهار ، والحز والبرد ، وما أشبه ذلك ؛ وهو أحسن الألفاظ ، وأعدلها ، وأعلىها درجة وأغلاها قيمة ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفاً متداولاً كما تقدم ؛ وهذا لا يقع عليه اسم الوحش بحال . قال في : ” المثل السائر ” وأنت إذا نظرت إلى كتاب الله العزيز الذي هو أفصح الكلام ، وجدته سهلاً سليماً ، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسيراً جداً - هذا وقد أنزل في زمن العرب العرباء ، وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالاً وكفى بالقراء الكريم قُدوةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ” ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أمّ القُرآن وهي السَّبْعُ المثاني ” يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلى ما أشتملت عليه من الألفاظ ، وجدتها سهلة قريبة يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوقة ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ، فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ؛ وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها ؛ والمقتضى بألفاظ القراء يكفي بها عن غيرها من جميع الألفاظ المثورة والمنظومة ؛ وقد كانت العرب الأول في الزمن القديم تتحاشى اللفظ الغريب في نظمها ونثرها ، وتميل إلى السهل وتستعذبه ؛ ويكفي من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه ، فقال له : ” إنك في الحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تُحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سودد منصبك وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب تحبب ما حمل عليه :

من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ؛ ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك
فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ما يطول رغباتها ،
ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان : من الخطب الحليل ، الذي عمت رزيتته
نزارا واليمن ، ولم تخصص بذلك كندة دوننا : للشرف البارع الذي كان لمجر ، ولو كان
يُقدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخت كرائنا بها على مثله ، ولكنه مضى به
سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ؛ ولا يلحق أقصاه أدناه ؛ فأحد الحالات في ذلك أن
تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن احترت من بنى أسد أشرفها
بيتا ، وأعلاها في بناء المكرمات صوتا ، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شقرات حسامك
بباقى قصرته ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل تخيمته إلا تمكينه من
الانتقام . أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهي ألوف تتجاوز الحسبة
فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحن على البراء .
وإما أن وادعنا إلى أن تضع الحوامل فتسدل الأزور وتعد الخمر فوق الرايات .
فبكى أمرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال .

”لقد علمت العرب أنه لا كفاء لمجر في دم ، وأنى لن أعتاض به جملا ولا ناقة ،
فأكتسب به سبة الأبد ، وفئت العضد ؛ وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون
أمهاتها ، ولن أكون لعطبا سببا ؛ وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل
في القلوب حقا وفوق الأسته علقا .

إذا جالت الحرب في مازق * تصافح فيه المنايا النفوسا !

أقيمون أم تتصرفون ؟ “ قالوا بل نتصرف بأسوا الاختيار وأبلى الاجترار ، بمكرو
وأذيه ، وحرب وبلية .

ثم نهضوا عنه وقيصة يتمثل :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخِمَ الْوَرْدَ إِنْ غَدَتْ * كَتَأْتُبُنَا فِي مَازِقِ الْحَرْبِ مُنْطَرِ
فقال أمرؤ القيس لا والله ! ولكن أستعذبه ، فرويدا ينفرج لك دُجَاهَا عَنْ
فُرْسَانِ كِنْدَةَ وَكَتَّابِ حِمِيرٍ . ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى إذ كنت نازلا بربي ،
ولكنك قلت فأوجبت .

فقال قيصة مايتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب ، فقال أمرؤ القيس هو ذاك .
قال في : ” المثل السائر “ فيُنظر إلى هذا الكلام من الرجلين : قيصة وأمرؤ
القيس حتى يدع المتعمقون تعمقهم في استعمال الوحش من الألفاظ . فإن هذا
الكلام قد كان في الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك هو كلام كل
فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشئ . قال : وهذا المشار إليه هاهنا
هو من جزل كلامهم ، وهو على ما تراه من السلاسة والعدوبة ، وإذا تصفحت
أشعارهم أيضا وجدت الوحش من الألفاظ قليلا بالنسبة إلى المسلسل في القم
والسمع ، وعلى هذا المنهج في الجزالة والسهولة يجري من النظم قول أمرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ، * كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلَ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِجِدِّ مُؤَثِّلٍ * وَقَدْ يُدْرِكُ الْحَبْدَ الْمُؤَثِّلُ أَمْثَالِي

فأنظر إلى هذين البيتين ليس فيهما لفظة غريبة ، ولا كره مع ما فيهما من الجزالة
وكذلك أبيات السموعل المشهورة وهي .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدَسَّ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ * فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَأِنْ هُوَ لَمْ يَجَلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمًا ، * فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تَعَيَّرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا * فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلُ
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا * عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا * وَتَكْرَهُهُ أَجَاهُكُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ * وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِيقٍ * بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ أَنْ لَا تُسَلَّ نِصَالُهَا * فَتَغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَيْلُ

فإذا نظرت ماتضمتته هذه الأبيات من الجزالة، خلّتها زُبراً من الحديد مع ماهى
عليه من السهولة والعُدوبة وأنها غير فُظّة، ولا غليظة . وقد ورد للعرب في جانب
الرقة من الأشعار ما يكاد تدوب لرِقته القلوب : كقول عروة بن أذينة :

إِنِ اتَّتِي زَعَمْتَ فَوَادَكَ مَلَّهَا * خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقَتْ هَوَى لَهَا
بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النِّعَمُ فَصَاغَهَا * بَلْبَاقَةٍ فَادَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : * مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَبَهَا !
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةٍ * شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ فَسَلَّهَا
وقول يزيد بن الطُّثَرِيَّةِ في محبوبته من بنى حَرَم .

بَنَفْسِي مِنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ * عَلَى كَيْدِي، كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ

وإذا كان هذا قول ساكن الفلّة، لا يرى إلا شيعة أوقيصومة ولا يأكل إلا
ضبا أو يربوعاً، فما بَالُ قَوْمِ سَكَنُوا الْحَضَرَ، ووجدوا رِقّة العيش يتعاطونَ وَحْشِيَّ
الأنفاسِ وَشِظَفَ العبارات ؟ ولا يُجِلِّدُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ بِأَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ ،
أَوْ عَاجِزٌ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِهَا ، فَإِنْ كُلُّ أَحَدٍ مِمَّنْ حَصَلَ عَلَى نَبَذَةٍ مِنْ عِلْمِ الْأَدَبِ
يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْوَحْشِيِّ مِنَ الْكَلَامِ ، إِمَّا بِأَنْ يُلْقِطَهُ مِنْ كِتَابِ اللُّغَةِ ، أَوْ يَتَلَقَّه
مِنْ أَرْبَابِهَا . وَأَمَّا الْفَصِيحُ الْمُتَمَيِّزُ بِصِفَةِ الْمَلَاةِ ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَّرَ عَلَيْهِ
لَمَا عِلْمُ أَيْنَ يَضَعُ يَدَهُ فِي تَأْلِيفِهِ وَسَبْكِهِ .

قال : وإن ماري في ذلك مُمارٍ، فلينظر إلى أشعار علماء الأدب من كان يُشار إليه حتى يعلم صحة ذلك ؛ فإن ابن دريد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب وإذا نظرت إلى شعره، وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين مُنحطاً، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُسْرَ مَعْشَار ما علمه ، وأين شعره من شعر العباس ابن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشعراء المُحدثين ، وشعره كثر نسيم على عَذَبَات أغصان ، أو كؤلؤات طلل على طُرر رِيحَان ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلى استخراجها من كتاب من كتب اللغة ، كقوله :

وإني ليرضيني قليل نوالكم * وإن كنت لأَرْضى لكم بقليل
بحُرْمَةٍ ما قد كان بِنِي وبينكم * من الودِّ إلا عُدُّهُم بِجَمِيل
وقوله في محبوبته فَوْز :

يا فَوْزُ يا مُنِيَّةَ عَبَّاس * قلبي يُفدِّي قلبك القاسي
أَسأتُ إذ أَحسنتُ ظَنِّي بكم * والحَزْمُ سُوءُ الظنِّ بالناسِ
يُقَلِّقُنِي شَوْقِي فَأَتِيكُمْ * والقلبُ مملوءٌ من الياسِ

وهل أعذب من هذه الأبيات ؟ وأعلق بالباطر، وأسرى في السمع ؟ ومثلها تسهر راقدات الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوايق عند الرِّهان ؛ ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سَهْلَةٌ وَغَرَّةٌ ، قريبة بعيدة ؟ . وقد كان أبو العتاهية أيضاً في غُرَّة الدولة العباسية ، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيراً ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري ، رَقَّةً أَلْفَاظٍ ، وَلَطَافَةً سَبْكٍ ، وليس بريك ولا واه ، وأنظر إلى قصيدته التي يمدح بها المهديّ ويشبب بجاريتته عتب وهي :

أَلَا مَا لِسَيِّدَتِي مَا هَا * تُدِلُّ ، فَأَحْسِلُ إِذْ لَدَا

ألا إن جاريةً للإِما * م قد أُسْكِنَ الحُسْنَ سِرْبَاهَا
لقد أَتَعَبَ اللهُ قَلْبِي بِهَا * وَأَتَعَبَ فِي اللَّوْمِ عُدَاهَا
كَأَنَّ بَعِيْنِي فِي حَيْثُ مَا * سَلَكَتْ مِنَ الْأَرْضِ تِمَثَلَهَا
فلما وصل إلى المديح قال من جملة :

أَنْتَ الْخَلَافَةُ مُنْقَادَةٌ * إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَاهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ * وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ * لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطْعَمْ نَبَاتُ الْقُلُوبِ * لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا

فهذه الأبيات من أرق الشعر غزلاً ومديحاً، وقد أذن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر، وهي على ما ترى من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات، حتى قال بشارٌ عند سماع المهدي لها من أبي العتاهية : ”انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده“ يريد هل زال عن سرير طربها بهذا المديح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نواس في السهولة والسلاسة والرقّة ، ولذلك قدّم على شعراء عصره مع ما فيه من فحول الشعراء ومفلقهم كمسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقّة شعره وسهولته : كقوله في محبوبته جنان :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَقْنَيْتُ عُمرِي * بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبِهَا عِيسِرِ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبَبًا إِلَيْهَا * يُقَرِّبُنِي وَأَعِينِي الْأُمُورِ
حَجَجْتُ وَقُلْتُ : قَدْ حَجَجْتُ جَنَانَ * فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرِ

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة، وكذلك سائر شعره، وكان هو وأبو العتاهية كأنما يُنفقان من كيس واحد . ومن لطيف ما يحكى في توافّق طريقتهما

وأتحد مأخذهما أن أبا نُوَاس جلس يوماً إلى بعض التجَّار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى أبو نُوَاس ماءً فلما شرب قال :

* عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

ثم قال : أجزوه ، فأخذ أولئك الشعراء يترددون في إجازته وإذا هم بأبي العتاهية مجتازا فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وَكَيْتَ وقد قال أبو نُوَاس :

* عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية مجيزاً له :

* حَبَّدَا الْمَاءَ شَرَابَا *

فَعَجِبُوا لقوله على الفور من غير تلبث ، فهذا هو الكلام السهل المتنع تراه يُطْمَعُ أن تأتي بمثله ، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب ، وهكذا ينبغي أن يكون مَنْ خاض في كتابة أو شعر ، فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن .

ومن النثر قول سعيد بن حميد : وأنا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرميه ، ولا يستدعي رِّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ ، وَلَا يَسْتَعِطُّكَ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِالذَّنْبِ ؛ وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِالْاعْتِرَافِ بِالْجُرْمِ ، نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ الْحَدَاثَةِ ، وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ الْحُنُكَةُ ، وَبَاعَدَتْْنِي مِنْكَ الثِّقَةُ بِالْأَيَّامِ ، وَقَادَتْْنِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبَلَ الصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ الْعُدْرِ ، وَتَجَدَّدَ النِّعْمَةُ بِاطِّرَاحِ الْحِفْدِ ، فَإِنَّ قَدِيمَ الْحُرْمَةِ وَحْدِيَّتِ التَّوْبَةِ يَحَقِّقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِسَاءَةِ ، وَإِنْ أَيَّامَ الْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةُ ، وَالْمُنْتَعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةً ، فَعَلَّتْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فانظر إلى قوَّة هذا الكلام في سهولته ، وقُرْب مأخذه مع بُعد تناوله والإتيان بمشاكله . وأجزل منه مع السهولة قول الشعبي للمجاج ، وأراد قتله لخروجه عليه

مع ابن الأشعث : "أجذب بنا الجَنَابُ، وأحزنَ بنا المَترَل، فاستَحَلَسْنَا الحَدَرَ،
واكتَحَلْنَا السهرَ، وأصابَتْنَا فتنةٌ لم تكن فيها بَرَّةٌ أتقياء، ولا فِجْرَةٌ أقوياء" فغفا عنه .
قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يَسْتَجِيدُونَ الكلامَ
إذا لم يَقِفُوا على معناه إلا بِكَدٍّ ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كَرَّةً غليظة ،
وجاسيَّةً غريبة ، ويستحقرون الكلام إذا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا ، وسهلاً حُلُوًّا ، ولم يعلموا
أن السهل أَمْنٌ جانبا ، وأَعَزُّ مطلبًا ، وهو أحسن موقعًا ، وأعذب مُسْتَمَعًا ، ولهذا
قيل "أجود الكلام السَّهْلُ المَتَنِعُ" وكان المَفْضَلُ يختار من الشعر ما يَقلُّ تداول الرواة
له ، ويكثر الغريب فيه . قال العسكرى : وهذا خطأ في الاختيار : لأن الغريب
لم يكثر في كلام إلا أفسده ، وفيه دِلَالَةٌ على الاستكراه والتكلف .

ووصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة فقال : هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته
أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كُتُبِهِ ، فإذا رامها ، تعذرت عليه ،
وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال ذلك
عِىٌّ في زمانى ، وَتَكَلَّفُ منى لو قاتله ، وقد رُزقت طبعًا وآتساعًا في الكلام ، فأنا
أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير ، ثم أنشدنى :

أيا ربَّ إِنِّى لم أُرِدْ بالذى به * مدَحْتُ عَلِيًّا غيرَ وجهك فارحم

قال فى الصناعتين : فهذا كلامٌ عاقل يَضَعُ الكلام موضعه ، ويستعمله فى إبانته .
ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعانى رَفَقٌ ، والتشادق فى غير أهله نقص ،
والنظر فى وجوه الناس عِىٌّ ، ومس اللحية هُلْكٌ ، والاستعانة بالغريب عَجْزٌ ، والخروج
عما بُنِيَ عليه الكلام إسهابٌ ، فأجود الكلام ما كان جَرَلًا سهلاً ، لا يَنَغْلِقُ معناه ،
ولا يَسْتَبْهِمُ مَغْزاه ، ولا يكون مكدودًا مستكْرَهًا ، ومتوعرًا مُتَقَعَّرًا ، ويكون بريثًا من

الغثاثة، عاريا من الرثاثة، فالكلام إذا كان لفظه غثا، ومعرّضه رثا، كان مردودا، ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله. قال في "المثل السائر": أما البداوة والعنجهية، فتلك أمة قد خلت، ومع أنها قد خلت وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيّنت على استعمالها في ذلك الوقت فكيف الآن، وقد غلب على الناس رقة الحضر؟

الصنف الثاني

(الغريب المتوحش عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الاستعمال في الزمن الاول ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمى الوحشي الغليظ، والعكر، والمتوعّر وهو على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(ما يعاب استعماله في النظم والنثر جميعا)

قال في "المثل السائر": والناس في قبح استعماله سواء، لا يختلف فيه عمر في باد، ولا قروي متحضر. قال : وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلا، وهو ما محه سمعك، ونبا عنه لسانك، وثقل عليك النطق به، على أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المفلّحين من العرب والمحدثين. فمن ذلك لفظ الجحيش في قول تأبط شرا من أبيات الحماسة :

يَظَلُّ يَوْمًا وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا * جَحِيشًا وَيَعْرَوِي ظُهُورَ الْمَسَالِكِ

فإن لفظة جَحِيش من الألفاظ المنكرة القبيحة، قال في "المثل السائر" : وبالله العجب ! أليس أنها بمعنى فريد ؟ وفريد لفظة حسنة راقية لو وضعت في هذا البيت موضع جَحِيش لما أختل شيء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما استعماله القبيح، والثاني أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها؛ وأقبح من ذلك لفظ أطلَحَم في قول أبي تمام :

قد قلت لما أطلَحَم الأمر وأنبعثت * عشواء تالية غبسا دهاريسا

فإن لفظة أطلَحَم من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة ، وأنها غليظة في السمع ، كرية على الذوق ؛ وكذلك لفظة دهاريس في آخر البيت المذكور .

وعلى حد ذلك ورد لفظ جَيدر في قوله من أبيات في وصف فرس :

نعم متاع الدنيا حباك به * أزوع لجيدر ولا جبس

لفظة جيدر وحشية غليظة ؛ وأغاظ منها لفظة جَفَخَتْ في قول أبي الطيب المتنبي :

جَفَخَتْ وهم لا يَحْفَخُون بها بهم * شيم على الحسب الأغر دلائل

فإن لفظة جَفَخَ مرّة الطعم ، وإذا مرّت على السمع أقشعرّ منها ، وكان له مندوحة عن استعمالها فإن جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ وَيَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ وَيَحْفَخُونَ، لاستقام وزن البيت وحطّي في استعماله بالأحسن، فهو في ذلك كتاباً شراً في لفظة جَحِيش في توجه الملامة عليه من وجهين .

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء ؟

هذا ما أورده ابن الأثير من هذا النوع ؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقَلَد

في قول زهير :

تقي تقي لم يُككّر غنيمَةً * بنهكة ذي قربي ولا يحقّله

وَالْحَقْلَدُ السَّيِّءُ الْخَلْقُ^(١). قال في "الصناعتين": وقد أخذ الرواة على زُهَيْرٍ في لفظة الْحَقْلَدِ فاستبشعوها، وقالوا: ليس في لفظ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهَا، وكذلك لفظ الْجَرِشِيِّ في قول أبي الطَّيِّبِ في مدح سيف الدولة بن حمدان وأسمه عليّ:

مُبَارَكُ الْأَسْمِ أَغْرَ اللَّقَبِ * كَرِيمُ الْجَرِشِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ

فلفظ الجَرِشِيِّ مما يكرهه السمع، وينبو عنه اللسان، والجَرِشِيُّ بمعنى النَّفْسِ فجعل أسمه مباركا، ولقبه أغرّ، ونفسه كريمة، ونسبه شريفا، وذلك أنه كان يسمى عليّاً وهو أسم مبارك لمواقفة أسم أمير المؤمنين: عليّ كرم الله وجهه ويلقب سيف الدولة وهو لقب أعرابي مشهور، وأغرّ أخذاً من غرّة الفرس لأنها أشهر ما فيها، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحَسَبِ والعَرِاقَةِ، وإما باعتبار بَذَلِ المال وكثرة العطاء، وأشار إلى شرف نسبه باعتبار عَرِاقَتِهِ في بيت الملك وعَرِاقَةِ حَسَبِهِ.

الضرب الثاني

(ما يعاب استعماله في النثر دون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه استخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولاً غيره. قال: وهذا ينكره مَنْ يسمعه حتّى ينتهى إلى ما أوردته من الأمثلة، ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منه أمثلة.

منها لفظ شَرْنَبْثَةٍ من قول الفرزدق:

ولولا حيَاءُ، زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَةً * إِذَا سُرِيتَ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي
شَرْنَبْثَةً شَمَطَاءَ مَنْ يَرِ مَايَهَا * يُشَبِّهُ وَلَوْ بَيْنَ الْخُمَاسِيِّ وَالطُّفْلِ

(١) في القاموس: «الحقْلَدُ في قول زهير الاثم» ومثله في لسان العرب.

قال : فلفظة شَرَبْتَهُ من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت في كلام منشور من كتاب أو خطبة ، لعبت على استعمالها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٌ الواردة في أبياتٍ شُيِّرَ في وصفه لقاء الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المَهْنَدَ عن يميني * فَقَدَّ لَهُ من الأضلاع عَشْرًا

فَخَرَّ مُضْرَجًا بِدَمٍ كَأَنِّي * هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءَ مُشْمَخِرًا

وكذلك في قول البُحَيْرِيِّ في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى :

مُشْمَخِرٌ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ * رُفِعَتْ فِي رُءُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

فإن لفظة مُشْمَخِرٌ لا يحسن استعمالها في الخطب والماكتبات ، ولا بأس بها في الشعر ؛ وقد وردت في حُطْبِ الشيخ الخطيب ابن بُنَاتَةَ كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : أَقْمَطَرُ وَبَالُهَا ، وَأَشْمَخِرَ نَكَالُهَا ، فما طابت ولا ساءت .

ومنها لفظة الكَنُورِ من أوصاف السحاب كقول أبي الطَّيِّب :

يَا لَيْتَ بَاكِئَةً تَبْجَانِي دَمْعُهَا * نَظَرْتُ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ فَتَعْدِرَا

وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسُ تُشْرِقُ وَالسَّحَابُ كَنُورًا

فلفظة الكَنُورِ لا تعاب نظماً ، وتعاب نثراً .

ومنها لفظة العَرِمِيس ، وهو اسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها في الشعر ولا يعاب استعمالها كقول المتنبي :

وَمَهْمَهُ جَبْتُهُ عَلَى قَدَمِي * تَعِجْزُ عَنْهُ الْعَرَامِيسُ الدُّلُكُ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ، ولو استعملت في الكلام المنشور من

الخطب لما طابت ولا ساغت ؛ وقد جاءت مُوحَّدة في شعر أبي تمام في قوله :
 هي العِرمُسُ الوجناء وابنِ مُلمَّةٍ * وجأشُ على ما يُجِدُّ الدهرُ خافِضُ
 ومنها لفظة الشَّدنيَّة في قول أبي تمام أيضا .

* يَأْمُوعُ الشَّدنيَّة الوجناء *

وهي ضرب من التوق ، فإن الشَّدنيَّة لاتعاب شعرا وتعاب لو وردت في كتابة
 أو خطبة . هذا ما أورده في "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال :
 وهكذا يجرى الحكم في أمثال هذه الألفاظ ؛ وعلى هذا فأعلم أن كل ما يسوغ استعماله
 في الكلام المشثور يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله
 في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المشثور . قال : وذلك شيء استنبطته
 وأطلعت عليه لكثرة ممارستي هذا الفن ، ولأن الذوق الذي عندي دأبني عليه ،
 فمن شاء أن يقلدني فيه ، وإلا فليدمن النظر حتى يطلع على ما أطلعت عليه .
 والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت ، على أن الشيخ سعد الدين التفتازاني رحمه الله
 قد تابعه على ذلك في شرح التلخيص فلا أعلم أقلده في ذلك أم ذوقه أداه إليه ؟ .

الضرب الثالث

(ما يعاب استعماله بصيغة دون صيغة)

قال في "المثل السائر" : وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليَّة ، ومكانة شريفة ،
 وجُلُّ الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مدَّعي فنِّ الفصاحة
 وفأوضتهم وفأوضوني ، وسألتهم وسألوني ، فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا
 الموضوع كما ينبغي ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أَسْبِقَ إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنتقل من هيئة إلى هيئة، أو من صفة إلى صفة، فنتقل من القُبْح إلى الحُسْن وبالعكس فيصير القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، والمرجع في ذلك إلى الذوق الصحيح والطبع السليم؛ وقد نبه منه على تسعة أنماط .

النمط الأول - ما يرجع فيه الاسم في الاستعمال على الفعل، وذلك في مثل لفظ خَوْدٌ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلى صيغة الفعل، قيل خَوْدٌ على وزن فَعَلٍ بتشديد العين ومعناها أسرع . يقال : خَوْدُ البعير إذا أسرع في مشيه، فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة، قد وردت في النظم والنثر كثيراً، وإذا جاءت على صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبي تمام :

وإلى بنى عبد الكريم تَوَاهَقَتْ * رَتَكَ النِّعَامِ رَأَى الطَّرِيقُ فَخَوْدًا^(١)

إلا أن لفظة خَوْدٌ قد استعملت على غير هذا الوجه في بعض المواضع فزال عنها بعض القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوْدٌ رَأُّهَا : * رُوَيْدِكَ لَمَّا تُشْفِقِي حِينَ مَشْفَقِي

رُوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَجَلِي * عَمَايَةُ هَذَا الْعَارِضِ الْمُنَالِقِ

والرَّأُّ النِّعَامُ، والمراد أن نفسه فزت وفزعت، شبه بإسراع النعام في فراره وفزعه فلما أورد ذلك على سبيل المجاز، زال بعض القبح . قال : وهذا يدركه الذوق الصحيح فهي في بيت أبي تمام قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بينَ بينَ، ويقاس على ذلك أشباهه ونظائره .

النمط الثاني - ما يرجع فيه فعل الأمر والمستقبل في الاستعمال على الفعل الماضي وذلك في مثل لفظة وَدَّعَ، وهي فعل ماضٍ ثلاثي لا يُنْقَلُ بها على اللسان، ومع ذلك

(١) في المثل السائر . الظلام . وكذا في ديوان أبي تمام .

فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مُستَحْسَنَةٍ، فإذا استعملت على صيغة الأمر أو الاستقبال، جاءت حسنة بهجة رائقة، أما على صيغة الأمر فكما في قوله تعالى: "فَذَرَهُمْ ^(لَوْ) يَخْوَضُوا وَيَلْعَبُوا"، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة، وأما على صيغة الاستقبال فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم، فقال: "لَوْ مُدَّتْ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصِلْنَا وَصَالًا يَدْعُ لَهُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمِّقَهُمْ" وقد استعملها أبو الطَّيِّب على هذا الوجه في قوله:

تَسْقُمُ بِقَنَاهَا كُلَّ سَاهِيَةٍ * وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ

جاءت في كلامه بهجة رائقة، وأما الماضي من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذًا ولا حُسْنَ له، كقول أبي العتاهية:

أَثَرُوا فَلَمْ يَدْخُلُوا قُبُورَهُمْ * شَيْئًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا

وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ * أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الَّذِي وَدَعُوا

فلم تقع في كلامه من الحسن موقعًا، ولا أصابت من الطَّلَاوة غَرْصًا، وهذه لفظة واحدة لم يتغير شيء من أحوالها سوى أنها نقات من صيغة إلى صيغة؛ وكذلك لفظة وَذَرَ فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: "ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا"، وتستعمل مستقبلية أيضًا كقوله تعالى: "سَأُصْلِيهِ سَقَرًا وَمَا أُدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ"، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين؛ وكذلك في غير القرآن الكريم من فصيح الكلام، أما في حالة الماضي، فإنها أقبح من لفظة وَدَعَ، وقد استعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلاً.

الخط الثالث - ما يرجع فيه الأفراد في الاستعمال على التثنية، وذلك في مثل لفظ

(١) كان عليه أن يمثل بقوله تعالى: "وَدَعَ أَذَاهُمْ".

الْأَخْدَعُ ، فإنها يحسن استعمالها في حالة الأفراد دون التثنية ؛ فمما وردت فيه مفردة بجاءت حسنة رائعة ، قول الصِّمَّةِ بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَقَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي * وَجِئْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا

ومما ورد فيه لفظ التثنية بجاء ثقيلا مستكرها قول أبي تمام :

يَادَهُرُ قَوْمٌ مِنْ أَخْدَعِكَ فَقَدْ * أَصْجَحْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرُقِكَ

هكذا ذكره في المثل السائر ، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما فَحَسُنَتْ ، وجاءت مشناة في الآخر فَبُجِحَتْ .

النمط الرابع - ما يرجع فيه الأفراد في الاستعمال على الجمع ، وذلك كلفظة الأرض فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة ، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله تعالى : ” وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا “ أو قرنت بالسماء مفردة كما في قوله تعالى : ” وَيُمِسُّكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ “ أو مجموعة كما في قوله تعالى : ” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ “ ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنًا ، لكان هذا الموضع وشبهه به أليق لمقابلة الجمع في السموات ، ولما أراد أن يأتي بها مجموعة قال : ” اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ “ وكذلك لفظة البُقعة ، وكذلك لفظة طَيْفٌ في ذكر طَيْفِ الخيال ، فإنها تجمع على طُيُوفٍ ، وهي في حالة الأفراد من أَرْقِ الأنفاس والطفها ؛ فإذا جمعت زالت عنها تلك الطَّلَاوة ، وفارقتها تلك البَهْجَةُ ، ولذلك وردت في القرآن الكريم بلفظ الأفراد قال تعالى : ” إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ “ . ولم تزل الشعراء في القديم والحديث يستعملونه بلفظ الأفراد فيقع أحسن موقع ، ولم يلبسوا باستعماله مجموعا ، قال في المثل السائر : ويالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

عدّة ووزنا، وهى ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق، قال: وهذا مما لا يُعلم السرّ فيه، والدّوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراهما، وكذلك يجرى الحكم فى جميع المصادر، فإنها فى حالة الإفراد أحسن منها فى حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة بجاءت غنة مستكرهة، كما فى قول عنتره:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفِتْ عَلَيْهِ * وَإِنْ يَفْقِدْ فَحَقَّ لَهُ الْفُقُودُ

فالفقود جمع مصدر من قولنا: فقد يفقد فقدا، وليس له من الرونق والطلاوة ما لمفرده، وهو لفظ فقّد، وإن كان جائزا من جهة العربية.

النمط الخامس - ما يترجح فيه الجمع فى الاستعمال على الإفراد كلفظة اللبّ الذى هو العقل، فإن استعمالها بصيغة الجمع فى غاية الحسن والبهجة والطلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة فى غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: "وَلَيَنْتَذِرَنَّ أُولُو الْأَلْبَابِ" وقوله: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" إلى غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصيغة الجمع، أما فى حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة على النطق، بعيدة المخارج، ليست بمستثقلة ولا مكروهة، قال فى المثل السائر: وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر فى رموزه وأسراره، وجدت هذه اللفظة قد روى فيها الجمع دون الإفراد فإن أضيفت أو أضيف إليها، حسن استعمالها، وساغ فى طريق الفصاحة إيرادها. أما إضافتها فكقول النبي صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء: "مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِّلْبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَامَعْشَرَ النِّسَاءِ" وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَا، ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ * وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنَّهَا

قال في المثل السائر : فإن عَرِيت هذه اللفظة عن الجمع والإضافة ، لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق السليم ، وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة ، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حالة الإفراد ، فإن الجمع فيها أحسن . وأنظر إلى ما عليها من الطلاوة والمائية في قوله تعالى : ” يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ” وعلى هذا النحو لفظ رجًا بالقصر ، ومعناه الجانب ، فإنها قد وردت في القرآن بلفظ الجمع في قوله تعالى : ” وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ” أى جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يُكسبها من الحسن ما لم يوجد لها حالة الإفراد ، فإن أضيفت حالة الإفراد كرجا البئر ونحوه ، حسنت كما في حالة الجمع . قال في المثل السائر : وليس كذلك لفظ الصُوف والأصواف ، وإن كان لم يرد في القرآن الكريم إلا مجموعا حيث قال تعالى : ” وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ” لأن لفظ الصوف مستحسن في حالة الإفراد كما في حالة الجمع . قال : وإنما قبح ذكره في قول أبي تمام :

كَانُوا بُرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا * فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفًا

لأنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان . قال : وعلى هذا النهج وردت لفظة حبر وأحبار فإنها مجموعة أحسن منها مفردة ، ولم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة .

المنط السادس - ما يترجح فيه بعض المجموع في الاستعمال على بعض كما في جمع صائب من قولك : سهم صائب ، فإنه يقال في الجمع سهام صوائب وصائبات وصيب بالتشديد ، وهذه المجموع كلها حسنة ، رائقة ، معجبة ، دائرة على أسنة أرباب الثروالنظم ، ويقال في جمعه أيضا صيب على وزن كُتِبَ ، وهو جمع قبيح ،

مرفوض الاستعمال، ثقیل علی النطق، جاف عن السمع، وقد استعمله أبو نؤاس
فی شعره حیث قال :

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعْتُ * عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةُ فِي

قَتَلَتْ إِنْسَانًا كَيْدِي * بِسَهَامٍ لِلرَّدَى صُيْبِ

جاءت غنة كريمة نابية عن السمع، نافرة عن اللسان؛ وكذلك الجمع في قيد،
فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، سائغ الاستعمال؛ ويقال في جمعه أيضا
أقياد، وهو من الجروع المستكرهة الخارجة عن الاستعمال، وقد ورد في قول عوف
القوافي من أبيات الحماسة :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يَحْسُ رُقَادُ * مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ الْعَوَادُ

لَمَّا أَتَانِي مِنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ * أَمْسَتْ عَلَيْهِ تُظَاهِرُ الْأَقْيَادُ

فلم يحسن ولم يرق، وكذلك القول في جمع قبة، فإنه يجمع على قباب وهو جمع
حسن دائر على ألسنة الفصحاء من أهل النظم والنثر، ويجمع أيضا على قُبَب،
وليس بمستحسن، وإن كان هو في الكراهة دون أقياد في جمع قيد، وقد استعمله
أبن محكان التميمي في قوله :

مَاذَا تَرَيْنَ أَتَدْنِيهِمْ لِأَرْحَانَا * فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنَى لَهُمْ قُبَا؟

فلم يحسن كحسن قباب بل جاءت كريمة مستشعة؛ وأعجب ما في هذا الباب
أن الجمع قد يكون متفقا في لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاستعمال
في الجمع باختلاف المعاني حتى لو جىء بجمع في مكان لم يحسن استعماله وإن
كان جائزا من جهة العربية : كلفظ العين، فإنها تطلق من جملة مدلولاتها
على العين الباصرة، والعين من الناس، وهو النبيه منهم، والعين الباصرة تجمع على

عيون، والعين من الناس تجمع على أعيان، وقد شذ هذا الموضع على المتنبي في قوله :
وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ * وَالْخَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبْلُ

بجمع العين الباصرة على أعيان في الموضعين، قال في "المثل السائر": وكانت الذوق
يأبى ذلك ولا يجد له على اللسان حلاوة وإن كان جائزاً، وأعجب من ذلك كله أنك
ترى وزناً واحداً من الألفاظ، فتارة تجد مفردة حسناً، وتارة تجد جمعه حسناً،
وتارة تجدهما جميعاً حسنين .

فما مفردة أحسن من جمعه خبرور : وهو قَرُخُ الْحَبَّارِ، فإنه يجمع على حَبَّارٍ
ومفردة أحسن من جمعه، وكذلك طُنْبُورٌ وَطُنَّابِيرٌ، وَعُرْقُوبٌ وَعِرَاقِيبٌ، وما
أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفردة بَهْلُولٌ وَبَهَّالِيلٌ، وَلُحْمُومٌ وَلُحَامِيمٌ، وهذا ضد الأول .
ومما مفردة حسن وجمعه حسن جَهْهُورٌ وَجَاهِيرٌ، وَعِرَّاجُونٌ وَعِرَّاجِينٌ وما
أشبه ذلك .

النمط السابع - ما يترجح فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون
كلفظ الثالث والرابع إلى العشر، فإنها في حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال
فإذا تحركت أوساطها قلت ثُلُثٌ، وَرُبُعٌ، وَخُمْسٌ وكذلك إلى عَشْرٍ، فإن الحسن
من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثُلُثُ، والخُمْسُ، والسُّدُسُ أما الربعُ، والسَّبْعُ، والثَّمَنُ،
والتَّسْعُ، والعَشْرُ فليس كذلك في حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك في السَّبْعِ، والتَّسْعِ،
والعَشْرِ خاصة فإن الثَّقَلَ ظاهر فيها، أما الربعُ والثَّمَنُ فانهما في الحسن مع تحريك
الوسط كالثُلُثِ، والخُمْسِ، والسُّدُسِ، وقد ورد القرآن بتحريك الوسط فيهما في سورة
النساء حيث قال تعالى : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ

لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكْنِ” وقوله: ”وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَالْهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ“ وأى حُسن وفصاحة بعد وروده في القرآن الكريم ؟

النمط الثامن - ما يترجح فيه أبنية بعض أسماء الفاعلين في الاستعمال على بعض كاسم الفاعل المبني من فَعَلَ بفتح الفاء وكسر العين، فإنه يبنى على فاعل وفعل بكسر العين وفعلان نحو حَمِدَ فهو حامد ، وَحَمِدَ ، وَحَمَدَانُ ، وَفَرِحَ فهو فَرِحٌ ، وفارح ، وفرحانٌ ، وَغَضِبَ فهو غَضِبَانٌ ، وغاضب ، فالأفعال الثلاثة على وزن واحد، وصيغُ أسماء الفاعلين المبنية منها مختلفة في الأحسن الغالب استعماله ، فحامد من حَمِدَ أحسن من حَمِدٍ وَحَمَدَانٍ ، وَفَرِحٌ من فَرِحَ أحسن من فارح وفرحان ، وغضبان من غَضِبَ أحسن من غاضب ، وإن كان جائزاً ؛ وقد جاء بناء اسم الفاعل من فَرِحَ على فارح في قول بعض شعراء الحماسة :

فما أنا من حُرَيْنٍ وإن جَلَّ جَارِعٌ * وَلَا يَسُرُّوهُ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

فلم يحسن كحسن فَرِحَ ، أما ما جاء منه على وزن فَعَلَةٍ نحو هُمَزَةٍ وَلِزَةٍ وَجُحْمَةٍ وَنَوْمَةٍ وَلُكْنَةٍ وَلُحْنَةٍ ، وما أشبه ذلك ، فقد قال في ”المثل السائر“ : الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع - ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وأفتعل فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه : ولفظة أفتعل لها موضع تستعمل فيه ، تقول : قعدت إلى فلان إذا جلست إليه ، وأقعدت غارب الجمل ، إذا ركبت عليه ، ولا يحسن أن تقول أقعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل ، وإن كان ذلك جائزاً ، وكذلك أفعَلْ وأَفْعُوْعَلْ فإنك تقول أَعْشَبَ المكان ، فإذا كثر عُشْبُهُ قلت : أَعْشَوْشَبَ فلفظة أفعول للتكثير، وهى على ما فيها من تكرار الحروف طيبة

عذبة، وكذلك سائر ما في وزننا نحو آخشوشن المكان، وأغر ورقت العين، وأحلولي الطعم، وما أشبه ذلك، قال في "المثل السائر": وهذا كله مما أخذته بالاستقراء، وفي اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن استقصاؤها.

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقد أمثال هذه الكلمات لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها، فكثيرا ما يقع فحول الخطباء والشعراء في مثلها، ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به الألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح، فما يجده الحسن منها موحّدا وحده، وما يجده الحسن منها مجموعا جمعه، وكذلك يجري الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ.

الصنف الثالث

(المتوحش في زمن دون زمن)

وهو ما كان متداول الاستعمال في زمن العرب، ثم رُفِضَ وترك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وحشيا، ولا لديهم غريبا كما سيأتي التنبيه عليه، وإنما يعاب استعماله على غيرهم ممن قَصُرَ فهمهم عنه، وقلّت معرفتهم به، وقد كان كلام العرب مشحونا به في نظمهم ونثرهم، دأرا على ألسنتهم في مخاطباتهم ومحاوراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وانظر إلى ما انضمت به خطبهم وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عيانا؛ فمن ذلك قول أبي المثلّم الهذلي:

أبي الهَضِيمَةِ نَابٍ بِالْعَظِيمَةِ مَتَّـلَافُ الْكَرِيمَةِ جَلَدٌ غَيْرُ ثَلِيانٍ
حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَالُ الْوَدِيقَةِ مَعْتَنَاقُ الْوَسِيقَةِ، لَانِكْسُ وَلَاوَانٍ
رَبَاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَاعُ مَغْلَبَةٍ * وَهَابُ سَلْهَبَةٍ، قَطَاعُ أَقْرَانٍ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَالُ أَلْوِيَةٍ * شَهَادُ أُنْدِيَةٍ سِرْحَانُ فِتْيَانٍ

وقول أعرابي في وصف إبل : كُومٌ بهَّازر ، مُكَّدٌ خَنَاجِر ، عِظَامُ الحَنَاجِر ، سِبَاطُ المَشَافِر ، أَجَوافُهَا رِغَاب ، وَأَعْطَانَهَا رِحَاب ؛ تُنَمَّعُ مِنَ البَهَم ، وتَبْرُكُ لِلْجَمَم . يريد بالكُوم جمع كَوْمَاء ، وهى الناقة العظيمة السَّنام ، والبَهَّازِر جمع بُهْزَرَة : وهى الناقة العظيمة ، والمُكَّد جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والحَنَاجِر جمع خُنْجُور : وهى بمعنى المَكُود أيضا ، والعِظَام الحَنَاجِر غِلَظُ الأَعْنَاق ، وَسِبَاطُ المَشَافِر أى مِرْسَلَات المَشَافِر ، والمِشْفَرُ مِنَ الناقة كَالْحَقْفَلَةِ مِنَ الفرس ؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى وينحرف في هذا السِّلْك ؛ فهذا ومثله لا يعاب أَسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْعَرَبِ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ غَرِيبًا وَلَا لَدَيْهِمْ وَحْشِيًّا ، بَلْ شَاعَا بَيْنَهُمْ ، دَائِرًا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثَرِهِمْ ، وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ لَأَسْتَحْسَانَ أَسْتَعْمَلَهُ عِنْدَهُمْ وَوُضُوحُ مَنَاجِيهِ لَدَيْهِمْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ كَلَامٍ وَأَبْهَجُ لَفْظٍ قَدْ أَشْتَلَّ عَلَى أَلْفَاظٍ مِنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ” وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ “ وقوله : ” إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ “ وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومة المعاني عند المخاطبين : لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَاطَبَهُمْ بِهِ وَأَمَرَهُمْ فِيهِ وَنَهَاهُمْ ، وَالْخُطَابُ بِمَا لَا يُفْهَمُ بَعِيدٌ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ” وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ “ . وكذلك ورد في الأخبار النبوية جملة مستكثرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ” مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تِرَةٌ “ أى نقص ، وقيل تَبِعَةٌ ، وقيل حَسْرَةٌ . وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ” لَيْسَتْ رَجْعُ أَحَدِكُمْ حَتَّى فِي شِسْعٍ نَعْلِهِ فَإِنَّمَا مِنَ الْمَصَائِبِ “ والشَّسْعُ أَحَدُ سِيُورِ النَعْلِ ؛ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” أَلْطُّوْا بِيَاذَا الْجَلَّالَ وَالْإِكْرَامَ “ أى أَلْزِمُوا هَذِهِ الدَّعْوَةَ وَأَكْثَرُوا مِنْهَا . وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعَاءِ : ” وَأَغْسِلْ حَوْتِي وَأَسْأَلُ سَخِيمةَ قَلْبِي “ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ .

وحديث أم زرع صريح في شيوع ذلك فيهم، وعمومه في مخاطباتهم ومكالماتهم؛ وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : "جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَنَعَاهُنَّ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا .

قالت الأولى : زوجي لَمْ يَحِلَّ غَتٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ ، لَسَهْلٌ فَيَتَقَى وَلَا سَمِينٌ فَيَتَّقَى ، وفي رواية فيثقل .

قالت الثانية : زوجي لَا أَبُثُّ خَبْرَهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذْرَهُ ، إِنْ أَذْكُرَهُ أَذْكُرْهُ عَجْرَهُ وَيَجْرَهُ .

قالت الثالثة : زوجي العَشَنُّ ، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقَ ، وَإِنْ أَسْكُتَ أُعْلَقَ .

قالت الرابعة : زوجي كَلِيلُ تِهَامَةٍ ، لَأَحْرٌ وَلَا قُرٌّ وَلَا خَوْفٌ وَلَا سَامَةٌ .

قالت الخامسة : زوجي إِنْ دَخَلَ فَيْهَدَ ، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدَ ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَيْهَدَ .

قالت السادسة : زوجي إِنْ أَكَلَ لَفٌ ، وَإِنْ شَرِبَ أَشْتَفَّ ، وَإِنْ أَضْطَجَعَ أَتَفَّ ، وَلَا يُوجِلُ الْكَفَّ ، لِيَعْلَمَ الْبَثَّ .

قالت السابعة : زوجي عَيَّيَاءُ طَبَاقَاءُ ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ ، شَجَاكِ أَوْ فَلَكَ أَوْ جَمَعَ كُلَّالِكَ .

قالت الثامنة : زوجي الرِّيحُ رِيحُ زَرْبٍ ، وَالْمَسُّ مَسُّ أَرْبَبٍ .

قالت التاسعة : زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ ، طَوِيلُ النَّجَادِ ، عَظِيمُ الرَّمَادِ ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ .

قالت العاشرة : زوجي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ، لَهُ إِبِلٌ قَلِيلَاتُ

الْمَسَارِحِ ، كَثِيرَاتُ الْمُبَارِكِ ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ يَقِنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ .

قالت الحادية عشرة : زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ وَمَا أَبُو زَرْعٍ ؟ أَنَّاسٌ مِنْ حُلِيِّ أَذْنَى ،

وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضُدِي، وَيَجْعَلُنِي فَبَجَعَتْ إِلَى نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غَنِيمَةِ بَشِقٍ،
فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمَتَقٍ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَارْقُدْ نَاتَصِبُ،
وَأَشْرَبُ فَاتَّقَحُ، (وفي رواية فَاتَقَمَحُ) ؛ أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ؟ عَكُومُهَا
رَدَّاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ؟ مَضْجَعُهُ كَسَلٌ شَطْبَةٌ،
وَتَشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْحَفْرِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ
أُمِّهَا، وَمِلُّ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارِيَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ؟
لَا تَلْتُ حَدِيثَنَا تَنْثِيئًا (وفي رواية لَا تَلْتُ حَدِيثَنَا تَنْثِيئًا)، وَلَا تَقْتُ مِيرَتَنَا تَقِيئًا، وَلَا
تَمَلُّ بَيْنَنَا تَعْشِيئًا. قَالَتْ : خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوَطَابُ مُخْصَصٌ، فَلَقِيَ أَمْرَأَةً مَعَهَا
وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَاتَيْنِ فَطَلَقْنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ
بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ سَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيئًا، وَأَرَاخَ عَلَى نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ
رَاحِيَةٍ زَوْجًا، (وفي رواية فَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ ذَاخِيَةٍ زَوْجًا). وَقَالَ : كُلِّي أُمُّ زَرْعٍ وَمِيرِي
أَهْلَكَ ؛ فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آيَةِ أَبِي زَرْعٍ

قَالَتْ عَائِشَةُ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْتُ لَكَ كَأُمِّي زَرْعٍ لَأُمِّ
زَرْعٍ (وفي رواية غَيْرَ أُمِّي لَا أَطْلُقُكَ) .

فَإِذَا كَانَ هَذَا كَلَامَ نِسَائِهِمُ الدَّائِرِيَّاتِ بَيْنَهُنَّ مِنْ مُحَادَثَاتِهِنَّ مَعَ بَعْضُهُنَّ فِي خُلُوتِهِنَّ،
فَمَا ظَنُّكَ بِفُرْسَانِ الْكَلَامِ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثَرِهِمْ ؟ فَإِنَّهُ يُعَاقِبُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَيُنْكَرُ عَلَيْهِمُ
الْإِتْيَانُ بِمِثْلِهِ ؟

وَقَدْ اخْتَصَمَ رَجُلٌ وَأَمْرَأَةٌ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَارِ التَّابِعِينَ وَجِلَّتِهِمْ،
فَقَالَ لِلرَّجُلِ : أَلَا سَأَلْتُكَ ثَمَنَ شُكْرِيهَا وَشُبْرُكِ، أَنْشَأْتَ تَطْلُهَا وَتَضْمَلُهَا ؟ أَمَا غَيْرُ
العَرَبِ مِنْ تَكْلَفِ ذَلِكَ وَأَتَى بِهِ فِي كَلَامِهِ الْمَعْتَادِ فِي مَخَاطَبَاتِهِ أَوْ نَثَرِهِ وَنَظْمِهِ فَإِنَّهُ
يُعَاقِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَيَنْحَطُّ بِهِ عَنْ دَرَجَةِ الْفَصَاحَةِ، وَيُخْرِجُ بِهِ عَنْ قَانُونِهَا ؛ إِذَا

المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كل أحد بما يفهمه ولا يكلف بما لا يعلمه ، وخير الكلام ما جاد وأفاد . قال بشر بن المعتمر : إياك والتوَعَّرَ ، فإنه يُسَلِّمُكَ إلى التعميد والتقييد ، وهو الذى يستهلك معانيك ، ويمسك مراميك .

قال أبو هلال العسكري : وربما غلب سوء الرأى وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السُّوقِ ، والمملوك والأعجمي ، بألفاظ أهل نجد ، ومعانى أهل السَّراة ، وحكاياتهم في ذلك كثيرة . قال أبو نصر الجوهري : سقط عيسى بن عمر عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : مَا لَكُمْ تَكَكَّأْتُمْ عَلَى تَكَكُّوْكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ؟ افْرِقُوا عَنِّي . أى مالكم اجتمعتم على اجتماعكم على ذى جنة ففرقوا عني . وذكر الجاحظ هذه الحكاية عن أبى علقمة النحوى بزيادة فقال : مر أبو علقمة ببعض طُرُق البصرة فهاجت به مِرَّةٌ فوثب عليه قوم يَعْضُونَ إِبْهَامَهُ وَيُؤْذِنُونَ فِي أُذُنِهِ ، فَأَقْلَّتْ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَقَالَ : مَا لَكُمْ تَكَكَّأْتُمْ عَلَى تَكَكُّدُونِ عَلَى ذِي جِنَّةٍ افْرِقُوا عَنِّي . فقال بعضهم : دَعُوهُ فَإِنْ شَيْطَانُهُ يَتَكَلَّمُ بِالْهِنْدِيَّةِ .

وقال أبو علقمة يوما لحاجه : أَشْدُدْ قَصَبَ الْأَهْأَزَمِ ، وَأَرْهِفْ ظُبَاتِ الْمَشَارِطِ ، وَأَمِّرِ الْمَسْحَ ، وَأَسْتَنْجِلِ الرَّثْعَ ، وَخَفِّفِ الْوِطْعَ ، وَعَجِّلِ التَّرْعَ ، وَلَا تُكْرِهَنَّ أَيْيَا ، وَلَا تَرْدَنَّ أَيْيَا ، فقال له الحَجَّامُ : ليس لى علم بالحروف .

ونظر إليه رجل وتحتته بغل مِصْرِيَّ حَسَنَ الْمَنْظَرِ ، فقال : إِنْ كَانَ مَحْبَرُ هَذَا الْبَغْلِ كَمَنْظَرِهِ فَقَدْ كَلَّ ! فقال أبو علقمة : وَاللَّهِ لَقَدْ خَرَجْتُ عَلَيْهِ مِنْ مِصْرَ فَتَنَبَّطُ الطَّرِيقَ مَخَافَةَ السَّرَاقِ وَجَوْرِ السَّلْطَانِ ، فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي لَيْلَةٍ ظَلَمَاءَ ، قَتَمَاءَ ، طَخِيَاءَ مُدْهِمَاءَ ، حِنْدِسَ ، دَاجِيَةَ ، فِي صَوَّحِ أَمْلَسَ ، إِذْ أَحْسَسُ بِنَبْأَةٍ مِنْ صَوْتِ نُفَرٍ ، أَوْ طَيْرَانِ ضَوْيَعٍ ، أَوْ نَفِصِ سَبَدٍ ، فَحَاصَ عَنِ الطَّرِيقِ مُتَنَجِّبًا لِعِزَّةِ نَفْسِهِ ، وَفَضْلِ

قُوَّتِهِ ، فَبَعَثْتَهُ بِالْجَاحِمْ فَعَسَلَ ، وَحَرَّكَتَهُ بِالرَّكَابِ فَسَلَّ ، وَأَنْتَعَلَ الطَّرِيقَ يَغْتَالُهُ مُعْتَرِمًا ،
وَالْتَحَفَ اللَّيْلَ لِأَيَّامِهِ مُظْلِمًا ، فَوَاللَّهِ مَا شَبِهَتْهُ إِلَّا بَطْيِيَّةٌ نَافِرَةٌ تَحْفِزُهَا فَتَحَاءُ شَاغِيَةٌ ،
فَقَالَ الرَّجُلُ فَادْعُ اللَّهَ وَسَلِّهُ أَنْ يَحْشَرَ مَعَكَ هَذَا الْبَغْلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : وَلِمَ ؟
قَالَ : لِيُجِيزَكَ الصَّرَاطَ بِطَفْرَةٍ .

وَكَانَتْ أَمْرَأَةٌ تَأْكُلُ الطَّيْنَ فَخَصَلَ لَهَا بِسَبَبِهِ إِسْهَالٌ مَرِيضَتْ مِنْهُ ، وَكَانَ لَهَا
وَلَدٌ يَتَكَلَّمُ بِالْغَرِيبِ ، فَكَتَبَ رِقَاعًا وَطَرَحَهَا فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ . فِيهَا
صَيْنٌ أَمْرُؤٌ وَرُيْعَى ، دَعَا لَأَمْرَأَةٍ إِنْ تَقَعَلَتْ مُقْسَنَةً قَدْ مُنِنَتْ بِأَكْلِ الطَّرْمُوقِ فَأَصَابَهَا
مِنْ أَجَلِهِ الْإِسْتِمْصَالُ أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالْأَطْرِغَشَاشِ . فَكُلَّ مِنْ قَرَأَتْ رُقْعَتَهُ ، دَعَا عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَلَعَنَ أُمَّهُ .

وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْمَغَازِي الضَّبِّيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ
إِلَّا بِالْغَرِيبِ ، نَخْرَجُ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى خَجَرٍ ، مَعَهَا مَهْرٌ فَأَقْلَقْتُ ، فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مَهْرُهَا
نَخْرَجُ يَسْأَلُ عَنْهَا ، فَمَرَّ بِخَيَاطٍ فَقَالَ : يَا ذَا النَّصَاحِ وَذَاتِ السَّمِّ ، الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ
وَعَيٍّ لَغَيْرِ عَدِيٍّ ، هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَاءَ يَتَّبِعُهَا الْحَاسِنُ الْمُسْرَهْفُ ؟ كَأَنَّ غُرَّتَهُ
الْقَمَرُ الْأَزْهَرُ ، يَنْبِرُ فِي حُضْرِهِ كَأَنَّهُ لَبَّ الْأَجْرَدِ ؛ فَقَالَ الْخَيَاطُ : أَطْلُبُهَا فِي تَرْلَجٍ ؟
فَقَالَ : وَيَحْكُ مَا تَقُولُ ! قَبِّحَكَ اللَّهُ ، فَإِنِّي مَا أَعْرِفُ رَطَانَتَكَ . قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ
أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَانَا مَنْطِقًا .

وَضَرَبَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ عَيْسَى بْنُ عَمْرِو النَّحْوِيُّ ضَرْبًا كَثِيرًا مِنْ أَجْلِ وَدِيعَةٍ
فَكَانَ يَقُولُ وَهُوَ يَضْرِبُ : مَا هِيَ إِلَّا أَثْيَابٌ فِي أُسْفَاطٍ أَخَذَهَا عَشَارُوكَ . وَسَأَلَهُ
رَجُلٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ . فَقَالَ : لَيْسَتْ مَسْأَلَتُكَ يَتَنَّا : أَيْ لَيْسَتْ مَسْأَلَةٌ ، وَأَصْلُ الْيَتَنِ
نَخْرُجُ رَجُلٌ الْوَلَدَ قَبْلَ رَأْسِهِ . وَسَأَلَهُ آخَرُ عَنْ كِتَابَتِهِ ، فَقَالَ : كَتَبْتُ حَتَّى أَنْقَطَعَ

(١) كَذَا فِي الصَّنَاعَتَيْنِ أَيْضًا وَلَعَنَهُ مَصْصَفٌ عَنِ الطَّيْرِ بِالرَّاءِ بِدَلِيلِ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ فَإِنَّ الطَّرْمُوقَ اسْمٌ لِلْخَفَاشِ وَهُوَ
مِنَ الطَّيْرِ .

سوائى أى ظهري ، على ان أبا جعفر النحاس قد عدّ عيسى بن عمر من المطبوعين في ذلك . قال الجاحظ : رأيتم يديرون في كتبهم هذا الكلام فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودقّوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة ، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرمّاج وأشعار هذيل تأتي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأصمعيّ بمثل هذا الكلام ، لظننت أنه يستجمل نفسه ، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصف الرابع

(الغريب المتوحش عند قوم دون قوم)

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحضر منهم ، فإن أهل الحضر يألّفون السهل من الكلام ، ويستعملون الألفاظ الرقيقة ، ولا يستعملون الغريب إلا في النادر ، وأهل البادية يألّفون اللفظ الجزل ويميلون إلى استعمال الغريب ، وإذا نظرت إلى أهل مكة وكلام قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرومتهم ، وكلام أهل حضر موت وما جاورها من اليمن ومخالف الحجاز ، علمت فرق ما بين الكلامين ، وتباين ما بين الطرفين ، حتى كأن البادى يَرتُنُّ بالنسبة إلى الحاضر ، ويتكلم بلغة غير العربية ، وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يتكلم بها على الدوام ، ويخاطب بها الخاص والعام ، لغة قريش وحاضرة الحجاز ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم وجمع إلى سهولة الحاضرة جزالة البادية ، فكان يخاطب أهل نجد وتيمامة وقبائل اليمن بلغتهم ، ويخاطبهم في الكلام الجزل على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لِطَهْفَةَ النَّهْدِيِّ وكتابه إلى بنى نَهْدٍ ، وذلك أنه لما قدّم وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبى زهير

النَّهْدِيُّ . فقال : أئتيك يا رسول الله من غُورِ تِهَامَةٍ على أَكْوَارِ المَيْسِ ، ترمي بنا العيسُ ، نستَحِلُّ الصَّيْرَ ، ونَسْتَخَابُ الخَيْرَ ، ونَسْتَعِضُّ البَرِيرَ ، ونَسْتَحِيلُ الرَّهَامَ ، ونَسْتَخِيلُ الجَهَامَ ، من أرض غائلة النَّطَاءِ ، غليظة الوطاءِ ، قد جَفَّ المَذْنُ ، وَيَسَّ الحِجْنُ ، وسَقَطَ الأُمْلُوجُ ، ومات العُسْلُوجُ ، وهَلَكَ الهَدْيُ ، وفادَ الودِيّ ، برثنا إليك يا رسول الله من الوثنِ والعثنِ ، وما يُحَدِّثُ الزَّمَنُ ؛ لنا دعوةُ السلامِ ، وشريعةُ الإسلامِ ماطلاً البحرِ ، وقَامَ تَعَارٌ ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ، ماتَيْضُ بِلَالٍ ، ووَقِيرٌ كَثِيرُ الرِّسْلِ ، قليلُ الرِّسْلِ ، أصابتها سُدْيَةٌ حَرَاءُ مُؤْزِلَةٌ ، ليس لها عَلَلٌ وَلَا نَهْلٌ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” اللّٰهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُحَضِّهَا وَمَحْضِهَا وَمَذَقِهَا وَفَرَقِهَا ، وَأَبْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ بَيَانِ الثَّمَرِ ، وَأَفْجِرْ لَهُمُ الثَّمَدَ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ ، كَانَ مُسْلِمًا . وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ ، كَانَ مُحْسِنًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَانَ مُخْلِصًا . لَكُمْ يَابْنَ نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرْكِ ، وَوَضَائِعُ الْمُلْكِ ، لَا تُلْطِطُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تُجِئُ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تَتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ “ .

وكتب معه كتاباً إلى يابني نَهْدٍ فيه ” بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ السَّلَامُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، لَكُمْ يَابْنَ نَهْدٍ فِي الْوُظَيْفَةِ الْفَرِيضَةِ ، وَلَكُمْ الْعَارِضُ وَالْفَرِيشُ وَذُو الْعِنَانِ الرَّكُوبُ ، وَالْقَلْبُ الضَّيِّبُ ؛ لَا يُنْمَعُ سَرْحُكُمْ ، وَلَا يُعْضَدُ طَأْحُكُمْ وَلَا يُنْمَعُ دَرُّكُمْ مَا لَمْ تُضْمِرُوا الْإِمَاقَ ، وَتَاكَلُوا الرِّبَاقَ ؛ مَنْ أَقْرَفَ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةِ ؛ وَمَنْ أَبَى فَعَلِيهِ الرَّبُوءُ . “

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة هَمْدَانَ ، وذلك أنه لما قَدِمَ عليه صلى الله عليه وسلم وفود العرب قَدِمَ وَقَدْ هَمْدَانٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ أَبُو ثَوْرٍ ، وَهُوَ ذُو الْعِشْعَارِ ، وَمَالِكُ بْنُ أَيْقَعٍ ، وَضَبَامُ بْنُ مَالِكِ السُّلَمَانِي ، وَعَمِيرَةُ بْنُ مَالِكِ الْخَارِفِي ، فَلَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَرَجَعَهُمْ مِنْ تَبُوكَ وَعَلَيْهِمْ مُقَطَّعَاتُ الْحَبَرَاتِ وَالْعَائِمُ الْعَدَنِيَّةُ ، بِرَحَالِ الْمَيْسِ عَلَى
 الْمَهْرِيَّةِ وَالْأَرْحِيَّةِ ، وَمَالِكُ بْنُ نَمِطٍ وَرَجُلٌ آخَرٌ يَتَجَزَّانُ بِالْقَوْمِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا :
 هَمْدَانُ خَيْرُ سُوقَةٍ وَأَقْيَالُ * لَيْسَ لَهَا فِي الْعَالَمِينَ أَمْثَالُ
 مَحَلُّهَا الْهَضْبُ وَمِنْهَا الْأَبْطَالُ * لَهَا إِطَابَاتُ بِهَا وَكَالُ
 وَيَقُولُ الْآخَرُ :

إِلَيْكَ جَاوَزَنَ سَوَادَ الرَّيْفِ * فِي هَبَوَاتِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ
 * مُحْطَمَاتٍ بِجِبَالِ اللَّيْفِ *

فَقَامَ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! نَصِيَّةٌ مِنْ هَمْدَانَ مِنْ كُلِّ
 حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَتَوَكَّ عَلَى قُلُوصِ نَوَاجٍ ، مَتَّصِلَةٌ بِجِبَالِ الْإِسْلَامِ ، لَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ
 لَائِمٌ ، مِنْ مَخْلَافٍ خَارِفٍ ، وَيَا أَيُّهَا أَهْلُ السَّوَادِ وَالْقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ
 الرَّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ، عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ مَا أَقَامَ لَعَلَّعٌ ، وَمَا جَرَى الْعَفْوَ يُصْلَعُ .
 فَكَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا فِيهِ ” بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ !
 هَذَا كِتَابٌ مِنْ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَخْلَافٍ خَارِفٍ وَأَهْلِ جَنَابِ
 الْهَضْبِ وَحِقَافِ الرَّمْلِ ، مَعَ وَافِدِهَا ذِي الْمِشْعَارِ : مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ ، وَلِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ
 عَلَى أَنْ لَهُمْ فِرَاعَهَا وَوَهَاطَهَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، يَا أَكْلُونَ عِلَافَهَا وَيَرْعَوْنَ
 عَافِيَهَا ؛ لَهُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَذِمَامُ رَسُولِهِ ، وَشَاهِدُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ . “
 فَقَالَ فِي ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدُّجَى * وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَلَدٍ
 وَهْنٌ بِنَا خَوْصُ طَلَاخٍ تَعْتَلِي * بُرْجَانَهَا فِي لَاحِبٍ مُتَمَدِّدٍ
 عَلَى كُلِّ قَتْلَاءِ الدَّرَاعَيْنِ جَسْرَةٍ * تَمْرُنَا مَرَّ الْهَجَفِّ الْخَفِيدِ

حَلَفْتُ رَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنِّي * صَوَادِرَ الرِّجَالِ مِنْ هَضْبٍ قَرَدَدٍ
 بِأَنْ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ * رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ
 فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِيهَا * أَبْرَ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ * وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِيِّ الْمُهَنْدِ

وفي رواية أن في كتابه إليهم، إن لكم فِرَاعَهَا وَوَهَاطَهَا وَعَزَازَهَا تَأْكُلُونَ عِلَافَهَا
 وَتَرْعُونَ عَفَاءَهَا، لَنَا مِنْ دِفْئِهِمْ وَصِرَامِهِمْ مَا سَأَلُوا بِالْمِيثَاقِ وَالْأَمَانَةِ، وَلَهُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ
 الثَّلَاثُ وَالنَّائِبُ، وَالْفَصِيلُ وَالْعَارِضُ، وَالْدَّاجِنُ وَالْكَبْشُ الْحَوْرِيُّ، وَعَلَيْهِمْ فِيهَا
 الصَّالِغُ وَالْقَارِخُ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لَا تُكَيِّدِرُ دُومَةً . قال أبو عبيدة أنا قرأته فإذا فيه
 "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، لَا تُكَيِّدِرُ حِينَ أَجَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَخَلَعَ
 الْأَنْدَادَ وَالْأَصْنَامَ؛ مع خالد بن الوليد، سيف الله في دُومَةِ الْجَنْدَلِ وَأَكْفَاهَا؛ إِن لَنَا
 الضَّاحِيَةَ مِنَ الضَّحْلِ^(١) وَالْبُورِ وَالْمَعَايِ وَأَغْفَالَ الْأَرْضِ، وَالْحَلَقَةَ وَالسَّلَاحَ وَالْحَافِرَ
 وَالْحِصْنَ، وَلَكُمْ الضَّامِنَةَ مِنَ النَّخْلِ، وَالْمَعِينَ مِنَ الْمَعْمُورِ، لَا تُعْدِلُ سَارِحَتُكُمْ، وَلَا
 تُعَدُّ فَارِدَتُكُمْ، وَلَا يُحْطَرُّ عَلَيْكُمْ النَّبَاتُ، تُقِيمُونَ الصَّلَاةَ لَوَقْتِهَا، وَتُؤْتُونَ الزَّكَاةَ بِحَقِّهَا،
 عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَالْمِيثَاقُ، وَلَكُمْ بِذَلِكَ الصَّدَقُ وَالْوَفَاءُ، شَهِدَ اللَّهُ وَمَنْ حَضَرَ
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إِلَى وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ وَأَهْلِ حَضْرَمَوْتَ، وَهُوَ
 "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إِلَى الْأَقْيَالِ الْعَبَايِلَةِ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتَ
 بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، عَلَى التَّيْعَةِ الشَّاءِ، وَالتَّيْمَةِ لِصَاحِبِهَا، وَفِي السُّيُوبِ

(١) الضحل بالسكون القليل من الماء ويروى "لكم الضاحية من البعل" وهو النخل

المُحْسُ ، لاِخْلَاطَ ولاِ وِرَاطَ ، ولاِ شِنَاقَ ولاِ شِغَارَ ، ومن أجبى فقد أربى ، وكل مُسْكِرٍ حَرَامٌ . وفي رواية أنه كتب إليهم "إلى الأقبالِ العَبَاهِلَةِ والأُرْوَاعِ المَشَايِبِ ، وفي التَّيْعَةِ شَاةٌ لاِمْقَوْرَةٌ الأَلْيَاطُ ولاِ ضَنَّاكُ ، وأنطوا الشَّبَجَةَ وفي السُّيُوبِ المُحْسُ ، ومن زنى من أَمِيكَرٍ فَاصْقَعُوهُ مائةً ، وأَسْتَوْفُضُوهُ عَامًا ، وَمَنْ زَنَى مِنْ أَمِيَّبٍ فَضَرَّجُوهُ بِالْأَضَامِيمِ ، ولاِ تَوْصِيمٍ في الدين ، ولاِ عُمَّةٍ في فرائض الله تعالى ، وكل مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، ووائل بن حُجْرٍ يَرْفُلُ على الأقبالِ " .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله "في المثل السائر" : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها كحديث طَهْفَةٍ وما جرى مجراه ، على أنه قد كان في زمنه أولاً متداولاً بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيراً لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

الصفة الثانية

(للفظ الفصيح أن لا يكون مبتدلاً عامياً ، ولا ساقطاً سُوقِيًّا)

واللفظ المبتدل على قسمين

القسم الأول

مالم تغيره العامة عن موضعه اللغوي إلا أنها أختصت باستعماله دون الخاصة فابتدل لأجل ذلك وَخُفَّ لَفْظُهُ ، وَأَنْحَطَّت رَتَبَتُهُ لاختصاص العامة بتداوله ، وصار من استعمله من الخاصة مَلُومًا على الإتيان به لمشاركة العامة فيه ، وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فَعِيبَ عَلَيْهِمْ .

فمن ذلك قول الفرَزْدَقِ من قصيدة :

وَأَصْبَحَ مَبِیْضُ الضَّرِيبِ كَأَنَّهُ * عَلَى سَرَوَاتِ النَّبْتِ قُطْنٌ مُنْدَفٍ

فقوله منتدِف من الألفاظ العامية المتبدلة ، وإن كان له أصل في اللغة يقال نَدَفَ القُطْنَ إذا ضربه بالْمَسْدِفِ ، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوف نَدِيف .

ومن ذلك قول أبي نُؤَاس :

وَمُلِحَّةٍ بِالْعَدْلِ تَحْسَبُ أُنْحَى * بِالْجَهْلِ أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطَارِ

فالشطار جمع شاطر، وهو في أصل اللغة أسم لمن أعيأ أهله حُبْنًا ، يقال منه شَطَرَ وشَطَّر بالفتح والضم شَطَارَةً بالفتح فيهما ، ثم أَسْتَعْمِلَ في الشجاع الذي أعيأ الناس شجاعةً ، وغلب دَوْرَانُهُ على لسان العامة فَأَمْتَنَ وَأَبْتَدَلَ ، فَاسْتَعْمَلَ أَبِي نُؤَاسٍ له غير لائق ، وكذلك قوله أيضا :

يَأْمَنُ جَفَانِي وَمَلَأَ * نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا

وَمَا تَمَرَّحِبْتَ لِمَا * رَأَيْتَ مَالِي قَلًّا

إِنِّي أَظُنُّكَ فِيمَا * فَعَلْتَ تَحْكِي الْقِرْيُثُ

فلفظ القِرْيُثُ من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وهو أسم لطائر صغير من طيور الماء يَخْطُفُ صِغَارَ السَّمَكِ من الماء برجليه وَمِنْقَارِهِ ، فإذا سَقَطَ على الماء ولم يحصل على صيد ، أَرْتَفَعَ بُسْرَعَةً ، فتضرب به العامة المثل تقول : فلان كَأَنَّهُ قِرْيُثٌ ، إن وَجَدَ خيرا تَدَلَّى ، وإن وَجَدَ شرا تَعَلَّى .

وقوله أيضا :

وَأَمْرَ الْحِلْدَةِ صَيْرَتْهُ * فِي النَّاسِ زَاغًا وَشِقِرَاقًا

مَا زِلْتُ أَجْرِي كُلَّكِي فَوْقَهُ * حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقًا

فقوله قَاقًا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب ، يقال فعلت بفلان كذا وكذا حتى قال : قاق ؛ وأقبح من ذلك كله في الابتذال بين العامة والسخافة قول المتنبي :

ومن الناس مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ * شُعْرَاءُ كَأَنَّهَا الْحَبَازِ بازٍ

قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة الرِسام الذى ذكره فى قوله :

إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هُذَاءُ * لَيْسَ شَيْئًا ، وَبَعْضُهُ أَحْكَامُ -

فِيهِ مَا يَجْلِبُ الْبَرَاةُ وَالْفَهْمُ * وَفِيهِ مَا يَجِبُ الرِّسَامُ

وعدّ منه فى "المثل السائر" قول البُخترى :

وَجُوهٌ حُسَادِكَ مُسَوَّدَةٌ * أَمْ صُبِغَتْ بَعْدَى بِالزَّاجِ ؟

قال : فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وكذلك عدّ منه قول النابغة الذبياني :

أَوْ دُمِيَّةٌ فِي مَرَمٍ مَرْفُوعَةٍ * بَنِيَتْ بِأَجْرٍ يُسَادُ قِرْمَدٍ

قال : فلفظة أجرب مبتذلة جدا ، وإذ اشأت أن تعلم شيئا من سرّ الفصاحة التى تضمنها القراءان الكريم ، فأنظر إلى هذا الموضع فإنه لما جرى فيه بذكر الأجرب لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القرمَد أيضا ، ولا بلفظ الطوب الذى هو لغة أهل مصر ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر فى القراءان على وجه آخر ، وهو قوله تعالى : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا" فعبر عن الأجرب بالوقود على الطين ؛ نعم من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الكَنَس ، وما أشق منه ، ولذلك عابها القاضى الفاضل رحمه الله تعالى على ابن سناء الملك فى بعض أشعاره حيث قال من أبيات :

يَزْحَرُفُ مِنْهَا وَجْهَهَا فَهُوَ جَنَّةٌ * وَيَخْضَرُ مِنْهَا نَضْرَةٌ فَهُوَ سَنَدِسٌ
صَلِينِي وَهَذَا الْحَسَنُ بَاقٍ فَرُبَّمَا * يَعْزَلُ بَيْتُ الْحُسْنِ مِنْهُ وَيُكَنَسُ

فلما وقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة، كتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل: وما قلت هذه الغاية، إلا وتعلمني أنها البدايه، ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا تلا ما بعده: وَمَا يُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ أَفْسَحَرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ. ولا عيب في هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لَهَجَ الناس بما تحتها، ودونوا مادونها، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بما لا يقار بها، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مدّها ولا نصيفه، والقصيدة فائقة في حسنّها، بديعة في قنّها، وقد ذلّت السنين فيها وآنقادت، فلو أنها الرأى لما رادت؛ وبيت يُعْزَلُ ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة، فإن لفظة الكنس غير لائقة في مكانها.

فأجابه ابن سناء الملك قائلا: وعلم المملوك مانبه عليه مولانا من البيت الذي أراد أن يكنسه من القصيدة، وقد كان المملوك مشغوبا بهذا البيت، مستجليا له متعجبا منه، معتقدا أنه قد ملّح فيه، وأن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه، وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتز في قوله:

وقَوَّامِي مِثْلُ الْقَنَازَةِ مِنَ الْخَطِّ وَخَذَى مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسٌ

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثّر، ويطلب مطالبه فتعسر عليه وتتعذر، ولا آس ناره إلا لما وجد عليها هدى، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من ميلة إليه طبعه، ولا سار قلبه إلا إلى من دلّه عليه سمعه، ورأى المملوك أبا عبادة قد قال:

ويا عَادِلِي فِي عِبَرَةٍ قَدْ سَفَحَتْهَا * لِيَيْنِ، وَأُنْجَرِي قَبْلَهَا لِلتَّجَنُّبِ
نُحَاوِلُ مَنْ شِيعَةٍ غَيْرِ شِيعَتِي * وَتَطْلُبُ مَنْ مَدَّهَا غَيْرَ مَدَّهِي؟

وقال :

وما زَارَنِي إِلَّا وَهَلَتْ صَبَابَةٌ * إِلَيْهِ، وَإِلَّا قُلْتُ : أَهْلًا وَمَرْحَبًا
فَعَلِمَ الْمَمْلُوكُ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ لَا تُسْلَكُ ، وَعَقِيلَةٌ لَا تُمْلَكُ ، وَغَايَةُ لَا تُتْرَكُ ؛ وَوَجَدَ
أَبَا تَمَّامٍ قَدْ قَالَ :

* سَلَّمَ عَلَى الرَّبِّيعِ مِنْ سَلَامِي بِذِي سَلَمٍ *

وقال : * خَشِنْتُ عَلَيْهِ أُخْتَ بَنِي خُشَيْنٍ * ؛

فَاشْتَأَزَ مِنْ هَذَا التَّمِطِ طَبْعُهُ ، وَأَفْشَعَرَ مِنْهُ فَهَمُهُ ، وَنَبَأَ عَنْهُ ذَوْقُهُ ، وَكَادَ سَمِعُهُ
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَيِّغُهُ ، وَوَجَدَ هَذَا السَّيِّدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَرِقِ قَدْ قَالَ :

وَقَفْتُ فِي الرُّوضِ أَبْكِي فَقَدْ مُشِبِّهِ * حَتَّى بَكَتْ بِدُمُوعِي أَعْيُنُ الرَّهْرِ

لَوْلَمْ أُعْرِهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا * لِرَحْمَتِي ، لَأَسْتَعَارَتْهَا مِنَ الْمَطَرِ

وقال :

قَدْكَ غُضْنٌ لَا شَكَّ فِيهِ كَمَا * وَجْهَكَ شَمْسُ نَهَارِهِ جَسَدُكَ

فَوَجَدَ الْمَمْلُوكُ طَبْعَهُ إِلَى هَذَا التَّمِطِ مَائِلًا ، وَخَاطَرَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَيْهِ سَائِلًا ؛
فَنَسَجَ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ خَاطَرُهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ ؛ ” وَحُبَّكَ الشَّيْءُ
يُعْمِي وَيُصِمُّ “ ، فَقَدْ أَعْمَاهُ حُبُّهُ وَأَصَمَّهُ إِلَى أَنْ نَظَّمَ تِلْكَ اللَّفْظَةَ فِي تِلْكَ الْأَبْيَاتِ تَقْلِيدًا
لِأَبْنِ الْمُعْتَرِقِ حَيْثُ قَالَهَا ، وَحَمَلَ أَثْقَالَهَا ؛ وَهِيَ تُغْفَرُ لَهَا فِي جَنْبِ إِحْسَانِهِ ، فَأَمَّا
الْمَمْلُوكُ فَهِيَ عَوْرَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ لِسَانِهِ ؛

فَأَجَابَهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا حِجَّةَ فِيَا أَحْتَجُّ بِهِ عَنِ الْكَنَسِ
فِي بَيْتِ أَبِي الْمُعْتَرِقِ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُعَصُومٍ مِنَ الْغَلَطِ ، وَلَا يُقَدَّرُ إِلَّا فِي الصُّوَابِ فَقَطْ ؛
وَقَدْ عَلِمَ مَاذَكَرَهُ أَبُو رَشِيْقٍ فِي عَمْدَتِهِ مِنْ تَهَافُتِ طَبْعِهِ ، وَتَبَايُنِ وَضْعِهِ ؛ فَذَكَرَ مِنْ
مَحَاسِنِهِ مَا لَا يُعْلَقُ مَعَهُ كِتَابٌ ، وَمِنْ بَارِدِهِ وَغَثِّهِ مَا لَا تُلْبَسُ عَلَيْهِ ثِيَابٌ .

وقد تَعَصَّبَ القاضى السعيد على أبى تَمَّامٍ فنقصه من حظه ، وللبُحْتَرِيِّ فأعطاه
أكثرَ من حقه ، وما أنصفهما :

ولو كان هذا مَوْضِعَ الْعَتَبِ لَأَشْتَفَى * فُوَادَى وَلَكِنْ لِلْعِتَابِ مَوَاضِعُ

قال المولى صلاح الدين الصَّفَدِى رحمه الله تعالى فى شرح لامية العجم : وقد
استعمل ابن سناء الملك رحمه الله تعالى هذه اللفظة فى غير هذا الموضع ولم يتعظ
بنهى الفاضل ولا أروعوى ، ولا أزدجر عما قبحه لأنه غلب عليه الهوى ، فقال :

تَوَسَّسَ شِعْرِى بِهِ مُدَّةً * وما بَرَحَ الْحَلَى وَالْوَسْوَسَه

وَحَلَّصَنِى مِنْ يَدَى عِشْقِهِ * ظَلَامٌ عَلَى خَدِّهِ حَنْدَسَه

كَنَسْتُ فُوَادَى مِنْ عِشْقِهِ * وَلِحِيَّتِهِ كَانَتْ الْمِكْنَسَه

قال : وأما القاضى الفاضل ، فما أظنه خلا فى هذا الإيراد ، من ضعف آتقاد ؛
وأحاشى ذاك الذهن الوقاد ، من هذا الاعتقال فى ورطة هذا الاعتقاد ؛ وما أراه
إلا أنه تعمد أن يعكس مراده ، ويوهى ماشده ويوهن ماشاده ؛ ويرميه ببلاء
البلاء ، إما على سبيل النكال أو النكاده : لأن الفاضل رحمه الله ممن يتونخى هذه
الألفاظ ويقصدها ، وينشئها ويُشدها ، ويورى زنادها ويوردها .

فمن كلام القاضى الفاضل فى بعض رسائله ، وما استطاعت أيديهم أن تقبض
بحره ، ولا ألباهم أن تسبخ نحره . ولا سيوفهم أن تكتس قيمه . قال فى "المثل
السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام ، وضعت من قدره ولو كان معناه
شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن
منهم القليل ومنهم الكثير .

القسم الثاني

(ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته

العامة وجعلته دالاً على معنى آخر. وهو على ضربين)

الضرب الأول - ما ليس بمستقيح في الذكر ولا مستكره في السمع. وذلك كتسميتهم الإنسان إذا كان دمث الأخلاق، حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله ظريفاً، والظرف في أصل اللغة مختص بنطق اللسان فقط، كما أن الصبابة مختصة بالوجه، والوضاء مختصة بالبشرة، والجمال مختص بالأنف، والحلاوة مختصة بالعينين، والملاحاة مختصة بالشم، والرشاقة مختصة بالقدر، واللباقة مختصة بالشئال؛ فالظرف إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلى أعم من موضوعه كما تقدم؛ ومن وقع له الذهول عن ذلك فغلط فيه أبو نواس في قوله :

اِخْتَصَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالُ * فبك فصارا إلى جدال

فقال هذا يمينه لى * للعرف والبذل والنوال

وقال هذا وجهه لى * للظرف والحسن والكمال

فاقتربا فبك عن تراض * كلاهما صادق المقال

فوصف الوجه بالظرف، وهو من صفات النطق كما تقدم؛ وكذلك أبو تمام في قوله :

لَكَ هَضْبَةُ الْحِلْمِ الَّتِي لَوْ وَازَنْتَ * أَجْأً إِذَا ثُقُلْتَ، وكان خفيفا

وحلاوة الشيم التي لو ما زجحت * خلق الزمان القدم، عاد ظريفا

فوصف الشيم بالحلاوة وهي مختصة بالعينين، ووصف الخلق بالظرف وهو

مختص بالنطق كما تقدم بيانه .

الضرب الثاني - ما يُستقبح ذكره كما في لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والسرْم بالسين، فإن الصُّرم بالصاد في أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال صرمه يَصْرِمُه صَرْمًا وصُرْمًا بالفتح والضم إذا قطعه، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة في أشعارها بهذا المعنى فلا يعاب عليها، قال أبو صخر الهذلي:

قد كان صُرْمٌ في أَمَاتٍ لَنَا * فَعَجِلْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصُّرْمِ

فأستعمله بمعنى القطع ولم يُعبَ عليه لأن الألفاظ في زمن العرب لم تتغير بل كانت باقية على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وأستعملت لفظ الصُّرم الذي هو القطع في المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماحه مستكرها، وعيب على أبي الطَّيِّبِ استعماله في قوله:

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنَهُ مَا أَذَقْنِي * وَعَفَّ، فَاذَاهَنَ عَنِّي بِالصُّرْمِ

على أنه إنما يكره استعماله بصيغة الاسم لما تقدم، أما إذا استعمل بصيغة الفعل مثل صَرَمَ وَيَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حرج في استعماله، وقد أستعمله ابن الرومي بالسين على بابهِ بقاء أَقْبَحَ وَأَشْنَعُ، فقال يهجو الوَردَ:

كَأَنَّهُ سُرْمٌ بَغْلٍ حِينَ يُخْرِجُهُ * عِنْدَ الْبَرَّازِ، وَبَاقِي الرَّوْثِ فِي وَسْطِهِ

قال الصَّلاح الصَّفَّدي: وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر في الوَردِ أيضا:

كَأَنَّهُ وَجَنَةٌ الْحَبِيبِ وَقَدْ * نَقَطَهَا عَاشِقٌ بِدِينَارٍ

قال: فانظر إلى هذا، وَجَنَةٌ، وَحِيبٌ، وَدِينَارٌ، وإلى ذلك، سُرْمٌ، وبغل،

وَرَوْثٌ. وَشَتَانٌ مَا بَيْنَهُمَا.

الصفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح أن لا يكون متنافر الحروف ، فإن كانت حروفه متنافرة بحيث يثقل على اللسان ويعسر النطق به فليس بفصيح)
 وذلك نحو لفظ المُعْخَجُ في قول بعض العرب عن ناقة : تَرَكْتُهَا تَرعى المَعْخَجَ :
 بالخاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أسود ، وكذلك لفظ مُسْتَشْرِزَاتٍ من
 قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي من جملة القصائد السبع الطوال :
 غَدَائِرُهُ مُسْتَشْرِزَاتٌ إِلَى الْعُلَى * تَصِلُ الْمَدَارِي فِي مِثْنِي وَمُرْسَلِ

فلفظ مستشزرات من المتنافر الذي يثقل على اللسان، ويعسر النطق به . قال الوزير
 ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : ولقد رآني بعض الناس وأنا أعيب
 على امرئ القيس هذا اللفظ فأكبر ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد في أن امرأ القيس
 أشعر الشعراء ، فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة ، وقلت له : لا يمنع
 إحسان امرئ القيس من استقباح ماله من القبيح ، بل مثال ذلك كمثل غَزَالِ
 الْمِسْكِ فإنه يخرج منه الْمِسْكُ وَالْبَعْرُ ، ولا يمنع طيب ما يخرج من مسكه من خُبث
 ما يخرج من بعره ، ولا تكون لذائذ ذلك الطيب حامية للخبيث من الاستكراه ،
 فَأُسْكِتَ الرَّجُلَ عِنْدَ ذَلِكَ .

إذا علمت ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة على ذلك ، لأن الواضع قسمها
 في وضعه إلى ثلاثة أقسام ؛ ثَلَاثِيًّا ، وَرُبَاعِيًّا ، وَخُمَاسِيًّا ، فَالْثَلَاثِيُّ من الألفاظ هو
 الأكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا النادر ؛ والخُمَاسِيُّ هو الأقل ، ولا يوجد فيه
 ما يستعمل إلا الشاذ النادر ؛ والرُبَاعِيُّ وسط بين الثلاثي والخُمَاسِيُّ في الكثرة عدداً
 وأستعمالاً ، فيكون أكثر اللغة مستعملاً غير مكروه . قال : ولا تقتضي حكمة هذه

اللغة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسقط الواضع منها حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استئقلا واستكراها ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاي والسين ، وذلك دليل على عنايته بتأليف المتباعد الخارج دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُخَلُّ بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة وقد أعنى بأمور جريئة دون ذلك ؟ كمائلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالغَلَيَّانِ ، والضَّرَبَانِ ، والتَّقَرَّانِ ، والتَّزَوَّانِ ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود .

ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يخلّ بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ . على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، أهي متباعدة أو متقاربة ؟ لطال الخطب في ذلك وعسر ، ولما كانت الشاعر ينظم قصيدا ، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا في مدة طويلة ، والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وتقييح آخر ، على أنه قد يحىء من المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ، ألا ترى أن الحروف الشجرية : (وهي الجيم والشين والياء) متقاربة المخارج : لأنها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وإذا تركب منها لفظ جاء حسنا رائقا ، فإن لفظة جيش قد اجتمع فيها الحروف الشجرية الثلاثة ، وهي مع تقارب مخارجها حسنة رائقة ، وكذلك الحروف الشفهية (وهي الباء والميم والفاء) متقاربة المخارج فإن مخرج جميعها من الشفة ، وإذا تركب منها لفظ جاء سليسا غير متنافر ، كقولك أكلت بقمي ، وهو في غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها ، وقد يجرى من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَعَ بمعنى عدا ، فإن الميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان ، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريمة الاستعمال ، ينبو عنها الذوق السليم ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ، على أنه لو عكست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد القبح منها حسنا مع انه لم يتغير شيء من مخارجها ، على أن اللام لم تزل فيها وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ، ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض ، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشَّفة إلى الحلق في مَلَعَ أَعَسَّرُ من إخراجها من الحلق إلى الشَّفة في عِلِمَ ، فإن لفظة يَلَعَ فيها الباء وهي من حروف الشفة واللام وهي من وسط اللسان والعين وهي من حروف الحلق وهي غير مكروهة .

قال في "المثل السائر" : ولربما أعترض بعض الجهال بأن الاستتقال في لفظ مستشزرات إنما هو لطولها وليس كذلك ، فإننا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر ، لكان ثقيلا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاي ، فتثقل النطق بها ، نعم لو أبدلنا من الزاي راء ومن الراء فاء فقلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك ، ومن ثم ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غير معتبر ، وقد ورد في القرآن العظيم ألفاظ طوالٌ لا شك في حسنها وفصاحتها كقوله تعالى : ﴿ فَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَنَسَخِلَنَّهُمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ فإن لفظ فسيفيكهم الله مركب من تسعة أحرف ، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف ، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف . قال : والأصل في هذا الباب أن الأصول لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي : كقولك عَذَّبَ وَعَسَّجَدَ ، فالأولى ثلاثية

والثانية رُبَاعِيَّة ، أما الخُمَاسِيَّة من الأصول ، فإنه قبيح كقولك : صَهْصَلِقْ وَبَحْمَرِشْ ، وما جرى مجراهما ، ولهذا لا يوجد في القرآن الكريم من الخُمَاسِيَّة الأصول شيء إلا ما كان من أسم نبي عَرَبٍ أسمه ، ولم يكن في الأصل عربياً كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح ، أن لا يكون على خلاف القانون المستنبط من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية ، وما هو في حكمها)

كوجوب الإعلال في نحو قام والإدغام في نحو مدّ ، وغير ذلك مما يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فكَّ الإدغام في مدّ فقال مدّد ، لم يكن فصيحاً ، وعلى حدّ ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمد لله العليّ الأجلّ *

فإن قياس بابه الإدغام فيقال الأجلّ .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح التلخيص : وأما نحو أبى يابى وعور وآستحوذ وقطط شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة في شيء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع ، فهي في حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هي عمود الفصاحة في اللفظ المفرد ، وقطب دائرة حسنه ، فمضى أتصف بها وسلم من أضدادها ، كان بالفصاحة متّسماً ، وبالحسن والرونق مشتملاً ، وللطبع ملائماً ، وللسمع موافقاً ، ومتى عرّى عن ذلك نخرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلى الهجنة ، فجّه السمع ، وقلاه الطبع ورفضته النفوس ، ونفرت منه القلوب ، فلزم العيب قائله ، وتوجه العتب على مستعمله . قال ابن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل

لا حدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكر ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الفصن ولفظة العُسلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسْفِنِط ، وبين لفظة السَّيف ولفظة الخنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدُوْكِيس ، فلا ينبغي أن يُخَاطَبَ بخطاب ، ولا يُجابَ بجواب ، بل يترك وشأنه كما قيل : ” أتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقى الجعفر في رحله “

وما مثاله في ذلك إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، شواء الخلق ذات عين محمّرة ، وشَفَّة غليظة ، وشعر قَطَط ، وبين صورة رُومِيَّة بيضاء مُشْرِبة بجمرة ، ذات خَدَّ أسيل ، وطَرْف كحيل ، ومَبْسَم كأنما يُظَم من أَقَاح ، وطُرة كأنها ليل على صَبَاح . فإذا كان بإنسان من سُقْم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقْم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين السمع والنظر في ذلك ، فإن هذه حاسَّة وهذه حاسَّة ، وقياس حاسة على حاسة غير مُمتنع ، ولا عبرة بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلى الصورة الشنيعة ، فإن الحكم على الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، فإننا لو رأينا من يُحِبُّ أكل الفَحْم والحِصَّ والتراب ، ويختار ذلك على مَلَأْذ الأَطعمة ، فإننا لاستجيد هذه الشهوة بل نحكم عليه بالمرض وفساد المعدة ، وأنه يحتاج إلى العلاج والمداواة ، ومن له أدنى بصيرة يعلم أن اللالفاظ في الأذن نَغْمَةٌ لذيذة كنغمة الأوتار ، وصوتا مُنْكَرًا كصوت الحمار ، وأن لها في الفم حلاوةً كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحَنْظَل . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فإن استحسن الألفاظ وأستباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مجال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت ، علم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام ، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأول

(في بيان فضل المعرفة بذلك ، ومسيس حاجة الكاتب إلى معرفته ، والإشارة إلى خفي سره وتوعر مسلكه)

قال أبو هلال العسكري : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل ، والخطب ، والشعر ، وجميعها يحتاج إلى حُسن التأليف ، وجودة التركيب ، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا ، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سيئا ، ورصف الكلام رديئا ، لم يوجد له قبول ، ولم تظهر عليه طلاوة . فإذا كان المعنى وسطا ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مُستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها ، كان راقيا في المرأى ، وإن لم يكن مرتفعا نبيلًا ؛ وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما يليق بها ، اقتضته العين وإن كان فائقا ثمينًا ؛ وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكن من أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلا حذفًا لا يُفسد الكلام ، ولا يُعمى المعنى ، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى وقفها ؛ وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها ، وصرفها عن وجوهها ، وتغيير صيغتها ، ومخالفة الاستعمال في نظمها . وقد قال العتابي : الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرًا وأخرت منها مقدمًا ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما أنه لو حوّل رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رأس أو رجل إلى الخلقة وتغيرت الخلية .

قال في "الصناعتين" : وقد أحسن في هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : وهذا الموضع يَضِلُّ في سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر ، فكيف الجهال الذين لم تَنَفَّحْهُمْ منه رائحة ؟ وَمَنْ الذي يُؤْتِيهِ الله فِطْرَةَ ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، حتَّى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ، إذ التركيب أعسر وأشقُّ ، ألا ترى أن ألفاظ القراء الكرم من حيث أنفرادها قد استعملتها العرب وَمَنْ بعدهم ، وهى مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وأنظر إلى قوله تعالى : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقِصِّي الْأَمْرَ وَاسْتَوْتِ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " وما أشتملت عليه هذه الآية من الحُسْن والطلاوة والرونق والمائية آتت لا يقدر البشر على الإتيان بمثليها ، ولا يستطيع أفصحُ الناس وأبلغُ العالم مضاهاتها ، على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة ، ففوة التركيب وحسن السبك هو الذى ظهر فيه الإعجاز وأُخِمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللفظة الأولى بالثانية والثالثة والرابعة ، وكذلك سائر الألفاظ إلى آخر الآية . ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لا بسنة من الحُسْن والرونق مالم يسته في موضعها من الآية ، ولكل كلمةٍ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَقَامٌ .

قال ابن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد ، كلاهما في الاستعمال على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يُفَرَّقُ بينهما في مواضع السبك ، وهذا مما لا يدركه إلا من دَقَّ فِهْمُهُ ، وجلَّ نَظْرُهُ . وإذا نظرت إلى قوله تعالى : " مَا جَعَلَ اللَّهُ

لَرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ“ وقوله تعالى : ”رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا“
 رأيت ذلك عياناً ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد أَسْتَعْمَلَ الجوف في الآية
 الأولى والبطن في الآية الثانية ولم يُسْتَعْمَل أحدهما مكان الآخر ، وكذلك قوله تعالى :
 ”مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى“ وقوله : ”إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
 السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ“ فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وإن كانا مختلفين في الوزن ،
 ولم يستعمل أحدهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرى قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ * لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلَ

* الموت أحلى عندنا من العسل *

وقول أبي الطيب المتنبّي :

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ * رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي قِمَاهُ شَهْدُ

فلفظه الشهد ولفظة العسل كلاهما حَسَنٌ مستعمل ، وقد جاءت لفظة الشهد
 في بيت أبي الطيّب أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج ، على أن لفظة العسل
 قد وردت في القرآن دون لفظة الشهد بخافت أحلى من الشهد في موضعها ، وكثيرا
 ما تجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ وَبُلْغَاءِ الْكُتُبِ ومصارع الخطباء ، وتحتها
 دقائق ورموز ، إذا عَلِمْتَ وَقِيسَ عَلَيْهَا كان صاحب الكلام قد آتته في النظم والنثر
 إلى الغاية القصوى في وضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها . قال : وأعجب من
 ذلك أنك ترى اللفظة الواحدة تُرْوَقُ في كلام ، ثم تراها في كلام آخر فتركها ،
 وقد جاءت لفظة في آي القرآن الكريم بهجة رائقة ، ثم جاءت تلك اللفظة بعينها
 في كلام آخر بخافت ركيكة نائية عن الذوق ، بعيدة من الاستحسان ، فن ذلك
 لفظة يؤذِي فإنها وردت في قوله تعالى : ”إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ“ فجاءت في غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت في قول أبي الطيب :

تَلَدُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي * وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الْغَرَامُ

لجاءت رثته مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعاني الشريفة، وذلك لقوة تركيبها في الآية وضعف تركيبها في البيت الشعر، والسبب في ذلك أن لفظة تؤذي إنما تحسن في الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كما في الآية الكريمة حيث قال : ”إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّيَّ“ وفي بيت المتنبي جاءت منقطعة ليس بعدها شيء لتعلق به حيث قال :

* تَلَدُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي *

ثم أستأنف كلاماً آخر فقال :

* وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الْغَرَامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي مضافة إلى كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بزمامها، وأحاطت من الطلاوة بأطرافها، وذلك أنه لما أشتكى النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فرقاه فقال : ”بسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك“ فصارت إلى الحُسْن بزيادة حرف واحد، وهذا من السر الخفي الذي يدق فهمه . وعلى نهج لفظة يؤذي يرد لفظة لى، فإنها لا تحسن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لحقها هاء السكت في قوله تعالى : ”مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ“ لما لم يكن بعدها ما يتعلق به، بخلاف قوله : ”إِنَّ هَذَا أَحْبَبُ إِلَيَّ مِنْكَ“ فإنه لم تلحقها هاء السكت اكتفاء بما هي متعلقة به .

ومما يجرى مثل هذا المجرى لفظة القمّل، فإنها قد وردت في قوله تعالى :
 ”فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ“ فجاءت في غاية الحسن،
 ووردت في قول الفرزدق :

مِنْ عِزِّهِ أَجْتَحَرَتْ كُتَيْبٌ عِنْدَهُ * زَرْبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

جاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت في الآية مندرجةً في ضمن كلام
 لم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في البيت قافيةً أقطع الكلام عندها . هذا
 ماخص ما ذكره ابن الأثير، وقال : إنه لم يُسبق إليه، وجعل الحاكم فيه الذوق
 السليم دون غيره . وعلى الجملة فلا نزاع في أن تركيب الألفاظ يُعطى الكلام من
 القوة والضعف ما تزيد به قيمة الألفاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يُحطُّ
 مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان .

الوجه الثاني

(في بيان ما ينبنى عليه تركيب الكلام وترتيبه . وله ركنان)

الركن الأول - أن يُسلك في تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللكنة والهجنة .
 والفصاحة في المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولى

(أن يكون سليماً من ضَعْفِ التَّأْلِيفِ)

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام على القانون النحويّ المشتهر فيما بين معظم أصحابه
 حتى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمار قبل الذكر لفظاً أو معنى ، نحو ضرب
 غلامه زيدا ، فإنه غير فصيح وإن كان ما اتصل بالفاعل فيه ضميراً المفعول به

مما أجازته الأخفش وتبعه ابن جني لشدة اقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل ،
وأستشهد بقوله :

لما عصى أصحابه مضعباً * أدى إليه الكيل صاعاً بصاع

وقوله :

جرى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يحزى سينار

وقوله :

ألا ليت شعري ، هل يلومن قومه * زهيراً على ما جر من كل جانب

الصفة الثانية

(أن يكون سليماً من التعقيد)

وهو أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى الذي يراد منه ، وهو على

ضربين .

الضرب الأول - وهو الذي يسميه ابن الأثير (المعاطلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب
الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم أو تأخير ، أو حذف أو إضمار ، أو غير
ذلك مما يوجب صعوبة فهم المراد ، وإن كان ثابتاً في الكلام ، جارياً على القوانين
كقول الفرزدق ، في مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي ، خال هشام بن
عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُملَكًا * أبو أمه حتى أبوه يُقاربه

أنى وما مثل هذا الممدوح في الناس حتى يقاربه ويُشبهه في الفضائل إلا مُملَكًا ،
أبو أم ذلك المملك أبو الممدوح ، فيكون الممدوح خال المملك ، والمعنى أنه لا يماثل

أحد هذا الممدوح الذي هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام؛ أفسده وعقد معناه، وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلى حدّ اللكنة؛ وكذلك قوله في الوليد بن عبد الملك : إلى ملك، ما أئمه من محارب * أبوه، ولا كانت كليب تصاهره يريد إلى ملك ما أئمه من محارب، وقوله :

تعال فإن عاهدتني لا تحوتني * نكن مثل من ياذب يصطحبان يريد نكن ياذب مثل من يصطحبان، وقوله :

وليست نخراسان التي كان خالد * بها أسد، إذ كان سيفاً أميرها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد ولي نخراسان ووليها أسد بعده، فمدح خالد بأنه كان سيفاً، بعد أن كان أسد أميرها، فكأنه يقول وليست نخراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها . قال ابن الأثير : وعلى هذا التقدير ففي كان الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها ، وقد قدم بعض ما إذ مضافة إليه وهو أسد عليها ، وفي تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح . إلا خفاء به . قال : وأيضا فإن أسداً أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير ، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير ، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول ، وعلى نحو ذلك ورد قول الآخر :

فأصبحت بعد بهجتها * كأن قفراً رسومها قلباً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلباً خط رسومها ، فقدم خبر كأن وهو خط عليها بفاء مختلاً مضطرباً ، قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من أقبح هذا النوع لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضاً ؛ على أن ذلك قد وقع لجمع من فحول شعراء العرب . كقول امرئ القيس :

هما أخوا في الحرب من لأخاله * إذا خاف يوما نبوة فدعاهما

يريد أخوا من لأخوى له في الحرب، وقول النابغة :

يُثْرِنَ الثَّرَى حَتَّى يَبَاشِرْنَ بَرْدَهُ * ، إذا الشمسُ مجَّت ريقها، بالكَلَا كل
قال أبو هلال العسكري : وهذا البيت مستهجن جداً لأن المعنى تعنى فيه ،
يريد يُثْرِنَ الثرى حتى يباشرن برده بالكلا كل إذا الشمس مجت ريقها ؛ وقول
أبى حية التميمي :

كَمَا خُطَّ الْكَتَابُ بِكَفٍّ ، يَوْمًا ، * يَهُودِيٌّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ
يريد كما خط الكتاب بكف يهودى يوما يقارب أو يزيل ؛ وقول ذى الرمة :
نَضًا الْبُرْدَ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ ، ذُو ، جُنُونِهِ * أَجَارِيٌّ ، صَهَّالٌ وَصَوْتُ مَبْرَسَمٍ
يريد وهو من جنونه ذو أجارى ؛ قال فى "الصناعتين" : كأنه تخطيط كلام مجنون
أو هجر مبرسم ؛ وقول الشماخ :

تَحَامَصَ عَنْ بَرْدِ الْوِشَاحِ إِذَا مَشَتْ * تَحَامَصَ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْأَمْعَزِ الْوَجَى
يريد تحامص حافى الخيل فى الوجى الأمعز ؛ قال أبو هلال العسكري : وليس
للحديث أن يجعل هذه الأبيات حجةً ويبنى عليها فإنه لا يعذر فى شئ منها ، لإجماع
الناس اليوم على مجانبة أمثالها واستجدادة ما يضح من الكلام ويستبين ، وأستزдал
ما يُشْكِلُ منه ويستبهم ؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يعاظم
بين الكلام .

قال فى "المثل السائر" : والفرزدق أكبر الشعراء تعاظلا وتعقيدا فى شعره ، كأنه
كان يقصد ذلك ويتعمده ، لأن مثله لا ينجى إلا متكلفا مقصودا ، وإلا فإذا ترك
مؤلف الكلام نفسه تجرى على سجيها وطبعها فى الاسترسال لم يعرض له شئ من
هذا التعقيد ، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا النوع ، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثاني من التعقيد - أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بخلل في انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى الثاني المقصود ، لإيراد اللوازم البعيدة المفتقرة إلى الوسائط الكثيرة ، مع خفاء القرائن الدالة على المقصود ، كقول العباس بن الأخنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا * وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدَّمُوعَ لِتَجْمُدَا

يريد إلى أطلب بعد الدار عنكم لتقربوا مني ، وتسكب عيناى الدموع لتجمد وتكف الدمع بحصول التلاقي ، والمعنى أتى طبت نفسا بالبعد والفراق ، ووطئت نفسى على مقاساة الأحران والأشواق ، وأتجرع الغصص ، وأحتمل لأجلها حزنا يُفِيضُ الدَّمُوعَ من عيني لا تسبب بذلك إلى وصل يدوم ، ومسرة لا تزول ، فتجمد عيني ويرقأ دمعى ، فإن الصبر مفتاح الفرج ؛ فكثي بسكب الدموع عن الكابة والحزن ، وهو ظاهر المعنى لأنه كثيرا ما يُجْعَلُ دليلا عليه ، يقال أبكاني الدهر وأضحكنى بمعنى ساءنى وسرتنى ؛ وكثي بجمود العين عما يوجبه دوام التلاقي من الفرح والسرور ؛ فإن المتبادر إلى الذهن من جمود العين بخلها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ما قصده الشاعر من التعبير به عن الفرح والسرور ، وإن كانت حالة جمود الدمع مشتركة بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء ، وبين زمن السرور الذى لم يطلب فيه بكاء ؛ وكذلك يجرى القول فى كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلى الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلى أحدهما ، كما صرح به الرماني وغيره ، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذى يدل عليه اللفظ المشترك

مستقيحا كما نبه عليه ابن الأثير في الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام ، وبين الإهانة بسبب الخيانة التي لا توجب الحد : من الضرب وغيره ، والمعنيان ضدان فحيث وردت معها قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حسنة راقية ، وكانت في أعلى درجات الفصاحة ؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى : ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوهُ﴾ وقوله : «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ» الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير في الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر في الآية الثانية زال اللبس وحسن الموقع ، ولو وردت مهملة بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن ، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح ، كما لو قلت عزز القاضي فلانا وأنت تريد أنه عظمه ، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه ، وعلى هذا النهج يجري الحكم في الحسن والقبح مع القرينة وعدمها .

قال ابن الأثير رحمه الله : فما ورد مع القرينة بفاء حسنا قول تأبط شرا : أقول للحيان ، وقد صفرت لهم * وطأبي ويومئ ضيق الجحر معور فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه ثجته الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب بكسر الحية واليربوع ونحوهما ، وعلى المحل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملا بغير قرينة تخلصه سبق إلى الفهم المعنى القبيح لأشتهاره دون غيره . وما ورد مهملا بغير قرينة بفاء قبيحا قول أبي تمام :

أعطيتني دية القتيل وليس لي * عقل ولا حق عليك قديم

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لي عقل أنه من العقل الذي هو ضد الجنون ولو قال وليس لي عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إذاً على صاحب هذه الصناعة أن يراعى في كلامه مثل هذا الموضع .

الصفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليماً من تنافر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة)

وقد اختلف في معنى هذا التنافر على ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول - أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون في الكلام ثَقْلٌ على اللسان ويعسرُ النطقُ به على المتكلم ، وإليه ذهب السَّكَّاكِيُّ وغيره من علماء البيان . وهو على ضربين .

الضرب الأول - أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبي تمام :

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى * معى ، وإذا مالمته ، لُمته وحدى

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعض الثقل على اللسان في النطق به ، وذلك أن الاء والهاء متقاربان في المخرج ، وقد اجتمعا في قوله أمدحه ، ثم تكررت الكلمة في البيت مع تقارب مخرج الحرفين فتقلت بعض الثقل .

وأول من نبه على ذلك الأستاذ ابن العميد رحمه الله .

ومما يحكى في ذلك أن صاحب بن عبَّاد أنشد هذا البيت بحضرة ابن العميد ، فقال له ابن العميد : هل تعرف في هذا البيت شيئاً من الهُجْنَةِ ؟ فقال : نعم ، مقابلة المدح باللوم وإنما يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقال له ابن العميد : غير هذا أريد ، قال : لا أرى غير ذلك . فقال ابن العميد : هذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمع بين الاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حدِّ الاعتدال ، نافر كل التنافر ، فاستحسنه صاحب بن عبَّاد ذلك .

قال الشيخ سعد الدين التفتازانى في شرح تلخيص المفتاح : ولا يجوز أن يراد أن الثقل في لفظة أمدحه دون تكرار ، فإن مثل ذلك واقع في التنزيل نحو قوله تعالى :

”فَسَبَّحَهُ“، والقول باشتغال القراءان على كلام غير فصيح مما لا يجترئ عليه المؤمن .
الضرب الثانى - ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة النطق به ، كقوله :

وَقَبْرُ حَرْبٍ يُمْكِّنُ قَفْرَ * وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف ، فصاح واحد منهم على حَرْبِ بن أُمَيَّةَ فأت ، فقال ذلك الجنّ هذا البيت . قال المسعودى فى ”مروج الذهب“ : والدليل على أنه من شعر الجن أمران ، أحدهما الرواية ، والثانى أنه لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَتَعَثَّ فيه . قال ضياء الدين بن الأثير : والسبب فى ثقل البيت تكرير حرفى الباء والراء فيه ، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها سِلْسِلَةٌ ، ولا خَفَاءَ بما فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم فى كل ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلَقْ على ذلك اسم التنافر ، وجعل التنافر قسما مستقلا برأسه كما سيأتى ، وعدّ هذا من أنواع المعاطلة اللفظية ، ثم ذكر من أمثله قول الحريرى فى مقاماته :

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا * وَعَافَ عَافِيَ الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ
وقول كُشَايِمَ :

وَالزَّهْرُ وَالْقَطَرُ فى رُبَاها * مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ
حَدَائِقُ ، كَفُّ كُلِّ رِيحٍ * حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلَلْتُ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفَدَّى * مَلِيحٍ مَانِعٍ مَنِى مُرَادَى

وقول المتنبي :

كَيْفَ تَرْتِى التّى تَرِبَ كُلُّ جَفْنٍ * رَأَعَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقٍ

وعاب بيت الحريرى لتكرر العين فيه في قوله :

* وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثانى من بيتى كشاجم لتكرر الكاف فيه في "كَفَّ وَكَلَّ" الاولى و"كل" الثانية، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى رِكَارٍ يضعه في شِدْقِهِ حتى يديره له ؛ وعاب البيت الذى يليه لتكرر الميم فيه في أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عُقْدٌ ، متصلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبي لتكرر الجيم والراء في أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنما يَعرِضُ لقائله في نوبة الصَّرع التى تنوبه في بعض الأيام . قال : وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسم من المعاطلة كثيرا في كلامه نثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفته لسلك الطريق كقوله في وصف رجل سخي : "أنت المُرِيحُ كِيدَ الرِّيحِ ، والمَلِيحُ إنْ نَجَّهَمَ المَلِيحُ بالتكليم ؛ عند سائل يَلُوح ، بل تفوق إذ تَرُوقَ مَرَأَى يُوْح ؛ يامغبوق كأس الحمد يامصبُوح ضاق عن نَدَاك اللُّوح ، وبيابك المفتوح يستريح ويُرِيحُ ذو التَّبرِيحِ ، ويُرْقَهُ الطَّلِيحُ " فانظر إلى حرفي الراء والحاء كيف لزمهما في كل لفظة من هذه الألفاظ بجاء على ما تراه من الثقل والغثاثة .

ثم قال : وأعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه أستحسنانا ، فقالوا في جعل لك : جَعَلَكْ ، وفي تضربوننى تضربُونى ، وكذلك قالوا : أَسْتَعِدَّ فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه أَسْتَعَدَدَ ، وَأَسْتَتَبَّ الأمر إذا تهيأ والأصل فيه أَسْتَتَبَّ ، وأشبه هذا كثير في كلامهم حتى إنهم لَشَدَّة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفين المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أَمَلَيْتُ

(١) صوابه أحد الحرفين كما هو نص العبارة في المثل السائر .

الكتاب ، والاصل فيه أملت ، فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا .

قلت : ليس تكرر الحروف مما يوجب التنافر مطلقا كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفتها على اللسان ، وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كيف اجتمع فيه ست عشرة ميم في آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع وميمان في موضع ، مع ما أشتملت عليه من الطلاوة والروني الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثاني - أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثاني غير مشاكل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكري في "الصناعتين" فما اختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموعل :

فَنَحْنُ كِجَاءُ الْمِزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا * كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلٍ

فليس بين قوله ما في نصابنا كهام وقوله فنحن كجاء المزن مناسبة لأن المراد بالكهَام الذي لا غناء به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كهَام أي لا غناء عندهم ، ورجل كهَام أي مُسِنٌّ ؛ كذلك سَيْفٌ كهَامٌ أي كَلِيلٌ ، ولسان كهَامٌ أي عَيٌّ ، وفرس كهَامٌ أي بطيء ، فهو يصف قومه بالنجدة والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يغني ، وماء المزن إنما يحسن في وصف الجود والكرم . قال في "الصناعتين" : ولو قال : ونحن ليوث الحرب وأولو الصرامة والنجدة ، ما في نصابنا كهَامٌ ، لكان الكلام مستويا ؛

أو فتن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكف ، لكان جيداً ؛ ومن ذلك قول طرفة :
ولست بحلال التلّاع مخافة * ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فالمصراع الثاني من البيت غير مشاكِل لصورة المصراع الأول وإن كان المعنى صحيحاً لأنه أراد ولست بحلال التلّاع مخافة السؤال ولكني أنزل الأمكنة المرتفعة لينتابوني وأرفدهم ، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيراً صحيحاً ولكنه خطه وحذف منه

منه حذفاً كثيراً فصار كالمتنافر ؛ وأدواء الكلام كثيرة ؛ ومنه قول الأعشى :

وإن أمراً أسرى إليك ودونه * سهوب ومومة وبيداء سملق ،

لمحتوفة أن تستجيب ليصوته * وأن تعلمي أن المعان موفق

فقوله : وأن تعلمي أن المعان موفق غير مشاكِل لما قبله ؛ وعلى نحو ذلك ورد قول عترة :

حرق الجناح كأن لحى رأسه * جلمان بالأخبار هش مولع

إن الذين نعبت لي يفراقهم * هم أسلموا ليل التمام وأوجعوا

فليس قوله بالأخبار هش مولع من صفة جناحيه ولحيته ؛ وقريب منه قول أبي تمام :

محمد إن الحاسدين شهود * وإن مصاب المزن حيث تريد

فليس النصف الثاني من النصف الأول في شيء ؛ وكذلك قول الطالبي :

قوم هدى الله العباد بجهنم * والمؤثرون الضيف بالأزواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعجزه بوجه .

وعند بعض الأدباء من هذا النوع قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ، * ولم أبتطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسيا الرق الروى ولم أقل * لخيلى كرى كرة بعد إجفال

وقال : لو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل في آستواء النسيج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * لخليلى كرى كرة بعد إجحال

ولم أسبأ الزق الروى للذة، * ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لأن ركوب الجواد مع ذكر مرور الخيل أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن . قال في "الصناعتين" : قال أبو أحمد : والذي جاء به أمرؤ القيس هو الصحيح لأن العرب تضع الشئ مع خلافه، فيقولون : الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى . قال أبو هلال العسكري : أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مدرّك نتعلم منه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعت الكلمة مع لفيها، كنتم شعراء . ثم قال : أجزوا هذا البيت :

* أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ عُرُورِ *

فأجازه كل واحد منا بشئ، فلم يرضه . فقلت أنا :

* وَإِنْ عَظُمَتْ فِي أَنْفُسٍ وَصُدُورِ *

فقال : هذا هو الجيد المختار . قال : وأخبرنى أبو أحمد الشطنى قال : حدثنا أبو العباس بن عربى، قال : حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة، قال : دفن مسلمة رجلا من أهله ثم قال :

* نَرُوحُ وَنَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فَحَقِّ مَتَى هَذَا الرَّوَّاحُ مَعَ الْغُدُوِّ *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

* فإلك مَعْدَى مَرَّةً وَمَرَّاحًا *

فقال : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا زُرُوحُ وَلَا نَعْلُو *

فقال : الآن تم البيت ، وأشباه ذلك ونظائره كثيرة . ومما اختلف فيه البيت الأول والثاني قول ابن هرمة :

وإني وتركي ندى الأكرمين * وقدحى بكفى زندا شحاحا

كماركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

وقول الفرزدق :

فإنك إذ تهجو تيمًا وترثني * سرايل قيس أو سجوف العمائم

كهمريق ماء بالفلاة ، وغره * سراب أذاعته رياح السائم

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة الأول مع بيت الفرزدق الثاني ، وبيت الفرزدق الأول مع بيت ابن هرمة الثاني ، فيقال في الأول :

وإني وتركي ندى الأكرمين * وقدحى بكفى زندا شحاحا

كهمريق ماء بالفلاة وغره * سراب أذاعته رياح السائم

مع تغيير إحدى الفافيتين ، ويقال في الثاني :

وإنك إذ تهجو تيمًا وترثني * سرايل قيس أو سجوف العمائم

كماركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

مع تغيير إحدى الفافيتين حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث - أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما في معناها أولى بالذكر، فتجىء الكلمة غير لا ثقة بمكانها، وهو ما أصطلح عليه ابن الاثير في "المثل السائر". وهو على ضربين .

الضرب الأول ، ما يوجد منه في اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو في معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا؛ وهو على أنواع شتى .

منها فك الإدغام في غير موضع فكّه، كقول ابن أمّ صاحب :
مَهْلًا أَعَاذَلْ قَدْ جَرَّبْتُ مِنْ خُلُقِي * أَنِي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَيَّنُوا
فَكَكَّ الإدغام في ضننوا، وكان الأحسن أن يقال : وَإِنْ ضَنُّوا أَيْ بَحَلُّوا .
وعلى حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فَلَا يُبْرِمُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ * وَلَا يُحْلِلُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارة في مكانها، غير قلقة ولا نافرة؛ وكذلك كل ما جاء على هذا النهج فلا يحسن أن يقال بَلَّ الثوبَ فهو بالل؛ وَلَا سَلَّ السيفَ فهو سائل، وَلَا هَمَّ بالامر فهو هامم، وَلَا خَطَّ الكتابَ فهو خاطط، وَلَا حَنَّ إِلَى كَذَا فهو حانن؛ وهذا لو عُرِضَ على من لا ذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟ لكن لا بد لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف في غير موضعه، كقول دِعِيلٍ :

شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ فِي الْحَوَاجِ، إِنَّهُ * يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فالفاء في قوله فاشكر زائدة في غير محلها، نافرة عن مكانها . قال الوزير ضياء

الدين ابن الاثير : أنشدني بعض الأدباء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، وأما صدره ففحيح : لأن سبكه قَلَقَ نافر، والفاء في قوله فاشكر كأنها رُكْبَةُ البعير،

وهي في زيادتها كزيادة الكَرش، فقال : لهذه الفاء في كتاب الله تعالى أشباه : كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء في قوله تعالى : ”وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ“ فهي الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : ”قُمْ فَأَنْذِرْ“ وهي مثل قولك : آمش فأسرع، وقل فأبلغ، وليست الفاء التي في قول دُعِيل : شفيعك فاشكر من هذا القليل ، بل هي زائدة ولا موضع لها ، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدم معطوف عليه^(١)، وحاشا فصاحة القراء من ذلك . فأدعن بالتسليم ورجع إلى الحق . قال : ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراشح في علم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع في الشعر وإن كان ذلك جائزا فيه بخلاف النثر كقول أبي تمام :

قَرَأَنِي اللَّهُ وَالْوُدَّ حَتَّى كَأَمَّا * أَفَادَ الْغَنَى مِنْ نَائِلٍ وَفَوَائِدِي

فَأَصْبَحَ بِأَقَانِي الزَّمَانُ مِنْ آجَلِهِ * بِإِعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِ

فقوله من آجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر؛ وعلى حده ورد قول أبي الطيب :

يُوسِّطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ * طَلَابُ الطَّالِبِينَ لَا لِالْتِنَظَارِ

فقوله لا الانتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر .

ومنها قطع همزة الوصل في الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أَرَى اثْنَيْنِ أَحْمِلَ شِمَةً * عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمَلِ

(١) لم يذكر الثاني وقد ذكره في ”المثل السائر“ فقال . وأما الذوق فإنه ينبوع الفاء الواردة في قول

دُعِيل ويستقلها ... إلى أن قال فلما سمع ما ذكرته أذعن الخ .

وقوله أيضا :

إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرُّ فَإِنَّهُ * يَنْشُرُ وَتَكْثِيرِ الْوُشَاةِ قَمِينُ

فقطع ألف الوصل في لفظ الإثنين في البيت الأول والثاني .

ومنها أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحترى :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ * وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبي المتعلق بها ، فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبي والصفة التى

هى المتعلق بالضمير الذى هو بها ، قُبِحَ ذلك . ولو قال من قلب بها متعلق لزال ذلك القبح وزهبت تلك الهُجْنَةُ . ونحو ذلك .

الأصل الرابع

(المعرفة بالسجع الذى هو قوام الكلام المنثور وعلو رتبته ،

ويتعلق به ستة أغراض)

الغرض الأول

(فى معرفة معناه فى اللغة والأصطلاح ، وبيان حكمه فى حالتي الدرج والوقف)

أما فى اللغة فقال فى "مواد البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم

لأستقامته فى الكلام ، وأستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة : وهو ترجيعها الصوت

على حد واحد ، يقال منه سَجَعَتِ الحمامةُ تَسْجَعُ سَجْعًا فهى ساجعة ؛ سُمِّيَ السجع

فى الكلام بذلك لأن مقاطع الفصول تأتى على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمات

متوازنة متائلة . فأشبه ذلك الترجيع .

وأما فى الأصطلاح ، فقال فى "مواد البيان" : هو تَقْفِيَّةُ مقاطع الكلام من ذير

وزن ، وذكر نحوه فى "المثل السائر" فقال : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور

على حرف واحد ؛ ويقال للجزء الواحد منه سَجْعَةٌ ، وتجمع على سَجَعَاتٍ ، وَفَقْرَةٌ (بكسر

الفاء) أخذاً من فِقْرَةِ الظهر : وهى إحدى عظام الصُّلْب ، وتجمع على فِقَرٍ وفِقْرَات بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها ، وربما فتحت الفاء والقاف جميعاً ، ويقال لها أيضاً قَرِينَةٌ لمقارنة أختها وتجمع على قرائن ، ويقال للحرف الأخير منها حرف الرُّوى والفاصلة .

وأما بيان حكمه فى الوقف والدرج فأعلم أن موضوع حكم السجع أن تكون كلمات الأَسْجَاع ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدرج : لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزاوجة بين الفقر، وذلك لا يتم إلا بالوقف . ألا ترى أن قولهم : ما أبعدَ ما فات ، وما أقربَ ما هوات ، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بد من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيه حكم الإعراب فتختلف أواخر القرائن ويفوت الساجع غرضه .

الغرض الثانى

(فى بيان حُسْن موقعه من الكلام)

قال فى "الصناعين" : لا يحسن مشور الكلام ، ولا يحلو حتى يكون مُزْدَوجاً ، ولا تجد لبليغ كلاماً محلولاً من الأزواج ، وناهيك أن القراء الكريم الذى هو عنصرُ البلاغة ومَنَاطُ الإعجاز مشحونٌ به ، لا تخلو منه سورة من سورِهِ وإن قصرت . بل ربما وقع السجع فى فواصل جميع السورة ، كما فى سورة النجم ، وأقربت ، والرحمن وغيرها من السُور . بل ربما وقع فى أوساط الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأْهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ وما أشبه ذلك . وكذلك وقع فى الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : ” أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامَ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ “ . بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها في تصريح اللغة طلبا للزوجة : كقوله في تعويذه لابن أبنته : ” أُعِيْذُهُ مِنَ الْهَامَةِ وَالسَّامَةِ ، وَالْعَيْنِ اللَّامَةِ “ ، وأصلها في اللغة الملمة لأنها من ألم ، فعبر عنها باللامة لموافقة الهامة والسامة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : ” أَنْصَرِفْنَ مَازُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ “ ، والأصل في اللغة أن يقال مَوْزُورَاتٍ أخذًا من الوِزْرِ ، فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات ، وعلى ذلك كان يجري كلام العرب في مهم كلامهم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بانه : اللهم إِنْ كُنْتُ قَدْ أَبْلَيْتَ ، فَطَالَمَا عَاقَيْتَ . وقول الآخر : اللهم هَبْ لَنَا حَبَكَ ، وَأَرْضَ عَنَا خَلْقَكَ ، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل في الجَنَيْنِ بغرة عبد أو أمة ، فقال الرجل : أَأَدَى مِنْ لَاشَرِبَ وَلَا أَكَلَ ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَسْتَهَلَ ، ومثل ذلك يُطَلَّ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ” أَتَجْعَلُكَ سَجْعَ الْكُهَّانِ “ ، فليس فيه دلالة على كراهة السجع في الكلام وإن تمسك به بعض من نبأ عن السجع طبعه ، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجع الكُهَّانِ ، لما في سجعهم من التكلف والتعسف كما وجهه أبو هلال العسكري ، وإما لجريانه على عادتهم في الجواب في الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ؛ أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لانفس السجع الماتى به كما اختاره صاحب ” المثل السائر “ ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسه ، لاقصر على قوله أَسْجَعًا ولم يقيد بسجع الكُهَّانِ .

الغرض الثالث

(في بيان أقسام السجع ، وهى راجعة إلى صنفين)

الصنف الأول

(أن تكون القرينتان متفقتين في حرف الروى ، ويسميه الرمانى السجع الحالى)
وعليه عمل أكثر الكُتّاب من زمن القاضى الفاضل ، وهلمَّ جرّاً
إلى زماننا ، وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء
ويسمى التصريح ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه في النثر قوله تعالى :
(**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**) وقوله : (**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ**) ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : ” **اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي ،
وَاغْسِلْ حَوْبَتِي** ” . وقوله للأَنْصار ” **إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرْعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ** ”
وقول بعض الأعراب في وصف سنة جذبة : **سنة جردت ، وحال جهدت ، وأيد
جمدت ، ونحو ذلك . ومثاله في النظم قول الخنساء :**

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْدَى الطَّرِيقَةِ ، نَفَاعٌ وَضَرَارُ !
جَوَابُ قَاصِيَةِ ، جَرَّازُ نَاصِيَةِ ، * عَدَدُ أَلْوِيَةِ ، لَحِيلُ جَرَّارُ !

المرتبة الثانية - أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفقرتين فقط ، دون
ماعداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالى : (**فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ**)
ثم قال : (**وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ**) . وكقول الحريري في مقاماته : **أَلْجَائِي
حُكْمٌ دَهْرٍ قَاسِطٌ ، إِلَى أَنْ أُنْتَجِعَ أَرْضَ وَاسِطٍ** . وقوله : **وَأَوْدَى النَاطِقُ وَالصَّامِتُ ،
وَرَتْنِي لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ ، وما أشبه ذلك .**

المرتبة الثالثة - أن يقع الاتفاق في حرف الروى مع قطع النظر عن التوازن في شيء من أجزاء الفقرة في آخر ولا غيره، ويسمى المطرف . كقوله تعالى : (مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) وقولهم : جَنَابَهُ مَحَطُّ الرَّحَالِ ، وَمُحِيْمُ الْأَمَالِ . وما يجرى هذا المجرى .

الصنف الثانى

(أن يختلف حرف الروى في آخر الفقرتين ، وهو الذى يعبرون عنه بالازدواج . والرمانى يسميه السجع العاقل ، وعليه كان عمل السلف من الصحابة ومن قارب زمانهم : وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يقع ذلك في النثر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولى - أن يراعى الوزن في جميع كلمات القرينتين أو في أكثرها ، مع مقابلة الكلمة بما يعادها وزناً ، ويسمى التوازن وهو أحسنها وأعلاها . كقوله تعالى : ”وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ“ وكقول الحريرى : اسودَّ يومى الأبيض ، وأبيض فودى الأسود .

المرتبة الثانية - أن لا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين فقط ، ويسمى التوازن أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ”وَمَارِئُ مَصْفُوفَةٍ وَزَرَائِي مَبْثُوثَةٍ“ وقولهم : اصْبِرْ عَلَى حَرِّ الْقِتَالِ ، وَمَضِضِ النَّزَالِ ، وَشِدَّةِ النَّصَاعِ ، وَمُدَاوِمَةِ الْبِرَازِ ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثاني

(السجع الواقع في الشعر)

ويسمى التصريح في البيت الأول، ومحل الكلام عليه علم البديع . وقد ذكره في المثال السائر في أعقاب الكلام على السجع في الكلام المنثور، وجعله على سبع مراتب .
المرتبة الأولى - وهي أعلاها درجة - أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه، ويسمى التصريح الكامل : كقول امرئ القيس :
أَفَاطِمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ * وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَزْمَعْتَ هَجْرِي فَأَجْلِي
فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه في الفهم، وليس له به ارتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية - أن يكون المِصْرَاعُ الأول مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى الذي يليه إلا أنه مرتبط به، كقول امرئ القيس أيضا :
قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَتَرِلِ * بِسِقْطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فإن المِصْرَاعَ الأول منه غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه، ولكنه لما جاء الثاني صار مرتبطاً به .

المرتبة الثالثة - أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمى التصريح المَوْجَّه، كقول ابن حجاج :

مِنْ شُرُوطِ الصُّبُوحِ فِي الْمَهْرَجَانِ * خِفَّةُ الشَّرْبِ مَعَ حُلُوتِ الْمَكَانِ

فإنه لو جعل المِصْرَاعَ الثاني أولاً والآخر ثانياً، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة - أن يكون المِصْرَاعُ الأول غير مستقل بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني، ويسمى التصريح الناقص، وليس بمستحسن . كقول المتنبي :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَغَانِي * بِمَتَرَلَةِ الرَّيِّعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المِصْرَاعَ الأوَّلَ لا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فِي فَهْمٍ مَعْنَاهُ دُونَ الْمِصْرَاعِ الثَّانِي .

المرتبة الخامسة - أن يكون التصريح في البيت بلفظة واحدة في الوسط والقافية، ويسمى التصريح المكرر؛ ثم اللفظة التي يقع بها التصريح قد تكون حقيقة لا مجاز فيها، كقول عبيد بن الأبرص :

وَكُلُّ ذِي غِيَّةٍ يُتُوبُ * وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُتُوبُ

وقد تكون اللفظة التي يقع بها التصريح مجازية كقول أبي تمام الطائي :

فَتَى كَانَ شَرِبًا لِلْعُقَاةِ وَمَرْتَعًا * فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبَيْضَ مَرْتَعًا

المرتبة السادسة - أن يكون المِصْرَاعُ الأوَّلُ معلقًا على صفة يأتي ذكرها في أول المِصْرَاعِ الثَّانِي؛ ويسمى التصريح المعلق . كقول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا آنَجَلِي * بِصُبحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمَثَلِ

فإن المِصْرَاعَ الأوَّلَ معلق على قوله بِصُبحٍ، وهو مستقبح في الصنعة .

المرتبة السابعة - أن يكون التصريح في البيت مخالفًا لقافيته؛ ويسمى التصريح المشطور، وهو أنزل درجات التصريح وأقبحها . كقول أبي نؤاس :

أَقْلَنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ * وَبِالإِفْرَارِ عُدْتُ مِنَ الْجُودِ

فإنه قد صرَّع في وسط البيت بالباء ثم في آخره بالذال .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر لأنه قد يقع مثله في النثر إذ الفقرة من النثر كالبيت من الشعر، فالفقرتان كالبيتين، وأيضًا فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(في معرفة مقادير السجعات في الطول والقصر، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(السجعات القصار)

وهي ماصيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال في "حسن التوسل": وهي تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل ما يكون من لفظتين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثاله في القرآن الكريم كثير إلا أن الزائد على ذلك أكثر. كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآنَشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ مُّسْتَقِرَّةٌ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا آتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك.

الضرب الثاني

(السجعات الطوال)

قال في "حسن التوسل": وهي ألد في السمع، يتشوق السامع إلى ما يرد مترايدا على سمعه، وأقل ما تتركب من إحدى عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حولها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّسَّةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأولى من إحدى عشرة لفظة، والثانية من ثلاث

عشرة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأولى من أربع عشرة لفظة ، والثانية من خمس عشرة ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَوْهُمُ كَثِيرًا وَقَالُوا لَئِنْ كُنَّا لَهُمْ مُنْقِذَةٌ لَنَنْزِعَنَّ فِي الْأَمْزِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُهُمْ إِذْ يَنْفَعُكُمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلَقُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَع الْأُمُورُ ﴾ فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة ، وهذا غاية ما انتهى إليه الطول في القراءة الكريم . وينبغي أن يكون ذلك نهاية الطول في السجع وقوفاً مع ما ورد به القراءة الكريم الذي هو أفصح كلام ، وأقوم نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره .

وأعلم أنه قد جرت عادة كتّاب الزمان ومصطلحهم أن تكون السجعة الأولى من افتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرة بحيث لا يتعدى آخرها السطر الثاني في الكتابة ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب . وعلى هذا فيختلف القصّر فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض .

الغرض الخامس

(في ترتيب السجعات بعضها على بعض في التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر ؛ وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن لا يزيد السجع على سجتين ؛ وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون القرينتان متساويتين لا تزيد إحداهما على الأخرى كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾

فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا فَآثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) وأمثال ذلك .
 المرتبة الثانية - أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى بقدر يسير كقوله
 تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ
 بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولى ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ؛ أما
 إذا طالت الثانية عن الأولى طولاً يخرج عن الاعتدال ، فإنه يستقبح حينئذ ،
 وَوَجَّهَهُ في "حسن التوسل" بأنه يُبعد دخول القافية على السامع فيقلّ الالتذاذ
 بسماعها . والمرجع في قدر الزيادة والقصر إلى الذوق .

المرتبة الثالثة - أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى . قال في "المثل السائر" :
 وهو عندي عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد آستوفى أمده من الفصل الأول
 بحكم طوله ، ثم يجيء الفصل الثاني قصيراً فيكون كالشيء المبتور ، فيبقى الإنسان عند
 سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، وفيما قاله نظر ، فقد تقدّم في قوله تعالى :
 ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكَبِكُمْ قَلِيلًا ﴾ الآيتين أن الأولى عشرون كلمة والثانية تسع
 عشرة ، بل قد آختر تحسين ذلك أبو هلال العسكري في "الصناعتين" محتجاً به بكثرة
 وروده في كلام النبوة كقوله صلى الله عليه وسلم لا نصار : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ
 الْفَزَعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ " وقوله : " الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَوْا دِمَاؤُهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ
 سِوَاهُمْ " وقوله : " رَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَنِعِمَّ ، أَوْ سَكَّتَ فَسَلَمَ " .

الحالة الثانية

(أن يزيد السجع على سبعتين . ولها أربع مراتب)

المرتبة الأولى - أن يقع على حدّ واحد في التّساوى ، وهو مستحسن ، وقد ورد
 في القراءات الكريم بعض ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية - أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا بِأَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَوْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة - أن تكون الأولى والثانية متساويتين ، والثالثة زائدة عليهما ؛ وقد أشار إلى هذه المرتبة في "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة ، ولم يمثل لها .

المرتبة الرابعة - أن تكون الثانية زائدة على الأولى ، والثالثة زائدة على الثانية . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن تكون في هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة في الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة ، ومثل له في "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر ، ومثل له في "المثل السائر" بقوله في وصف صديق : فقلت : الصديق من لم يعتض عنك بخالف ، ولم يعاملك معاملة الخالف ، وإذا بلغه أنه وشاية أقام عليها حد السارق أو القاذف ؛ فالأولى : وهي لم يعتض عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغي أن يكون ما يستعمل من هذا القليل ، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط في "حسن التوسل" الزيادة في الثالثة بأن لا تتجاوز المثل، والأمر فيما بين الضابطين قريب، ولا يخفى حكم الرابعة في الزيادة مع الثالثة. قال في "حسن التوسل": "ولا بد من الزيادة في آخر القرائن ."

الغرض السادس

(فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيُعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمور أخرى .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف، خاليا من التعسف، محمولا على ما يأتي به الطبع وتبديده الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، بأن يُقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه في المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى ، نرجح السجع عن حيز المدح إلى حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة، لا غثة ولا باردة، موقنة المعنى، حسنة التركيب، غير قاصرة على صورة السجع الذي هو تواطؤ الفقير، فيكون كن نقش أبوابا من الكُرسف، أو نظم عقدا من الحرز الملون . قال في "المثل السائر": وهذا مقام تزل عن الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، ولولا ذلك كان كل أديب سجعاً إذ ما منهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة في الجملة .

ومنها أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها ، لأن أشتمال السجعتين على معنى واحد يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام ، وهو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها على ما هو مقترن فى علم البيان . قال فى "المثل السائر" : فلا يكون مثل قول الصابى فى وصف مُدَبَّر : "يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويسير تديره وهو ناو لم يبرح" ، ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويُخِنُ الحراح فى عدوه وسيفه فى الغمد لم يجرح ، لَسَلِمَ من هُجَنَةِ التكرار : فإنه تصير كل سبعة محتوية على معنى بحاله .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار ، كَلَّتِ الأبصار ، وقولهم : ما وراء الخلقِ الدِّمِمْ ، إِلَّا الخُلُقُ الذَّمِمْ ، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السبعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعاً فى سجع ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فإن قوله : ﴿ على أموالهم ﴾ وقوله : ﴿ على قلوبهم ﴾ سجعان داخلتان فى السبعة التى آخرها ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ بأخذه ﴾ وقوله : ﴿ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ سجعان داخلتان فى السبعة التى آخرها : ﴿ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وعدَّ العسكرى منه قولهم : عادَ تَعْرِضُكَ تصريحا ، وتَمْرِضُكَ تَصْحِيحا .

وأما قبحه فيعتبر بأمور .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكى قدامة : أن كاتباً كتب فى جواب كتاب ، وصل كتابك فوصل به

مَا يَسْتَعِيدُ الْحَرْفَ، وَإِنْ كَانَ قَدِيمَ الْعُبُودِيَّةِ، وَيَسْتَعْرِقُ الشُّكْرَ، وَإِنْ كَانَ سَالِفَ فَضْلِكَ
لَمْ يَبْقَ شَيْئًا مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْعُبُودِيَّةَ بَعِيدَةٌ عَنْ مِشَاكَلَةِ مَنْه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قَدَامَةً وَغَيْرُهُ : وهو أَنْ يَحْيَى الْجُزْءَ الْأَوَّلَ طَوِيلًا
فِيحْتَاجُ إِلَى إِطَالَةِ الثَّانِي بِالضَّرُورَةِ . كَمَا حَكَى قَدَامَةً أَنَّ كَاتِبًا كَتَبَ فِي تَعْزِيَةِ : إِذَا
كَانَ لِلْمَحْزُونِ فِي لِقَاءِ مِثْلِهِ كَبِيرُ الرَّاحَةِ فِي الْعَاجِلِ، وَكَانَ طَوِيلُ الْحُزْنِ رَاتِبًا إِذَا رَجَعَ
إِلَى الْحَقَائِقِ وَغَيْرِ زَائِلٍ . قَالَ فِي "الصَّنَاعَتَيْنِ" : وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَطَالَ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ ،
وَعَلِمَ أَنَّ الْجُزْءَ الثَّانِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ أَطْوَلَ، أَحْتَاجُ إِلَى تَطْوِيلِ الثَّانِي فَاتَى
بِاسْتِكْرَاهٍ وَتَكْلَفٍ . قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَالْإِطَالَةُ بِقَوْلِهِ وَغَيْرِ زَائِلٍ . .

الأصل الخامس

(حسن الاتباع ، والقدرة على الاختراع)

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكَاتِبِ الْإِنْشَاءِ مَسْلُكَيْنِ :

المسلك الأول

(طريقة الاتباع)

وَهِيَ نَظَرُ الْكَاتِبِ فِي كَلَامٍ مِنْ تَقْدَمُهُ مِنَ الْكُتَّابِ ، وَسُلُوكٍ مِنْهُمْ ، وَأَقْتِفَاءِ
سَبِيلِهِمْ، وَسِمَاهَا آيَةُ الْإِثْبَارِ التَّقْلِيدِ؛ وَهِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ .

الصنف الأول

(الاتباع في الألفاظ)

وَهُوَ اعْتِمَادُ الْكَاتِبِ عَلَى مَا رَتَبَهُ غَيْرُهُ مِنَ الْكُتَّابِ، وَأَنْشَاءُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَةِ
الْبَثْرِ، بَأَن يَحْتَمِدَ إِلَى مَا أَنْشَأَهُ أَفْضَلُ الْكُتَّابِ وَرَتَبَهُ عُلَمَاءُ الصَّنَاعَةِ : مِنْ ثَرَاوِ نَظْمٍ
فِيَاخَذُهُ بِرُمَّتِهِ، وَيَأْتِي عَلَيْهِ بِصِيغَتِهِ، وَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ نَاسِخًا نَاقِلًا لِكَلَامِ غَيْرِهِ، حَاكِيًا

له . ولمثل ذلك توضع الدساتير ، وتُدَوَّن الدواوين . على أنه ربما غير وبدل ، وحرف وصحف ، وأزال اللفظ عن وضعه ، وأحال المعنى عن حكمه . وبعضهم ربما حملته الأنفة والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته ، فعدل إلى كلام غيره ، فالتقط من كل مكان مجموعتين أو سبعات ، ورتب بعضها على بعض حتى تقوم بمقصوده ، وينتهى إلى مراده .

فإن كان لطيف الذوق ، حسن الاختيار ، رائق الترتيب ، فاختار من خلال السجع لطيفه ، وأحسن رصفه وتأليفه ، جاء بهجاً رائعاً . لأنه أتى من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذى قصده النثر ، وتفريق مادون من كلام الأفاضل ، وتبديد شمله ، وخروج الكلام عن أن يُعرف قائله ، ويعلم منشئه ، فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه ، وينسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق ، ولا حسن الاختيار ، جاء مالفقه من كلام غيره رثاً ركيكاً ، نابياً عن الذوق ، بعيداً عن الصنعة ، يُعاد من النسخ إلى المسخ ، وأخرج الكلام عن موضوعه ، وأفسده في وضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى ، والمصيبة العظمى . ثم لا يكتفى بذلك حتى يتبجح به ، ويعتقد أن ذلك عين الإثشاء وحقيقته ، محتجا في ذلك بقول الحريري : ”إن صناعة الحِسَاب موضوعة على التحقيق ، وصناعة الإثشاء مبنية على التلفيق“ . ظاناً أن التلفيق هو ضم سبعات منتظمة ، وفقرات مؤلفة بعضها إلى بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها ، وإضافة كلمة إلى مشاكلتها . وستأن ما بين التلفيقين ، وبعداً لما بين الطريقين :

وللزُّبُورِ والبَّازِيِ جَمِيعاً * لَدَى الطَّيْرَانِ أَجْنَحَةٌ وَخَفَقُ
وَلَكِنْ بَيْنَ مَا يَضْطَاطُ بِازٍ * وَمَا يَضْطَاطُهُ الزُّبُورُ فَرَقُ

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كان ظاهراً مكشوفاً فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخاً لكلام غيره، وناقلاً له؟ فأى فضيلة في ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنى بلفظه كان سارقاً، ومن أخذ بعض لفظه كان سانحاً، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده كان أولى به ممن تقدمه، وأين من هو أولى بالشئ ممن سبقه إليه ممن يعدّ سارقاً وسانحاً؟ ويقال إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه. ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. هذا فيمن أخذ سجعاً أو سجعيتين في خطبة أو رسالة، أو بيتاً أو بيتين في قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكلمها، أو الخطبة أو الرسالة برميها، أو لفقها من خطب أو رسائل فذاك إنما يعدّ ناسخاً إن أحسن النقل، أو ماسخاً إن أفسده.

وأعلم أن الناثر الماهر والشاعر المُفلق قد يأتى بكلام سبقه إليه غيره، فيأتى بالبيت من الشعر أو القرينة من النثر أو أكثر من ذلك بلفظ الأول من غير زيادة ولا نقصان، أو بتغيير لفظ يسير، وهذا هو الذى يسميه أهل هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر. وقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى، فقال: عقول رجال توافت على ألسنتها.

والواقع من ذلك فى كلامهم على قسمين.

القسم الأول

(ما وقع الاتفاق فيه فى المعنى واللفظ جميعاً)

كقول الفرزدق:

وَعُرِّ قَدْ وَسَقَتْ مُشَمَّرَاتٍ * طَوَالِعَ لَا تُطِيقُ لَهَا جَوَابَا
بِكُلِّ نَيْيَةٍ وَبِكُلِّ نَغْرِ * غَرَائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ أَنْتَسَابَا
بَلَّغْنَ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقَا * وَمَسَقَطُ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

ووافقه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص . و يروى أن عمر بن
أبى ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تَسْطُ غَدًا دَارُ جِرَانِنَا *

فقال ابن عباس رضى الله عنه :

* وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَعَدُّ *

فقال عمر: والله ما قلتُ إلا كذلك . قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين":
وأنشدت الصحاب إسماعيل بن عبّاد رحمه الله :

* كَانَتْ سَرَاةُ النَّاسِ تَحْتَ أَظْلِهِ *

فسبقنى وقال :

* فَغَدَتِ سَرَاةُ النَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قُلْتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في كتابه "المثل
السائر": ويحكى أن امرأة من عَقِيل يقال لها ليلى، كان يتحدث إليها الشَّابُّ ،
فدخل الْفَرَزْدَقُ إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتى من قومها كانت تَأْلِفُهُ فدخل إليها
فأقبلت عليه وتركت الْفَرَزْدَقَ ، فغاظه ذلك فقال للفتى : أَنْصَارِعْنِي ؟ فقال : ذاك
إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ الْفَرَزْدَقَ فَصَرَعَهُ وجلس على صدره فَضَرَطَ ،
فوثب الفتى عنه وقال يَا أَبَا فِرَاسٍ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ ، والله ما أردت ما جرى ،
قال : ويحك ! والله ما بى أنك صرعتنى ولكن كَأَنِّى بَابِنِ الْأَثْنَانِ ، (يعنى جريرا) وقد
بلغه خبرى ، فقال يه جوى :

جَلَسْتَ إِلَى لَيْلَى لَتَحْضَى بِقُرْبِهَا * نَفْثَاكَ دُبُرًا لَا يَزَالُ يَحُونُ

فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وَكَأَهُ ، * كَمَا شَدَّ جُرْبَانَ الدَّلَاصِ قِيُونَ

فما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر، فقال فيه هذين البيتين . قال :
وهذا من أغرب ما يكون في هذا الموضع وأعجبه ! قال في "الصناعتين" : وإذا كان
القوم في قبيلة واحدة، في أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم
وشمائلهم تكون متضاربة. قال في "المثل السائر" : ويقال إن الفرزدق وجريراً كانا
ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندي مستبعد، فإن
ظاهر الأمر يدل على خلافه، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى، وإلا فإذا رأينا شاعراً
متقدماً الزمان قد قال قولاً ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده، علمنا بشهادة الحال
أنه أخذه منه . وهب أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة،
فكيف تتفق الألسنة أيضاً في صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكري في "الصناعتين"
يوافقه بالتعب على المتأخر، وإن ادّعى أنه لم يسمع كلام الأول في مثل ذلك .

القسم الثاني

(ما وقع الاتفاق فيه في المعنى وبعض اللفظ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما اتفق فيه المعنى وأكثر اللفظ)

كقول امرئ القيس :

وَقُوفًا بِهَا صَحِيَّ عَلَى مَطِيئِهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أَسَى، وَتَجَلِّ

وقول طرفة :

وَقُوفًا بِهَا صَحِيَّ عَلَى مَطِيئِهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أَسَى، وَتَجَلِّ

فالتخالف بينهما في كلمة القافية فقط .

وقول البعيث :

أَتَرْجُو كَلْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا * نَحِيرٌ، وَقَدْ أَعْيَا كَلْبًا قَدِيمَهَا ؟
وقول الفرزدق :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا * نَحِيرٌ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كَبَارُهَا ؟
فالتخالف بينهما في موضعين من البيت ، كلمة القافية وأسم القبيلة .

وقول بعض المتقدمين يمدح مَعْبَدًا صاحبَ الْغَنَاءِ :

أَجَادَ طُوَيْسٌ وَالسَّرِيحِيُّ بَعْدَهُ * وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلَّا لِمَعْبَدٍ
وقول الفرزدق بعده :

مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمُغَنِّينَ جَمَلَةٌ * وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلَّا لِمَعْبَدٍ

فاتفقا في النصف الثاني، وأختلفا في النصف الأول . إلى غير ذلك من الأشعار التي وقعت خواطر الشعراء عليها، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثاني

(ما آتفق فيه المعنى مع يسير اللفظ)

فمن ذلك قول البُحْتَرِيِّ في وصف غلام :

فَوْقَ ضَعْفِ الصَّغِيرِ إِنْ وَكَلَ الْأُمُّرُ إِلَيْهِ ، وَدُونََ كَيْدِ الْكِبَارِ
أخذه من قول أبي نَوَاسٍ :

لَمْ يَخْفُفْ مِنْ كِبَرٍ عَمَّا يُرَادُّ بِهِ * مِنْ الْأُمُورِ ، وَلَا أَرَى بِهِ الصَّغَرُ
وقول أبي تَمَّامٍ :

وَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً بِشِعْرِي * وَلَكِنِّي مَدَحْتُ بِكَ الْمَدِيحَا

أخذه من قول حسان بن ثابت ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
 مَا إِن مَدَحْتُ مُحَمَّدًا ! بِمَقَالَتِي * لَكِن مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّد !

وقول أبي الطَّيِّب :

أَيْنَ أَرْمَعْتَ أَيُّهَاذَا الْهُمَامُ * نَحْنُ نَبَتْ الرُّبَا ، وَأَنْتَ الْغَمَامُ

أخذه من قول بشار :

كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيْبُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاهُ الْقَطَارُ

الصف الثاني

(التقليد في المعاني)

وهذا مما لا يستغنى عنه ناظم ولا ناثر . قال أبو هلال العسكري رحمه الله في كتابه
 ”الصناعتين“ : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم
 والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من
 عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوا
 عليها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم
 أولى بها من سبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته
 أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد آسماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنين
 عليّ كرم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد ، لنفد . ومن كلام بعضهم : كلُّ
 شيء إذا شئتَه قَصُرَ إلا الكلام ، فإنك إذا شئتَه طال ، والمعاني مشتركة بين العقلاء ،
 وربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي . وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ
 ورفضها ، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني

بينهم ، فليس على أحد فيه عيبٌ إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسده في الأخذ وقصّر فيه عمن تقدّمه . قال في "الصناعتين" : وما يُعرَف للتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عنتره :

وَحَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِجٍ * غَرِدًا كَفِعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ * قَدَحَ الْمُكَبِّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

فإنه مأنوزع فيه على جودّيته . قال : وقد رامه بعض المحذّنين فافتضح مع العلم بأن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس فيه فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة فيه إلى الذى ابتكره وسبق إليه ؛ فالمعنى الجيد جيد ، وإن كان مسبوقا إليه ، والوسط وسط ، والردى ردى وإن لم يكن مسبوقا إليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب إلى أنه ليس لأحد من المتأخرين معنى مبتدع ، محتجا بذلك بأن قول الشعر قديم مذ نطق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طرّق مرارا . قال في "المثل السائر" : والصحيح أن باب الابتداع مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ؟ إلا أن من المعانى ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطَلَق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأوّل . كقولهم فى الغزل :

عَفَتِ الدِّيَارُ وَمَاعَفَتْ * آثَارُهُنَّ مِنَ الْقُلُوبِ

وقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر أو كالسحاب ؛ وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ؛ وإنه يجرى بما له من غير مسألة ؛ وأشبه ذلك .

وقولهم فى المراثى : إن هذا الرزء أول حادث ؛ وإنه آستوى فيه الأبعد والأقارب ؛ وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ؛ وإن بعد هذا الذاهب لا يعدّ للنية ذنب ؛ وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعانى الظاهرة التى تتوارد عليها الخواطر من

غير كُفَّة؛ ويستوى في إيرادها كلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَقُ على الآخر فيه اسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسم السرقة في معنى مخصوص . كقول أبي تمام :

لا تُتَكِرُوا ضَرَبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ * مَثَلًا شُرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ ،
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَفْلَ لِنُورِهِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

فإن هذا معنى ابتدأه مخصوص بأبي تمام ، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السنية التي مطلعها :

* مَا فِي وَفُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ *

أنتهى إلى قوله منها :

إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ، * فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ ، فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ

فقال الحكيم الكندي : وأى نخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فاطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمر وحاتم وإياس . فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنى ، فن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه كان سارقا له ، وكذلك كلُّ ماجرى هذا المجرى . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من معاني مَنْ قبلهم ، ويبنون على بناء مَنْ تقدّمهم .

فما وقع للشعراء من ذلك قول أبي تمام :

خُلِقْنَا ، رَجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَسَى * وَتِلْكَ الْغَوَانِي لِلْبُكَاءِ وَالْمَاتِمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مُصْعَبُ بن الزبير : وإنما التسليم والسُّلُوكُ لِحُزْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَإِنْ الْجَزَعُ وَالْهَلَعُ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ ؛ وقوله أيضا : تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا * كَأَنَّ الْمَجْدَ يُدْرِكُ بِالصَّرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف
لاستعملتك ، وقول أبي الأسود له فى جواب ذلك : إن كنت تريدنى للصراع فإنى
لا أصلح له وإلا فغير شديد أن أمر وأنهى ؛ وقوله من قصيدة البيت المتقدم :

أطال يدي على الأيام حتى * جريتُ صُروفها صاعا بصاع

أخذه من قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

فإن تُقتلَ أو يُمكنَ اللهُ منكُما ، * نكلُ لَكُما صاعاً بصاع المكايل

وقول أبي الطيب المتنبي :

وإذا كانتِ النفوسُ كباراً * تعبتُ في مُرادها الأجسامُ

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاكُ
الجسم دونَ بلوغ الشهوة .

وقول الخاسر :

من راقب الناس مات غمّاً * وفازَ باللذةِ الجسُورُ

أخذه من قول بشار :

من راقب الناس لم يَظفرَ بِحاجتِهِ . * وفازَ بالطيباتِ الفاتِكُ اللَّهيجُ

فلما سمع بشارُ بيت الخاسر ، قال : ذهب أبْنُ الفاعلةِ بيتى . ومثل هذا وأشباهه
مما لا ينحصر كثرةً ، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للكُتاب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العباس من قوله فى فصل
من كتاب : إذا كان للحسن من الثواب ما يُقنِعُه ، وللسىء من العقاب ما يُقَمِّعُه ،

أزداد الحسنُ فى الإحسان رَغْبَه ، وأنقاد المِسيءَ للحقِّ رَهْبَه . أخذه من قول على

كرم الله وجهه ! : يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى

لَا يَحْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ، وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ؛ ثُمَّ لَا يَتْرَكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ،
فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَهَاوُنَ الْحَسَنُ وَاجْتِرَاءَ الْمُسِيءِ، وَفَسَدَ الْأَمْرِ، وَضَاعَ الْعَمَلِ .

وما كتب به بعض الكُتَّابِ في فصل وهو : لو سَكَتَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ، لَنُطِقَ
أَثْرُكَ عَلَيَّ . وفي فصل آخر : ولو جَهِدْتُكَ إِحْسَانًا، لَا كَذَبْتُكَ آثَارًا، وَتَمَّتْ عَلَيَّ
شَوَاهِدُهَا . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ نُصَيْبٍ :

* وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبَ *

وما كتب به أحمد بن يوسف من فصل، وهو : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ الْعَذْرَ فِي حَالِ
شُغْلِكَ، مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بَرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَغِكَ . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ! : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرٍ مَا أُولَى، وَيَلْتَمِسُ الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ .

وَالْإِقْتِبَاسُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ كَثِيرٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ .
قَالَ فِي "الصَّنَاعَتَيْنِ" : وَمِنْ أَخْفَى أَسْبَابِ السَّرْقَةِ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنَى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدُهُ
فِي نَثَرٍ؛ أَوْ مِنْ نَثَرٍ فَيُورِدُهُ فِي نَظْمٍ؛ أَوْ يَنْقِلَ الْمَعْنَى الْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ نَحْوٍ فَيَجْعَلَهُ
فِي مَدِيحٍ . أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقِلُهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَصِلُ لِهَذَا إِلَّا الْمُبَرِّزُ الْكَامِلُ
الْمُقَدَّمُ .

وَقَالَ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ" : أَشْكَلُ بَرَقَاتِ الْمَعَانِي، وَأَدْقُهَا، وَأَغْرَبُهَا، وَأَبْعَدُهَا
مَذْهَبًا أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى بِمَجْرَدِهَا مِنَ اللَّفْظِ . قَالَ : وَذَلِكَ مِمَّا يَصْعَبُ جَدًّا وَلَا يَكَادُ
يَأْتِي إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يَتَفَقَّنُ لَهُ وَيَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الْأَشْعَارِ إِلَّا بَعْضُ الْخَوَاطِرِ دُونَ
بَعْضٍ .

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ فِي الْمَدْحِ :

قَتَّى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مِيتَةً * تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

أخذه من قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة :-

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا * من المال، يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
لِيُبْلِغَ عُذْرًا أَوْ يَنَالَ رَغِيَةً * وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

فعروة جعل أجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو غايةُ أجهاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار . قال في "المثل السائر" : وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف . وأظهر من ذلك أخذا قول القائل :

وقد عَزَى رُبْعَةً أَنْ يَوْمًا * عَلَيَّهَا مِثْلَ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

أخذه من قول ابن المُفَضَّل في باب المرائي من الحماسة :

وقد جَرَّ نَفْعًا فَقَدْ ذُنَاكَ أَتْنَا * أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

على أنه ربما وقع للتأخر معنى سبقه إليه من تقدمه ، من غير أن يُلِمَّ به المتأخر ولم يسمعه . ولا استبعاد في ذلك كما يستبعد اتفاق اللفظ والمعنى جميعا . قال أبو هلال العسكري : وهذا أمر قد عرفته من نفسي فلا أمتري فيه ! وذلك أني كنت عملت شيئا في صفة النساء ، فقلت :

* سَفَرْنَ بِدُورًا وَأَتَقَبْنَ أَهْلَةً *

وظننت أني لم أَسْبِقَ إلى جمع هذين التشبيهين حتى وجدت ذلك بعينه لبعض البغداديين فكثرت تعجبي ، وعزمت على أن لا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنى المجرد عن اللفظ لا تخرج عن آثني عشر ضربا .

الضرب الأول

أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه . قال فى "المثل السائر" : وهذا من أدق السرقات مذهباً وأحسنها صورة ، ولا يأتى إلا قليلاً . فمن ذلك قول المتنبي :

وَإِذَا أَنْتَ كَمَدْتَنِي مِنْ نَاقِصٍ ، * فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وهذا المعنى أستخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحماسة ، وإن لم يكن صريحاً فيه حيث يقول :

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَتَيْتُ * بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلٍ

قال فى "المثل السائر" : والمعرفة بأن هذا المعنى من ذلك المعنى عسر غامض غير متبين إلا لمن أعرق فى ممارسة الشعر ، وغاص على استخراج المعانى . قال : وبيان ذلك أن الأول يقول : إن بغض الذى هو غير طائل إياى قد زاد نفسى حبا إلى أى قد جمّلها فى عيني وحسنها عندى كون الذى هو غير طائل متقصى ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذى هو غير طائل نفس ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذاً من هذا الضرب قول البُخْتَرِىّ فى قصيدة يفخر فيها بقومه :

شَيْخَانٍ قَدْ ثَقُلَ السَّلَاحُ عَلَيْهِمَا * وَعَدَاهُمَا رَأَى السَّمِيعُ الْمُبْصِرُ

رَبِّمَا الْقَنَّا مِنْ بَعْدِ مَا حَمَلْنَا الْقَنَّا * فِي عَسْكَرٍ مُتَحَامِلٍ فِي عَسْكَرٍ

أخذه من قول أبى تمام فى وصف جمّل :

رَعَتْهُ الْفَيَافِي بَعْدَ مَا كَانَ حِقْبَةً * رَعَاهَا ، وَمَاءُ الرُّوْضِ يَهْلُ سَاكِبُهُ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض، ثم سار فيها فرغته أى أهنئته، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها، والبُحْتُرى نقله إلى وصف الرجل بعلو السن والهرم، فقال: إنه كان يحمل الرمح في القتال، ثم صار يركب الرمح أى يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير.

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا في الأخذ قول البُحْتُرى أيضا:
أَعَاتِكَ مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِي * إِلَيْكَ، فَالْحَى الشَّيْبَ إِذْ هُوَ مُبْعِدِي
أخذه من قول أبي تمام:
لَا أَظْلِمُ النَّأْيَ، قَدْ كَانَتْ خَلَاثُهَا * مِنْ قَبْلِ وَشِكِ النَّوَى عِنْدِي نَوَى قُدْفَا

الضرب الثانى

أن يؤخذ المعنى فيعكس، قال في "المثل السائر": وذلك حسن يكاد يخرج به حسنه عن حد السرقة.

فن ذلك قول أبي نؤاس:
. قالوا: عَشِقْتُ صَغِيرَةً، فَأَجَبْتُهُمْ * أَشْهَى الْمَطَى إِلَى مَا لَمْ يُرْكَبِ.
كَمْ بَيْنَ حَبَّةِ لَوْلُو مَثْقُوبَةٍ * نَظُمْتُ وَحَبَّةِ لَوْلُو لَمْ تُثَقَّبِ؟
وقول ابن الوليد في عكسه:

إِنَّ الْمَطِيَّةَ لَا يَلْدُ رُكُوبُهَا * حَتَّى تُدَلَّلَ بِالزَّمَامِ وَتُرْجَبَا.
وَالدَّرَ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرَابَهُ، * حَتَّى يُزَيَّنَ بِالنِّظَامِ وَيُثَقَّبَا.

ومنه قول ابن جعفر:

وَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنَهَا لَا تُرِيدُنِي * وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُجَلِّي،
تَمَنَيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَايَ لَعَلَّهَا * تَذُوقُ صَيَابَاتِ الْهَوَى فَرَقِّي لِي

وقول غيره في عكسه :

وَلَقَدْ سَرَّنِي صُدُودُكَ عَنِّي * فِي طَلَائِيكَ ، وَامْتِنَاعِكَ مِنِّي
حَذَرًا أَن أكون مِفْتَاحَ غَيْرِي ، * وَإِذَا مَا خَلَوْتُ ، كُنْتَ التَّمَنَّى

أما ابن جعفر فإنه ألقى عن منكبيه رداء الغيرة ، وأما الآخر ، فإنه جاء بالضد من ذلك وبالغ غاية المبالغة .

ومنه قول أبي الشَّيْص :

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لِذِيْدَةٍ * شَغَفًا بِذِكْرِكَ ، فَلَيْلَتُنِي الْيَوْمَ

وقول ابن الطيب في عكسه :

أَأَحِبُّهُ وَأَحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ، * إِنِ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبي تمام :

وَلَوْلَا خِلَالُ سَنَنِ الشَّعْرِ مَا دَرَيْ * بُغَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير في عكسه :

لَوْلَا الْكِرَامُ وَمَا سَنُوهُ مِنْ كَرَمٍ ، * لَمْ يَذَرِ قَائِلُ شِعْرِ كَيْفَ يَمْتَدِّحُ

الضرب الثالث

(أن يؤخذ بعض المعنى دون بعض)

فمن ذلك قول أمية بن أبي الصلت يمدح عبدالله بن جُدعان :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ * يَسْدِلُ ، وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وقول أبي تمام بعده :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفَرًا ، وَهِيَ إِنْ شُهِرَتْ ، * كَانَتْ فَخَارًا لِمَنْ يَعْفُوهُ مُؤْتِنًا
مَا زِلْتُ مَتِّظًا أَنْجُوبَةً زَمَنًا * حَتَّى رَأَيْتُ سُؤْلًا يُجَنِّ شَرَفًا

فامية بن أبي الصلت أتى بمعنيين : أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن عطاء غيرك ليس بزين ؛ وأبو تمام أتى بالمعنى الأول فقط .

ومنه قول علي بن جبلة :

وأثل ما لم يحويه مُتَقَدِّمٌ ، * وإن نال منه آخِرٌ فهو تابعٌ

وقول أبي الطيب بعده :

تَرَفَّعَ عَنِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ ، * فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَدَارِيَا

فأبن جبلة أتى بمعنيين ، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد من تقدمه ، وإن نال الآخر شيئاً فهو مقتد به وتابع له ؛ وأبو الطيب أتى بالمعنى الأول فقط ، وهو أنه فعل ما لم يفعله غيره مشيراً إلى ذلك بقوله : فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَدَارِيَا أى يستبكرها ويُزِيلُ عُدَّتَهَا .

ومنه قول الآخر :

أَنْتَجِ الْفَضْلَ أَوْ تَحَلَّ عَنِ الدُّنْيَا ، فَهَاتَانِ غَايَةُ الْهِمَمِ

وقول البُحْتَرِيِّ بعده :

إِدْفَعْ بِأَمْشَالِ أَبِي غَالِبٍ * عَادِيَةَ الْعُدَمِ ، أَوْ اسْتَعْفِفْ

فَالْبُحْتَرِيُّ اقْتَصَرَ عَلَى بَعْضِ الْمَعْنَى وَلَمْ يَسْتَوْفِهِ

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر . قال في "المثل السائر" : وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

فمن ذلك قول الأحنس بن شهاب :

إِذَا قَصُرَتْ أَسَافُؤًا ، كَانَ وَصْلُهَا * خُطَانًا إِلَى أَعْدَائِنَا ، فَنُضَارِبُ

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إِنْ قَصُرَ الرُّحْمُ لَمْ تَنْشِ الْخُطَا سَدَا * أَوْ عَزَدَ السَّيْفُ لَمْ نَهْمُ بِتَعْرِيدِ
أخذ مسلم المعنى الذى أورده الأحنس : وهو وصل السلاح إذا قصُر بالخطا
إلى العدو وزاد عليه عدم تعريضهم أى فرارهم إذا عزد السيف . ومنه قول جرير
في وصف أبيات من شعره :

غَرَايِبُ آلَافٍ إِذَا حَانَ وَرْدُهَا * أَخَذْنَ طَرِيقًا لِلْقَصَايِدِ مُعَلَّمَا

وقول أبى تمام بعده :

غَرَابُ لَاقَتْ فِي فَنَائِكَ أَنْسَهَا * مِنَ الْمَجْدِ فَهِيَ الْآنَ غَيْرُ غَرَابٍ
فزاد أبو تمام على جرير قرآن ذلك بالمدح ومدحه مع الأبيات . ومنه قول
المعدّل بن غيلان :

وَلَسْتُ بِنَظَارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى * إِذَا كَانَتِ الْعَالِيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول أبى تمام بعده :

يَصْدُ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُدُودٌ * وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيٍّ عَدْرَاءُ نَاهِدٍ
فزاد عليه قوله :

* وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيٍّ عَدْرَاءُ نَاهِدٍ *

ومما اتفق لى نظمته فى هذا الباب أنه لما عُمرت مدرسة الظاهر برقوق بين
القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القائم بعمارتها الأمير حركس الخليلي أميراً خور
الظاهرى ، وكان قد أعتد بناءها بالصخور العظيمة التى لا تُقْلَهُا الحمال حَمَلًا ، ولا
تَحْمَلُ إِلَّا عَلَى الْعَجَلِ الْخَشَبِ فَأُولِعَ الشَّعْرَاءُ بِالنَّظْمِ فِي هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَنَظَّمَ بَعْضُ الشَّعْرَاءِ
أَبْيَاتًا عَرَّضَ فِيهَا بِذِكْرِ الْخَلِيلِيِّ وَقِيَامِهِ فِي عِمَارَتِهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهَا :

وَبَعْضُ خُدَامِهِ طَوْعًا لِحُدْمَتِهِ * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلٍ

وَأَلْزَمْنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ بِنَظْمِ شَيْءٍ فِي الْمَعْنَى، فَوَقَعَ لِي أُبَيَاتٌ مِنْ جَمَلَتِهَا :
وَبِالْخَلِيلِ قَدْ رَاجَتْ عِمَارَتُهَا * فِي سُرْعَةٍ بَيِّنَتْ مِنْ غَيْرِ مَامَهْلٍ
كَمْ أَظْهَرَتْ عَجَبًا أَسْوَاطُ حِكْمَتِهِ * وَقَدْ غَدَتَ مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ
وَكَمْ مَخْضُورٍ تَخَالُ الْجَنِّ تَنَقُّلُهَا * فَإِنَّهَا بِالْوَحَا تَأْتِي وَبِالْعَجَلِ

فزدت عليه ذكر الوحا الذي معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتي به المعزّمون
في عزائمهم من قولهم الوحا الوحا العجل العجل مع ما تقدّم له من التوطئة بقولي
تخال الجن تنقلها. على أنى لست من فُرسان هذا الميدان، ولا من رجال هذا الوغى

الضرب الخامس

أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى فَيُكْسَى عِبَارَةً أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَارَةِ الْأُولَى قَالَ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ"
وَهَذَا هُوَ الْمَحْمُودُ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ حُسْنُهُ عَنْ بَابِ السَّرِقَةِ؛ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ :
إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ * قَلَّوْا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا
أَخَذَهُ الْبَحْثَرِيُّ فَقَالَ :

قَلَّ الْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ فَدُهُمْ * وَلَقَدْ يَقِلُّ الشَّيْءُ حَتَّى يَكْثُرَا
ومنه قول أبي نَوَاسٍ :

يَذُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْفَتَى * تَقَلَّبُ عَيْنُهُ إِلَى شَخِصٍ مِنْ يَهُوَى
وقول أبي الطيب بعده :

وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ * فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

ومنه قول أبي العلاء بن سليمان فِي مَرْثِيَةٍ :

وَمَا كُفَّةُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ * وَلَكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّطَمِ

وقول القيسراني بعده :

وأهوى الذي يهوى له البدرُ ساجداً * أَلَسْتُ تَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ابن الرومي :

إِذَا شَنَّتْ عَيْنُ أَمْرِي شَيْبَ نَفْسِهِ * فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّائَةِ أَجْدَرُ

وقول من بعده :

إِذَا كَانَ شَيْئِي بَغِيضًا إِلَى * فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَيْهَا حَيًّا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكاً موجزاً قال في "المثل السائر" وهو من أحسن السرقات : لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة بابه في البلاغة ، فمن ذلك قول أبي تمام :

بَرَزْتَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَاحِدًا * فِيهَا تَسِيرُ مُغَوَّرًا أَوْ مُنْجِدًا

حَبَّأَ بِأَنَّكَ سَأَلْتَ مِنْ وَحْشَةٍ * فِي غَايَةِ مَا زِلْتَ فِيهَا مُفْرَدًا

وقول ابن الرومي بعده :

غَرَبَتْهُ الْخَلَائِقُ الزُّهْرُ فِي النَّاسِ * وَمَا أَوْحَشَتْهُ بِالتَّغْرِيبِ

فأخذ معنى البيتين في بيت واحد، ومنه قول أبي العتاهية :

وَإِنِّي لَمَعْدُورٌ عَلَى فَرْطِ حُبِّهَا * لِأَنَّ لَهَا وَجْهًا يَدُلُّ عَلَى عُذْرِي

أخذه أبو تمام فقال :

لَهُ وَجْهٌ إِذَا أَبْصَرَ * تَهُ نَاجَاكَ عَنْ سُذْرِي

فأوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبي تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كَانَتْ مُسْأَلَةُ الرُّبَّانِ تُخْبِرُنِي * عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ أَطِيبَ الْخَبْرِ

حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ * أَذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي !
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَأَوْجَزَنِي أَخَذَهُ فَقَالَ :

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ * فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ
وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

أَمِنْ خَوْفٍ فَقَرٍ تَعَجَّلَتْهُ * وَأَخَّرَتْ إِنْفَاقَ مَا تَجْمَعُ ؟
فَصَرَّتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنَى * وَمَا كُنْتَ تَعْدُو الذِّى تَصْعُقُ
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَمِنْ يُنْفِقُ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ * مَخَافَةَ فَقَرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة في المعنى ، بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه ،
فمن ذلك قول أبي تمام :

هُوَ الصَّنْعُ إِنْ يُعْجَلُ فَنُفْعٌ وَإِنْ يَرْتِ * فَلَلرَّيْثُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَنْفَعُ
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَمِنْ الْخَيْرِ بَطْءُ سَبِيلِكَ عَنِّي * أَسْرَعُ السُّحُبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ
فَزَادَهُ وَضُوحًا بِضَرْبِ الْمَثَالِ لَهُ بِالْجَهَامِ : وَهُوَ السَّحَابُ الَّذِي لَا مَطَرَ فِيهِ .
وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ أَيْضًا :

قَدْ قَلَصْتُ شَفَاهُ مِنْ حَقِيقَتِهِ * فَحِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَجَاهِلٌ مَدَّهُ فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي * حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمُ
إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْلِ بَارِزَةً * فَلَا تَطُنَّنْ أَنَّ اللَّيْلَ مَبْتَسِمُ

فضرب له مثالا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمام أيضا :

وكذلك لم تُفْرِطْ كَابَةً عَاطِلٍ * حَتَّى يُجَاوِرَهَا الزَّمَانُ بِحَالٍ
أَخَذَهُ الْبَحْتَرَى فَقَالَ :

وقد زادها إفراطاً حُسْنِ جَوَارِهَا * لِأَخْلَاقِ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خَيْبٍ
وَحُسْنِ دَرَارِيِّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى * طَوَالِغَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْبٍ
فضرب له مثالا بالكواكب في ظلام الليل ، فأوضحه وزاده حُسْناً .

الضرب الثامن

اتحاد الطريق واختلاف المقصود ، مثل أن يسلك الشاعران طريقا واحدة
فتخرج بهما إلى مَوْرِدَيْنِ ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .
فمن ذلك قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُ * عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحٍ قَدْ أَيقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ * إِذَا مَا اتَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبٍ

وهذا المعنى قد توارده الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضروب من العبارات ،
فقال أبو نؤاس :

يَتَوَخَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ * ثِقَةً بِاللَّحْمِ مِنْ جَزَرِهِ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرُ عَادَاتٍ وَنَقَنَ بِهَا * فَهِنَّ يَتَّبِعْنَهُ فِي كُلِّ مَرْتَحَلٍ

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَمْتَ عِقْبَانَ أَعْلَامِهِ صُحَّى * بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاحِلُ

أَقَامَتْ مَعَ الرَّيَّاتِ حَتَّى كَانَتْهَا * مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ
وَكُلُّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَتَوْا بِمَعْنَى وَاحِدٍ لَا تَفَاضُلَ بَيْنَهُمْ فِيهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ حُسْنِ السَّبْكِ
أَوْ مِنْ جِهَةِ الْإِيْجَازِ . قَالَ وَلَمْ أَرِ أَحَدًا أَغْرَبَ فِي هَذَا الْمَعْنَى فَسَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ
مَعَ اخْتِلَافِ مَقْصِدِهِ إِلَّا مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَالَ :

أَشْرَبَتْ أَرْوَاحَ الْعِدَا وَقُلُوبَهَا * خَوْفًا فَأَنْفُسَهَا إِلَيْكَ تَطِيرُ
لَوْ حَاكَمْتَكَ فَطَالَبْتَكَ بِدَحْلِهَا * شَهِدْتُ عَلَيْكَ ثَعَالِبٌ وَنُورٌ

فَهَذَا قَدْ فَضَّلَ بِهِ مُسْلِمٌ غَيْرَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَمَّا آتَتْهُى الْأَمْرُ إِلَى أَبِي الطَّيِّبِ سَلَكَ
هَذِهِ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكَهَا مَنْ تَقَدَّمَه إِلَّا أَنَّهُ خَرَجَ فِيهَا إِلَى غَيْرِ الْمَقْصِدِ الَّذِى قَصَدُوهُ
فَأَغْرَبَ وَأَبْدَعَ ، وَحَازَ الْإِحْسَانَ بِمَجْلَمَتِهِ ، وَصَارَ كَأَنَّهُ مُبْتَدِعٌ لِهَذَا الْمَعْنَى دُونَ غَيْرِهِ فَقَالَ :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا * سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ
فَحَوَى طَرَفِي الْإِغْرَابَ وَالْإِعْجَابَ

الضرب التاسع

بياض بالأصل^(١)

(١) لم يقتصر في الضوء على أحد عشر نوعاً وجعل العاشر تاسعاً الخ وكذلك عدّها صاحب المثل السائر .

الضرب العاشر

أن يكون المعنى 'عاماً' فيجعل خاصاً أو خاصاً فيجعل عاماً، وهو من السرقات التي يسأخ صاحبها؛ فأما جعل العام خاصاً، فمن ذلك قول الأخطل^(١) .
لَاتَنَّهُ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ * عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
أخذه أبو تمام فقال :

أَلُّومٌ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَغْتَدَى * لِلْبُخْلِ تَرْبًا؟ سَاءَ ذَاكَ صَنِيعًا !
فالأخطل نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقاً بجاء بالخلق منكراً بفعله شائماً
في بابهِ ؛ وأبو تمام خصص ذلك بالبخل ، وهو خلق واحد من جملة الأخلاق .
وأما جعل الخاص عاماً، فمن ذلك قول أبي تمام .
وَلَوْ حَارَدَتْ شَوْلٌ عَدْرَتْ لِقَاحَهَا * وَلَكِنْ مَنَعَنَ الدَّرَّ وَالضَّرْعُ حَافِلُ
أخذه أبو الطيب بفعله عاماً فقال :
وَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِمٍ * كَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقٍ

الضرب الحادي عشر

قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة . قال في "المثل السائر" وهذا لا يسمى
سرقة بل يسمى إصلاحاً وتهذيباً ، فمن ذلك قول أبي نُوَاسٍ في أرجوزة يصف فيها
اللعب بالكرة والصوبلحان فقال من جملتها :
جِنُّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ * كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبْرِ
أخذه المتنبي فقال :

فكَأَنَّمَا تُنَجَّتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ * وَكَأَنَّمَا خُلِقُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

(٢) كذا في "المثل السائر" أيضاً - وفي ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للتوكل اللبي .

فهذا في غاية العاق والارتقاء بالنسبة إلى قول أبي نُوَاس ، ومنه قول أبي الطيب .
 لو كَانَ مَا تُعْطِيهِمْ حُمُومٌ قَبْلَ أَنْ * تُعْطِيَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا التَّامِيلاً
 وقول ابن نباتة السعدي :

لَمْ يُبْقِ جُودَكَ لِي شَيْئاً أَوْمِلُهُ * تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ
 فكلام ابن نباتة أحسن في الصورة من كلام المتنبي هنا، وإن كان مأخوذاً منه .

الضرب الثاني عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ؛ وهو الذي يعبر عنه أهل هذه الصناعة
 بالمسخ ، وهو من أزدل السرقات وأقبحها ، فمن ذلك قول أبي تمام :
 فَنِّي لَا يَرَى أَنَّ الْفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ * وَلَكِنْ يَرَى أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلُ
 أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يَرَى أَنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بِأَقْتَلِ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لَعَابِيبٍ
 ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعْزِيكَ وَمِنْكَ الْهُدَى * مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ
 أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

وَبِالْفَاظِكَ أَهْتَدَى فَإِذَا عَزَاكَ قَالَ الَّذِي لَهُ قُلْتُ قَبْلًا

المسلك الثاني

(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" فهي أن لا يتصفح كتابه
 المتقدمين ولا يطلع على شيء منها، بل يصرف همهته إلى حفظ القرآن الكريم وكثير
 من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجابة

في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذ في الاقتباس من القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدي ، حتى يستقيم إلى طريق يفتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لاشركة لأحد من المتقدمين فيها ! . قال : وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما في الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جدا ، لا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هجأما ، وخاطرا رقاما . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرتبطا في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لا يُلْثِشُ كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نَقَّبَ عن ذلك تنقيب مَطَّلَعٌ على معانيه ، مَفْتَشٌ على دَفَائِنِهِ ، وَقَلْبُهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ ، عرف حينئذ من أين تَوَكَّلَ الكَتِيفُ فيما ينشئه من ذات نفسه ، وآستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية . على أنه لابد للكاتب المرتقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة مع حفظ القرآن الكريم ، والاستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف في اقتباس المعاني وآستخراجها فيرقى إلى درجة الاجتهاد في الكتابة ، كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ، وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، والحساب والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، آستخرج بفكره حينئذ ما يؤدبه إليه آجتهاده . فالمجتهد في الكتابة يستخرج المعاني من مظانها من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد في الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد في الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرها مما يتعلق بفن الإنشاء

بياض بالأصل

الأصل السادس .

(وجود الطبع السليم ، وخلق الفكر عن المشوَّش)

أما وجود الطبع فقال في "مواد البيان" : أول معاين هذه الصناعة الجليلة القرينة الفاضلة ، والفريزة الكاملة ، التي هي مبدأ الكمال ، ومنشأ التمام ، والأساس الذي ينشأ عليه ، والركن الذي يستند اليه ، فإن المرء قد يجتهد في تحصيل الآداب ، ويتوفر على آقتناء العلوم وأكتسابها ، وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيد ما أكتسبه ، بخلاف المطبوع على ذلك ، فإنه وإن قصر في اقتباس العلوم وأكتساب المواد فقد يلحق بأوساط أهل الصناعة ؛ وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبع ، والمناسب بفريزته للصناعة دون المتصنع ، ولا سبيل إلى أكتساب سهولة الطبع ولا كرازته ، بل هو موهبة تحض ولا نعم ، وتوجد في الواحد وتفقّد في الآخر .

قال ابن أبي الأصبع في "تحرير التحجير" ومن الناس من يكون في البديهة أبرد منه في الروية ، ومن هو مجيد في الروية وليست له بديهة ؛ ولما يتساويان .

وممنهم مَنْ إذا خاطب أبدع ، وإذا كاتب قَصَّر ؛ ومن هو بضد ذلك ، ومن قَوَّى نثره ضَعَّف نظمه ، ومن قَوَّى نظمه ، ضَعَّف نثره ، وقلمها يتساويان . وقد يبرز الشاعر في معنى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد ، ولهذا قيل : أشعرُ الناس أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، وعنترة إذا كَلَب ^(١) ، والأعشى إذا طَرِب . قال في "المثل السائر" بل ربما نَفَذَ في بعض أنواع الشعر دون بعض فُرى مُجيدا في المدح دون الهجاء ، أو بالعكس ، أو ماهرا في المقامات ونحوها دون الرسائل ، أو في بعض الرسائل دون بعض . قال ابن أبي الأصبع : ولربما واتاه العمل في وقت دون وقت ؛ ولذلك قال الفرزدق : إني ليمر على الوقت ولقُعْ ضرس من أضراسي أيسر على من قول الشعر ؛ ولذلك عز تأليف الكلام ونظمه على كثير من العلماء باللغة والمهرة في معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُو طباعهم عن تركيب بسائط الكلام الذي قامت صور معانيه في نفوسهم وصَعِب الأمر عليهم في تأليفه ونظمه ؛ فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدمه في اللغة ومهارته في العربية ، وأختراعه علم العروض ، الذي هو ميزان شعر العرب ، لم يكن يتهيا له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعاني في نفسه على صورة النظم إلا بصعوبة ومشقة ، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول ياباني جيّد وأبي رديئه ، مشيرا بذلك إلى أن طبعه غير مساعد له على التأليف المرضي الذي تحسّن نسبته إلى مثله . وقيل للفضل الضبي ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ، فقال علمي به يمنعني من قوله وأبشد :

أبي الشعر إلا أن يفي رديئه * على ويأبى منه ما كان محمّا
فياليتني إن لم أجد حوك وشيه * ولم أك من قُرسائه كنت مُفحّا

وأشدد أبو عبيدة خَلَقًا الأحمر شعرا له فقال : أَخْبَأُ هذا كما تُخْبَأُ السَّيِّئَةُ حاجتها، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها، وما يجري مجرى ذلك من مواد تأليف الكلام ونظمه . ويحكى عن أبي العباس المبرد أنه قال : لا أحتاج إلى وصف نفسي : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقين تختلج في نفسه مسألةٌ مُشْكِلَةٌ إلا لِقِينِي بها وأعدني لها ، فأنا عالم ومُعلِّمٌ ، وحافظ ودارس ، لا يخفى على مشتبهِه من الشعر، والنحو، والكلام المنثور، والخطب، والرسائل ؛ ولربما احتجت إلى اعتذار من قلّة ، أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذى أقصد نُصِبَ عيني ثم لأجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بحميل فحاولت أن أكتب إليه رُفْعَةً أشكره فيها وأعرض ببعض أموري فاتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى إلى غيره، ولذلك قيل زيادة المنطق على الأدب خُدعة، وزيادة الأدب على المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك ؛ على أن الطبع بمفرده لا ينهض بالمقصود من ذلك فهو ضَعْفٌ مع اشتماله على المواد المساعدة له على ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدّم فى أول هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع وحفظ كتاب الله تعالى ، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية والأمثال والشعر والخطب ورسائل المتقدمين وأيام العرب وما يجرى مجرى ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومُسَهِّلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت فى العلو والهبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوّته ؛ إذ معرفته هذه الأمور قائمة من الإنشاء مقام المادّة ، والطبع قائم منه مقام الآلة ، فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم توجد المادّة والآلة جميعا ، ولو كان حصول المادّة

كافيا في التوصل إلى حسن التأليف الذى هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها على المعانى المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلف من الرسائل والخطب والأشعار سهلة، والمُشاهد بخلاف ذلك : لقصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .

وأما خلو الفكر عن المشوَّش فإنه يرجع إلى أمرين .

الأمر الأول

(صفاء الزمان)

فقد قال أبو تمام الطائى في وصيته لأبى عبادة البحرى مرشدا له للوقت المناسب لذلك : تَخِيْرُ الأَوْقَاتِ وَأَنْتَ قَلِيلُ الهُمومِ ، صِفْرٌ مِنَ الغُومِ ؛ وأعلم أن العادة فى الأوقات إذا قَصَدَ الإنسان تأليفَ شيء أو حفظَه أن يختار وقت السَّحَرِ ، فإن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، وخَفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاءِ ، وَصَفَا الدِّماغُ من أكثر الأبخرة والأدخنة ، وسكنت الغَمَاجِمُ ، وَرَقَّتْ النساءُ ، وَتَغَنَّتْ الجمائمُ .

وخالف ابن أبى الأصبع فى اختيار وقت السحر، وجنح إلى اختيار وسط الليل ، أخذاً من قول أبى تمام فى قصيدته البائية :

خُذْهَا ابْنَةُ الفِكْرِ المَهْدَبِ فى الدُّجَى * وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُفْعَةِ الجِلْبَابِ

مفسراً للدُّجَى بوسط الليل ، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قد أخذت حظها من الراحة ، ونالت قسطها من النوم ، وخَفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاءِ ، فيكون الذهن حينئذ صحيحاً ، والصدر منشرحاً ، والبدن نشيطاً ، والقلب سائتاً . بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيه يَرِقُّ النسيم وينهضم الغداء ، إلا أنه يكون قد آتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطق وغيره ، ويرتفع معظم الأصوات ، ويجرى الكثير من الحركات ، وينقشع بعض الظلمات بطلوع أوائل الضوء ؛ وربما آتبه عن بعض

الناس الغذاء فتحزكت الشهوة لإخلاف ما أنهض منه وخرج من فضلاته، فكان ذلك داعيا إلى شغل الخاطر، وباعثا على أنصراف الهم إلى تدبير الحدث الحاضر، فيقسم الفكر، ويتذبذب القلب، ويتفرق جميع الهم . بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثاني (صفاء المكان)

وذلك بأن يكون المكان الذى هو فيه خاليا من الأصوات ، عاريا عن المخوفات والمهولات والطوارق ، وأن يكون مع ذلك مكانا رائقا مُعجبا رقيق الحواشى فسيح الأرجاء ، بسيط الرحاب ، غير غم ولا كدر؛ فإن أنضم إلى ذلك ما فيه بسط للخاطر : من ماء وخضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة ، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر . وقد ذهب بعضهم إلى أنه ينبغي خلو المكان من النقوش الغريبة والمرآئى المعجبة ، فإنها وإن كانت مما ينشط الخاطر فإن فيها شغلا للناظر فيتبعه القلب فيشتت .

المقصد الثانى

(من الطرف الثالث فى بيان طرق البلاغة ووجوه تحسين الكلام ،
وكيفية إنشائه ، وتأليفه ، وتهذيبه ، وتأديته ، وبيان ما يستحسن من الكلام
المصنوع ، وما يعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال ابن أبى الأصبع فى "تموير التحير" : يجب على كل من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أولا نفسه ويمتنعها بالنظر فى المعانى ، وتدقيق الفكر فى استنباط المخترعات ؛ فإذا وجد لها فطرة سليمة وجيلة

• موزونة وذكاء وقّاداً وخطاراً سمحاً وفكراً ثاقباً وفهماً سريعاً وبصيرة مبصرة
والمعينة مهذبة وقوة حافظة وقدرة حاكية وهمة عالية ولمحة فصيحة وفطنة
صحيحة ، أخذ حينئذ في العمل ؛ وإن كان بعض ذلك غير لازم لرب الإنشاء ، ولا
يُضطرُّ إليه أكثر الشعراء ، ولكن إذا كملت هذه الصفات في الكاتب والشاعر ، كان
موصوفاً في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكري في "الصناعتين" : إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر
معانيه ببالك ، وثقّ له كرائم اللفظ ، فأجعلها على ذكر منك ليقرب عليك تناولها ،
ولا يتعبك تطلبها ، واعمله مادمت في شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفتور ، وتحوّلك
الملال ، فأمسك : فإن الكثير مع الملل قليل ، والنفيس مع الضجر خسيس ،
والخواطر كالينابيع يسقي منها شيء بعد شيء فتجد حاجتك من الرّى ، وتنال أربك من
المنفعة ، فإذا أكرثت عليها نضب ماؤها ، فقلّ عنك غناؤها . وينبغي أن تخرج مع
الكلام معارضه ، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته ، أو معنى بديع تعلقت
بذيله . وتحزّز أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت في تطلبه ، ولعلك لا تلحقه على
طول الطلب ، ومواصلة الدّأب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضيّعت أول كلّ شيء * أثبت أعجازه إلّا النّواء

وقد قالوا ينبغي لصانع الكلام أن لا يتقدم الكلام تقدماً ولا يتبع ذناباًه تبعاً ،
ولا يجعله على لسانه حملاً ، فإنه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه
والشارد منه ، وإن تبعه فاتته سوابقه ولواحقه ، وتباعدت عنه جياده وغرره ؛ وإن
حملة على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعباؤه ، ودخلت مساويه في محاسنه ، ولكنه
يجرى معه فلا تند عنه نادة تعجبه سمناً إلا كبّحها ، ولا تتخلف عنه مثقلة هزيلة
إلا أرهقها ، وطوراً يفزقه ليختار أحسنه ، وطوراً يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر ،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلط المثل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، يأخذ عَفْوَهَ ويستغزِرَ دَرَّهَ ، ولا يكره آبيا ولا يدفع آتيا . وإياك والتعقيد والتوعر ، فإنَّ التوعر هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما ، فليتمس له لفظا كريما ، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصونهما عما يَدْئَسهما ، ويفسدهما ويهيجنهما ، فتصير بهما إلى حدِّ تكون فيه أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس البلاغة ، وترتبن نفسك في مُلاستها ، وليكن لفظك شريفا ، عذبا ، فحما ، سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفاً ، وقريبا معروفاً ، فإن وجدت اللفظة لم تقع مرقعها ، ولم تصل إلى مركزها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقلةً في موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فلا تُكرِّهها على اغتصاب أماكنها ، والنزول في غير أوطانها ، وإن بُليت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة ، وعصت عليك بعد إجالة الفكر ، فلا تعجل ، ودعه سحابة يومك ، ولا تضجر ، وأمهله سواد ليلتك . وعادوه عند كساطك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عُرف ، وينبغي أن تعرف أقدار المعانى ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مقاما ، حتى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

قال في "مواد البيان" ويكون استعمال كل من جزل الألفاظ وسهلهما ، وفصيحهما وسلسلهما وبهجها في موضعه ، وأن يسلك في تأليف الكلام ، الطريق الذى يخرجها عن حُكم الكلام المنشور العاطل ، الذى تستعمله العامة في المخاطبات ، والمكاتبات ، إلى حكم المؤلف الحالى بحلِّ البلاغة والبديع ، كالاستعارات ، والتشبيهات ، والأشباع ، والمقابلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال في "الصناعتين" وإن عملت رسالة أو خطبة فتحط ألفاظ المتكلمين :
كالجسم ، والجوهر ، والعرض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والناسوت ،
فإن ذلك هجنة .

قال في "مواد البيان" وذلك بأن يقصد الكاتب إلى ألفاظ الصناعة فيخرج
منها إلى ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانسة لها . قال وإنما يؤتى الكاتب في هذا
الباب من جهة أن يكون له شركة في صناعة غير الكتابة ، كصناعة الفقه والكلام
وغيرهما : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات
ألفاظ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة والخوض في الصناعة ؛ ومن
عادة الإنسان إذا تعاطى بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطره إلى الألفاظ المتعلقة
به ، فيوقعها في الكتب التي ينشئها لغلبة عادة استعماله إياها فيهجئها بإدخاله فيها
ماليس من أنواعها .

قال في "الصناعتين" وتخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التثام
الكلام ، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته ، فإن أمكن مع ذلك انتظامه من
حروف سهلة المخارج ، كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه ؛ وإن اتفق له أن يكون
موقعه في الإطناب أو الإيجاز أليق بموقعه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جاعلا
للحسن ، بارعا في الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنيك عن مصادره ،
وأوله يكشف قناع آخره ، كان قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام .

قال في "مواد البيان" وإذا سلكت طريقا فتر فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت
رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضيفة . وخالف ابن أبي الاصبع ، فقال : ولا تجعل
كل الكلام شريفا عاليا ، ولا وضعيا نازلا ، بل فصله تفصيل العقود ، فإن العقد إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسن فرائده، ولا بين جمال واسطته، فإن الكلام إذا كان متوقفا في البلاغة، أفتنت الأسماع فيه، ولا يلحق النفوس ملل من ألفاظه ومعانيه، ولا يخرج عن غرض إلى غيره حتى يكمل كل ما ينظم فيه : كما إذا كان ينشئ كتابا في العدل والنوبيع، فيشوب ألفاظه بألفاظ أخرى تخرج عن الخشونة إلى اللين، فإن اختلاف رُقعة الكلام من أشد عيوبه .

قال في "الصناعتين" ولا تجعل لفظك حوشيا بدويا، ولا مبتدلا سوقيا، ورتب الألفاظ ترتيبا صحيحا، فتقدم منها ما يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيرها، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر ما كان التقديم به أليق، ولا تكرر الكلمة الواحدة في كلام قصير : كما كتب سعيد بن حميد : "ومثل خادمك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئا ينبي بحقك، ورأى أن تقرظك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصرا عن حقه أبلغ في أداء ما يجب لك". فكرر ذكر الحق مرتين في مقدار يسير . على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير في القرآن الذي هو أفصح كلام، وأنق نظام، في قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام، وأمشاله في القرآن الكريم كثير .

قال في "الصناعتين" فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعادها بغير اللفظ الذي ابتدأ به : كما قال معاوية : "مَنْ لم يكن من بنى عبد المطلب جوادا فهو دَخِيل، ومن لم يكن من بنى الزبير ثجاءا فهو لَزِيْق، ومن لم يكن من بنى المغيرة تياها فهو سَنِيد". فقال دَخِيل، ثم قال لَزِيْق، ثم قال سَنِيد والمعنى واحد، والكلام على ما ترى

حسن . ولو قال لزيق ثم أعاد لسمج . على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" قد ذكر ماينافى ذلك ، وتعقب أبا إسحاق الصابى في قوله في تحميدة كتاب : الحمد لله الذى لا تدركه الأعين بالحفاظها ، ولا تحته الألسن بالفاظها ، ولا تحلقه العصور بمرورها ، ولا تهزمه الدهور بمرورها ، وقوله بعد ذلك فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : لم ير للكفر أثرا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسما إلا أزاله وعفاه ، فقال لافرق بين مرور العصور ، وكرور الدهور ، وكذلك لافرق بين نحو الأثر وإعفاء الرسم ، ويحتمل أن يقال إنما كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين فى جميع المعنى بخلاف كلام معاوية فإنه متوافق فى اللفظة الأخيرة فقط .

قال فى "الصناعتين" وتجنب كل ما يكسب الكلام تعمية : كما كتب سعيد ابن حميد ، يذكر مظلمة إنسان فى كتابه : لفلان وله بى حرمة مظلمة ، يريد لفلان مظلمة وله بى حرمة ، بمعنى أنه راعى حرمة . قال : وأعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن مالم يكن فى سجعك استكراه ، وتنافر ، وتعقيد ، وكثيرا ما يقع ذلك فى السجع ، وقلمًا يسلم إذا طال من استكراه وتنافر .

قال ابن أبى الأصبع : ولا تجعل كلامك كله مبدئًا على السجع ، فتظهر عليه الكلفة ، ويتبين فيه أثر المشقة ، وتتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط ، واللفظ النازل ، وربما استدعيت كلمة لقطع رغبة فى السجع بخاءت نافرة من أخواتها ، فليقة فى مكانها . بل أصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعانى ، وأجهد فى تقويم المباني ، فإن جاء الكلام مسجوعا عفا من غير قصد ، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عز ذلك فأتزكه وإن آخلفت أسجاعه وتباينت

في التقفية مقاطعه ، فقد كان المتقدمون لا يحتفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه ، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، وأتفق من غير قصد ولا اكتساب ؛ وإنما كانت كلماتهم متوازية ، وألفاظهم متساوية ، ومعانيهم ناصعة ، وعبارتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة ، وجل كلامهم متمائلا ؛ وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن آقنى أثره من فُرسان الكلام : كبن المقفع ، ويزيد بن هارون ، وإبراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وأبى عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال في "مواد البيان" : وأقل ما يكون من الأزواج قرينتان .

قال في "الصناعتين" : وينبغي أن يجتنب إعادة حروف الصلّات والرباطات في موضع واحد إذا كتب ، في مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسيله أن يداويه حتى يزيله ، بأن يفصل ما بين الحرفين مثل أن يقول : أقمتُ به شهداءً عليه ، كقول المتنبي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ * سَبَّوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

قال ابن أبي الاصبع : وليراع الإيجاز في موضعه ، والإطناب في موضعه ، بحسب ما يقتضيه المقام ويتجنب الإسهاب والتطويل غير المفيد .

قال العسكري : وينبغي أن يأتي في تأليفه الكلام بآيات من الكتاب العزيز في الأمور الجليلة ، للترصيع والتحلية ، والاستشهاد للعاني على ما يقع في موقعه ، ويلق بالمكان الذي يُوقع فيه ، ولكنه لا يستكثر منه حتى يكون هو الغالب على كلامه ، تنزيها لكلام الله تعالى عن الابتذال ، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرُّك والزينة ، لا ليُجعل حشواً في الكلام ؛ وإذا استعير منه شيء أتى به على صورته ؛ ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه . قال وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يَخْلَى كلامه من شيء منه تحليّة له ، فإن خَلَوَ الكلام من القراءان يَطْمِسَ محاسنه ، وَيَنْقُصَ بهجته ؛ ولذلك كانوا يسمّون الخطبة الخالية من القراءان بقرأ .

وينبغي أن لا يستعمل في كتابته ما جاء به القراءان العظيم من الحذف ومخاطبة الخاصّ بالعام ، والعام بالخاص ، والجماعة بلفظ الواحد ، والواحد بلفظ الجماعة ، وما يجري هذا المجرى ، لأن القراءان قد نزل بلغة العرب ، وخوطف به فصحاؤهم ، بخلاف الرسائل .

قال في ”الصناعتين“ لا يجوز أن يستعمل فيها ما يختص بالشعر من صرف مالا ينصرف ، وحذف مالا يُحذف ، وقصر المدود ، ومدّ المقصور ، والإخفاء في موضع الإظهار ، وتصغير الأسم في موضع تكبيره ، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل ”أنا جُذَيْلُها المُحَكِّك ، وعُدَيْقُها المُرَجَّب“ . ومما يُستحسن من وصية أبي تمام لأبي عبادة البُحْتَرِيِّ في الشعر ما لا يستغني النثر عن المعرفة به ، والنسج على منواله : لانه يجب أن يتناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، ويكون كخيّاط يقدر الثياب على قدر الأجسام ، وأن يجعل شهوته لتأليف الكلام هي الذريعة إلى حسن نظمها ، فإن الشهوة نعم المعين ! ويعتبر كلامه بما سلف من كلام الماضين ، فما استحسنه العلماء فليقتصد به ، وما استقبحوه فليجتنبه ، وينبغي أن يعمل السجعات مفرقة بحسب ما يوجد به الخاطر ثم يرتبها في الآخر ويحتزّز عند جمعها من سوء الترتيب ، ويتوخى حسن النسق عند التهذيب ، ليكون كلامه بعضه آخذا بأعناق بعض ، فإنه أكمل لحسنه ، وأمثل لرصفه ، وأن يجيد المبدأ والمخلص والمقطع ، ويميز في فكره محط الرسالة قبل العمل ، فإنه أسهل للقصد ، ويحتهد في تجويد هذه المواضع وتحسينها ، ويوضح معانيه ما استطاع .

قلت وقد سبق في أول هذه المقالة في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من الأدوات

وذكر أنواعها بيان كيفية الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفية حل الشعر إلى النثر، وتضمينه في خلال الكلام المنشور وما يجري هذا المجرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان ما يستحسن من الكلام المصنوع فقد قال في "الصناعتين" إن الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتخير لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين معاطفه ، وأستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه أعجازه بهواديته ، وموافقة أواخره لمبأديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنشور في سهولة مطالعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه وكال صوغه وتركيبه ؛ فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة ، وأشتمل على الروق والطلاوة ، وسلم من ضعف التأليف ، وبعد من سماجة التركيب ، صار بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً ؛ فإذا ورد على السمع المصيب استوعبه ولم يجمه ، والنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغليظ ، وتقلق عن الجاحس البشع ؛ وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقها وتنفر عما يضادها ويخالفه ؛ والعين تألف الحسن ، وتقضى بالقبيح ؛ والأنف يرتاح للطيب ويعاف المنين ؛ والشم يلتذ بالخلو ، ويمج المتر ؛ والسمع يتشوق للصوت الرائع ، ويتزوى عن الجهير الهائل ؛ واليد تنعم باللين ، وتتأذى بالحشن ؛ والفهم يأنس من الكلام المعروف ، ويسكن إلى المألوف ، ويصغى إلى الصواب ، ويهرب من المحال ، ويتقبض عن الوحش ، ويتأنر عن الجافي الغليظ ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

قال وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي ، والقروى والبدوى ، إنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبيانه ، وزاخرته وقهائه ، وكثرة

طَلَاوَتِهِ وَمَائِهِ ، وَصَحَّةُ السَّبَكِ وَالتَّرَكِيبِ ، وَاخْلُوعُ مِنَ أَوْدِ النِّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ ، وَلَيْسَ يُطَلَّبُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا ، وَلَا يَقْنَعُ مِنَ اللَّفْظِ بِذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وُصِفَ مِنْ نَعْوَتِهِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْخُطْبَ الرَّائِعَةَ ، وَالْأَشْعَارَ الرَّائِقَةَ ، لَمْ تُعْمَلْ لِإِفْهَامِ الْمَعْنَى فَقَطْ : لِأَنَّ الرَّدَى مِنَ الْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ الْجِيدِ مِنْهَا فِي الْإِفْهَامِ ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ حَسَنَ الْكَلَامِ ، وَإِحْكَامَ صَنْعَتِهِ ، وَرَوْنَقَ أَلْفَاظِهِ وَجُودَهُ مَقَاطِعُهُ ، وَبَدِيعُ مَبَادِيهِ ، وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ ، عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَمَنْشِئِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظًا حُلُومًا وَعَذَابًا وَسَطًا دَخَلَ فِي جَمْلَةِ الْجِيدِ ، وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ . وَأَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا تَلَاَمَ نَسْجُهُ وَلَمْ يَسْخَفْ ، وَحَسَنُ نَظْمِهِ وَلَمْ يَهْجُنْ ، وَلَمْ يُسْعَمَلْ فِيهِ الْغَلِيزُ مِنَ الْكَلَامِ فَيَكُونَ خَلْقًا بَغِيضًا ، وَلَا السُّوقِيُّ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَيَكُونَ مُهْلَهَلًا دُونًَا ، وَلَا خَيْرٌ فِي الْمَعْنَى إِذَا اسْتَكْرَهَتْ قَهْرًا ، وَالْأَلْفَاظُ إِذَا أُجْبِرَتْ قَسْرًا ، وَلَا خَيْرَ فِيمَا أَجِيدَ لَفْظُهُ إِلَّا مَعَ وَضُوحِ الْمَغْزَى وَظُهُورِ الْمَقْصِدِ . قَالَ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى قَوْمِ الْجَهْلِ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ الْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدٍّ ، وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَرَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً ، وَيَسْتَحْقِرُونَ الْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذَابًا ، وَسَهْلًا حُلُومًا ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّهْلَ أَمْنٌ جَانِبًا ، وَأَعَزُّ مَطْلَبًا ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا ، وَأَعَدَّبُ مَسْتَمْعًا ، وَلِهَذَا قِيلَ أَجُودُ الْكَلَامِ السَّهْلُ الْمُنْتَعِ . وَقَدْ وَصَفَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ النَّاسِ ، وَمَنْ بَلَغَتْهُ أَنْ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنَّهُ يَكْتُبُ مِثْلَ كُتُبِهِ ، إِذَا رَامَهَا تَعَدَّرَتْ عَلَيْهِ ، وَأَنْشَدَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ لَخَالِهِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَخْنَفِ :

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سِيلَ لَمْ * يَبْسُدْ وَإِنْ عُوْتُبَ لَمْ يُعْتَبَ
صَبٌّ بَعْضِيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي * لَا تَشْرِبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ
ثُمَّ قَالَ هَذَا وَاللَّهِ الشَّعْرَ الْحَسَنَ الْمَعْنَى ، السَّهْلَ اللَّفْظَ ، الْعَذْبَ الْمُسْتَمَعَ ، الْقَلِيلَ

النظير، العزيز الشبيه، المَطْمَعِ الممتنع، البعيدُ مع قربه، الصَّعْبُ مع سهولته، قال
بجعلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تَسْتَعْمِلُ الغريب
في شعرِكَ؟ فقال: ذلك عِيٌّ في زمانِي، وتكَلَّفُ مِنِّي لوقلته، وقد رُزِقْتُ طَبْعًا وَآتِسَاعًا
في الكلام فانا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يَحْتَاجُ إلى تفسير.

وقال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام
وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه، وما كان
من الكلام لفظه سهلا ومعناه مكشوفًا يَبِينُ فهو من جملة الردىء المردود، لا سيما
إذا أَرْتَكِبْتَ فيه الضرورات، فأما الجزلُ المختارُ من الكلام، فهو الذى تعرفه العامة
إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها، وأجودُ الكلام ما كان سهلًا جزلًا، لا يَنْغَلِقُ
معناه، ولا يَسْتَبْهِمُ مَعْنَاهُ، ولا يكون مكدودًا مستكْرَهًا، ومتوعّرًا متقعّرًا، ويكون
بريثًا من الغثائفة، عاريا من الرثائفة. فن الجزل الجيد من النثر قولُ سعيد بن حميد:
وأنا مَنْ لا يحاجُّكَ عن نفسه، ولا يُغالِطُكَ عن جُرْمِهِ، ولا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إلا من جهته،
ولا يَسْتَدْعِي رِجْلَكَ إلا من طريقته، ولا يَسْتَطْفِقُ إلا بالإقرار بالذنب، ولا يَسْتَمِيلُكَ
إلا بالاعتراف بالجُرمِ، نَبَتْ بى عنكَ غِرَّةُ الحَدَاثَةِ، وردَّتْنى إِلَيْكَ الحُنْكَاءُ، وَاَعْدَتْنى
مَنْكَ الثِّقَةُ بِالْأَيَّامِ، وقادَتْنى إِلَيْكَ الضَّرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول
العُدْرِ، وتجدد النعمة بأطراح الحَقْدِ، فإنَّ قديم الحُرْمَةِ وحديث التوبة يحقّقان ما بينهما
من الإساءة، وإن أيام القدرة وإن طالَتْ قَصِيْرَةٌ، والمتعة بها وإن كَثُرَتْ قليلة، فعَلَتْ
إن شاء الله تعالى.

وأجزلُ منه قول الشعبي للحجاج، وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث
أجْدَبَ بنا الحِسابُ، وأحْزَنَ بنا المَنْزِلُ، فاستَحْلَسْنَا الحَذَرَ، واكْتَحَلْنَا السَّهْرَ،
وأصابنا فتنةٌ لم نَكُنْ فيها بررةً أتقياء، ولا بَحْرَةً أقوياء. فعفا عنه.

ومن النظم قول المزار :

لَا تَسْأَلِي الْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ * قَدْ يُقْسِرُ الْمَرْءُ يَوْمًا وَهُوَ مَحْمُودُ
أَمْضَى عَلَى سُنَّةٍ مِنَ الْيَدِي سَلَفَتْ * وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْبُتُ الْعُودُ
فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض منه وَيَقْفُونَ عَلَى أَكْثَرِ
معانيه حُسْنَ تَرْتِيْبِهِ وجودة نَسْجِهِ ؛

قال في "الصناعتين" أما إذا كان لفظ الكلام غثًا، ومعرضه رثًا، فإنه يكون
مَرْدُودًا، ولو أحتوى على أَجَلٍّ مَعْنًى وَأَنْبِلِهِ، وأرفعِهِ وَأَفْضَلِهِ، كقول القائل :
أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنَعُوا * وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالدُّونِ
فَاسْتَفْنِ بِالَّذِينَ عَنْ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا آسَفْتَنِي الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنْ الدِّينِ
قال : فهو لا يدخل في جملة المختار، ومعناه كما ترى جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجزل
الردىءُ الفج، الذي ينبغي تركُ استعماله فقد مر في الكلام على الغريب الحوشى .

المقصد الثالث

(في بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقصره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها على
ثلاثة ضروب .

الضرب الأول

(الإيجاز)

وهو جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وعليه ورد أكثر آي القرآن الكريم
فمن ذلك قوله تعالى في مُفْتَتِحِ سورة الفاتحة : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . أنتظم
فيه خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات لم يشِدَّ عنه شيء في أَوْجَزَ لفظ وأقربه

وأسمه ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ استوعب جميع الأشياء على الاستقصاء في كلمتين لم يخرج عنهما شيء ؛ وقوله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ فدخل تحت الأمن جميع المحبوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئا : من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله في صفة نحر أهل الجنة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُتْرَفُونَ ﴾ انتظم بقوله : ولا هم عنها يترفون عدم ذهاب العقل وذهاب المال ونفاذ الشراب ، فلم يكن فيها شيء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فجمع فيها مكارم الأخلاق بأسرها : لأن في العفو صلة القاطعين ، وإعطاء المانعين ؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن المحرمات ، والتبري من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئا من المنكر ؛ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

ومن كلام النبوة قوله صلى الله عليه وسلم : ” نَبِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ “ وقوله عليه السلام : ” حُبُّكَ الشَّيْءَ يَعْمِي وَيُصْمُّ “ إلى غير ذلك من جوامع الكلم .

الضرب الثاني

(الإطناب)

وهو الإشباع في القول ، وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثير في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جل وعز : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ في الموضعين تأكيداً للأمر وإعلاماً أنه كذلك لا محالة . وقوله : ﴿ فَفَرَّوْا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ فكرر إني

لكم منه نذير مبين من حيث إن الكفر وإن تعددت أقسامه لا يخرج عن تعطيل أو شرك ففي قوله فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ فَنِىُّ التَّعْطِيلِ بإثبات الإله وفي قوله : وَلَا تَجْعَلُوا مع الله إلهاً آخرَ فَنِىُّ الشُّرْكِ . وقد كرر سبحانه في سورة الرحمن قوله : ((فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)) حيثُ عَدَّدَ فيها نِعَمَهُ ، وأذْكَرَ عِبَادَهُ آلاَءَهُ ، ونَبَّهَهُمْ عَلَى قَدْرِهَا ، وَقَدْرَتِهِ عَلَيْهَا ، وَلُطْفِهِ فِيهَا ، وَجَعَلَهَا فَاصِلَةً بَيْنَ كُلِّ نِعْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، تنبيهاً عَلَى مَوْضِعِ مَا أَسْدَاهُ إِلَيْهِمْ فِيهَا ، وكذلك كَرَّرَ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ : ((وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ)) تأكيداً لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيراً كما في قول الشاعر :

* أَتَاكَ أَتَاكَ الْلَّاحِقُونَ أَتَاكَ ^(١) *

وقول الآخر :

* كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

إلى غير ذلك مما وقع في كلامهم مما لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثالث

(المساواة)

بأن تكون الألفاظ بإزاء المعاني في القلة والكثرة لا يزيد بعضها على بعض . وقد مثل له العسكري في "الصناعتين" بقوله تعالى : ((حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحِيَامِ)) وقوله : ((وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)) وقول النبي صلى الله عليه وسلم "لَا تَرَالُ أُمِّي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرِ الْأَمَانَةَ مَغْنَمًا وَالزَّكَاةَ مَغْرَمًا" وقوله "إِيَّاكَ وَالْمُشَارَةَ" فإنها تُمِيتُ الْغُرَّةَ ^(٢)

(١) في الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور في البيت .

(٢) أى العمل الصالح الحسن تشبيهاً له بقرعة الفرس . والعرة العمل السيئ تشبيهاً له بالعدرة . انظر اللسان .

وُنُحِّي الْعُرَّةَ“ . وقول بعض الكُتَّاب : سألتَ عن خَبَرِي وأنا في عافية لا عَيْبَ فيها
إلا فَقْدُكَ ، وَنِعْمَةٌ لَمْزِيدٍ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد عَلَّمْتَنِي نَبُوْتَكَ سَلَوْتُكَ ،
وَأَسْلَمْنِي يَا سَيِّ مِنْكَ ، إِلَى الصَّبْرِ عَنْكَ . وقول آخر : فتولَّى اللهُ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَفِيكَ ،
وتولَّى إِصْلَاحَكَ وَالْإِصْلَاحَ بكَ ، وَأَجْزَلَ مِنَ الْخَيْرِ حَظُّكَ وَالْحَظُّ مِنْكَ ، وَمَنْ عَلَيْكَ
وعليْنَا بك . وقول الشاعر :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ * عَلَى وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
وَمَا هَجَرَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ عِنْدَهَا * قَلِيلٌ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبُهَا

إذا علمت ذلك فقد اختلف البلغاء في أي الثلاثة أبلغ وأولى بالكلام، فذهب
قوم إلى ترجيح الإيجاز، محتجّين له بأنّه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدار الحاجة
من الكلام فضلة داخلّة في حيز اللغو والهُدْر، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما
دلالة على بلادة صاحب الصّناعة وغبَاوته . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم
بالإيجاز فإن له إفهاما ولا إطالة آسْتَبْهَما . وقال جعفر بن يحيى لكتابه : إن قدرتم
على أَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَأَفْعَلُوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز تُجْمَعُ
من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لابن حازم
لم لا تُطِيلُ القصائد فأنشد :

أَبِي أَنْ أَطِيلَ الشَّعْرَ قَصْدِي * إِلَى الْمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ
وإيجازي بِمُخْتَصِرٍ قَرِيبٍ * حَذَفْتُ بِهِ الْقُضُولَ مِنَ الْجَوَابِ

وذهبت طائفة إلى أن الإطناب أرجح، وَاحتجُّوا لذلك بأن المِنَظِقَ إنما هو بيان
والبيان لا يحصل إلا بوضاح العبارة، وإيضاح العبارة لا يتبها إلا بمرادفة الألفاظ
على المعنى حتّى يُحِيطَ به إحاطةً يُوَمِّنُ معها من اللَّبْسِ والإبهام، وإن الكلام الوجيز
لا يُوَمِّنُ وقوعُ الإشكال فيه . ومن ثم لم يحصل على معانيه إلا خواصُّ أهل اللغة

العارفين بدلالات الألفاظ . بخلاف الكلام المُشْبِع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في جهته . ويؤيد ذلك ما حكى أنه قيل لقيس بن خازجة : مَا عِنْدَكَ فِي جَمَالَاتِ ذَاتِ حُسْنٍ ؟ قال : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ ، وَرِضًا كُلِّ سَاخِطٍ ، وَخُطْبَةً مِنْ لَدُنْ تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ ، أَمْرُ فِيهَا بِالتَّوَاصُلِ ، وَأَنْهَى عَنْ التَّقَاطُعِ . فقيل لأبي يعقوب الجرمي هَلَّا أَكْتَفَى بِقَوْلِهِ أَمْرُ فِيهَا بِالتَّوَاصُلِ عَنْ قَوْلِهِ وَأَنْهَى عَنْ التَّقَاطُعِ ؟ فقال : أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْكِنَايَةَ وَالتَّعْرِیضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ الْإِطْنَابِ وَالتَّكْشُفِ ؟ أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا خَاطَبَ الْعَرَبَ وَالْأَحْزَابَ أَخْرَجَ الْكَلَامَ مُخْرَجَ الْإِشَارَةِ وَالْوَحْيِ ، وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكِيَ عَنْهُمْ جَعَلَ الْكَلَامَ مَبْسُوطًا ، وَقَلِمًا تَجِدُ قِصَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا مَطْوَلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعٍ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ ، وَتَأْخُرُ مَعْرِفَتِهِمْ ؛ بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُشْبِعِ الشَافِي فَإِنَّهُ سَالِمٌ مِنَ الْإِلْتِبَاسِ لِتَسَاوِي الْخَاصِّ وَالْعَامِّ فِي فَهْمِهِ .

وذهبت فرقة إلى ترجيح مساواة اللفظ المعنى ، واحتجوا لذلك بأن مترع الفضيلة من الوسط دون الأطراف وأن الحسن إنما يوجد في الشيء المعتدل . قال في "مواد البيان" : والذي يوجه النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواة صفات موجودة في الكلام ولكل منها موضع لا يخلقه فيه رديقه ، إذا وضع فيه انتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضع ، وإذا وضع غيره دل على نقص الواضع وجهله برسوم الصنعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمخاطبة الملوك ، وذوى الأخطار العالية ، والهمم المستقيمة ، والشئون السنية ، ومن لا يجوز أن يشغل زمانه بما همته مصروفة إلى مطالعة غيره .

وأما الإطناب فإنه يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يُقرأ في المحافل، والعهود السلطانية، ومخاطبة من لا يصل المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة. وعلى ذلك يحمل ما كتبه المهلب بن أبي صفرة إلى المجتاج في فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم على ارتفاع خطر هذا الفتح وطول زمانه وبعد صيته، فإنه كتب فيه : " الحمد لله الذي كفى بالإسلام قصد ما سواه ؛ وجعل الحمد متصلاً بثناءه ؛ وقضى أن لا ينقطع المزيّد وجهله ، حتى ينقطع الشكر من خلقه . ثم إنا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين ، نرى منهم ما يسرنا أكثر مما يسرهم ، ويرون منا ما يسوءهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم : ينصرون الله ويخذلهم ، ويخصصنا ويخفهم ، حتى بلغ الكتاب بناديتهم أجله ، فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فإن الذي حمّله على الاختصار في هذا الكتاب إنما هو كونه إلى السلطان الذي من شأنه اختصار المكاتبات التي تُكتب إليه ، بخلاف ما لو كتب به عن السلطان إلى غيره ، فإنه يتعين فيه بسط القول وإطالته على ماسيأتي ذكره في أول المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

وأما مساواة اللفظ للمعنى فإنه يصلح لمخاطبة الأكفاء والنظرّاء والطبقة الوسطى من الرؤساء . فكما أن هذه المرتبة متوسطة بين طرفي الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تُخصّص بها الطبقة الوسطى من الناس . قال أما لو استعمل كاتبٌ ترديد الألفاظ ومرادفها على المعنى في المكتابة إلى ملك مصروفِ الهمة إلى أمور كثيرة متى أنصرف منها إلى غيظها دخلها الخلل ، لرُبّ كلامه في غير رتبته ، ودلّ على جهله بالصناعة . وكذا لو بنى على الإيجاز كتاباً يكتبه في فتح جليل الخطر ، حسن الأثر ، يُقرأ في المحافل والمساجد الجامعة على رؤوس الأشهاد من العامة ومن يُراد منه تفخيم شأن السلطان

في نفسه ، لاؤقع كلامه في غير موقعه ، ونزله في غير منزلته : لأنه لا أقبح ولا أسمع من أن يُستنفر الناس لسماع كتاب قد ورد من السلطان في بعض عظام أمور المملكة أو الدين ، فإذا حضر الناس كان الذي يمر على أسماعهم من الألفاظ واردا مؤرد الإيجاز والاختصار لم يحسن موقعه وخرج من وضع البلاغة لوضعه في غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التي تبنى عليها صناعة الكلام هو القدر اللازم الذي لا يسع الكاتب الجهل بشيء منه ، ولا يُسمح بإخلاء كتاب مصنف في هذا الفن منه .

أما المتممات التي يكمل بها الكاتب : من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة ، تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء فاقضى الحال من المتقدمين للتصنيف في هذا الفن أن قد قصرُوا تصانيفهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" وأبى هلال العسكري في "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حسن التوسل" كما تقدمت الإشارة إليه في مقدمة الكتاب ، فليطلب ذلك من مظانّه من هذه الكتب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنما يذكر فيه ما يشق طلبه من كتب متفرقة ، وتصانيف متعددة ، أو يكون في المصنف الواحد منه النبذة غير الكافية ، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشف الكثير من المصنفات المتفرقة في الفنون المختلفة .

الفصل الثالث

(من الباب الأول من المقالة الأولى)

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على اختلاف
الأمم فيها، وتفصيل أجزائها، والطرق الموصلة إليها، ومعرفة
أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأول

(في الأيام ، وفيه ست جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول اليوم ومعناه ، وبيان ابتداء الليل والنهار)

وقد اختلف الناس في مدلول اليوم على مذهبين .

المذهب الأول (وهو مذهب أهل الهيئة) - أن اليوم عبارة عن زمانٍ جامعٍ ليل
والنهار ، مدته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة
الأولى إلى عودها إلى ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وملك نصف
النهار . والحدائق من المنجمين يؤثرون فلك نصف النهار على الأفق بسهولة تحصل
بذلك في بعض أعمالهم ؛ لأن اختلاف دوائره في سائر الأوقات اختلاف واحد ؛
وبعضهم يؤثر استعمال الأفق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهر للعيان ، وهو
الموافق لما نحن فيه .

ثم منهم من يقدم الليل فيفتح اليوم بغروب الشمس وينتخم بغروبها من اليوم
القابل ، وعلى ذلك عمل المسلمين وأهل الكتاب ، وهو مذهب العرب : لأن شهورهم
مبنية على مسير القمر ، وأوائلها مقننة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدم النهار على الليل فيفتتح اليوم بطلوع الشمس ويختم بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهب الروم والفرس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعض الحكماء عن الليل والنهار أيهما قبل صاحبه فقال : هما في دائرة واحدة، والدائرة لا يُعلم لها أول ولا آخر، ولا أعلى ولا أسفل .

المذهب الثاني (وهو مذهب الفقهاء) - أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل حتى لو قال لزوجته أنت طالق يوم يقدم فلان فقدم ليلا لم يقع الطلاق على الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين : طبيعي وشرعي .

أما الطبيعي فالليل من لدن غروب الشمس وأستارها بحدبة الأرض إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق إلى غيوبة نصفها في الأفق في المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعي - فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بالخيطة الأبيض من قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ والنهار من الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وبذلك تتعلق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّمْسَ فِي اللَّيْلِ تَكُونُ غَائِبَةً تَحْتَ الْأَرْضِ، فَإِذَا قَرُبَتْ مِنَّا فِي حَالِ غَيْبَتِهَا أَحْسَسْنَا بِضِيَائِهَا الْحَيْطُ بِظِلِّ الْأَرْضِ الَّذِي هُوَ اللَّيْلُ، وَهَذَا الضِّيَاءُ طَلِيعَةٌ أَمَامَهَا يَطْلُعُ، فِي السَّحَرِ بَيَاضٌ مُسْتَطِيلٌ مُسْتَدِقُّ الْأَعْلَى، وَهُوَ الْفَجْرُ الْكَاذِبُ إِذَا لَاحَظَ لَهَ فِي الشَّرِيعَةِ، وَيُشَبَّهُ بِذَنْبِ السَّرْحَانِ لَانْتِصَابِهِ وَأَسْتَطَالَتِهِ وَدِقَّتِهِ، وَيَسْقُ مَدَّةً ثُمَّ يَزِيدُ هَذَا الضَّرْوُ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ طَوِيلًا وَعَرَضًا وَيَنْبَسِطُ فِي عَرْضِ الْأُفُقِ، وَهُوَ الْفَجْرُ الثَّانِي وَيُسَمَّى الصَّادِقَ، وَعَلَيْهِ تَقَرَّبَ جَمِيعُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ

(١) لعله المحجوب بظل الأرض كما يفيد المقام .

بالفجر، وبعده يحتر الأفق لأقتراب الشمس وسطوع ضيائها على المدورات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع؛ وعند غروبها ينعكس الحكم في الترتيب المتقدم فيبقى الأفق محمرا من جهة المغرب بعد الغروب، ثم تزول الحمرة ويبقى البياض الذي هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمها عند الحنفية؛ ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذب مدة من الليل ثم يذهب؛ وهذا لا حكم له في الشرعيات. والهند لا يعدون الفجر ولا الشفق من الليل ولا من النهار، ويجعلونهما قسما مستقلا وهذا في غاية البعد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما.

الجملة الثانية

(في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والاستواء باختلاف الأمكنة)
واعلم أن البلاد والنواحي على قسمين :

القسم الأول

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبداً، لا يختلفان بزيادة ولا نقصان)

وذلك في البلاد التي لا عرض لها . وهي مأمرة عليه خط الاستواء ؛ والعللة في التساوى هي أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قطبي فلك البروج دائرة عظيمة تقسم سطح السماء نصفين على السواء وسموها دائرة معدل النهار ، توهموا أيضا في موازاتها دائرة أخرى تقسم سطح الارض نصفين وسموها دائرة الاستواء ، وخط الاستواء ؛ وكل بلد يميز عليه هذا الخط لا عرض له : وذلك لأنقسام الكرة فيه وطلوع

الشمس أبداً على رؤوس ساكنيه ، وميلها فى ناحيتى الشمال والجنوب بقدر واحد ، ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معدل النهار بنصفين نصفين ، فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذى من طلوع الشمس إلى غروبها مساوياً لقوس الليل : وهو الزمان الذى من غروب الشمس إلى طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبداً فى هذه المواضع فى جميع السنة .

القسم الثانى

(ما يختلف فيه الليل والنهار فى السنة بالاستواء والزيادة والنقصان ،

وهى البلاد ذوات العروض)

والعلة فى الزيادة والنقصان أن المواضع التى تميل عن خط الاستواء إلى الشمال تميل فى كل موضع منها دائرة معدل النهار إلى الجنوب وتخط الشمس ويرتفع القطب الشمالى من الأفق ويصير للبلد عرض بحسب ذلك الارتفاع ، وبقدر بعده عن الخط . وإذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كل دائرة من الدوائر الموازية لها بقطعتين مختلفتين ، فيكون ما فوق الأرض من قسميها أعظم من الذى تحتها : لأن القطب لما ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثر من نصفها وأنحط مدار الشمس عن سمت الرأس إلى جهة الجنوب فبعد مشرق الصيف عن مشرق الشتاء فطال النهار وقصر الليل ، وكلما زاد ارتفاع القطب فى الأقاليم زاد الاختلاف الذى هو بين هذه القطع إلى أن تكون نهاية الأطوال حيث يكون ارتفاع القطب اثنتى عشرة درجة ونصفاً وربعاً وهو أول المعمور ، اثنتى عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه تسعاً وعشرين درجةً وهو آخر الإقليم الثانى ، ثلاث عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثاً

وثلاثين درجةً ونصفاً وهو آخر الإقليم الثالث أربع عشرة ساعةً وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه تسعا وثلاثين درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربع عشرة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خمس عشرة ساعةً وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الإقليم السادس خمس عشرة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه خمسين درجةً وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعةً وربعا .

ولا يزال اختلاف مطالع البروج يزداد بالإمعان في الشمال ويتسع شرقا المنقلبين ويتقاربان مع مغربيهما إلى أن يلتقيا في العرض المساوي لتمام الميل الأعظم : وهو حيث يكون ارتفاع القطب ستا وستين درجةً . وفي هذا الموضع يكون قطبُ فلك البروج في دوره يمرُّ على سمت الرُّؤوس ، ويكون أول السرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبداً ، ومدار أول الجدي فقط غائبا أبداً . فيكون مقدارُ النهار الأطول أربعة وعشرين ساعةً لا ليل فيه . ويعرض في هذه المواضع عند موازاة قطب فلك البروج سمت الرُّؤوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ على دائرة الأفق ، فيكون أول الحمل في المشرق ، وأول الميزان في المغرب ، وأول السرطان في الأفق الشمالي ، وأول الجدي في الأفق الجنوبي . فإذا صار قطبُ فلك البروج والأفق نصفين وارتفع النصف الشرقي من فلك البروج وانخفض النصف الغربي فيطلع حينئذ ستة بروج دفعةً واحدةً ، وهي من أول الجدي إلى آخر الجوزاء ، وكذلك تغرب الستة الباقية دفعةً واحدةً . وحيث يكون ارتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهناك يكون مدار ما بين النصف من الجوزاء إلى النصف من السرطان ظاهرا فوق الأرض أبداً ، وما بين النصف من القوس إلى النصف من الجدي غائبا أبداً ، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كله لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهر الباقية من السنة كل يوم وليلة أربعاً وعشرين ساعة. وحيث يكون ارتفاع القطب تسعاً وستين درجة ونصفاً وربعا فهناك يكون مدار برجى الجوزاء والسرطان ظاهراً فوق الأرض ، ومدار برجى القوس والجدى غائباً تحت الأرض أبداً . ولذلك يكون مقدار شهرين من الصيف نهراً كله ، وشهرين من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثلاثاً وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلى النصف من الأسد ظاهراً أبداً والأجزاء النظرية لها غائبة أبداً ، فيكون مقدار ثلاثة أشهر من الصيف نهراً كله ، وثلاثة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثماناً وسبعين درجة ونصفاً فهناك يكون مدار الثور والجوزاء والسرطان ظاهراً أبداً والبروج النظرية لها غائبة أبداً ، فيكون أربعة أشهر من الصيف نهراً كله وأربعة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب أربعاً وثمانين درجة فهناك يكون مدار ما بين النصف من الحمل إلى النصف من السنبلة ظاهراً أبداً والبروج النظرية لها غائبة أبداً فيكون خمسة أشهر من الصيف نهراً كله وخمسة أشهر من الشتاء ليلاً كله .

ومما يعرض في هذه المواضع التي تقدم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج في دائرة نصف النهار مماساً على الجنوب كان أول الحمل في المشرق وأول الميزان في المغرب ، وتكون البروج الشمالية ظاهرة أبداً فوق الأرض والجنوبية غائبة تحتها ، وهناك يطلع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجدى والسرطان منكوساً ، فيطلع الثور قبل الحمل ، والحمل قبل الحوت ، والحوت قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسة؛ وحيث يكون ارتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سمت الرأس فهناك تكون دائرة معدل النهار منطبقة على الأفق أبداً ، ويكون دور الفلك

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

رَحْوِيًّا موازيا للأفق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدل النهار ظاهرا أبدا فوق الأرض والنصف الجنوبى غائبا تحتها، فلذلك إذا كانت الشمس فى البروج الشمالية كانت طالعة تدور حول الأفق ويكون أكثر ارتفاعها عنه بمقدار ميلها عن معدل النهار، وإذا كانت فى البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للأفاق إما دُولَابِيَّةٌ، وهى فى خط الاستواء، وإما حَمَائِلِيَّةٌ، وهى فى الآفاق المائلة عنه، وإما رَحْوِيَّةٌ : وهى فى المواضع التى ينطبق فيها قطب العالم على سمت الرأس فسيجدان مَنْ أَتَقَنَ ما صنع !

الجملة الثالثة

(فى معرفة زيادة الليل والنهار ونقصانها بتنقل الشمس فى البروج)

اعلم أن للشمس حركتين : سريعة وبطيئة .

أما السريعة فحركة فلك الكلِّ بها فى اليوم واللييلة من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمى الحركة اليومية .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج فى سنة شمسية من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، ولتعلم أن جهة المشرق وجهة المغرب لاتتغيران فى أنفسهما بل جهة المشرق واحدة وكذلك جهة المغرب، وإن اختلفت مطالعتهما . قال تعالى ((رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)) أى جهة الشروق وجهة الغروب فى الجملة، إلا أن الشمس لها غاية ترتفع إليها فى الشمال وتلك الغاية مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ وهو مَشْرِقُ الصيف ومَغْرِبُهُ، ومطلعها حينئذ بالقرب من مَطْلَعِ السَّمَاءِ الرَّامِحِ، ولها غاية تنحطُّ إليها فى الجنوب، وتلك

الغاية أيضا مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ : وهو مَشْرِقُ الشتاء ومغربه ، ومَطْلَعُها حينئذٍ بالقُرْبِ من مَطْلَعِ بطن العقرب ، وهذان المَشْرِقانِ والمَغْرِبَانِ هما المراد بقوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ ﴾ وبين هاتين الغائتين مائة وثمانون مَشْرِقا ويقابلها مائة وثمانون مَغْرِبًا ، ففي كل يوم تَطْلُعُ في مَطْلَعٍ من المشرق غير الذي تَطْلُعُ فيه بالأمس ، وتَغْرُبُ في مغرب غير الذي تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ ﴾ ونقطة الوسط بين هاتين الغائتين : وهى التى يعتدل فيها الليل والنهار يُسَمَّى مَطْلَعُ الشمس فيها مَشْرِقُ الأستواء ، ومَغْرِبُ الأستواء ، ومطلعها حينئذٍ بالقرب من مَطْلَعِ السماك الأعزل .

وقد قسم علماء الهيئة ما بين غاية الارتفاع وغاية الهبوط اثني عشر قسما ، قالوا : والمعنى فى ذلك أن الشمس فى المبدأ الأول لما سارت مسيرها الذى جعله الله خاصا بها قطعت دَوْرَ الفلك التاسع فى ثلثائة وستين يوما ، وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية وسميت بحركتها هذه فى هذا الفلك دائرة عظمى على ما توهمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلى ثلثائة وستين جزءا وسموا كل جزء درجة ، ثم قسمت هذه الدرج إلى اثني عشر قسما على عدد شهور السنة ، وسموا كل قسم منها برجًا ، وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعي : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا فى كل قسم من هذه الأقسام نجوما تتشكل منها صورة من الصور فسموا كل قسم باسم الصورة التى وجدوها عليه ، وكان القسم الأول الذى ابتدؤا به نجوما إذا جمعت متفرقها تشكلت صورة حمل ، فسموها بالحمل ، وكذلك البواقي .

قال صاحب "منهاج الفكر" : وذلك فى أول ما رصدوا ، وقد آتقت الصور عن أمكتها على ما زعموا فصار مكان الحمل الثور ، وهى تتقل على رأى بطليموس فى ثلاثة آلاف سنة وعلى رأى المتأخرين فى ألفى سنة .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الدّورة الفلكية في العروض الشماليّة تنقسم إلى ثلثمائة وستين درجة ، كما تقدّمت الإشارة إليه ، والسنة ثلثمائة وستون يوماً منقسمة على الأثنى عشر برجاً المتقدم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثون يوماً ، وتوزّع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج فما نقص من أحدهما زيد في الآخر . وذلك أنها إذا حلّت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع إلى جهة الشمال ، وذلك في السابع عشر من برمهات من شهور القبط ، ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور السريان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، اعتدل الليل والنهار ، فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة ، وهو أحد الاعتدالين في السنة ، ويسمى الاعتدال الربيعي : لوقوعه أول زمن الربيع فيزيد النهار فيه في كل يوم نصف درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة ، والليل على مائة وخمس وستين درجة .

ثم تنقل إلى الثور فيزيد النهار فيه كلّ يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات ، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الجوزاء فيزيد النهار فيها كلّ يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية ارتفاعها في جهة الشمال . وهذا أطول يوم في السنة وأقصر ليلة في السنة . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً صاعداً : لصعودها في جهة الشمال .

ثم تنقل الشمس إلى السرطان وتكثر راجعة إلى جهة الجنوب، ويسمى ذلك المُنْقَلَب الصيفي؛ وذلك في العشرين من بؤنة من شهور القبط، ويبقى من حزيان من شهور السريان، ويؤنيه من شهور الروم خمسة أيام، وحينئذ يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، فينقص النهار فيه في كل يوم سُدَسَ درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما نحس درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائتين ونحس درجات، والليل على مائة ونحس وخمسين درجة.

ثم تنقل إلى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة ونحس وتسعين درجة، والليل على مائة ونحس وستين درجة.

ثم تنقل إلى السنبلة فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخرها على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار. ويسمى الاعتدال الخريفي: لوقوعه في أول الخريف. ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا، لهبوطها في الجهة الشمالية.

ثم تنقل إلى الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، وهي آخذة في الهبوط، والنهار في النقص والليل في الزيادة، فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة ونحس وستين درجة والليل على مائة ونحس وتسعين درجة.

ثم تنقل إلى العقرب ، فينقص النهار في كل يوم ثلث درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى القوس ، فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة ، وذلك غاية هبوطها في الجهة الجنوبية . ويسمى سير الشمس في هذه البروج جنوباً هابطاً ، لهبوطها في الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلى الجدى في السابع عشر من كيهك وتكر راجعة ، فتأخذ في الارتفاع وتأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان ، فيزيد النهار فيه كل يوم سدس درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى الدلو ، فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلى الحوت فيزيد النهار فيه كل يوم نصف درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة ونقص الليل كذلك ،

ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدم . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبيا صاعدا : لصعودها في الجهة الجنوبية ؛ وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهذا العمل إنما هو في مصر وأعمالها ؛ فإذا اختلفت العروض كان الامر في الزيادة والنقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه - إذا أردت أن تعرف الشمس في أى برج من البروج وكم قطعت منه في أى وقت شئت فأقرب الطرق في ذلك أن تعرف الشهر الذى أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه ^(١)

الجملة الرابعة

(في بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار)

وقد تقدم أن النهار الطبيعي أوله طلوع الشمس وآخره غروبها، والنهار الشرعى أوله طلوع الفجر الثانى وآخره غروب الشمس ؛ فيخالفه في الابتداء ويوافقه في الانتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص والعام . أما الفجر فإن أمره خفى لا يعرفه كل أحد؛ وقد تقدم أنقسامه إلى كاذب وهو الأول، وصادق وهو الثانى، وعليه التعويل في الشرعيات، فيحتاج إلى توضيح يوضحه ويظهره للعيان وقد جعل المنجمون وعلماء الميقات له نجوما تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط، وهى منازل القمر، وعددها ثمان وعشرون منزلة : وهى الشرطان ، والبطين، والثريا، والدبران، والمقعة، والمنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجهة،

والخَرَّتَانِ ، والصَّرْفَةِ ، والعَوَاءِ ، والسَّمَكَ ، والغَفَرِ ، والزَّبَانَانِ ، والإِكْلِيلِ ، والقَلْبِ ،
والشَّوْلَةِ ، والنَّعَائِمِ ، والبَلْدَةِ ، وسَعْدُ الذَّالِجِ ، وسَعْدُ بَلَعٍ ، وسَعْدُ السَّعُودِ ، وسَعْدُ
الأُخْيَةِ ، والفَرَعُ المَقْدَمِ ، والفَرَعُ المؤخَّرِ ، وبطن الحوتِ ،

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قُرِبَتْ من كوكب من الكواكب النابتة
أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون ، فصار يظهر نهاراً ويختفي ليلاً ويكون خفائه
غيباً له ، ولا يزال كذلك خافياً إلى أن تبعد عنه الشمس بعداً يمكن أن يظهر معه
للاَبْصَارِ وهو عند أول طلوع الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً حينئذ فلا يغلب
نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً ، وحصة كل منزلة من هذه
المنازل من السنة ثلاثة عشر يوماً وربع سبع يوم ونصف ثمن سبع يوم على التقريب
كما سيأتي ^(٢) على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور
ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوماً : وهي ثلاث عشرة درجة
من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوماً بعد انقضاء أيام
المنازل الثمانية والعشرين فكان يوماً وربعاً فجعل يوماً في المنزلة التي توافقت آخر السنة
وهي الجهة فكان حصتها أربعة عشر يوماً ، وبقي ربع يوم ونسب أربع سنين حتى
صار يوماً فزيد على الجهة أيضاً ، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلع مع الفجر
منها أربعة عشر يوماً ثلاث سنين وفي السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوماً .

فأما الشَّرَطَانِ : وهما المنزلة الأولى ، فأول طلوعهما بالفجر في الثالث والعشرين
من برمودة من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من نيسان من شهور السريان .

وأما البَطَيْنِ : وهو المنزلة الثانية فأول طلوعه بالفجر في السادس من بشنس من
شهور القبط ، وهو أول يوم من أيّام من شهور السريان .

(١) لعله يختفي نهاراً ويظهر ليلاً . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة .

(٢) كذا في الأصل ولعله فإن أيام السنة إذا قسمت على الخ .

وأما الثَّريَّا : وهى المنزلة الثالثة فأول طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط ، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السريان .

وأما الدَّبْران : وهو المنزلة الرابعة فطلوعها بالفجر فى الثانى من يؤنه من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الهَقَّعة : وهى المنزلة الخامسة ، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من يؤنه من شهور القبط ، وهو التاسع من حريزان من شهور السريان .

وأما الهَنَّة : وهى المنزلة السادسة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن والعشرين من يؤنه من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من حريزان من شهور السريان .

وأما الدَّرَاع : وهو المنزلة السابعة ، فأول طلوعه بالفجر فى الحادى عشر من أيبب من شهور القبط ، وهو الخامس من تموز من شهور السريان .

وأما النَّثَرَة : وهى المنزلة الثامنة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أيبب من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السريان .

وأما الطَّرْف : وهو المنزلة التاسعة ، فأول طلوعه بالفجر فى السابع من مسرى من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السريان .

وأما الجبهة : وهى المنزلة العاشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرى من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَرَتان : وهو المنزلة الحادية عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى الرابع من أيام النسيء القبطى ، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه ، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفَة : وهى المنزلة الثانية عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط ، وهو التاسع من أيلول من شهور السريان .

وأما العَوَّاءُ : وهى المنزلة الثالثة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط ، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السريان .

وأما السَّمَاءُ : وهى المنزلة الرابعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه من شهور القبط ، وهو الخامس من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الغَفَرُ : وهى المنزلة الخامسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بابه من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الزُّبَّانُ : وهى المنزلة السادسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط ، وهو آخر يوم من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الإِكليلُ : وهو المنزلة السابعة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى السابع عشر من هاتور من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما القلبُ : وهو المنزلة الثامنة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما الشُّوْلَةُ : وهى المنزلة التاسعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط ، وهو التاسع من كانون الأول من شهور السريان .

وأما النِّعَامُ : وهى المنزلة العشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من كانون الأول من شهور السريان .

وأما البَلْدَةُ : وهى المنزلة الحادية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط ، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سعدُ الذابحِ : وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثاني من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بَلَعٍ : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الخامس من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السريان .

وأما سَعْدُ السُّعُود : وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الثامن عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثاني عشر من شباط من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الْأَخْبِيَّةِ : وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر أول يوم من برمهات من شهور القبط ، وهو الخامس والعشرون من شباط من شهور السريان .

وأما الْفَرَّغُ الْمُقَدِّمُ : وهو المنزلة السادسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الرابع عشر من برمهات من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .
وأما الْفَرَّغُ الْمُؤَخَّرُ : وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في السابع والعشرين من برمهات من شهور القبط ، وهو الثاني والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْنُ الْحَوْتِ : وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في العاشر من برمودة من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي أبياتا ، يعلم منها مطالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غلط بعض الناس فنسبها إلى الشيخ عبد العزيز الديري رحمه الله ، وهي هذه :

تبيص تهكم بحس بكأغ هـدز * هـيزاء هلق كيجهش ككون برز

ططب طكبذ أهب أيحس بأخ * بيدم بكرم بيت بكجش رمز^(١)
وليس فيها من الحشوات قط سوى * أواخر النظم فافهم شرحها لتعز
وبيان ذلك أن الحرف الأول من كل كلمة اسم للشهر الذي تطلع فيه تلك المنزلة
والحرف الآخر منها اسم المنزلة وما بين الآخر والأول عدد ما مضى من الشهر بحسب
الجل، مثال ذلك التاء من تبصص كناية عن توت ، والصاد منها كناية عن الصرفة ،
والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجل اثنا عشر، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكانه
قال في الثاني عشر من توت تطلع منزلة الصرفة بالفجر ، وكذلك البواقي ، إلا أنه
لا عبرة بأواخر البيتين ، وهي برز في البيت الأول ، ورمز في البيت الثاني .
ونظم الإمام محب الدين جار الله الطبري أبياتاً كذلك على شهور السريان ،
وهي هذه :

تهس تحيغ تلزنجى * توكق كطش كبكن نزول
كدب كويذ كلب شيس * شهكح أريم أبكم أول
نهب نحيش آب * أوكد حطت حبكه ضجول

والحال في هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأواسطها كالحال في الأبيات
المتقدمة ، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأول والسين إشارة للسمك ، والهاء بينهما
بخمسة ففي الخامس من تشرين الأول يطلع السمك ، وعلى هذا الترتيب في البواقي .
وآلم أن هذه المنازل لا تزال أربع عشرة منزلة منها ظاهرة فوق الأرض في نصف
الفلك وأربع عشرة منزلة منها خافية تحت الأرض في نصف الفلك ، وهي مراقبة
بعضها لبعض لأستواء مقادير أبعادها ، فإذا طلعت واحدة في الأفق الشرق غربت
واحدة في الأفق الغربى ، وكانت أخرى متوسطة في وسط الفلك فهي كذلك أبداً .

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالأصل وبه تكل الشهور والمنازل .

والقاعدة في معرفة ذلك أنك تبتدئ بأية منزلة شئت ، وتعدّ منها ثمانية من الطالع فالثامنة هي المتوسطة والخامسة عشرة هي الغاربة ؛ فإذا كان الطالع الشرطين فالمتوسط الثمرة والغارب الغفر ؛ وكذلك في جميع المنازل ؛ وفي مراقبة الطالع منها للغارب يقول بعض الشعراء مقيداً لها على الترتيب بادئاً بطلوع النّطج : وهو الشرطان وغروب الغفر حينئذ :

كَمْ أُمَّاؤُا مِنْ نَاطِجٍ بَاغْتِفَارٍ * وَأَحَالُوا عَلَى الْبُطَيْنِ الزُّبَانِي
وَالثَّرِيًّا تَكَلَّتْ فَرَأَيْنَا الْقَلْبَ مِنْهَا يُشْعَرُ الدَّبْرَانَا
هَقُّعُوا شَوْلَةً وَهَنُوعُوا نَعَامًا * بَعْدَ مَا ذَرَعُوا الْبِلَادَ زَمَانَا
تَنَرُّوا ذُبُجُهُمْ بِطَرْفِ بُلَيْعٍ * جَبْهَةَ السَّعْدِ فِي خَرَاتِ خَبَانَا
فَانصَرَفْنَا فِي الْمُقَدَّمِ عَوَا * آخِرَا وَالسَّمَاءَ مَدَّ رِشَانَا

وقال آخر :

النَّطِجُ يَغْفِرُ وَالْبُطَيْنُ مُزَابِنُ * ثُمَّ الثَّرِيَّا تَبْنِي إِكْلِيلَا
وَالْقَلْبَ لِلدَّبْرَانِ خِلُّ عَادِرٍ * مِنْ أَجْلِ هَقْعَةِ شَوْلَةٍ مَا قِيلَا
تَهْوَى الْهَنِيئَةَ لِلنَّعَائِمِ مِثْلَ مَا * يَنْوِي الذَّرَاعَ لِبَلَدَةِ تَرْجِيلَا
وَالثَّرِيذِخَ عِنْدَ طَرْفِ بُلُوعِهِ * وَلِجَبْهَةِ سَعْدٍ غَدَا مَقُولَا
وَلِزُبْرَةِ وَسْطِ الْخَبَاءِ إِقَامَةً * فَاصْرِفْ مَقْدَمَ ذِكْرَهَا تَعْجِيلَا
يَهْوَى الْمُؤَخَّرَانَ سِمَاكَ مَرَّةً * مَدَّ الرَّشَاءَ لِحِيدِهِ تَنَكِيلَا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشوري الشير بالسهروردي أرجوزة ، ذكر فيها الطالع ، ثم الغارب في بيت وبعده المتوسط ثم الودد وهو الذي يقابله تحت الارض في بيت ثان - قال :

(١) إن طلع الشرطان

بُطِينُهَا نُورَ الزُّبَانِ خَلَعَ * فَنَاعِسُ الطَّرْفِ رَمَى سَعْدَ بَلَعٍ
 مُرِيًّا مَعَ الْإِكْلِيلِ بِالْوُقُودِ * تُنَوِّرُ الْجِبَةَ فِي السُّعُودِ
 وَالذَّبْرَانُ الْقَلْبَ مِنْهُ يَخْفِقُ * فَالْحَرَتَانُ لِلْجَاءِ يَطْرُقُ
 وَهَقْعَةُ شَوْلَتِهَا مُنْهَزِمَةٌ * وَصَرْفَةُ بَفْرِغِهَا مُقَدَّمَةٌ
 وَهَنْعَةٌ مِنْهَا النِّعَائِمُ تَقَرَّتْ * بَعُوَّةٌ بِالْفَرْغِ قَدْ تَأَخَّرَتْ
 رَمَى الذِّرَاعُ بِلَدَّةٍ أَصَابَهَا * سَمَّاكَ بَطْنِ الْحَوْتِ مَا أَصَابَهَا
 فَهَذِهِ جَمَلَتِهَا مَكْمَلَةٌ * لِلشَّمْسِ فِي ثَلَاثِ عَشْرٍ مِثْلُهُ

الجملة الخامسة

(في ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحركاً حركاتٍ متعددةً يتلو بعضها بعضاً ،
 جعل مقدار كل حركة منها يوماً ، ولما كانت الشمس في حركة من هذه الحركات تارةً
 تكون ظاهرة لاهل الربع المعمور وتارة مستترة عنهم بحدبة الأرض ، انقسم لذلك
 مقدار تلك الحركة إلى الليل والنهار ، فالنهار عبارة عن الوقت الذي تظهر فيه الشمس
 على ساكني ذلك الموضع من المعمور ، والليل عبارة عن الوقت الذي تخفى عنهم فيه ،
 فإنه يوجد وقت الصبح في موضع وقت طلوع الشمس في موضع آخر ، وفي موضع
 آخر وقت الظهر ، وفي موضع آخر وقت المغرب ، وفي موضع آخر وقت نصف الليل .
 ولما كانت منطقة البروج مقسومة إلى اثني عشر برجاً ، وكل برج إلى ثلاثين
 درجة ، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقة بحركة فلك الكل لها في زمان اليوم

الجامع لليل والنهار، قُسم كل واحد منهما إلى اثني عشر جزءاً، وجعل قسماً كل جزء منها خمس عشرة درجة، وسمي ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخر ويتساويان في الاعتدالين على ما مرّ، اضطرّ إلى أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمى المعتدلة، وزمانيّة وتسمى المعوجة. فالمستوية تختلف أعدادها في الليل والنهار، وتتفق مقاديرها بحسب طول النهار وقصره. فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وإن قصّرت كانت ساعاته أقل، مقدار كل ساعة منه خمس عشرة درجة لا تزيد ولا تنقص، والمعوجة تتفق أعدادها وتختلف مقاديرها، فإن زمان النهار طال أو قصر ينقسم أبداً إلى اثنتي عشرة ساعة، مقدار كل واحدة منها نصف سدس الليل والنهار، وهي في النهار الطويل أطول منها في القصير. والذي كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانيّة دون المستوية، فكانوا يقسمون كلا من الليل والنهار إلى اثنتي عشرة ساعة، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسماء تخصّها.

فأما ساعات الليل فسمّوا الأولى منها الشاهد، والثانية القسق، والثالثة العتمة، والرابعة الفحمة، والخامسة الموهن، والسادسة القطع، والسابعة الجوشن، والثامنة الهتكة، والتاسعة التبشير^(١)، والحادية عشرة الفجر الأول، والثانية عشرة الفجر المعترض.

وأما النهار فسمّوا الساعة الأولى منه الذرور، والثانية البروغ، والثالثة الضحى، والرابعة الغزلة، والخامسة الهاجرة، والسادسة الزوال، والسابعة الدلوك، والثامنة العصر، والتاسعة الأصيل، والعاشره الصبوب، والحادية عشرة الحدود، والثانية عشرة الغروب.

(١) العاشره غير موجودة في الاصل. وعند في نهاية الأرب بعد التبشير الفجر الأول ثم الفجر الثاني ثم المعترض وبه تعلم ما هنا (٢) لعل صوابه الحدور.

وتروى عنهم على وجه آخر؛ فيقال فيها : البُكور، ثم الشُّروق ، ثم الإِشراق ،
ثم الرُّاد ، ثم الضُّحى ، ثم المُنوع ، ثم الهاجرة ، ثم الأصيل ، ثم العصر ، ثم الطَّفَل
(بتجرك الفاء) ، ثم العِشى ، ثم الغروب . ذكرهما ابن النحاس في "صناعة الكتاب".
قال في "مناهج الفكر" : ويقال إن أول من قسم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة آدم عليه
السلام ، وصُيِّن ذلك وصيةً لابنه شيث عليه السلام ، وعرفه ماؤظف عليه كل ساعة
من عمل وعبادة والله أعلم .

الجملة السادسة

(في أيام الأسبوع ، وفيها أربعة مدارك)

المُدرك الأول

(في ابتداء خَلْقها وأصل وجودها)

وقد نطق القراءان الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل .
أما الإجمال فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .
وأما التفصيل فقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٌ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾
والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومين المتقدمين ، ومثله في كلام العرب كثير ،
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " إذا نام أحدكم جاء الشيطان فعقد تحت رأسه ثلاث
عقد ، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى أنحلت عقدة ، فإذا توضأ أنحلت عقدتان ، فإذا
صلى أنحلت الثالثة " فالمراد بقوله عقدتان عقدة والعقدة الأولى . وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريحُ الآيات في غير هذه الآية أن خلقَ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ابنُ جرير من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ” أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، تسأله عن خلق السموات والأرض ، فقال خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيها من منافع ، وخلق يوم الأربعاء المدائن والشجر والعمران والحراب ، فهذه أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه ؛ وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة ” قالت اليهود ، ثم ماذا ؟ قال ” ثم استوى على العرش ” قالوا : أصبت لو أتممت ، قالوا : ثم استراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فترل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره : وفيه غرابة ، ولا ذكر في هذا الحديث ليوم السبت في أول الخلق ولا في آخره ، نعم ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ، أنه قال ” أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل ” قال ابن كثير وهو من غرائب الصحيح ، وعمله البخاري في تاريخه فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار ، وهو أصح . فقد ورد التصريح في هذا الحديث بذكر الأيام السبعة ووقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولى من الحديث الذى قبله ، وأستدل بأن الفراغ كان يوم الجمعة ، وخالفه غيره من العلماء الحذاق النظار . وقالوا دليله دليل على خطئه : لأن الخلق فى ستة أيام يوم الجمعة منها كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدخل فى الأيام لكاتب الخلق فى سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . على أن أكثر أهل العلم على حديث ابن عباس ، فتبين أن الابتداء يوم الأحد إذ كان الآخر يوم الجمعة ، وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : على أن الحديثين ليسا بتناقضين ، لأننا إن عملنا على الابتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لا يخلق بعدها شيئا وإن عملنا على الابتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكى أبو جعفر النحاس أن مقدار كل يوم من أيام خلق السموات والأرض ألف سنة من أيام الدنيا ، وأنه كان بين ابتدائه عز وجل فى خلق ذلك وخلق القلم الذى أمره بكتابة كل ما هو كائن إلى قيام الساعة يوم : وهو ألف عام ، فصار من ابتداء الخلق إلى انتهائه سبعة آلاف عام ، وعليه يدل قول ابن عباس : إن مدة إقامة الخلق إلى قيام الساعة سبعة أيام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا باب مداره على النقل دون الآراء .

المذكر الثانى

(فى أسمائها . وقد اختلف فى ذلك على ثلاث روايات)

الرواية الأولى - ما نطق به العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآن : وهو الأحد والاشنان والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت .

والأصل في ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : "إن الله عز وجل خلق يوماً واحداً فسماه الأحد ، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامساً فسماه الخميس " ولا ذكر في هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز . قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ وقال جل وعز ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ . وسياطين في غير هذه الرواية عند ذكر الاختلاف فيما ابتدئ فيه الخلق منها .

فالأحد بمعنى واحد ويقال بمعنى أول ورجحه النحاس ، وهو المطابق لتسمية الثاني بالاثنتين . والثالث بالثلاثاء . وقيل أصله وحد بفتح الواو والحاء كما أن أناة أصلها وناة ، ويجمع في القلة على أحادٍ وأحداث ، وفي الكثرة على أحوود وأوحد ويحكي في جمعه أحد أيضاً قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنتان بمعنى الثاني . قال النحاس ، وسبيله أن لا يثنى ، وأن يقال فيه : مضت أيام الاثنين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريون الأثن والجميع الثني . وقال ابن قتبية في أدب الكاتب : إن شئت أن تجمعهم فكانه مبنى للواحد قلت أثنانين . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفراء في الأيام وقال : إنما يجوز على حيلة بعيدة ، وهي أن يقال اليوم الاثنان فتضم النون فتصير مثل عمران فتثنيه وتجمعهم على هذا . وحكى عن الفراء أيضاً في جمع الكثرة أثنان فتقول مضت أثنان مثل أسماء وأسام قال : وقرأت على أبي إسحاق في كتاب سيبويه فيما حكاه اليوم الثني فتقول على هذا في الجمع الاثناء .

والثلاثاء بمعنى الثالث، ويجمع على ثلاثاوات وحي الفراء أَنَاثَ . قال النحاس ويجوز أَنَاثِيثُ ، وكذا ثَلَاثِيثٌ مثل جمع ثلاثة لأن أَلْفِي التَّائِيث كالهاء . وتقول فيه مضت الثلاثاء على تَأْيِيث اللفظ ومضى على تذكير اليوم ، وكذا في الجمع تقول مضت ثلاثٌ ثلاثاوات ، وثلاثةٌ ثلاثاوات .

والأربعاء بمعنى الرابع ، ويجمع على أَرْبَعَاوات وكذا أَرْبَعُ والياء فيه عوض ما حُذِفَ ، فإن لم تعوّض قلت أَرْبَع . وأجاز الفراء أَرْبَعَاوات مثل ثلاثاوات ومنعه البصريون للفرق بين ألف التائيث وغيرها .

والخميس بمعنى الخامس ، ويجمع في القلة على أَلْفِي . وفي الكثرة على خُمُسٍ وخُمسانٍ كُرْعَفٍ ورُعْفانٍ . ويقال أَلْفِي كَأَنْصَاءٍ ، وحي الفراء في الكثرة أَلْفِي .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وأختلف في سبب تسميته بذلك فقال النحاس : لاجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر في أن الاسم كان بها قديما وقيل لاجتماع الناس للصلاة فيه . ثم اختلف فقيل سميت بذلك في الجاهلية وأُخْتُجَّ له بما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل أن أول من سُمِّي الجمعة جمعة كعبُ ابنِ لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه جمع قُرَيْشًا وخطبهم فسميت جمعة وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا العروبة . وقيل إنما سميت بذلك في الإسلام وذلك أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام ، وللنصارى كذلك فهموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونُصَلِّي ، فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فأجعلوا يوم العروبة لنا فأجتمعوا إلى سعد بن زُرارة الأنصاري فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم فسمّوه يوم الجمعة . لاجتماعهم فيه فأنزل الله تعالى سورة الجمعة . على أن السَّهْبِيَّ بعد قال في الروض الأثف : إن يوم الجمعة كان يسمى بهذا الاسم قبل أن يصلى الأنصار الجمعة .

أما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحب الأوائل فإنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أياماً ثم خرج يوم الجمعة عائداً إلى المدينة فأدركته الصلاة في بنى سالم بن عوف في بطن وادي لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وتجمع على جمع وجمعات بالفتح والتسكين .^(١)

والسبت ومعناه القطع بمعنى أنه قُطِع فيه الخلق على رأى من يرى أن السبت آخر أيام الجمعة ، وأنه لخلق فيه على ماسياتى ذكره . وقول النحاس إنه مشتق من الراحة أيضا لاعتباره به لمُضَاهَاة قول اليهود فيه على ماسياتى إن شاء الله تعالى . ويجمع في القلّة على أسبُت وسبّات بالتحريك ، وفي الكثرة على سُبُوت بضم السين مثل قَرْح وقُرُوح .

الرواية الثانية - ما يروى عن العرب العاربة من بنى قحطان وجرهم الأولى : وهو أنهم كانوا يُسمّون الأحد أول لأنه أول أعداد الأيام ويسمّون الاثنين أهون أخذاً من الهون والهويني ، وأوهداً أيضا أخذاً من الوهدة : وهى المكان المنخفض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأول في العدد . ويسمّون الثلاثاء جبّاراً (بضم الجيم) لأنه جبر به العدد . ويسمّون الأربعاء دُبّاراً (بضم الدال المهملة) لأنه دبر ما جبر به العدد بمعنى أنه جاء دبره . ويسمّون الخميس مؤنسا لأنه يؤنس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا في الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتبرك به ولا يسافر إلا فيه وقال : ” اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم نحسبها “ . ويسمّون الجمعة العروبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفي لغة شاذّة عروبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف ، ومعناه اليوم البيّن أخذاً من قولهم أعرب إذا بَانَ ، والمراد أنه بيّن العظمة والشرف ، إذ لم يزل معظماً عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجمعات أيضا بضمين . قال في المصباح كغرفات في وجوها .

تعظيماً ، وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةُ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا " . ويسمونه أيضاً حُرَّةً بمعنى أنه مرتفع عال كالحرَّة التي هي كالرَّمْح ، كما يقال مِحْرَابٌ لارتفاعه وعلو مكانته ، ويسمونه السبت شَيْبَاراً (بفتح الشين المعجمة وكسرهما مع الياء المثناة تحت) أخذنا من شُرْتُ الشيء إذا استخرجته وأظهرته من مكانه إما بمعنى أنه استخرج من الأيام التي وقع فيها الخلق على مذهب من يرى أنه آخر أيام الأسبوع وأن ابتداء الخلق الأحد وانهاء الجمعة ، وإما بمعنى أنه ظهر أول أيام الجمعة على مذهب من يرى أنه أول الجمعة وكان ابتداء الخلق فيه ، وإلى هذه الأسماء يشير النابغة بقوله :

أُؤْمَلُ أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي * لِأَوَّلِ أَوْ لِأَهْوَنِ أَوْ جُبَارِ
أَوْ التَّالِي دُبَارِ فَإِنَّ أَقْتَهُ * فَمُؤْنِسِ أَوْ عَرُوبَةَ أَوْ شِيَارِ

الرواية الثالثة - ما حكاه النحاس عن الضحاك : إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ليس منها يوم إلا له اسمٌ أيجد هَوَّزٌ حُطَّى كلبن سَعَفَصٌ قرشت . وقد حكى السهيلي رحمه الله أن الأسماء المتداولة بين الناس الآن مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعها العرب العاربة : وهي أيجد هَوَّزٌ حُطَّى كلبن سَعَفَصٌ قرشت التي خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات : علويها وسفليها . وهذا يخالف ما تقدم في الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلى أنها أسماءٌ للأيام التي وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أيجد اسماً للأحد على مذهب من يرى أن ابتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له في هذه الرواية^(١) .

(١) أسقط الناسخ الأجمال الثاني وقد ذكره في الضوء بقوله (ويحتمل أن أيجد اسم السبت على رأى من يرى أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُذَرَكُ الثالث

(في بيان أول أيام الأسبوع ، وما كان فيه ابتداء الخلق منها .
وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب)

المذهب الأول - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق الأحد . واحتج لذلك بما تقدم من حديث ابن عباس " أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال خلق الله عز وجل الأرض يوم الأحد " الحديث وبحديثه الآخر " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد " وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أول الأسبوع الأحد .

المذهب الثاني - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق السبت . واحتج له بحديث أبي هريرة المتقدم " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت " الحديث ، وإذا كان ابتداء الخلق السبت لزم أن يكون أول الأسبوع السبت .

المذهب الثالث - أن أول أيام الأسبوع الأحد ، الحديث " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين " الحديث . وأبتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُذَرَكُ الرابع

(في التفاؤل بأيام الأسبوع والتطيُّر بها وما يُعزى لكلٍّ منها
من خير أو شرٍّ على ما هو متداول بين الناس)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا أَصْلَ لِدَٰلِكَ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَلَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . وَقَدْ وَرَدَتِ الْقِرْعَةُ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَوْزِيعِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْأَيَّامِ : أَنَّهُ قَالَ : السَّبْتُ يَوْمٌ مَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ ؛ وَيَوْمُ الْأَحَدِ يَوْمٌ غَرَسٍ وَعِمَارَةٍ ؛ وَيَوْمُ الْأَثْنَيْنِ

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة ديم وحرب ومكافأة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء؛ ويقال يوم خميس مستمر؛ ويوم الخميس يوم دخول على الأمراء وطلب الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم خلوة ونكاح . ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشا مكّرت في دار الندوة يوم السبت، وأن الله أبتدأ الخلق يوم الأحد، وأن شعيبا سافر للتجارة يوم الاثنين، وأن حواء حاضت يوم الثلاثاء، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، وأن فرعون غرق هو وقومه يوم الأربعاء، وفيه أهلك الله عادًا وثمودًا، وأن إبراهيم دخل على التمرود يوم الخميس، وأن الأنبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعة . وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبيات وإن كان قد خالف الواضع في مواضع فقال:

لَنِعَمَ الْيَوْمُ يَوْمُ السَّبْتِ حَقًّا * لَصِيدٍ إِنْ أَرَدْتَ بِلاَ أَمْتَرَاءِ
وَفِي الْأَحَدِ الْبِنَاءُ فَإِنَّ فِيهِ * تَبَدُّىَ اللَّهِ فِي خَلْقِ السَّمَاءِ
وَفِي الْإِثْنَيْنِ إِنْ سَافَرْتَ فِيهِ * سَتَرَجُعُ النَّجَاحِ وَالْغِنَاءِ
وَإِنْ تُرِيدَ الْحِجَامَةَ فِي الثَّلَاثَا * فَفِي سَاعَاتِهِ هَبْرُقُ الدَّمَاءِ
وَإِنْ شَرِبَ أَمْرُؤُكُمْ دَوَاءً * فَنِعَمَ الْيَوْمُ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ
وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ قَضَاءُ حَاجٍ * فَإِنَّ اللَّهَ يَأْذَنُ بِالْقَضَاءِ
وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ التَّرْوِيحُ حَقًّا * وَلَذَاتُ الرِّجَالِ مَعَ النِّسَاءِ

وسياتى الكلام على ما يتعلق من ذلك بأيام الشهر في الكلام على الشهر في الفصل السابع من الكتاب إن شاء الله تعالى .

الطرف الثاني

(في الشُّهُورِ ، وهى على قسمين : طَبِيعِيٌّ وَأَصْطِلَاحِيٌّ)

القسم الأول

(الطَّبِيعِيُّ والمراد به القَمَرِيُّ)

وهو مُدَّة مَسِيرِ الْقَمَرِ مِنْ حِينَ يَفَارِقُ الشَّمْسَ إِلَى حِينَ يَفَارِقُهَا مَرَّةً أُخْرَى :
وهى على ضربين :

الضرب الأول

(شُهُورُ الْعَرَبِ)

والشهرُ العربى عبارة عَمَّا يَبِينُ رُؤْيَا لِهَلَالِهِ إِلَى رُؤْيَا ثَانِيَا ، وَعَدَدُ أَيَّامِهِ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا وَنِصْفُ يَوْمٍ عَلَى التَّقْرِيبِ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكَسْرُ فِي الْعَدَدِ عَسْرًا عَدُّوا جَمْلَةَ الشَّهْرَيْنِ تِسْعَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا ، أَحَدُهُمَا ثَلَاثُونَ وَهُوَ التَّامُّ ، وَالْآخَرُ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ وَهُوَ النَّاْقِصُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَفَ لَا يَدْخُلُ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ شَهْرًا فَلَمَّا مَضَى تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ غَدَا عَلَيْهِمْ أَوْ رَاحَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَلَفْتَ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ شَهْرًا فَقَالَ الشَّهْرُ يَكُونُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ » . وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَسِيرِ النَّيِّرَيْنِ : الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِالمَسِيرِ الْأَوْسَطِ . أَمَّا بِالمَسِيرِ الْمَقْصُومِ فَإِنَّهُ يَتَّفَقُ إِذَا اسْتَكْمَلَ الشَّهْرُ رُؤْيَا لِهَلَالِ عِيَانَا أَنْ يَتَوَالَى شَهْرَانِ وَثَلَاثَةٌ تَامَةٌ وَتَتَوَالَى كَذَلِكَ نَاقِصَةٌ وَعَلَى ذَلِكَ عَمَلُ الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ .
وَلَهُمْ فِي اسْتِعْمَالِهِ طَرِيقَتَانِ .

الطريقة الأولى

(طريقة العرب)

ومدة الشهر عندهم من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال، وهي أسهل الطرق وأقربها، وعليها جاء الشرع، وبها نطق التنزيل قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(في أحوال الأهلة التي عليها مدار الشهور في ابتدائها وانتهائها)

واعلم أن مسير القمر مقدرٌ بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ والشمس تُعْطِيهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَا يَسْتَضِيءُ بِهِ نِصْفُ سَبْعِ قُرْصِهِ حَتَّى يَكْمُلَ ثُمَّ تَسْلُبُهُ مِنَ اللَّيْلِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ نِصْفُ سَبْعِ قُرْصِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ نُورٌ فَيَسْتَرْ . ويزوى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه سُئِلَ عَنِ الْقَمَرِ فَقَالَ : يُحَقِّقُ كُلَّ لَيْلَةٍ وَيُولَدُ جَدِيدًا ؛ وَيَبْعُدُ مِثْلَ هَذَا عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ .

إذا علمت ذلك فللقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدّم في الشمس .

أما الحركة السريعة فحركة فلك الكمل به من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق في اليوم واللييلة .

واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضي ستة أسابيع ساعة من الليل، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه في كل ليلة ماضية بهذا المقدار حتى يكون مغيبه في الليلة السابعة نصف الليل، وفي الليلة الرابعة عشرة طلوع الشمس،

ثم يكون طلوعه في الليلة الخامسة عشرة على مضي ستة أسابيع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه في كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغداة .

وإذا أردت أن تعلم على مضي كم من الساعات يغيب أو يطلع من الليل، فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمس ليال تقديرا فأضربها في ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنتان فيكون مغيبه على مضي أربع ساعات وثلاثة^(١) أسابيع ساعة، وكذلك العمل في أي ليلة شئت؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبدار ست ليال مثلا فأضرب ستة في ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع، وكذلك العمل في أي ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليالي الشهر بعد استهلاله كل ثلاثة أيام قسما وسمتها بأسم فالثلاث الأول منها هلال، والثلاث الثانية قمر، والثلاث الثالثة بهر، والثلاث الرابعة زهر (والزهر البياض)، والثلاث الخامسة بيض: لأن الليالي تبيض بطلوع القمر فيها من أولها إلى آخرها، والثلاث السادسة درع: لأن أوائلها تكون سودا وسائرها يبيض، والثلاث السابعة ظلم، والثلاث الثامنة حنادس، والثلاث التاسعة دأدي (الواحدة منها دأداة على وزن فعلة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها محاق وليلة سرار لإحراق الشمس القمر فيها .

ومنهم من يقول ثلاث غرز: (وغرة كل شيء أوله)، وثلاث شهب، وثلاث زهر، وثلاث تسع^(٢): لأن آخريوم منها اليوم التاسع، وثلاث بهر، بهر فيها ظلام الليل، وثلاث بيض، وثلاث درع، وثلاث دهم وخم وحنادس، وثلاث دأدي. ويروى عنهم أنهم يسمون ليلة ثمان وعشرين الدجاء، وليلة تسع وعشرين

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التي قبلها بدليل التعليل .

الدَّهْمَاءُ، وليلة ثلاثين اللَّيْلَاءُ، وهم يقولون في أسباجهم : القمر ابن ليلة، رَضَاعُ سُخَيْلِهِ، حَلَّ أَهْلُهَا بِرُمَيْلِهِ، وابن ليلتين حديثُ أَمَتَيْنِ، كَذِبٌ وَمِينٌ، وابن ثلاث، قليل اللَّبَآثِ، وابن أربع، عَتَمَةٌ أُمُّ رُبْعٍ، لاجائع ولا مُرَضَعٍ، وابن خمس، حديثٌ وَأُنْسٌ، وَعَشَاءُ خَلِيفَاتُ قُعْسٍ، وابن ست، سِرْوَيْتٌ، وابن سبع، دُبْلَةٌ ضَمْبَعٌ، وحديثٌ وَجَمْعٌ، وابن ثمان، قَمَرٌ إِصْحِيَّانٌ، وابن تسع، مَحْدُو النَّسْعِ، ويقال الشَّسْعُ، وابن عشر، مُحَنَّقُ الْفَجْرِ، وثُلُثُ الشَّهْرِ.

هذا هو المحفوظ عن العرب في كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت في بعض المجاميع على زيادة إلى آخر الشهر، وكأنها والله أعلم مصنوعة، وهي على السنة العرب موضوعه، وهي : وابن إحدى عشره، يرى عِشَاءً ويرى بُكْرَه، وابن اثنتي عشرة، مُرْهَقُ الْبَشْرِ بِالْبَدْوِ وَالْحَضَرِ، وابن ثلاث عشرة، قمر باهر، يُعْشَى الناظر، وابن أربع عشرة مُقْبِلُ الشَّبَابِ، مضى دُجْنَاتُ السَّحَابِ، وابن خمس عشرة تَمَّ التَّحَامُ، وَفِدَّتِ الْإِيَّامُ، وابن ست عشرة نَقَصَ الْخَلْقُ، في الغرب والشرق، وابن سبع عشرة، أُمَكْنِتِ الْمُقْتَفِرَ الْقَفْرَةَ، وابن ثمان عشرة قَلِيلُ الْبَقَاءِ، سريع الفناء، وابن تسع عشرة يَطِيءُ الْطُلُوعَ، سريع الخُشُوعِ، وابن عشرين يَطْلُعُ سُحُورُهُ، وَيَغِيبُ بُكْرُهُ، وابن إحدى وعشرين كالقَبَسِ، يَطْلُعُ فِي الْغَلَسِ، وابن اثنتين وعشرين يُطِيلُ السُّرَى، رَيْثَمَا يَرَى، وابن ثلاث وعشرين يرى في ظُلْمَةِ اللَّيَالِ، لا قَمَرٌ وَلَا هِلَالٌ، وابن خمس وعشرين دَنَا الْأَجَلُ، وَأَنْقَطَعَ الْأَمَلُ، وابن ست وعشرين دَنَا مَا دَنَا، فما يرى إِلَّا سَنَا، وابن سبع وعشرين يَشُقُّ الشَّمْسَ، ولا يرى له حَسَّ، وابن ثمان وعشرين ضَيْلٌ صَغِيرٌ لا يراه إِلَّا الْبَصِيرُ.

وأما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب إلى جهة الشمال وتنقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوماً بلياليها كالشمس في البروج قال تعالى ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرَانَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ فاقطعه الشمس من الشمال إلى الجنوب وبالعكس في جميع السنة يقطعه القمر في ثمانية وعشرين يوماً . والمنازل للقمر كالبروج للشمس ؛ وذلك أنه لما اتصل إلى العرب ماحقته القدماء برصدهم من الكواكب الثابتة ، وكان لا غنى لهم عن معرفة كواكب تُرشدهم إلى العلم بفصول السنة وأزمنتها ، رصدوا كواكب وأمتحنوها ، ولم يستعملوا صور البروج على حقيقتها ؛ لأنهم قسّموا فلك الكواكب على مقدار الأيام التي يقطعه القمر فيها ، وهي ثمانية وعشرون يوماً ، وطلبوا في كل قسم منها علامة تكون أبعاداً ما بينها وبين العلامة الأخرى مقدار مسير القمر في يوم وليلة ، وسموها منزلة إلى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ما تقدم ذكره في الكلام على طلوعها بالفجر : لأن القمر إذا سار سيره الوسط انتهى في اليوم التاسع والعشرين إلى المحاق الذي بدأ منه ، فحذفت المتكرر ، فبقى ثمانية وعشرين ويزاد بالشرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل ، الذي هو أول البروج .

ثم هذه المنازل على قسمين : شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ما كان طلوعه من ناحية الشام ، وتسمى الشامية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال ، التي هي رأس الحمل والميزان صاعداً إلى جهة الشمال ، وهي : الشرطان ، والبطين ، والثريّا ، والدبران ، والمقعة ، والهنة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والخرتان ، والصرفة ، والعواء ، والسمك . ويطلوعها يطول الليل ويقصر النهار . والجنوبي منها ما كان طلوعه من ناحية اليمن وتسمى ايمانية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطاً إلى جهة الجنوب .

وهي : القفر، والزبانان، والإكيل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد
الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر،
وبطن الحوت، وبطلوعها يقصر الليل ويطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها ربع سبع الدور، وهو جزء من
ثمانية وعشرين جزءا من الفلك عبارة عن ^(١) لاعن الكواكب، وإنما
الكواكب حدود تفرق بين كل منزلة وأخرى، فعدل بالتسمية إليها وغلبت عليها .

وتزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المنزلة نفسها وإما فيما بينها
وبين التي تليها وإما محاذيا لها خارجا عن السمات شمالا أو جنوبا . وقد تقدم
الكلام على عدول القمر عن بعض المنازل ونزوله في غيرها .

وتعلم أن المنازل مقسومة على البروج الاثني عشر موزعة عليها : فالشيطان
والبطين وثلاث الثريا للحمل ، وثلاث الثريا والدبران وثلاث الحقعة للثور، وثلاث الحقعة
والهتعة والذراع للجوزاء ، والنثرة والطرف وثلاث الجبهة للشيطان ، وثلاث الجبهة
والخرتان وثلاث الصرفة للأسد ، وثلاث الصرفة والعواء والسمالك للسنبلة ، والغفر
والزبانان وثلاث الإكيل لليزان، وثلاث الإكيل والقلب وثلاث الشولة للعقرب ، وثلاث
الشولة والنعائم والبلدة للقوس، وسعد الذابح وسعد بلع وثلاث سعد السعود للجدي،
وثلاث الفرغ المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمر في أي منزلة هو أو كم مضى له فيها
من الأيام ، فخذ ما مضى من سنة القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما

(١) يباين بالأصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطا هو [وثلاث سعد السعود وسعد الأخية وثلاث الفرغ المقدم للذئب] .

وَأَبْسَطُهَا أَيَّامًا ، وَأَضْفَ إِلَى مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَطْرَحَ الْمَجْمُوعَ ثَلَاثَةً عَشَرَ ثَلَاثَةً عَشَرَ ، وَهُوَ عَدَدُ بُتِّ الْقَمَرِ فِي كُلِّ مَنَزَلَةٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَجْعَلُ أَوَّلَ كُلِّ مَنَزَلَةٍ مِنَ الْعَدَدِ الْخَرْتَانِ ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الْأَيَّامِ دُونَ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ فَهُوَ عَدَدُ مَا مَضَى مِنَ الْمَنَزَلَةِ الَّتِي آتَتْهُ الْعِدَّةُ إِلَيْهَا .

مثال ذلك أن يمضي من سَنَةِ الْقَبْطِ شَهْرَتَوْتِ وَأَرْبَعَةُ أَيَّامٍ مِنْ بَابِهِ فَتَبْسُطُهَا أَيَّامًا تَكُونُ أَرْبَعَةً وَثَلَاثِينَ يَوْمًا فَتُضَيَّفُ إِلَيْهَا يَوْمَيْنِ تُصِيرُ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ يَوْمًا فَاطْرَحْ مِنْهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَرَّتَيْنِ بِسِتَّةٍ وَعَشْرِينَ لِلْخَرْتَانِ مِنْهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَلِلصَّرْفَةِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ بَقِيَ عَشْرَةٌ ، وَهِيَ مَا مَضَى مِنَ الْمَنَزَلَةِ الثَّلَاثَةِ وَهِيَ الْعَوَاءُ .

وإن أردت أن تعرف في أيِّ بَرَجٍ هُوَ فَاحْسُبْ كَمْ مَضَى مِنَ الشَّهْرِ الْعَرَبِيِّ يَوْمًا وَزِدْ عَلَيْهِ مِثْلَهُ ثُمَّ زِدْ عَلَى الْجُمْلَةِ خَمْسَةً وَأَعْطِ لِكُلِّ بَرَجٍ خَمْسَةً وَأَبْدَأْ مِنَ الْبَرَجِ الَّذِي فِيهِ الشَّمْسُ فَأَعْطِ لِكُلِّ بَرَجٍ خَمْسَةً فَأَيُّمَا نَقَدَ حَسَابُكَ فَالْقَمَرُ فِي ذَلِكَ الْبَرَجِ ، وَالْإِعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ عَلَى كَمْ مَضَى مِنَ الشَّهْرِ الْعَرَبِيِّ بِالْحِسَابِ دُونَ الرُّوْيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الجملة الثانية

(في أسمائها : وفيها روايتان)

الرواية الأولى - ما نطق به العرب المستعربة ، وجرى عليه الاستعمال إلى الآن وقد نطق القرآن الكريم بصِدْقِهَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، ومدارها الأهلة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسعةً وعشرين . الشهر الأول منها المحرم ؛ سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يحترمون فيه القتالَ ، ويجمع على مُحَرَّمَاتٍ وَمَحَارِمٍ وَمَحَارِيمٍ . الشهر الثاني صَفَرٌ ، سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يُغيِّرون فيه على بلاد يقال لها

الصَّفَرِيَّةُ ، ويجمع على صَفَرَاتٍ وَأَصْفَارٍ وَصُفُورٍ وَصِفَارٍ . الشهر الثالث ربيع الأول
سمى بذلك لأنهم كانوا يُحَصِّلُونَ فيه ما أصابوه في صَفَرٍ . والرَّبيع في اللغة الحِصْبُ ،
وقيل لأرتباعهم فيه . قال النحاس والأول أولى بالصواب ، ويقال في الثانية ربيعان
الأولان وفي الجمع ربيعات الأولات . ومن شرط فيه إضافة شهر قال في الثانية شهرا
ربيع الأولان وفي الجمع شَهْرَات ربيع الأولات والأوائل ، وإن شئت قلت في القليل
أشهر وفي الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأربعة الأوائل ، وعن غيره رُبْعُ الأوائل .
الشهر الرابع ربيع الآخر - والكلام في تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام في ربيع
الأول . الشهر الخامس جمادى الأولى ، سمي بذلك لجمود الماء فيه : لأن الوقت
الذي سُمِّي فيه بذلك كان الماء فيه جامداً لشدَّة البرد ، ويقال في الثانية جُمَادِيَانِ
الأوليان وفي الجمع جُمَادِيَاتِ الأوليَّات . الشهر السادس جمادى الآخرة - والكلام فيه
تسميةً وتثنيةً وجمعاً كالكلام في جمادى الأولى . الشهر السابع رجب ، سمي بذلك
لتعظيمهم له أخذاً من الترجيب : وهو التعظيم ، ويجمع على رَجَبَاتٍ وَأَرْجَابٍ ،
وفي الكثرة على رِجَابٍ وَرُجُوبٍ . الشهر الثامن شعبان ، سمي بذلك لتشعبهم فيه لكثرة
الغارات عَقِبَ رَجَبٍ ؛ وقيل لتشعب العود في الوقت الذي سُمِّي فيه . وقيل لأنه
شَعَبٌ بين شهرى رَجَبٍ ورمضانَ ويجمع على شَعْبَانَاتٍ وشعابة على حذف الزوائد ،
وحكى الكوفيون شَعَائِينَ ، قال النحاس وذلك خطأ على قول سيبويه كما لا يجوز عنده
في جمع عُثْمَانَ عَثَائِينَ . الشهر التاسع رمضان - سمي بذلك أخذاً من الرمضاء لأنه
وافق وقتُ تسميته زَمَنَ الحَرِّ ، ويجمع على رَمَضَانَاتٍ وحكى الكوفيون رَمَاضِينَ ،
والقول فيه كالقول في شَعَائِينَ ؛ ومن شرط فيه لفظ شهر قال في الثانية شَهْرَ رَمَضَانَ
وفي الجمع شَهْرَاتِ رَمَضَانَ وأشهرُ رمضان وشهور رمضان . الشهر العاشر شَوَّالٌ سمي
بذلك أخذاً من شَالَتْ الإبل بأذنانها إذا حملت : لكونه أول شهور الحج وقيل من

شال يُشَوَّل إذا أرتفع : ولذلك كانت الجاهلية تَكْرَهُ التَّروِيحَ فيه لما فيه من معنى
 الإشالة والرفع إلى أن جاء الإسلام بهَدَمَ ذلك . قالت عائشة رضي الله عنها فيما ثبت
 في صحيح مسلم ” تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَوَّالٍ وَبَنَى بِي فِي شَوَّالٍ
 فَأَيُّ نِسَائِهِ كَانَ أَحْظَى عِنْدَهُ مِنِّي “ ويجمع على شَوَّالَاتٍ وَشَوَّالِيلَ وَشَوَّالٍ . الشهر
 الحادى عشر ذُو الْقَعْدَةِ ، ويقال بالفتح والكسر ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْعُدُونَ فِيهِ
 عَنِ الْقِتَالِ لِكَوْنِهِ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، وَيَجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْقَعْدَةِ ، وَحَكَى الْكُوفِيُّونَ أَوْلَاتُ
 الْقَعْدَةِ ، وَرَبَّمَا قَالُوا فِي الْجَمْعِ ذَاتِ الْقَعْدَةِ أَيْضًا . الشهر الثانى عشر ذُو الْحِجَّةِ سَمِيَ بِذَلِكَ
 لِأَنَّ الْحِجَّ فِيهِ ، وَالْكَلَامُ فِي جَمْعِهِ كَالْكَلَامِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ . ثم من الأشهر المذكورة
 أربعة أشهر حُرِّمَ كما قال تعالى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرِّمٌ ﴾ وقد أجمعت العلماء على أن
 الأربعة المذكورة هِىَ رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْحَرَمُ . وقد اختلف في الابتداء
 بعددها فذهب أهل المدينة إلى أنه يُبْتَدَأُ بِذِي الْقَعْدَةِ فيقال ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ
 وَالْحَرَمُ وَرَجَبٌ ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّهَا فِي خُطْبَةِ
 حِجَّةِ الْوَدَاعِ كَذَلِكَ فَقَالَ ” السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرِّمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ
 وَوَاحِدٌ فَرْدٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْحَرَمُ وَرَجَبٌ “ وَأَخْتَارَهُ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ . وَذَهَبَ
 أَهْلُ الْكُوفَةِ إِلَى أَنَّهُ يُبْتَدَأُ بِالْحَرَمِ فيقال الْحَرَمُ وَرَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ : لِأَنَّهُمْ
 بَهَا مِنْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِلَيْهِ مِيلُ الْكُتَّابِ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَلَا تُحِجَّةٌ لَهُمْ فِيهِ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ
 أَنَّ الْمَقْصُودَ ذِكْرَهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ فَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مِنْ سَنَتَيْنِ . وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
 مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ يَعْظُمُونَ هَذِهِ الْأَشْهُرَ وَيَحْزَمُونَ الْقِتَالَ فِيهَا حَتَّى
 لَوْلَقِيَ الرَّجُلُ فِيهَا قَاتِلَ أَبِيهِ لَمْ يَهْجِهِ ، إِلَى أَنْ حَدَّثَ فِيهِمُ النَّبِيُّ فَكَانُوا يُنْسَتُونَ
 الْحَرَمَ فَيُؤَخَّرُونَهُ إِلَى صَنْفَرٍ فَيَحْزَمُونَهُ مَكَانَهُ وَيُنْسَتُونَ رَجَبًا فَيُؤَخَّرُونَهُ إِلَى شَعْبَانَ
 فَيَحْزَمُونَهُ مَكَانَهُ لِيَسْتَبِيحُوا الْقِتَالَ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ .

وأعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شهر المحرم، وشهر صفر، وشهر ربيع الأول وكذا في البواقي. على أن منها ثلاثة أشهر لم تكد العرب تنطق بها إلا مضافةً إليها، وهى شهر ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك في رمضان ما ورد به القرآن من إضافته قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال "لا تقل رمضان ولكن قل كما قال الله عز وجل شهر رمضان فإنك لا تدري ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعل رمضان اسم من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت في الصحيحين من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال "إذا جاء رمضان أغلقت النيران وصفدت الشياطين" الحديث. وهذا صريح في جواز تعريته عن الإضافة.

وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب أحكمها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقا، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصمت رمضان، وما أشبه ذلك وهو ما رجحه النووي في شرح مسلم. والثاني المنع مطلقا، والثالث إن خفت قرينة تدل على الشهر كما في قوله صمت رمضان فقد جازت التعرية، وإن لم تخف قرينة لم تجز؛ وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رجب أيضا. وقال كل شهر في أوله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة. ويقال في المحرم أيضا شهر الله المحرم ويقال في الربيعين ربيع الأول وربيع الآخر وفي الجماديين جمادى الأولى وجمادى الآخرة. قال ابن مكى: ولا يقال جمادى الأول بالتذكير وجوزته في كلامه على "تثقيف اللسان"

قال النحاس وإنما قالوا ربيع الآخر وجمادى الآخرة ولم يقولوا ربيع الثانى وجمادى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية: لأنه إنما يقال الثانى والثانية لما له ثالث وثالثة، ولما لم يكن لهذين ثالث ولا ثالثة قيل فيهما الآخر والآخرة

كما قيل الدنيا والآخرة؛ على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيع الثاني وجمادى الثانية . ويقال في رجب الفرد : لأفراده عن بقية الأشهر الحرم، ويقال فيه أيضا رجب مُضَرّ الذي بين جمادى وشعبان، ويقال في شعبان المكرّم لتكرّمته وعلوّ قدره، . في رمضان المُعَظَّم والمعظم قدره : لعظمته وشرفه، وفي شوال المبارك : للفرق بينه وبين شعبان خشية الالتباس في الكتابة، ويقال في كلّ من ذى القعدة وذى الحجة الحرام . قال النحاس وقد جاء في ذى الحجة أيضا الأصمّ ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مرة الهمداني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقية حمراء محضمة^(١)، فقال : أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : يوم النحر قال : صدّقتم يوم الحج الأكبر، أَتَدْرُونَ أَيُّ شَهْرٍ شَهْرُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : ذو الحجة قال : صدّقتم شهر الله الأصمّ .

الرواية الثانية - ما روى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون في المحرم المؤتمّر : أخذنا من أمر القوم إذا كثروا بمعنى أنهم يحرمون فيه القتال فيكثرّون . وقيل أخذنا من الأثمار بمعنى أنه يؤتمّر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتمرات ومأمير . ويقولون في صفر ناجر إما من النجر والنجاز (بفتح النون وكسرهما) الأصل، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يبدأ فيه بعد المحرم، وإما من النجر وهو السوق الشديد . لشدة سوقهم الخيل إلى الحرب فيه ، وإما من النجر، وهو شدة الحر لشدة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون في شهر ربيع الأول خَوَان (بالحاء المعجمة) : لأن الحرب تشتد فيه فتحونهم فتقتصمهم : ويجمع على خَوَانَات وخَوَاوِين وخَوَاوِن . ويقولون في ربيع الآخر وبُصَان ، أخذنا من الوبيص وهو البريق : لبريق الحديد فيه : ويجمع على وبُصَانَات، وحكى قطرب فيهِ بُصَان فيجمع على أَبِصْنَة

(١) أى قطع طرف أذنهما . قاموس .

وفي الكثرة بَصْنَان . ويقولون لجمادى الأولى حَنِين : لأنهم يَحْنُون فيه إلى أوطانهم :
 لكونه كان يقع في زمن الربيع ، ويجمع على أَحِنَّة وَحْنٌ كَرِغِفٍ وَرُغْفٍ . ويقولون
 لجمادى الآخرة رُبِّي وَرُبَّةٌ : لأنه يجتمع به جماعة من الشهور التي ليست بِجُرمٍ :
 وهي ما بعد صفر . قال أبو عبيد رُبَّان كل شيء جماعته ، ويجمع على رُبَيَّاتٍ وَرَبَايَاً مثل
 حَبَالِي . ومن قال رُبَّةً جمعه على مَارِيب . ويقولون في رجب الأصمُّ : لما تقدم^(١)
 من أنه لا يُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع على أَصَامٍ . قال النحاس
 ولا تقل صمَّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سَمَّيت رجلاً أحمر جمعته على أَحَامِرٍ ولم
 تجمعهم على حُمْرٍ . ويقولون في شعبان عَادِلٌ ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم
 في القبائل ويجمع على عَوَادِلٍ . ويقولون في رمضان نَاتِقٌ : لكثرة المال عندهم فيه
 لإغارتهم على الأموال في الذي قبله ، ويجمع على نَوَاتِقٍ . ويقولون في شَوَالٍ وَعِلٌّ
 أخذًا من قولهم : وَعَلَ إلى كذا إذا لجأ إليه لأنهم يهربون فيه من الغارات لأن يعده
 الأشهر الحُرْمَ فيلَجُّون فيه إلى أمكنة يتحصنون فيها ، ويجمع على أُوَعَالٍ كَكَتِفٍ
 وَأَكْتَفٍ ، وفي الكثرة وُعُول . ويقولون في ذى القعدة وَرَنَةٌ وَالْوَاوِ فِيهِ مَنْقَلَبَةٌ عَنْ
 هَمْزَةٍ أَخْذًا مِنْ أَرِنَ إِذَا تَحَرَّكَ : لأنه الوقت الذي يتحركون فيه إلى الحج ، أو من
 الأُرُون ، وهو الدنو : لقُربِهِ مِنَ الْحَجِّ ويجمع على وَرَنَاتٍ وَرَانٍ بِكَذَان . ويقولون
 في ذى الحجة بُرْكٌ ، غير مصروف : لأنه معدول عن بَارِكٍ ، أو على التكثير كما يقال
 رجل حَكَمٌ وهو مأخوذ من البركة : لأن الحج فيه ، أو مِنْ بَرَكِ الْجَمَلِ لأنه الوقت الذي
 تَبَرَّكُ فِيهِ الْإِبِلُ لِلْوَسْمِ ، ويجمع على بَرَكَانٍ مِثْلُ نَغْرٍ وَنَغْرَانٍ .

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ما تقدم ذكره .

(١) كذا في الضوء أيضا ولعله مصحف عن رَبَابٍ أَوْ رَبِّ تَأْمَلْ

وقد نظم بعضهم ذلك في أبيات على الترتيب فقال .

بمؤتمِرٍ وناحِرٍ ابتَدَأْنَا * وبالحَوَانِ يَتَّبَعَهُ البُصَانُ
ورُبِّي ثم أَيْدَةٌ تَلِيهِ * تَعُودُ أَصَمَّ صَمَّ بِهِ السَّنَانُ
[وعَادِلَةٌ وَنَاطِلَةٌ جَمِيعًا * وَوَاغِلَةٌ فَهُمُ غُرَرِ حِسَانِ^(١)
وَوَرْنَةٌ بَعْدَهَا بَرَكٌ فَتَمَّتْ * شُهُورُ الْحَوْلِ يُعْرِبُهَا الْيَاسَانُ

ثم للناس في إخراج أول الشهر العربي طُرُقٌ، أسهلها أن تعرف أول يوم من المحرم ، ثم تعدّ كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله وتقسّمها نصفين ، فإن كان النصف صحيحا أضفت على الجملة مثل نصفه ، وإن كان مكسورا كتته وأضفته على الجملة ؛ ثم تبدئ من أول يوم من السنة وتعدّ منه أياما على توالى أسماء الأيام بعدد ما حصل معك من الأصل والمضاف فحيث انتهى عندك فذلك اليوم هو أول الشهر .

مثال ذلك في الصحيح النصف : إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً فتعدّ من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر ، ثم تبدئ من يوم الأحد الذي هو أول المحرم فتعدّ الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون اثني عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس .

ومثاله في المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضا وكان أول

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه في "نهاية الأرب" للنويري فأثبتناه كما ترى وبه

المحرم الأحد كما تقدّم فتعدّ ماضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم تبدئ عدد الأيام من أول المحرم ، وهو الأحد كما تقدّم فيكون آتاء الرابع عشر في يوم السبت فيكون أول رمضان يوم السبت .

ومن الطرق المعتبرة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربى فما كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردت أن تعرف أول شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه ، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وأنظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم أنظر كم يوما مضى من الشهر القبطى الذى أنت فيه فأضفه على ما آجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضى من الشهر العربى، ومنه يعرف أوله .

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضى من الشهر العربى ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلاً فتعدّ من أول شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسيء : وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية، ثم تنظر في الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضى من الشهر العربى الذى أنت فيه ومنه يعرف أوله .

الضرب الثاني

(شهور اليهود)

والشهر عندهم من الاجتماع إلى الاجتماع، وهو اقتران الشمس والقمر في آخر الشهر ولذلك توافق شهورهم في التقدير شهور العرب، ولا تخالف أوائلها إلا بيوم واحد في بعض الأحيان لأسباب في ملتهم ولكنهما لا تطابق شهرا لشهر، فإن شهور العرب غير مكبوسة، وشهور اليهود مكبوسة؛ وهذه الطريقة لا تعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر. ولذلك لا يعرف شهور اليهود منهم إلا الآحاد، وشهورهم وهي اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون، وبعضها تسعة وعشرون على ما يقتضيه مسير الشمس والقمر؛ وفي السنة الكبيسة تكون شهورهم ثلاثة عشر شهرا كما سيأتي؛ وشهورهم توافق شهور السريان في بعض أسمائها دون بعض، الأول تشرى، الشهر الثاني مرحشوان، الشهر الثالث كسلا، الشهر الرابع طابات، الشهر الخامس شباط، الشهر السادس آذار، الشهر السابع نيسان، الشهر الثامن أيار، الشهر التاسع سيوان، الشهر العاشر تموز، الشهر الحادي عشر آب، الشهر الثاني عشر أيلول؛ وفي السنة التي يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتي بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثاني، وسيأتي ذلك مفصلا في الكلام على السنين إن شاء الله تعالى. وقد تقدم أنها توافق شهور العرب إلا في القليل إلا أنها يدخلها الكبس لأمر في ملتهم، وسيأتي الكلام على كبسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى.

القسم الثاني

(من الشهور الأصطلاحي والمراد به الشمس ٢)

وهي مدة قطع الشمس مدار بُرج من بروج الفلك الإثني عشر، وذلك ثلاثون يوماً وثلاثة عشر يوماً تقريباً، وعليه عمل القبط، والفرس، والسريان، والروم.
وهي على صنفين :

الصنف الأول

(ما يكون كل شهر من شهور السنة ثلاثين يوماً، وما فضل عن ذلك

جعل نسيئاً بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فأما شهور القبط (وتنسب لدقلطيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام النسيء في آخر الثاني عشر منها، وهي خمسة أيام .

الشهر الأول منها توت، ودُخُوله في العشرين من آب من شهور السريان، وآخره السادس والعشرون من أيلول منها؛ فيه يدرك الرطب، ويكثر السفرجل والعنب الشتوي، وتبتدئ الحمضات . وأول يوم منه يوم النيروز وهو رأس سنة القبط؛ وفي سابعه يتبدئ لقط الزيتون؛ وفي سابع عشره عيد الصليب، فيه تفتح أكثر الترع بمصر؛ وفي ثامن عشره أول فصل الخريف؛ وفي تاسع عشره يتبدئ هيجان السوداء في البدن؛ وفي العشرين منه يقصد اللسان؛ وفي الحادي والعشرين منه يتبدئ بيض النعام؛ وفي الرابع والعشرين منه أول دى ماه من شهور الفرس؛ وفي الثامن والعشرين منه يذهبُ الحرب؛ وفي التاسع والعشرين منه أول رعى الكراكي؛ وفي الثلاثين منه وهو آخره يزرع الهليون .

الشهر الثاني بابه، ودخوله في السابع والعشرين من أيلول، من شهر السريان،
 وآخره السادس والعشرون من تشرين الأول منها، فيه يُدْرَكُ مالا تُسَقُّ له الأرضُ
 كالبرسيم وغيره؛ وفي آخره تُسَقُّ الأرض بالصعيد؛ وفيه يُحْصَدُ الأرز، ويطيب
 الرمان، وتضع الضأن والمعز والبقر الخيسية؛ ويُستخرج دهن الآس واللينوفر،
 ويدرك الثمر والزبيب وبعض المحمضات؛ وفي ثلثه رأس سنة السريان؛ وفي رابعه
 أول تشرين الأول من شهرهم؛ وفي خامسه عُمَسَ النيل؛ وفي سادسه يطيب
 شرب الدواء؛ وفي سابعه نهاية زيادة النيل؛ وفي ثامنه يكره خروج الدم؛ وفي حادى
 عشره يتبدئ النيل في التقص؛ وفي ثالث عشره بداية الوحَم؛ وفي رابع عشره
 يكثر التاموس؛ وفي خامس عشره يتبدئ زرع القُرط؛ وفي سادس عشره تبتدئ
 كثرة السعال؛ وفي تاسع عشره يتبدئ زرع السَّاجَم، وفي الثاني والعشرين منه
 يتبدئ صلاح المواشى، وفي الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرة الغيوم، وفي الرابع
 والعشرين منه تبتدئ أهل مصر الزرع، وفي السابع والعشرين منه يتبدئ سَمَنُ
 الحيتان، وفي الثامن والعشرين منه أول المد، وفي التاسع والعشرين منه أول
 الليالى البلق.

الشهر الثالث هتور؛ ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول؛ وآخره
 الخامس والعشرون من تشرين الثاني. فيه يُزْرَعُ القمح ويطلع البنفسج والمنتور،
 وأكثر البقول، ويجمع ما بقى من الباذنجان وما يجرى مجراه، ويحمل العنب من
 قوص، وفي ثانيه يتبدئ حصاد الأرز، وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهر
 السريان، وفيه يتبدئ برد المياه، وفي سادسه أول المطر الوسمى، وفي سابعه يتبدئ
 أهل الشام الزرع، وفي ثامنه يتبدئ هبوب الرياح الجنوبيّة، وفي تاسعه يتبدئ
 زرع الحشخاش، وفي حادى عشره يتبدئ اختفاء الهوام، وفي ثالث عشره يتبدئ

غليان البحر، وفي رابع عشره تعمى الحيات، وفي سادس عشره يجمع الزعفران، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش، وفي الثامن والعشرين منه يغلق البحر الملح وتمتنع السفن من السفر فيه لشدة الرياح، وفي الثالث والعشرين منه يتبدئ سخونه بطن الأرض، وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماه من شهور الفرس .

الشهر الرابع كيهك، ودخوله في السادس والعشرين من تشرين الثاني من شهور السريان، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأول منها. فيه تدرك الباقلاء، وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب، ويدرك النرجس والبنفسج، وتتلاحق الحمضات، وفي أوله ابتداء أربعينيات مصر، وفي ثالته يتبدئ موت الذباب، وفي خامسه أول كانون الأول من شهور السريان، وفي سابعه آخر الليالى البلى وأول الليالى السود، وفي حادى عشره يتبدئ الشجر فى رمى أوراقه، وفي ثانى عشره تظهر البراغيث، وفي سابع عشره أول فصل الشتاء: وهو أول أربعينيات الشام، وفي ثامن عشره يتنفس النهار، وفي الحادى والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر، وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماه من شهور الفرس، وهو نوروزهم وأول سنتهم، وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم، وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل، وفي السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء فى الليل، وفي الثلاثين منه يتبدئ تقليم الكروم .

الشهر الخامس طوبه، ودخوله في السادس والعشرين من كانون الأول من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى منها؛ فى زرع القمح فيه تغير، وفيه تُشق الأرض للقصب والقنقاس، ويتكامل النرجس؛ وفي أوله تبيت الرياح الشديدة، وفي ثانيه يدرك القرط، وفي سادسه أول كانون الثانى من شهور السريان،

(١) سياتى قريباً أن نورد الفرس وأول سنتهم أفرودين ماه وظلته الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الاتية .

وفي عاشره آخر أربعيّات مصر، وفي حادى عشره أوّل نصب الكروم، وفي ثانى عشره يشتدّ البرد، وفي ثالث عشره يتبدى زرع المقات، وفي سابع عشره يتبدى غرس الأشجار، وفي ثامن عشره تبتدى كثرة الندى، وهو آخر الليالى السود، وفي تاسع عشره يتبدى وقوع الثلج بالشام وغيره، وفي الرابع والعشرين منه يتبدى صفو ماء النيل، وفي التاسع والعشرين منه يتبدى اختلاف الرياح.

الشهر السادس أمشير؛ ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهور السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها. فيه تُغرس الأشجار، وتقلّم الكروم، ويُدرك النبق واللوز الأخضر، ويكثر البتفسج والمبثور، وفي رابعه يتبدى إفراخ النخل، وفي سادسه أوّل شباط من شهور السريان، وفي حادى عشره يتبدى إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف، وفي ثانى عشره يتبدى تحرك دواب البحر، وفي الثانى والعشرين منه ثانى جمرة فارة، ويتبدى مرض الأطفال، ويتبدى خروج ورق الشجر، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى خروج الدواب لارعى، وفي الرابع والعشرين منه أوّل حردادماه من شهور الفرس، وفي الخامس والعشرين منه يتبدى هيجان الرياح، وفي السابع والعشرين منه تبتدى ثالث جمرة حامية، وفي الثامن والعشرين منه أوّل المفرطات، وفي التاسع والعشرين منه آخر نهى اقراط.

الشهر السابع برمّهات؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شهور السريان، وآخره الخامس والعشرون من آذار. فيه تُزهر الأشجار، ويعقد أكثر الثمار، ويُزرع أوائل السّمسم، ويُقلع الكنان، ويُدرك الفول والعدس، وفي ثانيه يحمّد خروج الدم، وهو أوّل الأعجاز، وفي ثالث عشره تفتّح الحيات أعينها، وفي خامس عشره تطيب الألبان، وفي سادس عشره يتبدى خروج دود القز، وفي ثامن عشره يبيج الدم، وفي تاسع عشره ظهور الهوام، وفي العشرين منه يُزرع السّمسم، وفي

الرابع والعشرين منه أول تيرماه من شهور الفُرس ، وفي السادس والعشرين منه
يبتدئ شُربُ المسهل ، وفي السابع والعشرين منه خروج الدُّباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده ، ودخوله في السادس والعشرين من آذار من شهور السريان ،
وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تُقَطَفُ أوائل عسل النحل ، وفيه تكثر
الباقلاء ، ويُفَضَّ جَوْز الكَّان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطنُ الأول من الجز ، ويقطع
بعض الشعير ، ويُذَرَك الخيار شنبه . وفي أوله يُؤْكَل الأَرِيك ، وفي رابعه يُعَصَّر دُهْن
البَلَسَان ، وفي خامسه تبتدئ كثرة الزهور ، وفي سادسه أول نيسان من شهور
السريان ، وفي ثاني عشره يُخَاف على بعض الزرع ، وفي ثامن عشره أترقلع
الكَّان ، وفي العشرين منه يُنْهَى عن أكل البُقُول ، وفي الثاني والعشرين منه ظهور
السَّكَاة ، وفي الثالث والعشرين منه الحِتَام الكبير للزرع ، وفي الرابع والعشرين منه أول
تردماه من شهور الفرس ، وفي الخامس والعشرين منه نهاية مدَّ الفُرات ، وفي الثامن
والعشرين منه يَبْيَض النِّعَام .

الشهر التاسع بشنس ، ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور
السريان ، وآخره التاسع والعشرون من أيَّار منها . فيه يكثر الثَّفَّاح القاسمي ، ويبتدئ
الثَّفَّاح المسكي ، والبطيخ العبدلي والحوقي ، والمشمش ، والخبوخ الزهرى ، والورد
الأبيض . وفي نصفه يُبَذَّر الأرز ، ويحصَّد القمح ، وفي سادسه أول أيَّار من شهور
السريان ، وفي رابع عشره يجمع الخشخاش ، وفي ثامن عشره يجمع العُصْفُر ، وفي
الحادى والعشرين منه تبتدئ بُرودة الأرض ، وفي الرابع والعشرين منه أول شهر
برماه من شهور الفُرس .

الشهر العاشر بئونه ، ودخوله في الخامس والعشرين من أيَّار من شهور السريان ،
وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحَصْرَم ، ويطيب بعض العنب

والتين البوفى وهو الديفور، والخورى الزهرى والمشعر، والكبرى البوهى، والقراضيا،
 والتوت، ويطلع البلح، ويقطف جمهور العسل؛ وفي ثلثه يتسدى توحم النيل،
 وفي سادسه يكمل الدرياق، وفي سابعه أول حزيران من شهور السريان، وفي تاسعه
 يتسدى هبّ الريح الشمالية، وفي عاشره يتسدى تنفس النيل، وفي خامس عشره
 تحرك شهوة الجماع، وفي ثانى عشره عيد ميكائيل، في ليلته يوزن من الطين زنة ستة
 عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع في مكان ويوزن عند طلوع الشمس فيها
 زاد كان بكل خروبة زادت على الستة عشر ذراع، وفي ثالث عشره يتسدى نقص
 القرات، وفي رابع عشره تهبّ الرياح السائم، وفي تاسع عشره تذهب البراغيث،
 وفي العشرين منه تهبّ الصفراء، وفي الثانى والعشرين منه يعقد الجوز، ويقوى
 أندفاع النيل، وفي الرابع والعشرين منه يثور وجع العين وهو أول مهرماه من شهور
 الفرس، وفي السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل، وفي الثامن والعشرين منه
 ينادى عليه، وفي التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ.

الشهر الحادى عشر أبيب، ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهور
 السريان، وآخره الثالث والعشرون من تموز منها، فيه يكثر العنب والتين ويقل
 البطيخ العبدلى ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل، وفي رابعه
 أول نهمى أبقرط، وفيه يموت الجراد، وفي سابعه أول تموز من شهور السريان،
 وفي عاشره يتسدى وقع الطاعون، وفي ثانى عشره يتسدى قوة السائم، وفي ثالث
 عشره تدرك الفاكهة، وفي سابع عشره تغور العيون، وفي ثامن عشره يجمع السماق،
 وفي الثانى والعشرين منه يدرك القسقى، وفي الرابع والعشرين منه أول أبانماه من
 شهور الفرس، وفي السادس والعشرين منه طلوع الشعري اليمنية، وفي التاسع
 والعشرين منه يدرك نخل الحجاز.

الشهر الثاني عشر مسرى؛ ودخوله في الرابع والعشرين من تموز من شهور
السريان، وآخره السابع والعشرون من آب منها . فيه يُعْمَلُ الحُلُّ، ويُدْرِكُ البُسْرُ
والمَوْزُ وتُتَغَيَّرُ طُعُومُ الفاكهة لغلبة الماء على الأرض، ويُدْرِكُ اللَّيْمُونُ التَّفَاحِيُّ،
ويبتدئ إدراك الرُّمَّان، وفي رابعه تُقْصَانُ الدَّجَلَةُ، وفي خامسه أول العَصِير، وفي ثامنه
أول آب من شهور السَّريَّان، وفي ثاني عشره فَصَالُ المَوَاشِي، وفي رابع عشره تَقِلُّ
الألبان، وفي خامس عشره تَسْخُنُ المِياهُ، وفي سابع عشره تَخْتَلِفُ الرياح، وفي ثامن
عشره يُحْذَرُ لَسْعُ الهوامِّ، وفي الثاني والعشرين منه آخرُ العَصِير، وفي الرابع والعشرين
منه يَبْجُ النَّعَامُ، وفي الخامس والعشرين منه تَكْثُرُ الغُيُومُ، وفي الثامن والعشرين منه
آخر السَّهَائِمِ، وفي التاسع والعشرين منه أول آذرماء من شهور الفرس .

أيام النسيء - ودخولها في الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف
آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضع الناس طُرُقًا لإخراج أول الشهر القبطي بالحساب أقربها أن تعرف يوم
النَّيروز ثم تُعَدُّ ماضٍ من الشهور القبطية بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله فما كان
فأضعفه فما تحصل فأسقط منه واحدا أبدا، ثم أسقط الباقي سبعة سبعة فما فضل
فعد من يوم النَّيروز إلى آخر الباقي بعد الإسقاط على توالي الأيام فأيما انتهى العدد
فذلك اليوم هو أول الشهر المطلوب .

مثال ذلك: كان يوم النيروز الأحد، وأردنا أن نعرف أول أمشير، عددنا كم مضى
من أول الشهور القبطية وعددنا منها أمشير، وجدنا ذلك ستة، أضعفناها صارت
أثنى عشر، أسقطنا منها واحدا بقي أحد عشر، أسقطنا منها سبعة بقي أربعة،
عددنا من يوم النيروز وهو الأحد أربعة فكان آخرها يوم الأربعاء فعلمنا أن أول
أمشير الأربعاء .

وأما شهور الفرس، فهي اثنا عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام النسيء خمسة أيام في آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأول منها افرودين ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأول يوم منه نيروز الفرس ورأس سنتهم . الشهر الثاني ارديهشماه، ودخوله في الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهاث منها . الشهر الرابع تيرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمهاث من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمودة منها . الشهر الخامس ترمماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمودة من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برمماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرى منها . أيام النسيء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولها في الرابع والعشرين من مسرى، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله في التاسع والعشرين من مسرى من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العاشر دى ماه . ودخوله في الرابع والعشرين من توت من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابه منها . الشهر الحادى عشر بهمن ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها . الشهر

(١) وقع في الاصل شيء من السقط والتحريف وقد صححناها من نهاية الاربع ومن الضوء وبمؤونة ترتيب الشهور القبطية فتنبه .

الثاني عشر [اسفندارماه، ودخوله في الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط،
وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم اسم خاص يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة
موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط ما يقع في هذه الشهور من
وغيرها .

الصنف الثاني

(من الشهور الاصطلاحية ما يختلف عدده بالزيادة والنقصان ،

فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقل ، وبعضها أكثر ،

وهو شهور السريان والروم)

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فأثنا عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها
ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الأول
منها تشرين الأول، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في الرابع من بابه من شهور
القبط، وآخره الرابع من هاتور منها، ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو الشهر
العاشر منها . الشهر الثاني تشرين الثاني، وهو ثلاثون يوما، ودخوله في الخامس من
هاتور من شهور القبط، وآخره الرابع من كيهك منها، ويوافق نوفمبر من شهور الروم،
وهو الشهر الحادي عشر منها . الشهر الثالث كانون الأول وهو أحد وثلاثون يوما،
ودخوله في الخامس من كيهك من شهور القبط، وآخره الخامس من طوبه منها،
ويوافق ديسمبر من شهور الروم، وهو الشهر الثاني عشر منها . الشهر الرابع كانون
الثاني، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في السادس من طوبه من شهور القبط،

وآخره السادس من أمشير منها ، ويوافقه ينير من شهر الروم ، وهو الشهر الأول منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله في السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهاث منها ؛ ويوافقه فبراير من شهر الروم ، وهو الثاني من شهرهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الخامس من برمهاث من شهر القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، ويوافقه مارس من شهر الروم ، وهو الثالث من شهرهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من برمودة من شهر القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، ويوافقه ابريل من شهر الروم ، وهو الرابع من شهرهم . الشهر الثامن أيّار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من بشنس من شهر القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقه مايه من شهر الروم ، وهو الخامس من شهرهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من بؤنه من شهر القبط ، وآخره السادس من أيّيب منها ، ويوافقه يونيه من شهر الروم ، وهو السادس من شهرهم . الشهر العاشر تمّوز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من أيّيب من شهر القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، ويوافقه يوليه من شهر الروم ، وهو السابع من شهرهم . الشهر الحادى عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الثامن من مسرى من شهر القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقه اغشت من شهر الروم ، وهو الثامن من شهرهم . الشهر الثاني عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في الرابع من توت من شهر القبط ، وآخره الثالث من بابيه منها ، ويوافقه ستنبر من شهر الروم ، وهو التاسع من شهرهم ، وبذهابه يذهب الحرجلة ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَضَى أَيْلُولُ وَارْتَفَعَ الْحَرُّورُ * وَأَخْبَتَ نَارَهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشوري في أبيات أبتدأ فيها بأيلول فقال :

وَأَبْدَأُ بِأَيْلُولٍ مِنَ الشَّرِيَانِي * تَشْرِينُ الْأَوَّلُ يَتَّبِعُهُ الثَّانِي
كَانُونُ كَانَونُ شَبَاطُ يَطْلُعُ * آذَارُ نَيْسَانُ أَيَّارُ يَتَّبِعُ
ثُمَّ خَزِيرَانُ وَمُوزَوَابُ * تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ يَهْدِي مَنْ أَحَبَّ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزاني رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التي منها ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل، وهي هذه :

شُهُورُ الرُّومِ أَلْوَانُ * زِيَادَاتُ وَتَقْصَاطُ
فَتَشْرِينُهُمُ الثَّانِي * وَأَيْلُولُ وَنَيْسَانُ
ثَلَاثُونَ ثَلَاثُونَ * سِوَاءُ وَخَزِيرَانُ
شَبَاطُ خُصَّ بِالنَّقْصِ * وَقَدَرُ النَّقْصِ يَوْمَانُ

ونظم صاحب "مناجى الفكر" بداخلها مع شهور القبط في أرجوزة بجملة في غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طولا، وهي هذه :

مَتَى تَشَأْ مَعْرِفَةَ التَّدَاخِلِ * مِنْ أَوَّلِ الشُّهُورِ فِي الْمَنَازِلِ
فَعَدَّ مِنْ تَوَاتُ بِلَا تَطْوِيلِ * أَرْبَعَةً فَهِيَ آبِدَا أَيْلُولِ
وَبَابَةٌ كَذَلِكَ مَعَ تَشْرِينِ * الْأَوَّلِ السَّابِقِ فِي السَّنِينَ
وَالْخَامِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ هَتُورِ * أَوَّلُ تَشْرِينِهِمُ الْآخِرِ
أَوَّلُ كَانَونٍ بَغَيْرِ دَلْسِهِ * إِذَا نَقَصَتْ مِنْ كَيْفِكَ خَمْسَهُ
وَطُوبَى لِمَنْ مَرَّ مِنْهُ سِتَّةُ * أَمَّاكَ كَانَونُ الْآخِرُ بَغْتَهُ
وَمَنْ شَبَاطُ أَوَّلُ يُوَافِقُ * سَابِعَ أَمْشِيرٍ حَسَابُ صَادِقُ
أَوَّلِ آذَارٍ إِذَا جَعَلْتَهُ * لَبْرَمَهَاتٍ خَامَسَا وَجَدْتَهُ

أَوَّلُ نِسَانٍ لَدَى التَّجْرِيدِ * السَّادِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ بَرْمُودِ
وَمِثْلُهُ أَبَارُ مَعَ بَسَنَسِ * وَاحِدَةٌ مَقْرُونَةٌ بِخَمْسِ
أَمَّا خَزِيرَانُ فَيَحْسَبُونَهُ * أَوَّلُ السَّابِعِ مِنْ بُوْنَهُ
كَذَلِكَ السَّابِعُ مِنْ أَيْبِ * أَوَّلُ تَمُوزٍ بَلَا تَكْذِيبِ
أَوَّلُ آبٍ عِنْدَ مَنْ يَحْصِلُ * ثَامِنُ مَسْرَى ذَلِكَ مَا لَا يَحْصِلُ

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأرجوزة في بيت واحد، الحرف الأول من الكلمة منه للشهر السرياني والحرف الأخير للشهر القبطي وما بينهما لعدد الأيام التي إذا مضت من ذلك الشهر القبطي دخل ذلك الشهر السرياني وهو :

أَدَتْ تَدَبْ تَهْ كَهْكَ كُوطْ أَزَا * أَهْبْ نُوبْ أُوْبْ خَزْبْ تَزَا أَحْمْ

فالألف من أدت إشارة لأيلول من شهور السريان، وهو آخر شهورهم، والتاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أول شهورهم، والدال من أدت بأربعة، ففي الرابع من توت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة لبابه، والدال بينهما بأربعة، ففي الرابع من بابه يدخل تشرين الأول، والتاء من تته إشارة لتشرين الثاني، والهاء الأخيرة إشارة لهاتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففي الخامس من هاتور يدخل تشرين الثاني، والكاف أول من كهك إشارة لكانون الأول والكاف الأخيرة إشارة لكيهك والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من كيهك يدخل كانون الأول، والكاف من كوط إشارة لكانون الثاني، والطاء إشارة لطوبه، والواو بينهما بستة، ففي السادس من طوبه يدخل كانون الثاني، والألف الأولى من أزَا إشارة لأشباط، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاي بينهما بسبعة، ففي السابع من أمشير يدخل أشباط، والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لبرمهات، والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من برمهات يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من برموده يدخل نيسان ، والألف من أوب إشارة لآيار ، والباء إشارة لبشنس ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من شنس يدخل آيار ، والحاء من حزب إشارة لحزيران ، والباء إشارة لبؤنه ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من بؤنه يدخل حزيران ، والتاء من ترأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأيب ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من أيب يدخل تموز ، والألف من احم إشارة لآب ، والميم إشارة لمسرى ، والحاء بينهما ثمانية ، ففي الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسب لأغسطس ملك الروم) وهو قيصرا الأول ، فاثنا عشر شهرا ، بعضها ثلاثون يوما ، وبعضها زائد على الثلاثين ، وبعضها ناقص عنها كما في شهور السريان ، وهي مطابقة لشهور السريان في العدد ، مخالفة لها في الأسماء والترتيب . الشهر الأول ينير ، ويوافق كانون الثاني من شهور السريان ، وهو الرابع من شهورهم ، وفي أول يوم منه يكون القلداس ، ويوقد أهل الشام في ليلته نيرانا عظيمة ، لاسيا مدينة أنطاكية ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم ، وسائر بلاد النصراني . الشهر الثاني فبراير ، ويوافق شباط من شهور السريان ، وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس ، ويوافق آذار من شهور السريان ، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل ، ويوافق نيسان من شهور السريان ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايه ، ويوافق آيار من شهور السريان ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيه ، ويوافق حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليه ، ويوافق تموز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغشت ، ويوافق آب من شهور السريان ، وهو الحادي عشر من شهورهم . الشهر التاسع شتبر ، ويوافق أيلول من شهور

السريان ، وهو الثاني عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر ، ويوافقه تشرين الأول من شهور السريان ، وهو الأول من شهورهم . الشهر الحادي عشر نوفمبر ، ويوافقه تشرين الثاني من شهور السريان ، وهو الثاني من شهورهم . الشهر الثاني عشر دجنبر ، ويوافقه كانون الأول من شهور السريان ، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشوري فقال :

يَسِيرُ قَبْرِيزُ مَارَسَ لِلرُّومِ * أِبْرِيلُ مِائَةِ خَامِسِ الْمَعْلُومِ
يُنِيهِ وَيُليهِ ثُمَّ آغَشَتْ شَتْنِبَرُ * أَكْتُوبَرُ نُونَمِبَرِ دَجْنِبَرِ

الطرف الثالث

(في السنين : وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول السنة والعام)

يقال : السنة ، والعام ، والحول ؛ وقد نطق القراء بالأسماء الثلاثة قال تعالى :
﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلَفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَا ﴾ فأتى بذكر السنة والعام في آية واحدة ،
وقال جل وعز : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وقد تختص السنة
بالجذب والعام بالخضب ، وبذلك ورد القراء الكريم في بعض الآيات قال تعالى :
﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ ﴾ فعبر بالعام عن الخضب
وقال جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ فعبر
بالسنين عن الجذب . على أنه قد وقع التعبير بالسنين عن الخضب أيضا في قوله
تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّوهُ فِي سُبُلِهِ ﴾ . أما الحول
فإنه يقع على الخضب والجذب جميعا .

الجملة الثانية

(في حقيقة السنة، وهي على قسمين : طبيعية وأصلاحية كما تقدم في الشهور)

القسم الأول

(السنة الطبيعية : وهي القمرية)

وأولها استملال القمر في غرة المحرم ، وآخرها سلخ ذى الحجة من تلك السنة ، وهي اثنا عشر شهرا هلالياً قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ وَعدداً أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوماً وخمسة وسدس يوم تقريباً ، ويجتمع من هذا الخمس والسدس يوم في كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً ، ويبقى من ذلك بعد اليوم الذي اجتمع شيء ، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه في السنة السادسة يوم واحد ، وكذلك إلى أن يبقى الكسر أصلاً بأحد عشر يوماً عند تمام ثلاثين سنة ، وتسمى تلك السنين بكائس العرب .

قال السهيلي : كانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوماً حتى يلغور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته ، فلما كانت سنة حجة الوداع : وهي سبعة وتسع من الهجرة ، عاد الحج إلى وقته اتفاقاً في ذى الحجة كما وضع أولاً فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحج ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : ” إِنَّ الزَّمانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، “ بمعنى أن الحج قد عاد في ذى الحجة . وفي بعض التعاليق أن سني العرب كانت موافقة لسني الفرس في الدخول والأسلخ فحدث في أحوالهم انتقالات فسد عليهم بها الكبس في أول السنة السادسة من ملك أغيطش ، وذلك بعد ملك ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوماً فسئوا كبس

الربع من ذلك اليوم في كل سنة فصارت سنينهم بعد ذلك الوقت محفوظةً المواقيت .
وقيل لم تزل العرب في جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تنسأ
سينها إلى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادت العرب أن يكون حجهم في أخصب
وقت من السنة ، وأسهل زمان للتردد بالتجارة فعملوا الكبس من اليهود والله أعلم
أي ذلك كان .

القسم الثاني

(الأصلاحية : وهي الشمسية)

وشهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت عدم
دوران سينها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جملة واحدة وإما متفرقة وسمتها
سينياً ، بحسب ما اصطاحوا عليه كما ستقف عليه في مصطلح كل قوم إن شاء الله تعالى .
وعدد أيامها عند جميع الطوائف : من القبط ، والفرس ، والسريان ، والروم ، وغيرهم
ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتكون زيادتها على العربية عشرة أيام
وثمانية أعشار يوم وخمسة أسداس يوم . وقد قال بعض حذّاق المفسرين في قوله
تعالى ﴿ وَلْيُثْبِتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ : إنه إن حمل على السنين القمرية
فهو على ظاهره من العدد ، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسع الزائدة هي تفاوت
زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلاثمائة سنة تسع سنين لا تُحِلُّ بالحساب أصلاً
قال صاحب "مناهج الفكر" ولذلك كانوا في صدر الإسلام يُسقطون عند رأس
كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنةً ويسمونها سنة الأزدلاف : لأن كل ثلاث
وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً . قال وإنما حملهم على ذلك
الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى أنه زيادة في الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .
المصطلح الأول - مصطلح القبط ، وقد اصطالحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم فإذا انقضت الاثنا عشر شهرا أضافوا إليها خمسة أيام يسمونها أيام النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كيسة في تلك السنة ، وبعض ظرفاتهم يسمي الخمسة المزيدة السنة الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغشطش . وكانوا من قبل يتركون الربع إلى أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك في ألف سنة وأربعمائة وإحدى وستين سنة ويسقطونها من سنينهم ؛ وعلى هذا المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية في الإقطاعات ، والزرع ، والحراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثاني - مصطلح الفرس ؛ وشهورهم كشهور القبط في عدد الأيام على ما تقدم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع من شهورهم أضافوا إليه الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمى الفرس هذه الأيام الخمسة الاندركاه ؛ ولكل يوم منها عندهم اسم خاص كما في أيام الشهر ؛ ولما لم يجز في معتقدهم كبس السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخرونه إلى أن يتم منه في مائة وعشرين سنة شهر كامل فيلقونه ، وتسمى السنة التي يلي فيها بهرك ، قال المسعودي في "مروج الذهب" وإنما أخرؤا ذلك إلى مائة وعشرين سنة لأن أيامهم كانت سعوذا ونحوسا فكرهوا أن يكبسوا في كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك أيام السعوذ إلى أيام النحوس ، ولا يكون التبروز أول يوم من الشهر .

(١) الصواب الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) في مروج الذهب - الهارك ، وفي الضوء - بهرك .

وعلى هذا المصطلح كان يُعْبَى الحَرَج للبقاء وتُشَى الأحوال الديوانية فى بداية الأمر وعليه العمل فى العراق وبلاد فارس إلى الآن .

المصطلح الثالث - مصطلح السريان ، وشهورهم على ما تقدم : من كونها تارة ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها ، وتارة ناقصة عنها ، وإنما فعلوا ذلك حتى لا يلحقهم النسيء فى شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة على شهور القبط والفُرس موزعة على رؤوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين : وهى تشرين الأول ، وكانون الأول ، وكانون الثانى ، وآذار ، وأيار ، وتموز ، وآب ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام ، وهى نظير النسيء فى سنة القبط والفُرس ، ويبقى بعد ذلك الربع يوم الزائد على الخمسة أيام فى السنة الشمسية ، فإذا آنقضت ثلاث سنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملقاة إلى الربع الرابع فيجتمع منها يوم فيجعلونه نظير اليوم الذى كبسه القبط ويضيفونه إلى شباط ، فيصير تسعة وعشرين يوما .

المصطلح الرابع - مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قريّة كالعربية كما تقدم فقد اضطُروا إلى أن تكون سنّهم شمسيّة : لأنهم أمروا فى التوراة أن يكون عيد الفطر فى زمان القريك فلم يتأت لهم ذلك حتى جعلوا سنينهم قسمين : الأول بشيطا ومعناه بسيطة وهى القمرية ، والثانى معبارت ، ومعناه كبيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارت أسم موضوع عندهم على الكامل ، فإنه لما كان فى بطنها زيادة عليها كانت هذه السنة مثلها باضافة الشهر المكبوس إليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها جبارين ومعناه ناقصة ، وهى التى يكون الشهر الثانى والثالث منها (وهما) مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ،

والنوع الثانى شلايم ومعناه تامة ، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تاما ، والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرها ناقص يتلوه تام ، وهذا يلزم من جهة أنهم لا يميزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فإنها تكون فى كل تسع عشرة سنة سبع مرات ، ويسمىون الجملة مخزورا ومعناه الدور ، وهذه السبعة لا تكون على التوالى ، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوها معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت ، كل ذلك حتى لا تخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أول سنتهم ، فإذا آنقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى ، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعملوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطلح المنتجمين فالسنة عندهم من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الحمل إلى حلولها فى آخر نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الميزان إلى حلولها فى آخر نقطة من السنبلة ، والأول هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كون الشمس فى نقطة ما من فلک البروج إلى عودها إلى تلك النقطة ، ويقال إن سنة الجند والمرترقة بالديار المصرية كانت أولا على هذا المصطلح ، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجملة الثالثة

(في فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مَهَائِع)

المَهْيَعُ الأول

(في الحكمة في تغيير الفصول الأربعة في السنة)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْفُصُولَ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ طِبَاعِ السَّنَةِ لِتَبَايُنِ مَصَالِحِ أَوْقَاتِهَا
حِكْمَةً مِنْ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ بَطْلِمَيْوسُ : تَحْتَاجُ الْأَبْدَانُ إِلَى تَغْيِيرِ الْفُصُولِ ، فَالْشِّتَاءُ
لِلتَّجْمِيدِ ، وَالصَّيْفُ لِلتَّحْلِيلِ ، وَالْخَرِيفُ لِلتَّنْدْرِيجِ ، وَالرَّبِيعُ لِلتَّعْدِيلِ . وَعَلَى ذَلِكَ
يُقَالُ : إِنَّ أَصْلَ وَضْعِ الْحَمَامِ أَرْبَعَةَ بَيْوتَ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضٍ عَلَى التَّنْدْرِيجِ تَرْتِيبُهَا
عَلَى الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ .

المَهْيَعُ الثاني

(في كَيْفِيَّةِ انْقِسَامِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ إِلَى الْفُصُولِ)

وَأَعْلَمُ أَنَّ دَائِرَةَ مَنْطِقَةِ الْبُرُوجِ لَمَّا قَاطَعَتْ دَائِرَةَ مَعْدَلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ
مَالٌ عَنْهُمَا فِي جِهَتَيِ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ بِقَدَرٍ وَاحِدٍ فَالنَّقْطَةُ الَّتِي تَجُوزُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ^(١)
مِنْ نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ عَنْ مَعْدَلِ النَّهَارِ تَسْمَى نَقْطَةُ الْإِعْتِدَالِ الرَّبِيعِيِّ ،
وَهِيَ أَوَّلُ الْحَمَلِ ، وَالنَّقْطَةُ الَّتِي تَجُوزُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ تَسْمَى نَقْطَةُ الْإِعْتِدَالِ
الْخَرِيفِيِّ : وَهِيَ أَوَّلُ الْمِيزَانِ . وَيَتَوَهَّمُ فِي الْفَلَكَ دَائِرَةُ ثَلَاثَةِ مَعْتَرِضَةٍ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى
الْجَنُوبِ تَمُرُّ عَلَى أَقْطَابِ الدَّائِرَةِ الْمَخْطُوطَةِ عَلَى الْفَلَكَينِ تَقْطَعُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ
فَلَكَ مَعْدَلِ النَّهَارِ وَفَلَكَ الْبُرُوجِ بِنَصْفَيْنِ ، فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ قِطْعُهَا لِفَلَكَ الْبُرُوجِ عَلَى

(١) لَعَلَّهُ مَالُ نَصْفِهَا فِي جِهَةِ الشَّمَالِ وَالْآخَرُ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ كَمَا يَسْتَفَادُ مِنَ الْمُقَرَّرِ .

التقطين اللتين هما في غاية الميل والبعد عن معدل النهار في جهتي الشمال والجنوب :
تسمى النقطة الشمالية نقطة المُنْقَلَب الصيفي : وهي أول السَّرَطَان ؛ وتسمى النقطة
الجنوبية نقطة المُنْقَلَب الشتوي ، وهي أول الجَدْي . وأختلاف طبائع الفصول
عن حركة الشمس وتنقلها في هذه النقط ، فإنها إذا تحركت من الحمل ، وهو أول
البروج الشمالية أخذَ الهواء في السُّخونة لقربها من سمت الرأس وتواتر الإسخان إلى
أن تصل إلى أول السرطان ، وحينئذ يشتد الحر في السَّرَطَان والأسد إلى أن تصل
إلى الميزان ، فحينئذ يطيَّب الهواء ويعتدل ؛ ثم يأخذُ الهواء في البرودة ويتواتر إلى
أول الجَدْي ، وحينئذ يشتد البرد في الجَدْي والدَّلُو لبعد الشمس عن سمت الرأس
إلى أن تصل إلى الحمل فتعود الشمس إلى أول حركتها .

المهيع الثالث

(في ذكر الفصول ، وأزمنتها ، وطبائعها ، وما حصة كل فصل منها)

من البروج والمنازل ؛ وهي أربعة فصول)

الأول - فصل الربيع - وأبتدأه عند حُلُول الشمس برأس الحمل . وقد تقدم
ومدته أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأوله حُلُول الشمس رأس
الحمل ، وآخره عند قطعها بَرَج الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر ، والزهرة ؛ ومن
المنازل السَّرَطَان ، والبُطَيْن ، والأثَرِيَا ، والدَّبَرَان ، والمقعدة ، والمهنعة ، والذراع بما
في ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ؛ ومن الرياح
الجنوب ؛ وطبعه حار رطب ؛ وله من السنن الطفولية والحداثة ؛ ومن الأخلاط
الدَّم ؛ ومن القوى الهاضمة . وفيه تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ،
فيطلع النبات ، وتزهى الأشجار وتورق ، ويهيج الحيوان للسَّفاد ، وتذوب الثلوج ،

وَتَبَعُ الْعُيُونُ ، وَتَسِيلُ الْأَوْدِيَةُ ، وَأَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَنَتْ فَتَصِيرُ كَأَنَّهَا
عُرُوسٌ تَبَدَّتْ لُحْطَاهُمَا ، فِي مُصَبَّغَاتِ ثِيَابِهَا ، وَيُقَالُ : إِذَا نَزَلَتِ الشَّمْسُ رَأْسَ
الْحِمْلِ . تَصَرَّمَ الشِّتَاءُ ، وَتَنَقَّسَ الرَّبِيعُ ، وَأَخْتَالَتِ الْأَرْضُ فِي وَشِيِّهَا الْبَدِيعِ ، وَتَبَرَّجَتْ
لِلنَّظَّارَةِ ، فِي مَعْرِضِ الْحُسْنِ وَالنَّصَارَةِ .

وَمِنْ كَلَامِ الْوَزِيرِ الْمَغْرِبِيِّ : لَوْ كَانَ زَمَنُ الرَّبِيعِ شَخْصًا لَكَانَ مُقْبَلًا ، وَلَوْ أَنَّ الْأَيَّامَ
حَيَوَانَ لَكَانَ لَهَا حَلِيًا وَمُجَلَّلًا : لِأَنَّ الشَّمْسَ تَخْلُصُ فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتِ حُوتِ السَّمَاءِ ،
خَلَّاصَ يُونُسَ مِنْ ظُلُمَاتِ حُوتِ الْمَاءِ ، فَإِذَا وَرَدَتِ الْحِمْلَ وَافَتْ أَحَبَّ الْأَوْطَانِ
إِلَيْهَا ، وَأَعَزَّ أَمَاكِنَهَا عَلَيْهَا .

وَكَانَ عَبْدُوسُ الْخَزَاعِمِيُّ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ بِالرَّبِيعِ وَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِأَنْوَارِهِ ،
وَلَا اسْتَرْوَحَ بِنَسِيمِ أَزْهَارِهِ ، فَهُوَ فَاسِدُ الْمِزَاجِ ، مُحْتَاجٌ إِلَى الْعِلَاجِ .

وَيُرْوَى عَنْ بَقْرَاطِ الْحَكِيمِ مِثْلُهُ ، وَفِيهِ بَدَلُ قَوْلِهِ ”فَهُوَ فَاسِدُ الْمِزَاجِ“ فَهُوَ عَدِيمُ
حَسَبٍ ، أَوْ سَقِيمُ نَفْسٍ . وَلِلْجَلَالَةِ مَحَلُّ هَذَا الْفَصْلِ فِي الْقُلُوبِ ، وَلِئَزْوَلِهِ مِنَ النُّفُوسِ
مَنْزِلَةُ الْكَعَابِ الْخُلُوبِ ، كَانَتْ الْمُلُوكُ إِذَا عَدِمَتْهُ اسْتَعْمَلَتْ مَا يُضَاهِي زَهْرَهُ مِنْ
الْبُسْطِ الْمَصُورَةِ الْمُنْقَشَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمَقْفُوفَةِ الْمَرْقُوشَةِ . وَقَدْ كَانَ لَأَنُوشِرْوَانَ بِسَاطُ
يُسَمِّيهِ بِسَاطَ الشَّيْءِ مَرْصَعٌ بِأَزْرَقِ الْيَاقُوتِ وَالْجَوَاهِرِ وَأَصْفَرِهِ وَأَبْيَضِهِ وَأَحْمَرِهِ ،
وَقَدْ جَعَلَ أَحْضَرُهُ مَكَانَ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ، وَأَلْوَانَهُ بِمَوْضِعِ الزَّهْرِ وَالنَّوَارِ . وَلَمَّا أَخَذَ
هَذَا الْبِسَاطُ فِي خِلَافَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَاقِعَةِ الْقَادِسِيَّةِ ، حُمِلَ إِلَيْهِ فِيمَا
أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : ”إِنَّ أُمَّةً آدَتْ هَذَا إِلَى أَمِيرِهَا لِأَمِينَةٍ“ ثُمَّ
مَرَّقَهُ فَوَقَعَ مِنْهُ لَعْلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِطْعَةً فِي قِسْمِهِ مَقْدَارُهَا شَبْرٌ فِي شِبْرِ قِبَاعِهَا بِخَمْسَةِ
عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ .

وَقَدْ أَطْنَبَ النَّاسُ فِي وَصْفِ هَذَا الْفَصْلِ وَمَدَحِهِ ، وَأَتَوْا بِمَا يَقْصُرُ عَنْ شَرْحِهِ ،

وتغالى الشعراء فيه غاية التغالى ، وفَضَّلُوا أيامه ولياليه على الأيام والليالي ، وما أحلى
قول البحتري ! :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَحْتَالُ ضَاهِكًا * من الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَقَدَنْبَهُ التَّوَرُّوْزُ فِي غَسَقِ الدُّجَى * أَوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نَوْمًا
يُفْتَحُهَا بَرْدُ النَّدى فَكَأَمَّا * يَبْتُ حَدِيثًا بَيْنَهُنَّ مُكْتَمًا
وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعُ رِدَاءَهُ * سَمَا نَشَرْتُ نَوْبًا عَلَيْهِ مُتَمَمًا
أَحْلَ فَبَدَى لِلْعُيُونِ بَشَاشَةً * وَكَانَ قَدَى الْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْرَمًا
وَرَقَّ نَسِيمُ الْجَوِّ حَتَّى كَأَمَّا * يَحْيَى بِأَنْفَاسِ الْأَجْبَةِ نَعْمًا
وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوي :

أَوَمَا تَرَى الْأَيَّامَ كَيْفَ تَبَرَّجَتْ * وَرَبِيعَهَا وَالِ عَلَيْهَا قِيَمٌ ؟
لَيْسَتْ بِهِ الْأَرْضُ الْجَمَالَ فُحْشُهَا * مُتَازِرٌ بِوَرْدِهِ مُتَعَمِّمٌ
أَنْظُرْ إِلَى وَشْرِ الرِّيَاضِ كَأَنَّهُ * وَشَى تَنْشُرُهُ الْأَكْفُ يَمْنَمٌ
وَالنُّورُ يَهْوَى كَالْعُقُودِ تَبَدَّدَتْ * وَالْوَرْدُ يَحْجُلُ وَالْأَفَاقِي تَبَسُّمٌ
وَالطَّلُّ يَنْظُمُ فَوْقَهُنَّ لَآلِيًا * قَدْ زَانَ مِنْهُنَّ الْفَرَادَى النَّوَمُ
وَيَكَادُ يَذْرِى الدَّمْعُ نَزْجُهَا إِذَا * أَضْحَى وَيَقْطُرُ مِنْ شَقَائِقِهَا الدَّمُ

ومنها :

أَرْضٌ تُبَاهِيهَا السَّمَاءُ إِذَا دَجَا * لَيْلٌ وَلاَحَتْ فِي دَجَاها الْأَنْجَمُ
فَلِخُضْرَةِ الْجَوِّ أَخْضَارُ رِيَاضِهَا * وَلِزَهْرِ زَهْرٍ وَنَوْرٍ يَجْمُ
وَكَمَا يَشْقُ سَنَا الْمَجَرَّةِ جَرَّهُ * وَادِ يَشْقُ الْأَرْضَ طَائِمٌ مُفْعَمٌ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّهْرُ إِذَا بَاهَتْ بِهِ * وَحَيًّا يَحُودُ بِهِ مِلْتُ مَرْهَمٌ

وقول الآخر:

طَرَقَ الْحَيَاءُ بِرِّهِ الْمَشْكُورِ * أَهْلًا بِهِ مِنْ زَائِرٍ وَمَزُورٍ !
وَحَبَا الرِّيَاضَ غِلَاطَةً مِنْ وَشْيِهِ * بَغْرَابِ التَّفْوِيفِ وَالتَّحْيِيرِ
وَأَعَارَهَا حَلِيًّا تَأْتِي الْغَيْثُ فِي * تَرْصِيعِهِ بِجَوَاهِرِ الْمَنْشُورِ
بُورْدَ كَمُورْدِ الْبَاقُوتِ فَآ * رَبَّ أَيْضًا كَمَصَاعِدِ الْكَافُورِ
وَمُعْصَفِرِ شَرِيقٍ وَأَصْفَرِ فَاقِعِ * فِي أَخْضِرِ كَالسُّنْدُسِ الْمَنْشُورِ
فَكَأَنَّ أَرْزَقَهُ بَقَايَا إِيْمِيدِ * فِي أَعْيُنِ مَكْحُولَةٍ بِفُتُورِ
كُلَّتْ صِفَاتُ الزَّهْرِ فِيهِ فَنَابَ عَمَّ * غَابَ مِنْ أَنْوَاعِهِ بِمُحْضُورِ

وقول الآخر:

إِشْرَبْ هَيْنَا قَدْ أَتَاكَ زَمَانُ * مَتَعَطَّرَ مَتَهَلَّلَ نَسْوَانُ
فَالْأَرْضُ وَشْيٌ وَالنَّسِيمُ مُعْتَبَرٌ * وَالْمَاءُ رَاحٌ وَالطُّيُورُ قِيَانُ

الثاني - فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف ثمن يوم
وآبْتَدَأُوهُ إِذَا حَلَّتْ الشَّمْسُ رَأْسَ السَّرَطَانِ ، وَانْتَهَاؤُهُ إِذَا أَتَتْ عَلَى آخِرِ دَرَجَةٍ مِنَ
السُّنْبُلَةِ ؛ فَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْبُرُوجِ السَّرَطَانُ ، وَالْأُسْدُ ، وَالسِّنْبُلَةُ . وَهَذِهِ الْبُرُوجُ تَدُلُّ
عَلَى السُّكُونِ ، وَلَهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ الْمَرِيخُ وَالشَّمْسُ ؛ وَمِنَ الْمَنَازِلِ النَّتْرَةُ ، وَالطَّرْفُ ،
وَالْجَهَةُ ، وَالزُّبْرَةُ ، وَالصَّرْفَةُ ، وَالْعَوَاءُ ، وَالسَّمَاءُ يُتَدَاخَلُ فِيهِ ؛ وَلَهُ مِنَ السَّاعَاتِ
الرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ ، وَمِنَ الرِّيَاحِ الصَّبَا ، وَطَبَعُهُ حَارٌّ يَابَسٌ ؛ وَلَهُ مِنَ السَّنِّ
الشَّبَابُ ؛ وَمِنَ الْأَخْلَاطِ الْمِرَّةُ الصَّفْرَاءُ ؛ وَمِنَ الْقُوَى الْقُوَّةُ النَّفْسِيَّةُ وَالْحَيَوَانِيَّةُ .
وَالْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَصْلِ وَغَرَاتٌ : وَهِيَ الْحُرُورُ ؛ مِنْهَا وَغَرَةُ الشَّعْرَى ، وَوَغَرَةُ
الْجُوزَاءِ ، وَوَغَرَةُ سُهَيْلٍ ، أَوْهَا أَقْوَاهَا حَرًّا ؛ يَقَالُ إِنْ الرَّجُلَ فِي هَذِهِ الْوَغَرَةِ يَعْطَشُ
بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْبَيْتِ ، وَإِذَا طَلَعَ سُهَيْلٌ ذَهَبَتِ الْوَغَرَاتُ ؛ وَتُسَمَّى الرِّيَاحُ الَّتِي فِي هَذِهِ

الْوَعْرَاتِ الْبَوَارِحَ؛ سَمِيتَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ يَسَارِ الْكَمْبَةِ كَمَا بَرَحَ الطَّيُّ إِذَا أَتَاكَ مِنْ يَسَارِكَ؛ وَقَدْ أُولِيَكَ النَّاسُ بَيْنَ لَفَحَاتِ الْحَرِّ وَسُمُومِهِ، وَأَتَوْا فِيهِ بِدَائِعَ تَقْلَعُ مِنْ قَلْبِ الصَّبِّ غَمَامَ غُمُومِهِ. وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: أَوْقَدْتَ الظَّهِيرَةَ نَارَهَا، وَأَذْكَتْ أَوَارَهَا، فَأَذَابَتْ دِمَاعَ الصَّبِّ، وَأَلْهَبَتْ قَلْبَ الصَّبِّ؛ هَاجِرَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ الْعُشَّاقِ، إِذَا أَشْتَعَلَتْ فِيهَا نَارُ الْفِرَاقِ؛ حَرَّتْهُ رَبُّ لَهُ الْحِرْبَاءُ مِنَ الشَّمْسِ، وَتَسْتَجِيرُ بِمَتْرَاكِ الرَّسِّ؛ لَا يَطِيبُ مَعَهُ عَيْشٌ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ تَلَجٌ وَلَا خَيْشٌ؛ فَهُوَ كَالْقَلْبِ الْمَهْجُورِ، أَوْ كَالنُّتُورِ الْمَسْجُورِ. وَوَصَفَ بَعْضُهُمْ: وَهُوَ ذُو الرِّقَةِ حَرٌّ هَاجِرَةٌ فَقَالَ:

وَهَاجِرَةٌ حَرُّهَا وَقَدْ * نَصَبْتُ لِحَاجِجِهَا حَاجِي
تَلَوُّدُ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَاؤُهَا * لِيَاذَ الْغَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ
وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ حِرْبَاؤُهَا * كَمَا يَسْجُدُ الْقَسُّ لِلرَّاهِبِ
وَقَالَ سَوَّارُ بْنُ الْمُضَرِّسِ:

وَهَاجِرَةٌ تُشْتَوَى بِالسَّمُومِ * جَنَادِيهَا فِي رُءُوسِ الْأَكَمِ
إِذَا الْمَوْتُ أَخْطَأَ حِرْبَاءَهَا * رَمَى نَفْسَهُ بِالْعَمَى وَالصَّمَمِ
وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمُعَرِّي:

وَهَجِيرَةٌ كَالْهَجْرِ مَوْجُ سَرَابِهَا * كَالْبَحْرِ لَيْسَ لِمَائِهَا مِنْ طَحْلِبِ
وَإِخَى بِهِ الْحِرْبَاءُ عُودَى مَنِيرٍ * لِلظُّهْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَخْطُبِ
وَقَالَ آخَرُ:

وَرَبَّ يَوْمٍ حَبْرُهُ مُنْضَجٌ * كَأَنَّهُ أَحْشَاءُ ظَمَانِ
كَأَنَّهَا الْأَرْضُ عَلَى رَضْفَةٍ * وَالْحَوُّ مُحْشَوُ بَنِيرَانِ

وَبَالِغُ الْأَمِيرِ نَاصِرُ الدِّينِ بْنِ الْفَقَيْسِيِّ فَقَالَ مِنْ أَيْبَاتِ:
فِي زَمَانٍ يَشْوَى الْوُجُوهَ بِحَزٍّ * وَيَذِيبُ الْجُسُومَ لَوْ كُنَّ صَخْرًا

لَا تَطِيرُ النَّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَفَتْ تَشْمُسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرَا
يَسْتَكِي الصَّبُّ مَا اشْتَكَى الصَّبُّ فِيهِ * وَلِحَرْبَائِهِ إِلَى الظِّلِّ حَرَا
وَيَوُدُّ الغُصْنُ الرُّطِيبُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَعَرَّى
وقال أيضا يصف ليلة شديدة الحر

يَا لَيْلَةً بَتَّ بِهَا سَاهِرَا * مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَفَرَطِ الْأَوَارِ
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِم * لَوْ أَنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي اسْتِنَارَ
وَكَيْفَ لَا أُحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاوُهَا بِالشَّهْبِ تَرْمِي الْجَمَارَ

على أن أبا علي بن رَشِيق قد فضَّله على فصل الشتاء فقال :

فَصَلُ الشِّتَاءِ مُبِينٌ لَا خَفَاءَ بِهِ * وَالصَّيْفُ أَفْضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَ
فِيهِ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ إِنْ جَاءَوه نُسَاكَ
أَنْهَارُ نَحْمِرٍ وَأَطْيَارٌ وَفَاكِهَةٌ * مَا شِئْتُ مِنْ ذَا وَمِنْ هَذَا وَمِنْ ذَاكَ
فَقُلْ لِمَنْ قَالَ لَوْلَا ذَاكَ لَمْ يَكْ ذَا * إِذَا تَفَضَّلَ عَلَى أَخْرَاكَ دُنْيَاكَ
سَمَّ الشِّتَاءَ بَعْبَاسٍ تُصَبُّ غَرَضًا * مِنَ الصَّوَابِ وَسَمَّ الصَّيْفَ ضَحَّاكَ

الثالث - فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن

يوم . وأوله عند حُلُولِ الشمسِ رأسَ الميزان ؛ وذلك في الثامن عشر من ثوبت وإذا
بَقِيَ من أيلول ثمانية أيام ؛ وآخره إذا أَتَتِ الشمسُ على آخر درجة من القَوْسِ ؛
فيكون له من البروج الميزانُ والعقربُ والقَوْسُ ؛ وهذه البروج تدلُّ على الحركة ؛
وله من الكواكب زُحَلٌ ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطارع فيه مع الفجر
من المنازل الغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعام والبلدة يتداخل فيه .
وهو بارد يابس ، له من السن الكهولة ؛ تهيج فيه المِرَّةُ السوداء وتقوى فيه القوة
الماسكة ، وتهبُّ فيه الرياح الشمالية ، وفيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتصرم

النَّارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُمزَلُ البهائم، وتموت المَواثم، وتَجْجَرُ الحشرات، ويطلب الطير المواضع الدَّفينة، وتصير الأرض كأنها كَهْلَةٌ مُدِيرَةٌ. ويقال: فصل الخريف ربيعُ النفس كما أن الربيعَ ربيعُ العين: فإنه ميقَاتُ الأقوات، وموسمُ الثَّمار وأوانُ شَبَابِ الأشجار، وللنفوس في آثاره مَرْبَعٌ، وللمُسُوم بمواقع خيراتِه مستمتع. وقد وصفه الصَّابي فقال "الخريف أصحُّ فصول السنة زماناً، وأسهلها أواناً، وهو أحدُ الأعتدالين المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زُبدتها، وأطلقت السماء حَوَافِلَ أنوائها، وأذنت بآنسكاب مائها، وصارتِ المَوارد، كُتُونِ المَبَارِدِ، صفاءً من كَدَرها، وتهذباً من عَكْرها، وأطراداً مع نَفحاتِ الهواء، وحركاتِ الرِّيحِ الشَّجْواءِ، وآكتست الماشيةُ وبرها القشيب، والطارئُ ريشه العَجيب".

ومن كلام ابنِ شبل: كلُّ ما يَظْهَرُ في الربيعِ نُورُهُ، ففي الخريفِ نُجْتَنَى ثَمَرُهُ.
وقال أبو بكر الصنوبري:

ما قَضَى في الرِّبيعِ حَقَّ المَسَرِّ * تِ مَضِيعُ لِحَقِّهَا في الخَرِيفِ
نَحْنُ مِنْهُ عَلَى تَلَقِّي شِتَاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أَوْ دَاعِ مَصِيفِ
في قَمِيصٍ مِنَ الزَّمانِ رَقِيقٍ * وَرِداءٍ مِنَ الهَوَاءِ خَفِيفِ
يَرْعُدُ المَاءُ فِيهِ خَوْفاً إِذَا مَا * لَمَسَتْهُ يَدُ النَّسِيمِ الضَّعِيفِ
وقال ابن الرومي يصفه:

لَوْلَا قَواكِه أَيْلُولٍ إِذَا اجْتَمَعَتْ * مِنْ كُلِّ فَنٍّ وَرَقَّ الجُؤْ والماءُ
إِذَا لَمَّا حَفَلَتْ نَفْسِي إِذَا أَشْتَمَلْتُ * عَلَى هَائِلَةِ الحَالِينِ غَبْرَاءُ
يَاجِدًا لَيْلُ أَيْلُولٍ إِذَا بَرَدَتْ * فِيهِ مَضَاجِعُنَا والرِّيحُ شَجْواءُ !
وَنَحْمَسُ القُرْفِ فِيهِ الحِلْدَ والتَّائِمَتِ * مِنْ الضَّجِيعِينَ أَجْسامُ وأَحْشَاءُ

وَأَسْفَرَ الْقَمَرَ السَّارِيَ بِصَفْحِهِ * يَرَى لَهَا فِي صَفَاءِ الْمَاءِ لَأْلَاءَ
 بِلْ حَبْدًا نَفْحَةً مِنْ رِيحِهِ تَحَوًّا * يَأْتِيكَ فِيهَا مِنَ الرِّيحَانِ أَنْبَاءُ
 قُلْ فِيهِ مَا شِئْتَ مِنْ فَضْلِ تَعَهُدِهِ * فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّ لَكَ بَيْضَاءُ
 وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله على الصبغ من أبيات :

طَابَ شَرْبُ الصُّبُوحِ فِي أَيْلُولٍ * بَرَدَ الظَّلُّ فِي الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
 وَخَبَتْ لَفْحَةُ الْمَوَاجِرِ عَنَّا * وَأَسْتَرَحْنَا مِنَ النَّهَارِ الطَّوِيلِ
 وَخَرَجْنَا مِنَ السَّمُومِ إِلَى بَرٍّ * دَسِيمٍ وَطِيبٍ ظِلِّ ظَايِلِ
 فَكَأَنَّا نَزْدَادُ قُرْبًا مِنَ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ شَارِقٍ وَأَصِيلِ
 وَوَجْهُهُ الْبَقَاعُ تَنْتَظِرُ الْغَيْثَ * أَنْ تَنْظَارَ الْحُبُّ رَدَّ الرُّسُولِ
 وقريب منه قول الآخر :

إِشْرَبَ عَلَى طِيبِ الزَّمَانِ فَقَدْ حَدَا * بِالصَّيْفِ لِلنَّدْمَانِ أَطِيبُ حَادٍ
 وَأَشْمَنَّا بِاللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ * فَأَرْتَا حَتِ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَجْسَادِ
 وَافَاكَ بِالْأَنْدَاءِ قُدَامَ الْحَيَا * فَلَا أَرْضُ لِلْأَمْطَارِ فِي أَسْتِعْدَادِ
 كَمْ فِي صَمَائِرِ تَرْبِيهَا مِنْ رَوْضَةٍ * بِمَسِيلِ مَاءٍ أَوْ قَرَارَةٍ وَادٍ
 تَبَدُّوْا إِذَا جَاءَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ * فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِيعَادِ
 ومما يقرب منه قول جحظة البرمكي :

لَا تَصْنَعِ لِلْوَمِ إِنْ اللَّوَمَ تَضْلِيلُ * وَأَشْرَبَ فَنِي الشَّرْبِ لِلْأَحْزَانِ تَحْلِيلُ
 فَقَدْ مَضَى الْقَيْظُ وَاجْتَنَّتْ رَوَاحِلُهُ * وَطَابَتْ الرِّيحُ لِمَا آلَ أَيْلُولُ
 وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ بَيْتٌ يَشْتَكِي مَرَّهَا * إِلَّا وَنَظَرُهُ بِالطَّلِّ مَكْهُوْلُ
 وبالعقود بعضهم فسوى بينه وبين فصل الربيع فقال في ضمن تهنية لبعض إخوانه :
 هُنَيْتَ إِقْبَالَ الْحَرِيرِ * وَفُزْتَ بِالْوَجْهِ الْوَضَّ

تَمَّ أَعْدَاً فِي الْكَمَا * لَجَاءَ فِي خَلْقِ سَوَى
فَكَى الرَّيِّعَ بِحُسْنِهِ * وَنَسِيمَ رِيَّاهُ الدَّكَى
وَيُنُوبُ وَرَدَ الرَّعْفَرَا * نِ لَهُ عَنِ الْوَرْدِ الْحَسَى

وأبلغ منه قول الآخر، يفضله على فصل الربيع الذى هو سيد الفصول ورئيسها :

مَحَاسِنُ لِلْخَرِيفِ لَهْنُ فَخْرُ * عَلَى زَمَنِ الرَّيِّعِ وَأَى فَخْرُ
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدِ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وَعَقِيبَ حَرِّ

ومع ذلك فالأطباء تذمه لاستيلاء المِزَّةِ السَّودَاءِ فيه، ويقولون إنَّهواءه ردىء

متى تشبَّثَ بِالْجِسْمِ لَا يُمْكِنُ تَلَافِيهِ ؛ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

حَذْفِ التَّدَثُّرِ فِي الْخَرِيفِ فَإِنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ وَنَسِيمُهُ خَطَافُ
يَجْرَى مَعَ الْأَيَّامِ جَرَى زَمَاقِهَا * لَصَدِيقِهَا وَمِنَ الصَّدِيقِ يُخَافُ

الرابع - فصل الشتاء : وهو أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف من يوم، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى ؛ وذلك فى الثامن عشر من كيهك وإذًا يبق من كانون الأول ثمانية أيام ؛ وآخره إذا أتت الشمس على آخر درجة من الحوت فيكون له من البروج الجدى والدلو والحوت ؛ وهذه البروج تدل على السكون ؛ والطالع فيه مع الفجر سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعد ، وسعد الأخية ، والفرغ المقدم والفرغ المؤخر ؛ والرشاء . فيه تهب رياح الدبور ؛ وهو بارد رطب . فيه يهيج البلغم ، وتضعف قوى الأبدان . له من السن الشيخوخة ومن القوى البدنية القوة الدافعة ؛ وفيه يشتد البرد ، ويحش الحواء ، ويتساقط ورق الشجر ، وتبحر الحيات ، وتكثر الأنواء ، ويظلم الجو وتصير الأرض كأنها عجوز هزومة ، قد دنا منها الموت . وله من الكواكب المشتري وعطارد . ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة . ويقال إذا حلت الشمس الجدى مد الشتاء رواقه ، وحل نطاقه ؛ ودبت

عقاربُ البردِ لاسِبه ، ونفعُ مُدَنِّرِ الكسبِ كاسِبه . وللبلغاءِ في وصفِ حالِ من
أظله ، ملحٌ تدفعُ عنِ المقرورِ متى استعدَّ بها طَلَهٌ ووبله .

فمن ذلك قول بعضهم يصفُ شدَّةَ البردِ : ”بردٌ يغيِّرُ الألوانَ ، وينشِّفُ الأبدانَ ؛
ويجمِّدُ الريقَ في الأشداقِ ، والدَّمعُ في الآماقِ ؛ بردٌ حالٌ بينِ الكلبِ وهريه ،
والأسدِ وزئيره ؛ والطيرِ وصفيهِه ، والماءِ ونحريهِه “ .

ومن كلامِ الفاضلِ : ”في ليلةٍ جَمَدَ نحرُها ، ومَحَدَ جحرُها ؛ إلى يومٍ تَوَدَّ البَصَلَةُ لو
أزدادت قُصْصاً إلى قُصْصِها ، والشمسُ لو جَرَّتْ النارَ إلى قُرْصِها ؛ أخذه بعضهم فقال :

ويومنا أرياحُهُ قَرَّةٌ * تَحْمِشُ الأبدانَ من قُرْصِها

يومٌ تَوَدُّ الشمسُ من بَرْدِهِ * لو جَرَّتْ النارَ إلى قُرْصِها

ولابنِ حكيمنا البغداديّ :

الْبَسَ إِذَا قَدِمَ الشِّتَاءُ بَرُوداً * وَأَفْرَشَ عَلَى رَغَمِ الحَصِيرِ لُبُوداً

الرَّيْقُ فِي اللِّهَوَاتِ أَصْبَحَ جامِداً * والدَّمْعُ فِي الآماقِ صارَ بَرُوداً

وإذا رَمِيتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الهَوَا * عَادَتْ إِلَيْكَ مِنَ العَقِيقِ عُقُوداً

وترى عَلَى بَرْدِ المِياهِ طُيُورَهَا * تَخْتَارُ حَرَّ النارِ والسَّفُوداً

يا صاحِبَ العُودَيْنِ لا تُهْمِلُهُما * حَرِّقْ لَنَا عُوداً وَحَرِّكْ عُوداً

ولبعضهم :

شِتَاءٌ تَقْلِصُ الأشداقُ مِنْهُ * وَبَرْدٌ يَجْعَلُ الشَّبَانَ شِيباً

وَأَرْضٌ تَزَلُّقُ الأقدامُ فِيهَا * فَاتَمَنَّى بِهَا إِلَّا دَبِيباً

ومن كلامِ الزمخشري :

أَقْبَلَتْ يَأْبَرِدُ بِبَرْدٍ أَجْرَدِ * تَفْعَلُ بِالْأَوْجِهَةِ فَعْلَ الْمِرْدِ

أُظِلَّ فِي الْبَيْتِ كِمِثْلِ الْمُقْعَدِ * مُتَقِضًا تَحْتَ الْكِسَاءِ الْأَسْوَدِ
لَوْ قِيلَ لِي أَنْتَ أَمِيرُ الْبَلَدِ * فَهَاتِ لِلْبَيْعَةِ كَفًّا يُعْقَدِ

ومن كلام أبي عبد الله بن أبي الحِصَال ، يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ
قد صافَحَ خيشومُهُ ذَنْبَهُ ، وأنكَرَ الْبَيْتَ وَطَنِيَّةً ، والتوى التَّوَاءَ الْجُبَابَ ، وأستدار
استِدَارَةَ الْجُبَابِ ، وجَلَدَهُ الْجَلِيدَ ، وضربه الضَّرِبَ ، وصعدَ أنفاسَهُ الصَّعِيدَ ، فحمَاهُ
مُبَاحٌ ، ولا هَرِيرٌ وَلَا نُبَاحٌ .

ومن شعر الحماسة في وصف ليلة شديدة البرد :

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ أُنْدَائِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يُلَفَّ عَلَى خَيْشُومِهِ الذَّنْبَا
وَلَأَبَى الْقَاسِمُ التَّنَوُّحَى :

وَلَيْلَةٌ تَرَكَ الْبَرْدُ الْبِلَادَ بِهَا * كَالْقَلْبِ أَسْعَرَ نَارًا فَهُوَ مَثْلُوجُ
فَإِنْ بَسَطْتَ يَدًا لَمْ تَبْسُطْ خَصْرًا * وَإِنْ ثَقُلَ فَيَقُولُ فِيهِ تَشْيِجُ
فَنَحْنُ مِنْهُ وَلَمْ نُحْرَسْ ذُووُ خَرَسٍ * وَنَحْنُ فِيهِ وَلَمْ نُفْلَجْ مَقَالِجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثير الضباب :

يَوْمٌ مِنَ الزَّمْهِيرِ مَقْرُورٌ * عَلَيْهِ جَيْبُ السَّحَابِ مَزْرُورٌ
وَسَمْسُهُ حَرَّةٌ مُحْدَرَةٌ * لَيْسَ لَهَا مِنْ ضَبَابِهِ نُورٌ
كَأَنَّ الْجَوْ حَشَوْهُ إِبْرًا * وَالْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوَارِيرُ

وحكى أن أعرابياً أشتد به البرد فأضاءت ناراً فدنا منها ليصطلي ، وهو يقول :

اللهم لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة ! . أخذه بعضهم فقال وهو في غاية المبالغة :

أَيَارَبِّ إِنْ الْبَرْدَ أَصْبَحَ كَالْحَيَا * وَأَنْتَ بِحَالِي عَالِمٌ لَا تُعَلِّمُ
فَإِنْ كُنْتُ يَوْمًا مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ * فَقِي مِثْلَ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمُ

وقد آغتنى الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تَغَيَّبُ فيه
الهوامُ وتَجَحَّر الحشرات، ويموت الذباب، ويهلك البعوض، ويبرد الماء، ويسخن
الجوف، ويطيب العناق، ويظهر الفرش، ويكثر الدخن، وتلد جمر البيت .
وتابعه بعض الشعراء فقال :

تَرَكْتُ مَقْدَمَهُ الْخَرِيفَ حَمِيدَهُ * وَبَدَأَ الشِّتَاءُ جَدِيدَهُ لَا يُنْكِرُ
مَطَرُ يَرْوِقُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ * صَوٌّ يَكَادُ مِنَ الْغَضَارَةِ يَمُطِرُ
غَيْثَانِ : وَالْأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظَاهِرٌ * لَكَ وَجْهُهُ وَالصَّحْوُ غَيْثٌ مُضْمَرٌ
وقال أبو الفتح كشاجم :

أَذِنَ الشِّتَاءُ بِلَهْوِهِ الْمُسْتَقْبَلَ * فَدَنَتْ أَوَائِلُهُ بَغِيثٍ مُسْبَلٍ
مُتَكَثِفِ الْأَنْوَاءِ مُنْغِدِقِ الْحَيَا * هَطِلَ النَّدَى هَزِجَ الرُّعُودِ يُجْلِبِلُ
جَاءَتْ بَعَزَلُ الْجَذْبِ فِيهِ فَبَشَّرَتْ * بِالْخِصْبِ أَنْوَاءُ السَّمَاءِ الْأَعْمَلِ
وقد ولىع الناس بذكر الاعتداد لها قديما وحديثا .

قيل لأعرابي ما أعددت للبرد ؟ فقال طُولُ الرَّعْدِ، وَتَقَرُّصُ الْقَعْدِ، وَذَوْبُ
الْمَعْدِ . أخذه ابن سكرة، فقال :

قِيلَ مَا أَعْدَدْتَ لِلْبَرِّ * دِ وَقَدْ جَاءَ بِشِدَّةِ
قُلْتُ دُرَاعَةٌ عُرِّي * تَحْتَهَا جُبَّةٌ رَعْدَهِ

واعلم أن ما تقدم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطلح المعروف ، والطريق
المشهور . وقد ذكر الأبي في كتاب الدر أن العرب قَسَمَتِ السَّنَةَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءَ فَعْمَلُوا
الجزء الأول الصَّفْرِيَّةَ، وسمَّوْا مطره الوَسْمِيَّ، وأوله عندهم سُقُوطُ عَرْقُوةِ الدَّلْوِ
السُّفْلَى، وَآخِرُهُ سُقُوطُ الْحَقَّةِ، وجعلوا الجزء الثاني الشتاء، وأوله سُقُوطُ الْمُنْعَةِ،

وآخره سقوطُ الصَّرْفَةِ . وجعلوا الجزء الثالث الصيف ، وأوله سقوطُ العَوَاءِ ، وآخره سقوطُ الشَّوْلَةِ . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظُ ، وسَمَوْا مطَرَه الخَرِيفَ ، وأوله سقوطُ النَّعَامِ ، وآخره سقوطُ عَمْرِقُوه الدَّلُو العُلْيَا .

وذكر ابن قتيبة في "أدب الكاتب" طريقا آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء، ويأتى فيه الورد والكَّجَّةُ، والنَّورُ؛ ولا يعرفون الربيع غيره . والعرب تختلف في ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تُدْرِكُ فيه الثَّمَارُ، وهو الخريف ، وبعده فصلُ الشتاء ، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذي تسميه العامة الربيع ؛ ثم فصلُ القَيْظِ : وهو الذي تسميه العامة الصيفَ ، ومنهم من يسمي الفصل الذي تُدْرِكُ فيه الثَّمَارُ : وهو الخريف الربيع الأول، ويسمى الفصل الذي يلي الشتاء وتأتى فيه الكَّجَّةُ والنَّورُ الربيعَ الثاني ؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع" .

وفى بعض التعليقات أن من العرب من جعل السنة ستة أزمان . الأول الوَسْمَى وحِصَّتُهُ من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثُلثًا منزلة : وهى العَوَاءُ ، والسَّمَكُ والغَفَرُ ، والزُّبَانانِ ، وثُلثًا الإكليل . الثانى الشتاء، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثُلثًا منزلة : وهى ثُلثُ الإكليل ، والقلبُ ، والشَّوْلَةُ ، والنَّعَامُ ، والبلدة ، وثُلثُ الذَّابِحِ . الثالث الربيع ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثُلثًا منزلة ، وهى ثُلثُ الذَّابِحِ ، وِبلَعُ ، والسَّعُودُ ، والأخْيِيَّةُ ، والفرغ المقدم . الرابع الصيف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثُلثًا منزلة ، وهى الفرغ المؤخر ، وبطن الجوت ، والشرطان ، والبطين ، وثُلثُ الثَّريَّا . الخامس الحميم ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثُلثًا منزلة : وهى ثُلثُ الثَّريَّا ، والدَّبْرَانُ ، والحقعة ، والهنعة ، والذَّرَاعُ وثُلثُ النثرة . السادس

الحريف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثاً منزلة : وهي ،
ثلاثا النثرة ، والطرف ، والجبهة ، والخرتان ، والصرفة .

والأوائل من علماء الطب يقسّمون السنة إلى الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون
الشتاء والصيف أطول زماناً وأزيد مدّة من الربيع والحريف ، فيجعلون الشتاء
أربعة أشهر ، والصيف أربعة أشهر ، والربيع شهرين ، والحريف شهرين ، إذ كانا
متوسطين بين الحر والبرد وليس في مدتهما طول ولا في زمانهما اتساع .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا تَقْدِّمُ مِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْفُصُولِ عَلَى بَعْضٍ إِنَّمَا هُوَ أَقْوِيلُ الشُّعْرَاءِ
وَأَفَانِينُ الْأَدْبَاءِ ، تَفَنُّنًا فِي الْبَلَاغَةِ ، وَالْأَفَالُوَاضِ حَكِيمٍ جَعَلَ هَذِهِ الْفُصُولَ مُشْتَمِلَةً عَلَى
الْحَرِّ تَارَةً وَعَلَى الْبَرْدِ أُخْرَى لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ ، وَرَتَبَهَا تَرْتِيبًا خَاصًّا عَلَى التَّدْرِيجِ ، يَفْهَمُ ذَلِكَ
أَهْلُ الْعُقُولِ وَأَرْبَابُ الْحِكْمَةِ ، جَلَّتْ صَنْعَتُهُ أَنْ تَكُونَ عَرِيَّةً عَنِ الْحِكْمَةِ أَوْ مَوْضُوعَةً
فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ
ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ :

الطرف الرابع

(في أعياد الأمم ومواسمها : وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في أعياد المسلمين)

واعلم أَن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنّة عيدان : عيدُ الفطر ،
وعيدُ الأضحى ، والسبب في اتّخاذهما مارواه أبو داود في سنّته عن أنس بن مالك
رضي الله عنه " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلِأَهْلِهَا يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ
فِيهِمَا ، فَقَالَ : مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ ؟ فَقَالُوا كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد بدلكم خيراً منهما يوم الأضحي، ويوم الفطر، فأول ما يبدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة . وروى ابن بطيش في كتاب الأوائل أن أول عيد ضحى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين من الهجرة وخرج إلى المصلى للصلاة، وحينئذ فيكون العيدان قد شرعا في سنة واحدة؛ نعم قد أبدعت الشيعة عيداً ثالثاً وسموه عيد الغدير . وسبب اتخاذهم له مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم لعلّ بكرم الله وجهه يوم غدير خم : وهو غدير على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق تصب فيه عين وحوله شجر كثير، وهي الغيبة التي تسمى نحاً . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع نزل بالغدير وأتى بين الصحابة ولم يؤاخ بين علي وبين أحدٍ منهم فرأى النبي صلى الله عليه وسلم منه أنكساراً فضمه إليه وقال "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي والتفت إلى أصحابه وقال من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه"، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة . والشيعة يُحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال وشعارهم فيه لبس الحديد، وعتق العبيد، وذبح الأغنام، وإلحاق الأجانب بالأهل في الإكرام . والشعراء والمترسلون يهتئون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

(في أعياد الفرس)

وكان دينهم المجوسية، وأعيادهم كثيرة جداً حتى إن علي بن حمزة الأصبهاني عمل فيها كتاباً ذكر فيه أسباب اتخاذهم لها، وسبب سلوكهم فيها، وقد اقتصرنا منها على المشهور الذي ولع الشعراء بذكره، واعتنى الأُمراء بأمره، وهي سبعة أعياد .

العيد الأول النَّيروز - وهو تعريب نُوروز ، ويقال إن أوَّل من آتخذه جم شاد أحد ملوك الطبقة الثانية من الفُرس ومعنى شاد الشَّعاع والضياء . وإن سبب آتخاذهم لهذا اليوم عيداً أن الدِّين كان قد فسد قبله ، فلما ملك جدُّه وأظهره ، فسَمَّى اليوم الذي ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد . وفى بعض التعاليق أن جم شاد ملك الأقاليم السبعة والحق والإنس ، فآتخذه له عَجَلَةً رَكبها ، وكان أوَّل يوم ركبها فيه أوَّل يوم من شهر افرودين ماه ، وكان مدَّة ملكه لا يُريهم وجهه ، فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجمال وافراً ، ففعلوا يوم رؤيتهم له عيداً ، وسَمَّوه نوروزاً . ومن الفرس من يزعم أنه اليوم الذى خلق الله فيه النُّور ، وأنه كان معظماً قبل جم شاد . وبعضهم يزعم أنه أوَّل الزمان الذى آبتدأ الفلك فيه بالدوران . ومدته عندهم ستة أيام أوَّلها اليوم الأوَّل من شهر افرودين ماه الذى هو أوَّل شهر ستهم . ويسمُّون اليوم السادس النُّوروز الكبير ، لأن الأكَسرة كانوا يقضُّون فى الأيام الخمسة حوائج الناس على طبقاتهم ، ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع ظُرفاء خواصهم .

وحكى ابن المقفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتى الملك رجل من الليل قد أرصد لما يفعله ، مليح الوجه ، فيقف على الباب حتى يُصيح ، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ، ويقف حيث يراه ، فيقول له : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما أسمك ؟ ولأى شىء وردت ؟ ومامعك ؟ فيقول : أنا المنصور ! وأسمى المبارك ! ومن قبل الله أقبلت ! والملك السعيد أردت ! وبالهناء والسلامة وردت ! ومعى السَّنة الجديدة ! ثم يجلس ، ويدخل بعده رجل معه طبق من فِضة وعليه حنطة ، وشعير ، وجلبان ، وحمص ، وسَمسم ، وأرز : من كل واحد سبع سنبلات ، وسبع حبات ، وقطعة سكر ، ودينار ودرهم جديدان ، فيضع الطبق بين

يدى المَلِك ، ثم تُدْخَل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخراج ، ثم صاحب المعونة ، ثم الناس على طبقاتهم ؛ ثم يُقدَّم للملك رغيف كبير من تلك الجيوب مصنوعٌ موضوعٌ في سَلَّة ، فيأكل منه ويُطعم من حضره ؛ ثم يقول : هذا يومٌ جديدٌ ، من شهر جديد ، من عام جديد ، يحتاج أن يُجَدِّد فيه ما أخلَق من الزَّمان ؛ وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس : لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه دولته ، ويصلهم ، ويفرق عليهم ما وصل إليه من الهدايا .

وأما عوامُ الفرس فكانت عاداتهم فيه رفع النار في ليلته ، ورش الماء في صبيحته ؛ ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء . ويقال إنما فعلوا ذلك تنويعاً بذكره ، وإشهاراً لأمره . وقالوا في رش الماء : إنما هو بمنزلة الشهرة لتطهير الأبدان مما أنضاف إليها من دُخان النار الموقدة في ليلته .

وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فيروز بن يزدجرد لما آستم سورجى ، وهى أصهبان القديمة لم تمطر سبع سنين في ملكه ؛ ثم مطرت في هذا اليوم ففرح الناس بالمطر وصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به ، فصار ذلك سنة عندهم في ذلك اليوم من كل عام ، وما أحل قول بعضهم يخاطب من يهواه ، ويذكر ما يعتمد في التيروز من شب النيران وصب الأمواه :

كَيْفَ آتَيْتَ بِهَا جُكَّ التَّيْرُوزِ يَا سَكْنِي * وَكُلُّ مَا فِيهِ يَحْكِيْنِي وَأَحْكِي

فَنَارَةُ كُلِّهِيبِ النَّارِ فِي كِبْدِي * وَتَارَةُ كِتَوَالِي عَابِرِي فِيهِ

أَسْلَمْتَنِي فِيهِ يَا سُوْلِي إِلَى وَصْبٍ * فَكَيْفَ تُهْدِي إِلَى مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ

وأول من رسم هدايا التيروز والمهرجان في الإسلام الحاجُّ بن يوسف النخعي ، ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، واستمر المنع فيه إلى أن فتح باب

الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب فإنه أهدى فيه للأمون سَفَطَ ذهب فيه قطعة عود هندی في طوله وعرضه، وكتب معه : هذا يوم جرت فيه العادة، بإتحاف العبيد السادة، وقد قلت :

عَلَى الْعَبْدِ حَقٌّ وَهُوَ لَا شَكَّ فَاعِلُهُ * وَإِنْ عَظُمَ الْمَوْلَى وَجَلَّتْ فَوَاضِلُهُ
أَلَمْ تَرَنَا نُهْدِي إِلَى اللَّهِ مَالَهُ * وَإِنْ كَانَ عَنْهُ ذَاغِيٌّ فَهُوَ قَابِلُهُ
فَلَوْ كَانَ يُهْدَى لِلْجَلِيلِ بِقَدْرِهِ * لَقَصَّرَ عَنْهُ الْبَحْرُ يَوْمًا وَسَاحِلُهُ
وَلَكِنَّا نُهْدِي إِلَى مَنْ يُجِلُّهُ * وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِنَا مَا يُشَاكِلُهُ

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يوم نيروز: هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الإهداء للملوك، فتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة، ولم أجد فيما أملك ما يفي بحققك، ووجدت تهريظك أبلغ في أداء ما يجب لك، ومن لم يؤت في هديته، إلا من جهة قدرته، فلا طعن عليه .

هذا ما يتعلق بنيروز الفرس من ذكر الهدايا فيه، وإيقاد النار، ورش الماء، وأول من سنه . وأما تعلقه بالخراج فسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند الكلام على جباية الخراج في فن الديونة .

العيد الثاني من أعياد الفرس المهرجَانُ - وهو في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السريان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس، وفي التاسع من أبيب من شهور القبط، وبينه وبين النيروز مائة وسبعة وستون يومًا، وهذا الأوان في وسط زمان الخريف، وفي ذلك يقول الشاعر :

أَحَبُّ الْمَهْرَجَانِ : لِأَنَّ فِيهِ * سُرُورًا لِلْمُلُوكِ دَوَى السَّاءِ
وَبَابًا لِلْخَيْرِ إِلَى أَوَانٍ * تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

ومدته ستة أيام، ويُسمى اليوم السادس منه المهرجان الاكبر، كما يُسمى اليوم السادس من أيام التّيزوز عندهم التّيزوز الاكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يُسمّون شُهورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يُسمى مَهْر، يسير فيهم بالعنف والعسف، فمات في النصف من هذا الشهر، وهو مَهْرماه، فسمّى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهبته، والفُرس تقدّم في لغتها ما تؤخره العرب في كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولى . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حِفَاط وجان الروح، وفى ذلك يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إِذَا مَا تَحَقَّقَ بِالْمَهْرَجَا * نِ مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُ مَعْنَاهُ غَاظَا

وَمَعْنَاهُ أَنْ غَلَبَ الْفُرسُ فِيهِ * فَسَمَّوْهُ لِلرُّوحِ فِيهِ حِفَاطَا

ويقال إنما ظهر فى عهد افريدون الملك، ومعنى هذا الاسم إدراك الثأر، وذلك أن افريدون أخذ بثار جدّه جم شاد من الضحّاك، فانه كان أفسد دين الجوسية وخرج على جم شاد فأخذ منه الملك وقتله، فلما غلبه افريدون قتله بجبل دُنباوند، وأعاد الجوسية إلى ما كانت، فاتّخذ الفُرس يوم قتله عيداً، وسمّوه مَهْرَجَان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء،

وزعم بعضُ الفُرس أن الضحّاك هو الثرؤد وافرديون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المهرجان هو اليوم الذى عُقد فيه التاج على رأس اردشير بن بابك، أول ملوك الفُرس الساسانية . وكان مذهب الفرس فى المهرجان أن يذبح ملكهم بذهن البان تبرّكا، وكذلك العوام، وأن يلبس القصب والوشى، ويتّوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها، ويكون أول من يدخل إليه المُوبدان بطبق فيه

أُتْرَجَةٌ ، وَقِطْعَةٌ سُكَّرٌ ، وَنَبَقٌ ، وَسَفَرَجَلٌ ، وَعَنْابٌ ، وَتَفَّاحٌ ، وَعَنْقُودٌ أبيضٌ ،
وسبع طاقَاتٍ آيسٍ ، قد زَمَزَمَ عليها ؛ ثم تدخُلُ الناسُ على طبقاتهم بمثل ذلك ، وربما
كانوا يذهبون إلى تفضيله على التَّيْرُوزِ ، وفيه يقول عبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر :

أَخَا الْفُرْسِ إِنْ الْفُرسَ تَعَلَّمُ إِنَّهُ * لَا طَيْبَ مِنْ نِيروزِهَا مَهْرَجَانِهَا
لِإِدْبَارِ أَيَّامٍ يُغْمُّ هَوَاوُهَا * وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ يَسُرُّ زَمَانِهَا

قال المسعودي : وأهل المُرُوءات بالعراق وغيرها من مُدُن العجم يجعلون هذا
اليوم أوَّلَ يومٍ من الشتاء فيغيرون فيه الفُرسَ والآلاتِ ، ويكثيرون من اللباسِ .

العيد الثالث السَّدَقُ - ويسمى أبان روز ، ويعمل في ليلة الحادى عشر من شهر
بهمن ماه من شهور الفُرس ، وسُنَّتُهُمْ فيه إيقاد النيران بسائر الأدهان والولُوع بها حتى
إنهم يُلقون فيها سائر الحُبوب ؛ ويقال إن سبب اتخاذهُم لهذا العيد أن الأب الأول ،
وهو عندهم كيومرْت لما كمل له من ولده مائة ولد زوج الذكور بالإناث ، وصنع لهم
عُرْساً أكثر فيه وقود النيران ، ووافق ذلك الليلة المذكورة فاستسَنَّتْ ذلك الفُرسُ
بعده . وقد وليت الشعراء بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرُز يصف سَدَقاً

عمله السلطان ملكشاه بدجلة ، أشعل فيه النيران والشموع في السَّمَارِيَّاتِ من أبيات :^(١)

وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الْعُشَّاقِ مُضَرَمَةٌ * مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ
نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الظُّلُمَاءُ وَأَشْتَبَهَتْ * بِمُذْفَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَقِ
وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا الْبَدْرَ وَأَصْطَاحَا * عَلَى الْكَوَكِبِ بَعْدَ الْغَيْظِ وَالْحَقِ
مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطَانِ جَوَاهِرِهَا * مَا يَبِينُ مُجْتَمِعٍ وَإِمْفَتَرِقِ
مِثْلَ الْمَصَابِيحِ إِلَّا أَنَّهَا تَزَلَّتْ * مِنَ السَّمَاءِ بِلَا رَجْمٍ وَلَا حَرَقِ
أَعْجَبَ بِنَارٍ وَرِضْوَانٍ يَسْعَرُهَا * وَمَالِكٌ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرَقِ
فِي مَجْلِسٍ صَحَّكَ رَوْضُ الْحَنَانِ لَهُ * لِمَا جَلَّ ثَغْرُهُ عَنْ وَاضِحِ يَقِ

(١) كذا في نهاية الأرب أيضا والظاهر السَمِيرِيَّاتِ وهو اسم لنوع من السفن .

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عضد الدولة :
 لَيْلَتُنَا حُسْنُهَا عَجِيبٌ * بِالْقَصْفِ وَالتَّيِّهِ قَدْ تَحَقَّقَ
 لِنَارِهَا فِي السَّمَاءِ لِسَانٌ * عَنْ نُورِ ضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقُ
 وَالْجَوْثُ مِنْهَا قَدْ صَارَ جَمْرًا * وَالنَّجْمُ مِنْهَا قَدْ كَادَ يُحْرِقُ
 وَدِجَلَةُ أَضْرِمَتْ حَرِيقًا * بِأَلْفِ نَارٍ وَأَلْفِ زَوْرِقِ
 فَمَا وَهَّاءُ كَلْبُهُ حَمِيمٌ * قَدْ فَارَ بِمَا عَلَى وَبَقِيَ

وقال عبد العزيز بن نباتة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَذْكَى الْهَمَامُ بَارِضِهِ * مُشَهَّرَةً يَنْتَابُهَا الْفَخْرُ صَالِيًا
 تَغِيبُ النُّجُومُ الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِهَا * وَتَحْسُدُ أَيَّامُ الشُّهُورِ اللَّيَالِيَا
 قِلَادَةُ مَجْدٍ أَغْفَلَ الدَّهْرُ نَظْمَهَا ^(١) * عَلَيْهِ وَقَدْ السَّيْنِ الْخَوَالِيَا
 هِيَ اللَّيْلَةُ الْغَرَاءُ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ * تُغَادِرُ جَيْدَ الدَّهْرِ أَبْلَجَ حَالِيَا

العيد الرابع الشركان - وهو في الثالث عشر من تيرماه من شهور الفُرس ، زعموا
 أن أرس رمى سهمه لما وقعت المصالحة بين منوچهر وقراسياب التركي من المملكة
 على رمية سهم ، فأمتد السهم من جبال طبرستان إلى أعلى طخارستان .

العيد الخامس أيام الفردجان - وهي خمسة أيام ، أولها السادس والعشرون من
 أبان ماه من شهور الفُرس ، ومعناه تربية الروح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمة
 وأشربة لأرواح موتاهم ، ويزعمون أنها تغتذى بها .

العيد السادس ركوب الكوبج - ويعمل في أول يوم من ادرماه من شهور
 الفُرس ، وسنتهم فيه أن يركب في كل بلد من بلادهم رجل كوبج ، قد أعد لما يُصنع

(١) كذا في الاصل : ولعله وقد بدأ الخ

به بأكل الأطعمة الحارة كالخوز، والثوم، واللحم السمين ونحوها، وبشرب الشراب
الصّرف أيّما قبل حلول الشهر، فإذا حلّ الشهر لبس غلالة سابورية، وركب بقرة
وأخذ على يده غرابا، ويتبعه الناس يصبون عليه الماء، ويضربونه بالثلج، ويروحون
عليه بالمرّاح، وهو يصيح بالفارسية كرم كرم أى الحرّ الحرّ، يفعل ذلك سبعة أيام،
ومعه أوباش الناس ينهون ما يجذون من الأمتعة فى الحوانيت، وللسلطان عليهم
مال، فإذا وجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا .

قال المسعودى : ولا يُعرف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم، وأهل الشام
والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك . ويقال إن هذا الفعل كان يتداوله أهل
كل بيت منهم كوسج، وحكى الزمخشري فى كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك
أن كوسجا كان يشرب فى هذه الأيام الدواء، ويطلى بدنه فيها فغلب عليها، وفى ذلك
يقول الشاعر :

قَدْ رَكِبَ الْكُوسَجُ يَصَاحُ * فَانْزِلْ عَلَى الزَّهْرَةِ وَالرَّاحِ

وَأَنْعَمْ بِأَدْرَمَاهُ عَيْشًا وَخُذْ * مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ بِأَفْيَاحِ

والسنة عندهم منقسمة على أقسام، فى أول كل قسم منها خمسة أيام تسمى
الكنبهارات، زعم زرادشت أن فى كل يوم خلق الله تعالى نوعا من الخليفة فهم
يتخذونها أعيادا لذلك .

العيد السابع عيد بهمنجة - ويتخذونه فى يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وسنتهم
فيه أنهم يأكلون فيه البهمن الأبيض باللبن الحامض على أنه ينفع الحفظ، ورؤساء
نُراسان يعملون فيه الدّعوات على طعام يطبخون فيه كلّ حبّ ما كُولٍ ولحم حيوانٍ
يؤكل، ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .

فهذه أعياد الفُرس المشهورة الدائرة بين عاقمتهم وخاصتهم .

الجملة الثالثة

(في أعياد القبط)

وأعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا على ذكر تفصيلها سردا في خلال شهور القبط مع ذكر غيرها، وأوردنا كل عيد منها في يومه من شهور القبط، وربما ذكرنا بعضها أيضا في شهور السريان والروم، على أن منها مالا يتعلق بوقت مقيد كالفتح الأكبر عندهم، فإنه متعلق بفطرهم من صومهم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقت معين، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا على ما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى، ونحن تقتصر في هذا الفصل على المشهور من أعيادهم دون غيره، ونبين أوقاتها، ونشرح أسبابها. وهى أربعة عشر عيداً. وهى على ضربين: كبار وصغار.

الضرب الأول

(الكبار: وهى سبعة)

العيد الأول البشارة، ويعنون به بشارة غبريال، (وهو جبريل على زعمهم) لمريم عليها السلام بميلاد عيسى صلوات الله عليه، يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهور القبط.

الثانى الزيتونة، وهو عيد الشعانين، وتفسيره بالعريّة التّسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم. وستّم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور، (وهو الحمار) فى القدّس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

الثالث الفصح، وهو العيد الكبير عندهم، يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر، يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلوات بثلاثة أيام، وخَلَص آدم من

الجحيم ، وأقام في الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ، ثم صعد إلى السماء .
قاتلهم الله أنى يؤفكون .

الرابع خميس الأربعين ، ويسميه الشاميون السَّلاق : وهو الثاني والأربعون من
الفطر ، يقولون إن المسيح عليه السلام تساقى فيه من تلاميذه إلى السماء بعد القيام ،
ووعدهم بارسال الفارقليط ، وهو روح القدس عندهم .

الخامس عيد الخميس ، وهو عيد العنصرة يعملونه بعد خمسين يوما من القيام ؛
وهو في السادس والعشرين من بشنس ، ويقولون إن روح القدس حلت في التلاميذ
وتفرقت عليهم السنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة ، وذهب كل واحد منهم إلى بلاد
لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

السادس الميلاد ، وهو اليوم الذي يقولون إن المسيح ولد فيه بيت لحم (قرية من
أعمال فلسطين) ويعملونه في التاسع والعشرين من كيهك من شهور القبط ، وهم
يقولون إنه ولد يوم الاثنين ، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، فيوقدون فيها
المصابيح بالكثائس ويزينونها .

السابع الغطاس ، يعملونه في الحادى عشر من طوبه ، من شهور القبط . يقولون
إن يحيى بن زكريا عليه السلام وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام بمحيرة
الأردن ، وأن عيسى لما خرج من الماء أتصل به روح القدس على هيئة حمامة ،
والتنصاري يغمسون أولادهم فيه في الماء على أنه يقع في شدة البرد ، إلا أن عقبه
يحيى الوقت ، يقول المصريون : غطستم صيفتم ، ونورزتم شتيتم .

الضرب الثاني

(من أعياد القبط الأعياد الصغار . وهي سبعة أيام)

الأول الحِتَّان ، ويعملونه في سادس بثونة من شهور القبط . ويقولون : إن المسيح خُتِنَ في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثاني الأربعون ، يعملونه في الثامن من شهر أُمشير من شهور القبط ، ويقولون : إن سَمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوما من ميلاده الهَيْكَل وبارك عليه ؛ تلك عقول أضلَّها باريها ، وإلا فإين مَقَامُ الكاهن من مَقَام عيسى عليه السلام . وهو رُوح الله وكلمته .

الثالث خميس العهد ، يعملونه قبل الفِصح بثلاثة أيام ، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملئوه ماء ويزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريرك به أرجل جميع النصارى الحاضرين ، ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه في هذا اليوم يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض ، والعامة من النصارى يُسمون هذا الخميس خميس العَدَس ؛ وهم يطبخون فيه العَدَس على ألوان .

الرابع سَبْتُ النور ، وهو قبل الفِصح بيوم . يقولون : إن النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القمامة بالقدس . قال صاحب "مناهج الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخيلاتهم النيرنجية التي يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها عقول عوامهم الضعيفة . وذلك أنهم يعلّقون القناديل في بيت المذبح ويتخيّلون في إيصال النار إليها بأن يمدّوا على جميعها شريطا من حديد في غاية الدقة مدهونا بدهن البَلَسان ودهن الزنبق ، فإذا صلّوا وجاء وقت الزوال فتحوا المذبح فتدخل الناس إليه ، وقد أشعلت فيه الشموع ويتوصّل بعض القوم إلى أن يُعلّق

النار بطرف الشريط الحديد فتسرى عليه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دُهن البَاسَان عُلُوق النار فيه بُسرعة مع أدنى ملامسة ، فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل ، فالحمد لله على الإسلام .

الخامس حدّ الحدود ، وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، يعملونه أول أحد بعد الفطر : لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم ، وفيه يجتدون الآلات وأثاث البيوت ، ومنه يأخذون في الاستعداد للعاملات والأمور الدنيوية .

السادس التجلي ، يعملونه في الثالث عشر من مسرى من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِع في هذا اليوم ، وتمنّوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا وموسى عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد وصعدا .

السابع عيد الصليب ، وهو في السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارى يقولون : إن قُسْطَطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية وبنى كنيسة قُسْطَطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبرجان فضاق بهم ذرعا من كثرة غاراتهم على بلاده ، فهم أن يصانعهم ويفرض لهم عليه إتاوة في كل عام ليكفّوا عنه ، فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ، ومعها أعلام عليها صُلبان فخاربت البرجان فانهمزوا ، فلما أصبح عمل أعلاما وصور فيها صُلبانا ثم قاتل بها البرجان فهزمهم ، فسأل من كان في بلده من التجّار هل يعرفون فيما طافوه من البلاد دينا هذا زيّه ؟ فقالوا له دين النصرانية وإنه في بلد القدس والخليل من أرض الشام . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم إليه ، وأن يقصّوا شعورهم ويحلقوا لحاهم . وإنما فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البرجان جنس من الروم (قاموس) .

أَنْ رُسُلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا قَدْ وَرَدُوا عَلَى الْيُونَانِ قَبْلُ يَأْمُرُونَهُمْ بِالتَّعَبُّدِ بِدِينِ
النَّصْرَانِيَّةِ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَمَثَلُوا بِهِمْ هَذِهِ الْمُثَلَّةَ نَكَالًا لَهُمْ فَفَعَلُوا ذَلِكَ تَأْسِيًّا بِهِمْ .
وَلَمَّا تَنَصَّرَ قُسْطَنْطِينَ نَحَرَتْ أُمُّهُ هِيلَانِي إِلَى الشَّامِ فَبَنَتْ بِهِ الْكَائِسَ ، وَسَارَتْ
إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَطَلَبَتْ الْخَشَبَةَ الَّتِي زَعَمَتِ النَّصَارَى أَنَّ الْمَسِيحَ صَلَّبَ عَلَيْهَا
فَحُمِلَتْ إِلَيْهَا فَغَشَّتْهَا بِالذَّهَبِ ، وَاتَّخَذَتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا .

وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَفْصَلًا فِي تَرْجُمَةِ قُسْطَنْطِينَ فِي خَاتَمَةِ الْكِتَابِ عِنْدَ
ذِكْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ آسَتَوَلَّوْا عَلَى الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَفِيمَا ذَكَرْنَا هُنَا مَقْتَعٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَدْ صَارَ مِنْ أَعْيَادِهِمُ الْمَشْهُورَةِ بِالْدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ الْيَرُوزُ ، وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ
سَنَتِهِمْ ، وَإِنْ لَفْظَةُ الْيَرُوزِ فَارَسِيَّةٌ مَعْرَبَةٌ ، وَكَأَنَّ الْقَبْطَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اتَّخَذُوا ذَلِكَ عَلَى
طَرِيقَةِ الْفُرْسِ وَاسْتَعَارُوا اسْمَهُ مِنْهُمْ فَسَمَّوْا الْيَوْمَ الْأَوَّلَ مِنْ سَنَتِهِمْ أَيْضًا يَرُوزًا
وَجَعَلُوهُ عِيدًا .

قَالَ فِي "مَنَاجِ الْفِكْرِ" وَهُمْ يَظْهَرُونَ فِيهِ مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَلِإِقَادِ الْيَرَانِ ،
وَصَبَّ الْأُمُوهَ أَضْعَافَ مَا يَفْعَلُهُ الْفُرْسُ ، وَيُشَارِكُهُمْ فِيهِ الْعَوَامُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَأَهْلُ الشَّامِ يَعْمَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ سَنَتِهِمْ أَيْضًا ، وَهُوَ أَوَّلُ
يَوْمٍ مِنْ يَنِيْرِ مِنْ شَهْرِ الرُّومِ وَيُؤَافِقُهُ كَانُونُ الثَّانِي : وَهُوَ الشَّهْرُ الرَّابِعُ مِنْ شَهْرِ
السُّرْيَانِ ، وَذَلِكَ فِي السَّادِسِ مِنْ طُوبَةِ مِنْ شَهْرِ الْقَبْطِ ، وَيَسْمُوهُ الْقَلَنْدَاسَ ،
إِلَّا أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ يَزِيدُونَ فِيهِ التَّصَافُعَ بِالْأَنْطَاعِ ، وَرَبْمَا حَمَلُهُمْ تَرَكُّ الْأَحْتِشَامِ عَلَى
أَنْ يَتَجَرَّؤُوا عَلَى الرَّجْلِ الْمُطَاعِ ، وَلَوْلَا أَنَّ وُلَاةَ الْأُمَرِ يَدْعُوْنَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ،
لَمَنَعُوا الطَّرِيقَ مِنَ السَّالِكِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مَنْ ظَفَرُوا بِهِ لَا يَتْرَكُونَهُ إِلَّا بِمَا يُرْضِيهِمْ .
وَالَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ بِالْدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ إِلَى آخِرِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ أَنَّهُمْ

يقتصرون على رَشِّ الأُمُوَاه والتَّصَاغُ ، وتركِ الاحتشامِ دون إيقاد التيران ، إلا من يفعل ذلك من النصارى في بيته أو خاصَّته .

ولهم أعياد ومواسم سوى ما تقدَّم ، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط ، وهى :

عيد سيفورس ، وعيد متى الإنجيلي ، وهما في الثاني من توت . عيد سمعان الحنيس ؛ وهو في الرابع من توت . عيد ماما ؛ وهو في الخامس من توت . عيد شعيا ؛ وهو في السادس من توت . عيد ساويرس ؛ وهو في السابع من توت . عيد موسى النبي عليه السلام ؛ وهو في الثامن من توت . عيد توما التلميذ ؛ وهو في التاسع من توت . وخروج نوح عليه السلام من السفينة ، ومولد مريم عليها السلام ، وهما في العاشر من توت . عيد باسيلوس ، وهو في الحادى عشر من توت . عيد ميخائيل ، وصوم جدليا ؛ وهما في الثالث عشر من توت . عيد سمعان الحنيس ، وعيد تادرس الشهيد ؛ وهما في الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس ؛ وهو في السادس عشر من توت . وصوم كبور ؛ وهو في العشرين من توت . ونياحة أبى جرج ؛ وهى في الثانى والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس ؛ وهو في الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات ؛ وهو في السادس والعشرين من توت . عيد اسطاثوا ، وانتقال يوحنا ؛ وهما في السابع والعشرين من توت . عيد اجرويفون ؛ وهو فى أول بابه . عيد سوسنان ؛ وهو في الثانى من بابه . عيد يعقوب بن حلفا ؛ وهو في الخامس من بابه . عيد أبو بولا ؛ وهو في السابع من بابه . عيد توما ؛ وهو في الثامن من بابه . عيد أبى مسرجة ؛ وهو في العاشر من بابه . عيد يعقوب ؛ وهو في الحادى عشر من بابه . وشهادة متى ؛ وهى في الثانى عشر من بابه . عيد القُرَّات ؛ وهو في الثالث عشر من بابه .

وشهادة يوحنا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السيدة ؛ وهى فى الحادى والعشرين من بابه . عيد لوقا ؛ وهى فى الثانى والعشرين من بابه . عيد أبى جرج ؛ وهى فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل ؛ وهى فى الحادى والعشرين من بابه . عيد يعقوب ويوسف ؛ وهى فى السادس والعشرين من بابه . عيد أبى مقار ؛ وهى فى السابع والعشرين من بابه . عيد مرقص ؛ وهى فى آخر يوم من بابه . عيد بطرس البطرک ؛ وهى فى أول يوم من هاتور . عيد زكريا ؛ وهى فى الرابع من هاتور . واجتماع التلاميذ ؛ وهى فى السادس من هاتور . وتكريز أبى جرج ؛ وهى فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهى فى الثامن من هاتور . وتذكار الثلاثمائة وثمانية عشر ؛ وهى فى التاسع من هاتور . ونبأحة إسحاق ؛ وهى فى العاشر من هاتور . عيد ميكايل ؛ وهى فى الثانى عشر من هاتور . وشهادة أبى مينا ؛ وهى فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول ؛ وهى فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسياس ؛ وهى فى العشرين من هاتور . عيد شمعون ؛ وهى فى الحادى والعشرين من هاتور . تذكار الشهداء ؛ وهى فى الثانى والعشرين من هاتور . عيد مرقوريوس ؛ وهى فى الرابع والعشرين من هاتور . عيد أبى مقورة ؛ وهى فى الخامس والعشرين من هاتور . عيد ادفانيوس ؛ وهى فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المقطع ؛ وهى فى السابع والعشرين من هاتور . عيد ياهور ؛ وهى فى الثانى من كيهك . عيد اندراس ؛ وهى فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهى فى الخامس من كيهك . عيد بزياره ، وهى فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهى فى الثامن من كيهك . عيد مارى نقولا ؛ وهى فى العاشر من كيهك . عيد سمعان ؛ وهى فى الرابع عشر من كيهك . ونبأحة يوحنا ؛ وهى فى السادس عشر من كيهك ؛ وصوم الميلاد ؛ وهى فى الثالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو في الثالث من طوبه . عيد يوحنا
 الإنجيلي ؛ وهو في الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو في السابع من طوبه .
 عيد الختان ؛ وهو في الثامن من طوبه . عيد إبراهيم ؛ وهو في التاسع من طوبه .
 وصوم الغطاس ؛ وأوله العاشر من طوبه . وصوم العذاري ؛ وهو في الثالث عشر من
 طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو في الرابع عشر من طوبه . عيد غاريوس ؛ وهو
 في الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس ؛ وهو في السادس عشر من طوبه .
 عيد يوحنا ؛ وهو في التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل ، وتذكار السيدة ؛
 وهما في العشرين من طوبه . وصوم نينوى ؛ وهو في الحادي والعشرين من طوبه .
 ومقتل يحيى ؛ وهو في الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبي بشارة ؛ وهو في الخامس
 والعشرين من طوبه . عيد الشهداء ؛ وهو في السادس والعشرين من طوبه .
 عيد طيارس الرسول ؛ وهو في السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نياحة تقولا ؛
 وهو في اليوم الآخر من طوبه . عيد العذاري ، وعيد يهوذا ؛ وهما في الأول من
 أمشير . عيد مقار ؛ وهو في الثاني من أمشير . ونياحة تبادرس ؛ وهو في السادس
 من أمشير . ونياحة برصوما ، وهو في التاسع من أمشير . عيد بيطن ، وشهادة
 يعقوب ؛ وهما في العاشر من أمشير . عيد أبي مسرجة ؛ وهو في الرابع عشر من أمشير .
 عيد قلانوس ؛ وهو في السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو
 في السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد ؛ وهو في التاسع عشر من أمشير .
 ونزول السيدة من الجبل ؛ وهو في الحادي والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس ؛
 وهو في السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا ؛ وهو في اليوم الآخر من
 أمشير . عيد الجلبانة ؛ وهو في الثالث من شهر برمهاث . عيد أرماتوس ؛ وهو
 في السابع من برمهاث . عيد المعمودة ؛ وهو في التاسع من برمهاث . وظهور

الصليب ؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الحادى عشر من برمهات . عيد ميلانى ؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلباس الشهيد ؛ وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من برمهات . عيد العازر ؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛ وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة ؛ وهو فى الخامس والعشرين من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة الصليب ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلي ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرک ؛ وهو فى الثانى من برمودة . عيد حرقىال النجيب ؛ وهو فى الخامس من برمودة . عيد مرقص ؛ وهو فى السابع من برمودة . والأخذ بالحدید ؛ وهو فى الثامن من برمودة . عيد یوحنا الأسقف ؛ وهو فى الحادى عشر من برمودة . عيد جرجس ؛ وهو فى الثالث عشر من برمودة . عيد أبى متى ؛ وهو فى السادس عشر من برمودة . عيد یعقوب ؛ عيد سنوطه ، وهما فى التاسع عشر من برمودة . وذكراڤ الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من برمودة . عيد ساویرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من برمودة . عيد أبى نیطس ؛ وهو فى السابع والعشرين من برمودة . عيد أصحاب الکهف ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمودة . عيد مرقص الإنجيلي ، وهو فى اليوم الآخر من برمودة . عيد تیادرس ؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون ؛ وهو فى الثالث من بشنس . عيد الحندس ؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحة یعقوب ؛ وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوم ؛ وهو فى السادس من بشنس . عيد أساسیاس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من بشنس . عيد دیر القصیر ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السید

إلى مصر؛ وهو في الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس ؛ وهو في الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميذ ؛ وهو في السادس والعشرين من بشنس . عيد سمعون العجاس ؛ وهو في السابع والعشرين من بشنس . عيد طيارس ؛ وهو في التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشاء ؛ وهو في اليوم الآخر من بشنس . عيد أبي مقار؛ وهو في الثاني من بشونه . ووجود عظام لوقا؛ وهو في الثالث من بشونه . عيد توما، وعيد مامور؛ وهما في الرابع من بشونه . عيد يوحنا ، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام) ؛ وهما في التاسع من بشونه . عيد أبي مينا؛ وهو في الخامس عشر من بشونه . عيد أبي مقار، وهو في السادس عشر من بشونه . عيد السيدة؛ وهو في الحادى والعشرين من بشونه . عيد اتريب وهو في الثالث والعشرين من بشونه . عيد أبي مينا، وهو في ^(١) والعشرين من بشونه ؛ وتذكر تادرس ؛ وهو في أول أبيب . ونياحة بولص؛ وهو في الثاني من أبيب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة؛ وعيد القيصرية ؛ وهما في الخامس من أبيب . وعيد أبى سنوبة؛ وهو في السابع من أبيب . وعيد اسنباط؛ وهو في الثامن من أبيب . وشهادة هرون، وعيد سمان؛ وهما في التاسع من أبيب . وعيد تادرس نظيره؛ وهو في العاشر من أبيب . وعيد أبى هور؛ وهو في الثاني عشر من أبيب . وعيد أبى مقار؛ وهو في الرابع عشر من أبيب . وعيد اقدم السرياني ؛ وهو في الخامس عشر من أبيب . وعيد يوحنا وزكريا؛ وهو في السادس عشر من أبيب . وعيد يعقوب التلميذ، وهو في السابع عشر من أبيب . وعيد بولاق، وهو في التاسع عشر من أبيب . وعيد تادرس الشهيد، وهو في العشرين من أبيب . وعيد السيدة ، وعيد ميخائيل؛ وهما في الحادى

والعشرين من أيب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده؛ وهما في الثالث والعشرين من أيب . وعيد سمند؛ وهو في الرابع والعشرين من أيب . وعيد مرقوريوس؛ وهو في الخامس والعشرين من أيب . وعيد حزقيال النبي عليه السلام؛ وهو في السابع والعشرين من أيب . ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم؛ وهما في الثامن والعشرين من أيب . ورحم السيد؛ وهو في اليوم الآخر من أيب . وعيد الخندق؛ وهو في اليوم الأول من مسرى . وعيد أبي مينا؛ وهو في اليوم الثاني من مسرى . وعيد سمعان المعمودى؛ وهو في الثالث من مسرى . ودخول نوح السفينة؛ وهو في الثامن من مسرى . وعيد طور سينا، وعيد السيدة، وهما في التاسع من مسرى . وعيد اللباس؛ وهو في العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو في الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو في السابع عشر من مسرى . وعيد أبي مقار؛ وهو في الثامن عشر من مسرى . وعيد اليسع؛ وهو في التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف؛ وهو في العشرين من مسرى . وصوم الأربعين؛ وهو في الحادى والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة بدمشق؛ وهو في الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل؛ وهو في السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق؛ وهو في الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد؛ وشهادة يوحنا؛ وهو في اليوم الآخر من مسرى .

الجملة الرابعة

(في أعياد اليهود ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(مانطقت به التوراة بزعمهم ؛ وهى خمسة أعياد)

العيد الأول - رأس السنة ، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمونه عيد رأس هيشا أى عيد رأس الشهر ، وهو أول يوم من تشرى يتزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل ابنه فيه وفداه بذبح عظيم .

العيد الثانى - عيد صوماريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم الذى يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتِلَ عندهم . ومدة هذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرى ، وتختتم بمضى ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر ، وربما سَمَّوْهُ العاشر . ويُستترط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الاحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة ، ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، ويحمده ربوبية الله تعالى .

العيد الثالث - عيد المظلة : وهو سبعة أيام أولها الخامس عشر من تشرى وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمى عرايا أى شجر الخلاف ، وهو أيضا حج لهم ، يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون

والخلاف، وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض؛ ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله إياهم في التيه بالغمام .

العيد الرابع - عيد الفطير : ويسمونه الفصح ، ويكون في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام أيضا، يأكلون فيها الفطير، ويُظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير لأن هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلّص الله فيها بنى إسرائيل من يد فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، فعملوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ، وفي أحد هذه الأيام غرق فرعون .

العيد الخامس - عيد الأسابيع : ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، وأتخذهم لهذا العيد في السادس من سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القبط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طور سيناء، وفي جملة هذا الخطاب العشر كلمات: وهى وصايا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حصلها حفظا ورعا، وهو حج من حجوجهم ؛ وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير، والمظلة ؛ وهم يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفننون في عملها، ويجعلونها بدلا عن المن الذى أنزل الله عليهم في هذا اليوم، ويسمى هذا العيد أيضا عشترا، ومعناه الاجتماع .

الضرب الثانى

(ما أحدثه اليهود زيادة على ما زعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان)

العيد الأول - الفوز : وهو عندهم عيد سرور ولهو وخلاعة يهذى فيه بعضهم إلى بعض، وهم يقولون : إن سبب اتّخاذهم له أن يجتنبوا أجلي من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، أسكنهم بحى، وهى إحدى مدينتى أصفهان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولى والأخيرة فلما ملك أردشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون، واليهود يومئذ حبري^س يسمى بلغتهم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عم من أحسن أهل زمانها وأكلمهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابته لذلك، فخطبت عنده حطوة صار بها مردوخاي قريبا منه، فأراد هيمون إصغاره واحتقاره حسدا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتب مع تواب الملك في جميع الأعمال أن يقتل كل أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما : وهو النصف من آذار، وإنما خص هذا اليوم دون سائر الأيام : لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفي فيه، وأراد بذلك المبالغة في نكائتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم ويموت موسى فأنضح لمردوخاي ذلك من بعض بطانة هيمون، فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما عزم عليه هيمون في أمر اليهود، وسألها لإعلام الملك بذلك، وحضها على إعمال الحيلة في خلاص نفسها وخلاص قومها فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنما حملة على ذلك الحسد على قربنا منك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتل أهله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان في ذلك اليوم، فأتخذوه عيدا . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام، وفي هذا العيد يصومون من الورق صورة هيمون ويملئون بطنها نخالة وملتحا ويلقونها في النار حتى تحترق، يندعون بذلك صبيانهم .

العيد الثاني، عيد الحنكة، وهو ثمانية أيام، يؤقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا، وفي الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سُرُج . وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبارة تغلب على بيت المقدس وقتك باليهود وأقتض أبكارهم، فوثب عليه

أولاً كُتِّهَانُهُمْ وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتاً لَوْقُودِ الهيكل فلم يجدوا إلا يسيراً وزَّعوه على عدد ما يُوقَدُونَهُ مِنَ السُّرُجِ على أبوابهم في كل ليلة إلى تمام ثمان ليالٍ فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسمَّوه الحنكة ، ومعناه التنظيف لأنهم نظَّفُوا فيه الهيكل من أقذار شِيعَةِ الجبار ، وبعضهم يسميه الرباني .

الجملة الخامسة

(في أعياد الصابئين)

ومَدَّارُ أعيادهم على الكواكب ؛ وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة : وهي زُحَلٌ ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطاردٌ في بيوت شرفها ؛ وذلك أن من البروج ما يقوم لهذه الكواكب مقام قصر العز لملك ، يشتهر فيه ويعلو ويشرف ؛ وفيها درجات معلومة يُنسب الشرف إليها ؛ ومنها ما يحلُّ فيه ويفسد حاله ، ويكون ذلك أيضاً في درجات معلومة ، تقابل درجات الشرف به من البرج المقابل . ويسمى ذلك هبوطاً ؛ فزُحَلُ شرفه في إحدى وعشرين درجة من الميزان ، ويهبط في مثلها من الحمل ، والمشتري يشرف في خمس عشرة درجة من السرطان ، ويهبط في مثلها من الجدي ؛ والمريخ يشرف في ثمان عشرة درجة من الجدي ، ويهبط في مثلها من السرطان ؛ والزهرة تشرف في تسع وعشرين درجة من الحوت ، وتهبط في مثلها من السنبلة ؛ وعطاردُ شرفه في خمس عشرة درجة من السنبلة ، ويهبط في مثلها من الحوت ؛ وكذلك الشمس تشرف في تسع عشرة درجة من الحمل ، وتهبط في مثلها من الميزان ؛ والقمر يشرف في ثلاث درجات من السنبلة ، ويهبط في مثلها من الحوت . وهم يعظمون اليوم الذي تنزل الشمس فيه الحمل ، ويلبسون فيه أنغر ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ملوكهم تأتي الهياكل وتجعل لها أعياداً بحسب الكواكب التي بنيت على أسمها فيه .

الباب الثاني

من المقالة الأولى

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛

وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في ذكر آلات الخط ، ومبادئه ، وصوره ، وأشكاله ، وما يخرط في سلك ذلك ؛

وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في الدواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في نفس الدواة ، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(في فضلها)

قد أخرج ابن أبي حاتم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خَلَقَ اللهُ النَّوْنَ : وهى الدَّوَاةُ" وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : "لَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّوْنَ : وهى الدَّوَاةُ وَخَلَقَ الْقَلَمَ ، فقال : اكْتُبْ ، فقال : وما اَكْتُبُ ؟ قال : اَكْتُبْ ما هو كائن إلى يوم القيامة" . وهذا

الخبر والأثر دالان على أن المراد بالنون في الآية هو الدواة، وإن فسر به بعضهم بغير ذلك . إذ الدواة هي المناسبة في الذكر لذكر القلم وتسطير الكتابة في قوله تعالى : ﴿نَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواة هي أم آلات الكتابة، وتسطرها الجامع لها . ولا ينبغي ما يجب من الاهتمام بأمرها ، والاحتفال بشأنها، فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ نَحَرَ حَرْجَ مِنْ بَيْتِهِ بِغَيْرِ مَحْبَرَةٍ وَأَدَاةٍ، فَقَدْ عَزَمَ عَلَى الصَّدَقَةِ . قال المدائني : يعنى بالأداة مثل السكين، والمقلمة، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سabor : مثل الكاتب بغير دواة، كمثل مَنْ يَسِيرُ إِلَى الْهَيْجَاءِ بِغَيْرِ سِلَاحٍ .

الجملة الثانية

(في أصلها في اللغة)

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَاةٌ ودَوَايَاتٌ في أدنى العدد، وفي الكثير دَوِيٌّ ودَوِيٌّ (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دَوَاءٌ، ودَوَاءٌ (بضم الدال وكسرها) ودَوَايَاً مثل حَوَايَاً، وأدَوِيَتِ دَوَاةٌ أى اتخذت دواةً، ورجل دَوَاءٌ (بفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها، كقولك عَطَّارٌ وَبَزَّازٌ .

الجملة الثالثة

(فيما ينبغي أن نتخذ منه، وما تحل به)

أما ما نتخذ منه فينبغي أن نتخذ من أجود العِبدَانِ وأرفعها ثمنًا كالآيُنُوسِ، والسَّاسَمِ، والصَّنَدَلِ، وهذا اعتماد منه على ما كان يعتاده أهل زمانه، ويتعانه أهل عصره .

قلت : وقد غلب على الكُتُبِ في زماننا من أهل الإنشاء وكُتِّبَ الأموال اتخذ الدَوِيُّ من النحاس الأصفر، والفولاذ، وتغالوا في أثمانها وبالغوا في تحسينها .

والنحاس أكثر استعمالاً ، والفولاذ أقل لعزته ونفاسته ، واختصاصه بأعلى درجات
الرياسة ، كالوزارة وماضاهاها .

وأما دوى الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآيُنوس والصَّنْدَل الأحمر ، فإنه
يتماناه في زماننا قضاءً الحكم وموقعهم وبعض شهود الدواوين .

وأما التحلية ، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدّواة أن يكون عليها من الحليّة
أخف ما يكون ويمكن أن تُحَلَّى به الدّوى ، في وثاقه ولُطِيف : ليأمن من أن تنكسر
أو تنقصم في مجلسه ، قال : وحق الحليّة أن تكون ساذجةً بغير حُفَرٍ ولا ثِيَابَاتٍ
فيها : ليأمن من مسارعة القذئ والدّنس إليها ، ولا يكون عليها نقش ولا صورة .
وحق هذه الحليّة مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفضة
والذهب . على أن بعض الكُتّاب في زماننا قد اعتاد التحلية بالفضة ، ولا يخفى أن
حكم ذلك حكم الضربة في الإناء فتحرم مع الكبر والزينة ، وتركه مع الصغر والزينة
والكبر والحاجة ؛ وتباح مع الصغر والحاجة من كسر ونحوه ، كما قرره أصحابنا الشافعية
رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه إذا كان يحصل
منه بالعرض على النار شيء ، والله أعلم .

الجملة الرابعة

(في قدرها وصفتها)

قال الحسن بن وهب : سبيل الدّواة أن تكون متوسطة في قدرها : لا بالقصيرة
فتقصّر أقلامها وتقيح ، ولا بالكثيفة فيثقل حملها وتُعْجِف . فلا بدّ لصاحبها أن
يحملها ويضعها بين يدي مَلِكِهِ أو أَمِيرِهِ في أوثان مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولّى
ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طولها بمقدار عَظَمِ الذراع أو فَوْقَ ذلك قليلاً

لتكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد اختلفت مقاصد أهل الزمان في هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتَّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة الرأسين ، لطيفة القدّ ، طليبا للخفّة ، ولأنهم إنما يتعانون في كتابتهم الدّرج ، وهو غير لائق بالدواة في الجملة . وعلى أن الصغير من الدّرج لا يأبى جعله في الدواة المدوّرة . وأما كُتَّاب الأموال ، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا ، ليجعلوا في باطن غطاها ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب لهذه الدواة في القطع . وعلى هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم وموقعوهم دويهم ، إلا أنها في الغالب تكون من الخشب كما تقدّم .

وأعلم أنه ينبغي للكاتب أن يجهّد في تحسين الدواة وتجويدها وصونها . والله المدائني حيث يقول :

جود دَوَاتِكَ ، وأجتهِد في صَوْنِهَا * إن الدَّوَى نَحَائِشُ الآدَابِ

وأهدى أبو الطيّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلى صديق له دواة آنيوس مُحَلَّاة وكتب معها .

لَمْ أَرَسُودَاءَ قَبْلَهَا مَلَكَتْ * نَوَاطِرَ الْخَلْقِ وَالْقُلُوبِ مَعَا
لَا الطُّولُ أَزْرَى بِهَا وَلَا قَصَرٌ * لَكِنْ أَتَتْ لِلْوُصُولِ مَجْتَمَعَا
فَوْقَكَ جُنَحٌ مِنَ الظَّلَامِ بِهَا * وَبَارَقُ بَائِتِلَاقِهَا لَمَعَا !
خُذْهَا لِذُرٍّ ، بِهَا تُنْظَمُهُ * يَرُوقُ فِي الْحُسْنِ كُلُّ مَنْ سَمِعَا

أما الحِبرَةُ المفردة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها : فمنهم من ربحها ومالوا إلى اتّخاذها خِمْفَةً حَمَلَهَا ، وقالوا : بها يكتب القرآن والحديث والعلم . وكرهها بعضهم واستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذي هو من أشدّ الحِرَفِ وأتعبها ، وأقلها مَكْسَبَا .

ويروى أن شعبة رأى في يد رجل محبرة، فقال : أرم بها فإنها مشؤمة لا يبق معها أهل ولا ولد، ولا أُم ولا أب .

الطرف الثاني

(في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة آلة ،

أول كل آلة منها ميم)

الآلة الأولى - المِزْبَرُ (بكسر الميم) ، وهو القلم أخذ له من قولهم زَبَرَتِ الْكُتَابُ إذا اتقنت كتابته ، ومنه سميت الْكُتُبُ زُبْرًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ وفي حديث أبي بكر أنه دعا في مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أى قلم .
وفيه جملتان .

الجملة الأولى

(في فضله)

عن الوليد بن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رضى الله عنه قال : دعانى أبى حين حضره الموتُ فقال : إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فقال : أَكْتُبْ، قال : ياربِّ وما أَكْتُبُ ؟ قال : أَكْتُبُ الْقَدَرَ وما هو كائنٌ إلى الأبد“ رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وقال : حسن غريب ، وأبن أبي حاتم واللفظ له . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه ”إن أول ما خلق الله القلم والحوت ، فقال له أَكْتُبْ، فقال : ياربِّ وما أَكْتُبُ ؟ قال : أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ كائنٌ إلى يوم القيامة“ ثم قرأ ”ن وَالْقَلَمُ“ رواه الطبراني ووقفه ابن جرير على ابن عباس . وفي رواية قال ابن عباس : ”أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، قال : أَكْتُبْ، قل : وما أَكْتُبُ ؟ قال : أَكْتُبُ الْقَدَرَ ، بخرى بما يكون من ذلك

اليوم إلى يوم قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بحار الماء ، فتفتقت منه السماء وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون ، فبادت الأرض ، فأثبتت بالبحال ، فإنها لتفخر على الأرض : لأنها أثبتت عليها“ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وروى محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد ”إن أول ما خلق الله اليراع ، ثم خلق من اليراع القلم ، فقال له : أكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : ما هو كائن ، قال : فزبر القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة“ . وأخرج بسنده إلى ابن عباس ، قال : ”أول ما خلق الله اليراع : وهو القصب المثقّب ، فقال : أكتب قضائي في خلقي إلى يوم القيامة“ . ويروى أنه لما خلقه الله تعالى نظر إليه فانشق بنصفين ، ثم قال : أجر قال : يارب بما أجرى ؟ قال : بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجري على اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ . ويروى أن خلقه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

وأعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة ، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم به ، وذلك في غاية الشرف ، والله أبو الفتح البستي حيث يقول :
إذا أقسم الأبطال يوماً بسيمهم * وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة * مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فأضاف التعليم بالقلم إلى نفسه . قال ابن الهيثم : من جلالة القلم ، أن الله عز وجل لم يكتب كتاباً إلا به ، لذلك أقسم به . قال المدائني : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ”من قلم قلماً يكتب به علماً أعطاه الله شجرة في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها“ . وقد قيل الأقلام مطايا الفطن ، وُرسل الكرم . وقال عبد الحميد : القلم شجرة ثمرها الألفاظ ،

والفكر بجر لؤلؤه الحكمة، وفيه رى العقول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصري ناجيه بما ستر عن الأسماع . وقال ابن المقفع : القلم بريد العلم يحث على البحر، ويحث عن خفي النظر . وقال أحمد بن يوسف : ما عبرت الغواني في حدودهن بأحسن من عبرات الأقلام . وقيل : القلم الطلسم الأكبر . وقيل : البيان آثنان : بيان لسان، وبيان بنان؛ ومن فضل بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باق على الأبد، وما ينسسه اللسان تدرسه الأيام . ويقال : عقول الرجال تحت أسنة أقلامها، بنوء الأقلام يصوب غيث الحكمة . وقال جعفر بن يحيى : لم أرباباً كما احسن تبسماً من القلم .

قال ابن المعتز : القلم مجهز لجيوش الكلام، تخدمه الإرادة، ولا يمل من الاستراذه، كأنه يقبل بساط سلطان؛ أو يفتح نور بستان .

ومن إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير الجزري ، من جواب كتبه للعقاد الأصفهاني : وكيف لا يكون ذلك ، وقلمتها هو اليراع الذي نفتت الفصاحة في روعه ، وكنت الشجاعة بين ضلوعه ! فإذا قال أراك كيف تُنسق الفرائد في الأحياد .

ومن كلام أبي حفص بن برد الأندلسي : ما أعجب شأن القلم ! يشرب ظلمةً، ويلفظ نوراً؛ قد يكون قلم الكاتب، أمضى من شبة المحارب؛ القلم سهم يتفد المقاتل، وشفرة تطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمر بن عثمان الكاتب : قلم يُطلق الآجال والأرزاق، وينفث السم والدبىاق؛ قلم تدق عن الإذاراك حركاته، وتحلى بالفائس فتكاته؛ يسرع ولا آنحدار السيل إلى قواره، وأنقداح الضوء من شراره، معطوفة الغايات على المبادئ، مصروفة الأعجاز إلى الهوادي؛ وإذا صال

أراك كيف أختلف الرماح بين الآساد . وله خصائص أخرى يبدعها إبداعاً ، فإذا لم يأت بها غيره تطبعاً أتى بها هو طبعاً ، فطوراً يرى إماماً يُلقى درسا ، وطوراً يرى ماشطة تجلو عرساً ، وطوراً يرى ورقاء تصدح في الأوراق ، وطوراً يرى جواداً مخلّقا بخلوق السباق ، وطوراً أفعوانا مطرقاً ، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق ! ولطالما نَفَثَ سِحْراً ، وجلب عِطْراً ، وأدار في القِرطاسِ نحرًا ، وتصرّف في صنوف الغناء فكان في الفتح عُمر ، وفي الهدى عمّار ، وفي الكيد عمّار ، فلا تحطّ به دولة إلا نخرت على الدول ، واستغنت عن الخيل والحوّل .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيا ، ولا استقامت المملكة . وكلّ شيء تحت العقل واللسان لأنهما إلخاكان على كل شيء ، والقلم يريكمهما صورتين ، ويوجد كهُما شكلين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم ، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فاقت صنعة القلم عند سائر الأمم ، جمع الحكم في صحن الكتب . وقال العتابي : بيبكاء القلم تبسم الكتب . وقال البُحْتُريّ : الأفلام مطايا الفطن . وقال أبو دُلَف العجليّ : القلم صائغ الكلام ، يفرغ ما يجمعه الفكر ، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضمير ، إذا رُِعِف أعلن أسرارهِ ، وأبان آثارهِ . وقال ثمامة : ما أثّرته الأفلام ، لم تطمع في درسه الأيام . وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم والخطّ الذي هو جنى العقول . وقال علي بن منصور : بنور القلم تُضيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة في بيان اللسان ، كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف . وقال غيره : بالقلم تُرفّ بناتُ العقول إلى خُدُور الكُتُب . وقال المأمون : لله درّ القلم كيف يحوك وشي المملكة . وقال بعض الأعراب : القلم ينهض بما يطلّع بحمله اللسان ، ويبلغ مالا

يلغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل للكتب ألسنا ناطقة ، وأعيننا ملاحظة ؛ وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : انلخط شيء أظهره العقل بواسطة سن القلم ، فلما قابل النفس عشقته بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : انلخط بالقلم ينمى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم على إيقاع ^(١) الوتر ، والمهنة المنطقية مقدمة على المهنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طبيب المنطق . وقال أرسطاطاليس : القلم العلة الفاعلة ، والممداد العلة الهيولانية ، وانلخط العلة الصورية ، والبلاغة العلة التمامية . وقد أكثر الشعراء القول في شرف القلم وفضله .

فمن ذلك قول أبي تمام الطائي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب وذلت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يغالبه * مازال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبذب * أن السيوف لها مذ أرفقت خدم
وقوله :

لك القلم الأعلى الذي شبابه * تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه * وأرى الجنى أشتارته أيد عواسل
له ريقة طلل ، ولكن وقعها * بآثاره في الشرق والغرب وأبل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت * لنجواه تقويض الحيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الحلى وأقبلت * أعاليه في القرواس وهى أسافل

(١) لعله مقدم على أو نحو ذلك .

وقد رَفَدَتْهُ الحِنْصِرَانِ وسَدَّتْ * ثلاث نواحيه الثلاثُ الأَنَامِلُ
 رأيتَ جليلاً شأنه وهو مُرْهَف * ضَنًّا، وسميًّا خطبُه وهو نَاحِلُ
 وقول أبي هلال العسكري :

أَنظُرْ إِلَى قَلَمٍ يَنْكُسُ رَأْسَهُ * لِيَضُمَّ بَيْنَ مُوَصَّلٍ وَمُقَصَّصِلِ
 تَنْظُرُ إِلَى مِخْلَابٍ لَيْثٍ ضَيْغَمٍ * وَغِرَارٍ مَسْنُونِ الْمَضَارِبِ مِفْصَلِ
 يَبْدُو لِنَازِلِهِ بَلَوْرٍ أَصْفَرٍ * وَمَدَامَعٍ سُودٍ وَجِسْمٍ مُنَحَلِ
 فَالذَّرْجُ أَبْيَضٌ مِثْلُ خَدٍّ وَاضِحٍ * يَثْنِيهِ أَسْوَدٌ مِثْلُ طَرْفٍ أَكْحَلِ
 قَسَمَ الْعَطَايَا وَالْمَنَايَا فِي الْوَرَى * فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ فَاحْذَرِ وَأُمْلِ
 طَعْمَانِ شَوْبُ حَلَاوَةٍ بِمَرَارَةٍ * كَالْتَهَرِ يَخْلُطُ شَهْدَهُ بِالْحَنْظَلِ
 فَإِذَا تَصَرَّفَ فِي يَدَيْكَ عِنَانُهُ، * أَلْحَقْتَ فِيهِ مُؤَمَّلًا بِمُؤَمَّلِ
 وَمُذَلَّلًا بِمَعَزَزٍ، وَلَرْبَمَا * أَلْحَقْتَ فِيهِ مَعَزَّزًا بِمَذَلَّلِ

وقوله :

لَكَ الْقَلَمُ الْجَارِي بِبُؤْسٍ وَأَنْعَمٍ * فَمِنْهَا بَوَادٍ تُرْتَجَى وَعَوَائِدُ
 إِذَا مَلَأَ الْقِرطَاسَ سُودُ سَطُورِهِ * فَتِلْكَ أَسْوَدٌ تُتَّقَى وَأَسَاوِدُ
 وَتِلْكَ جَنَانٌ تُجَنَّى ثَمَرَاتُهَا * وَيَلْقَاكَ مِنْ أَنْفَاسِهِنَّ بَوَارِدُ
 وَهِنَّ بَرُودٌ مَالِهِنَّ مَنَاسِيحٌ * وَهِنَّ عَقُودٌ مَالِهِنَّ مَعَاقِدُ
 وَهِنَّ حَيَاةٌ لِلْوَلِيِّ رِضِيَّةٌ * وَهِنَّ خُتُوفٌ لِلْعَدُوِّ رَوَاصِدُ

الجملة الثانية

(في اشتقاقه)

وقد اختلف في ذلك ؛ ف قيل : سمي قَلَمًا لاستقامته ، كما سميت القِدَاحُ أقلامًا في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ قال بعض المفسرين : تشاؤوا في كفالتها فضربوا عليها بالقداح ، والقداح مما يضرب بها المثل في الاستقامة ؛ وقيل : هو مأخوذ من القَلَام : وهو شجر رخو فلما ضارعه القلم في الضعف سمي قلمًا ؛ وقيل : سمي قلمًا لقلم رأسه ، فقد قيل إنه لا يسمى قلمًا حتى يُبرى ، أما قبل ذلك ، فهو قَصَبَةٌ . كما لا يسمى الرح رُحًا إلا إذا كان عليه سَنَانٌ وإلا فهو قَنَاقَةٌ . ومنه قَلَامَةُ الظفر ؛ وإلى ذلك يشير أبو الطَّيِّب الأزدى بقوله :

قَلَمٌ قَلَمٌ أَظْفَارَ الْعِدَا * وهو كالإصبع مقصوصُ الظُّفْرِ
أشبهَ الحَيَّةَ حَتَّى إِنَّهُ * كَلَمًا عَمَّرَ فِي الْأَيْدِي قَصْرُ

وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ ففكر ساعة وقلب يده ؛ ثم نال : لا أدري ، ف قيل له : توهمه . قال : هو عودٌ قَلَمٌ من جوانبه كتقليم الظُّفْرِ ، فسمى قلمًا .

الجملة الثالثة

(في صفته)

قال إبراهيم بن العباس لـغلام بين يديه يعلمه الخط : ليكن قلمك صُلْبًا ، بين الدقة والغِلْظ ، ولا تَبْرَه عند عُقْدَةٍ فإن فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب بقلم ملتوى ، ولا ذى شَقٍّ غير مستوى ؛ وإن أعوزك البحرى والفارسي ، واضطرتت إلى الأقلام النبطية فاختر منها ما يعيل إلى السَّمَرَةِ .

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : يذنبى للكاتب أن يتخير من أنابيب القصب أقله عَقْدًا ، وأكثره لحماً ، وأصلبه قشراً ، وأعدله استواء . وقال العتابي : سألنى الأضمعيُّ يوماً بدار الرشيد : أى الأنابيب للكتابة أصلحُ وعليها أصبر ؟ فقلت : ما شَفَّ بالهجير ماءؤه ، وستره من تلويحه غشاؤه ؛ من التبرية القشور ، الدرية الظهور ، الفضية الكُسور . وكتب على بن الأزهر إلى صديق له يستدعى منه أقلاماً :

أما بعدُ فإننا على طول الممارسة لهذه الكتابة ، التى غلبت على الأسم ، ولزمت لزوم الوسم ، خلَّت محل الأنساب ، وجرت مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخرية اجرى فى الكواغد ، وأمرت فى الجلود ؛ كما أن البحرية منها أسلس فى القراطيس ، وألين فى المعاطف ، وأشد لتصرف الخط فيها ؛ ونحن فى بلد قليل القصب رديئه ، وقد أحببت أن نتقدم فى اختيار أقلام صخرية ، ونتوق فى اقتنائها قبلك ، وتطلبها من مظانها ومنابتها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ؛ وأن نتمن باختيارك منها الشديدة الصلبة ، النقية الجلود ، القليلة الشحوم ، الكثيرة اللحوم ، الضيقة الأجواف ، الرزينة المحمل : فإنها أبقي على الكتابة ، وأبعد من الحفأ . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القُضبان ، المقومات المتون ، الملس المعاهد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوَام ، المستحكمة يُبساً ، وهى قائمة على أصولها لم تُعجل عن إبان ينعها ، ولم تؤنحر إلى الأوقات المخوفة عليها من خصر الشتاء ، وعفن الأنداء . فإذا آستجمعت عندك ، أمرت بقطعها ذراعاً [ذراعاً] قطعاً رقيقاً ، ثم عبأت منها حُرماً فيما يصونها من الأوعية^(٤) ، وتكتب معه بعدتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) فى العقد الفريد ثنائى وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سحق لفق تتوقت * به حضرميات الأكف الحوائك

(٢) فى العقد الفريد تميم . (٣) الزيادة عن العقد الفريد . (٤) فى العقد . وجهها مع من يؤدى الامانة فى حراستها وحفظها وايصالها وكتبت الخ .

وأهدى ابن الحرون إلى رجل من إخوانه الكُتَّاب أقلاما، وكتب إليه :
 إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظم الأمور، وقوام الخلافة، وعمود المملكة،
 أنحفك من آلتها بما يخف محمله، وتثقل قيمته، ويعظم نفعه، ويحل خطرَه،
 وهى أقلام من القصب النابت فى الصخر، الذى نشف بحر الهجير فى قشره ماءه،
 وستره من تلويحه غشاؤه، وهى كاللآلى المكنونة فى الصدف، والأنوار المحجوبة
 فى السدف، تزييه القشور، درية الظهور، فضية الكسور، قد كستها الطبيعة
 جوهرا كالوشى المحبر، وروقا كالدياج المنير.

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابى، يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة اصناف :
 وأضفت إليها أقلاما سليمة من المعايير، مبرأة من المثالب، بحمة المحاسن، بعيدة
 عن المطاعن، لم يربها طول ولا قصر، ولا ينقصها ضعف خور، ولا يشينها لين
 ولا رخاوة، ولم يعبها كرازة ولا قساوة، وهى آخذة بالفضائل من جميع جهاتها،
 مستوفية للممادح بسائر صفاتها، صلبة المعاجم، لدنة المقاطع، موفية القدود والألوان،
 محمودة الخبر والعيان، وقد استوى فى الملاسة خارجها وداخلها، وتناسب
 فى السلاسة عاليها وسافلها، نبت بين الشمس والظل، واختلف عليها الحر والقر،
 فلفحها وقدان الجوارح، ولفعها سائم شهر ناجر، ووقدتها الشفان بصره، وقذفها
 الغمام ببرده، وصابتها الأنواء بصيها، وأستهلت عليها السحاب بشايلها، فاستمرت
 مرارها على إحكام، وأستحصد سجيلها بالإبرام، جاءت شتى الشيات، متغايرة
 الهيئات، متباينة الحال والبلدان، تختلف بتباعد ديارها، وتألف بكرم نجارها.

فمن أنابيب قنا ناسبت رماح الخط فى أجناسها، وشاكت الذهب فى ألوانها،

(١) لعله وافية القدود . أى تامة كاملة .

(٢) لعله جبلها وحرر .

وضاهت الحرير في لَمَعَانِهَا ، مضابطة الحفاء ، نَمْرَةَ الْقَوَى ، لا يسيطها القط ،
ولا يُشْعَبُ بها الخط .

ومن مِصْرِيَّةٍ بيض كأنها قَبَاطِيٌّ مِصْرَنْقَاءُ ، وَغِرْقِيٌّ البِيضُ صَفَاءُ ، غَذَاها الصَّعِيدُ
من ثَرَاهِ بُلْبَّةٍ ، وسقاها النيل من نَمِيرِهِ وَعَذِيهِ ، فجاءت ملتئمة الأجزاء ، سليمة من
الالتواء ، تستقيم شُقُوقُهَا في أطواها ، ولا تَتَكَبُّ عن يمينها ولا شمالها ، مقترن بها
صفراء كأنها معها عَقِيَانٌ قَرْنٌ بِجُجَيْنٍ ، أو ورقٌ خُطٌّ بعَيْنٍ ، تختال في صُفْرِ مَلَّاحِفِهَا ،
وتميس في مُذْهَبٍ مَطَارِفِهَا ؛ بلونٍ غِيَابِ الشمس ، وَصَبْغٍ ثِيَابِ الْوَرَسِ .

ومن منقوشة تَرُوقُ العين ، وتُوْنِقُ النفس ؛ ويَهْدِي حُسْنُهَا الْأَرِيحِيَّةَ إِلَى الْقُلُوبِ ،
ويَحُلُّ الطَّرْفَ لَهَا حَبْوَةَ الْحَلِيمِ اللَّيْبِ ؛ كأنها آخْتِلَافُ الزَّهْرِ اللَّامِعِ ، وَأَصْنَافُ
الثمرِ الْيَانِعِ .

ومن بحرية مَوْشِيَّةٌ اللَّيْطُ ، رَائِقَةُ التَّخْطِيطِ ؛ كَأَنَّ دَاخِلَهَا قَطْرَةٌ دَمٍ ، أو حَاشِيَةٌ
رِداءٍ مُعَلَّمٍ ؛ وَكَأَنَّ خَارِجَهَا أَرْقَمٌ ، أَوْ مَتْنٌ وَإِدٍ مُفَعَّمٌ ؛ نَشَرَتْ أَلْوَانًا تُزَرِّي بَوْرِدَ الْخُدُودِ ،
وَأَبَدَتْ قَامَاتٍ تَفْضَحُ تَأْوِدَ الْقُدُودِ .

ومن كلامِ أَبْنِ الزِّيَاتِ : خَيْرُ الْأَقْلَامِ مَا آسَتْ حَكْمُ نُضْجِهِ وَخَفَ بَزْرُهُ ؛ قَدْ
تَسَاعَدَتْ عَلَيْهِ السُّعُودُ فِي فَلَكِ الْبُرُوجِ حَوْلًا كَامِلًا ، تَوَلَّفَهُ بِمُخْتَلِفِ أَرْكَانِهَا وَطِبَاعِهَا ،
وَمَتَبَايِنِ أَنْوَانِهَا وَأَنْحَائِهَا ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَأَسْتَوَى ، وَشَقَّتْ بَوَازِلُهُ ، وَرَقَّتْ
شَمَائِلُهُ ؛ وَأَبْتَسَمَ مِنْ غَشَائِهِ ، وَتَأَدَّى مِنْ لِحَائِهِ ؛ وَتَعَزَّى عَنْهُ ثَوْبُ الْمِصْصِفِ ،
بِانْقِضَاءِ الْخَرِيفِ ، وَكَشَفَ عَنْ لَوْنِ الْبَيْضِ الْمَكْنُونِ ، وَالصَّدْفِ الْمَخْزُونِ ؛
قُطِعَ وَلَمْ يَجْعَلْ عَنْ تَمَامِ مَصْلَحَتِهِ ، وَلَمْ يُؤَخَّرْ إِلَى الْأَوْقَاتِ الْمَخُوفَةِ عَاهَاتُهَا عَلَيْهِ مِنْ
خَصْرِ الشَّتَاءِ ، وَعَفَنِ الْأَنْدَاءِ ؛ جَاءَ مَسْتَوًى الْأَنْبَابِ مَعْتَدِلًا ، مُتَقَفَّ الكُعُوبِ
مَقُومَهَا .

وقد حرر الوزير أبو علي بن مقلّة رحمه الله منَاط الحاجة من هذه الأوصاف،
وأقتصر على الضرورى منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما استحك نُضْجُه فى جِرمِه ، ونَشِفَ ماؤه فى قشرِه ، وقُطِعَ بعد إلقاء
بزرِه ، وبعد أن أصفرَ لحاؤه ورقَّ شجرِه ، وصلبَ شحمُه ، وثقلَ حجمُه .

الجملة الرابعة

(فى مساحة الأقلام فى طولها وغَلظها)

قال ابن مقلّة : خير الأقلام ما كان طولُه من ستة عشر إصبعا إلى اثنى عشر ،
وأمتلاؤه ما بين غَلظِ السَّابَةِ إلى الخِصْرِ . وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام
على اختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسنُ قُودِ القلم أن لا يُجَاوِزَ به الشَّبرُ بأكثر من جِلْفَتِه
ويشهد له قول الشاعر :

قَتَّى لو حوى الدنيا لأصبح عَارِيًّا * من المال ، معتاضا ثيابا من الشُّكْرِ
له تَرْجَمَانٌ أحرُسُ اللَّفِظِ صامتٌ ، * على قَابِ شِبْرِ بل يزيد على الشَّبرِ

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أحمدُ الأقلام ما توسطت حالاته فى الطول
والقِصْر ، والغَلْظِ والدَقَّة ، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليه الأنامل فىبقى مائلا إلى
ما بين الثلث ، والغليظ المفرط لاثمِله الأنامل .

وقال فى الحِلْيَةِ : إذا كانت الصحيفة لينة ينبغى أن يكون القلم لينَ الأنبوب ، وفى
لحمه فضل ، وفى قشره صلابة ؛ وإن كانت صُلْبَةً ، كان يابس الأنبوب صُلْبَةً ،
ناقص الشحم : لأن حاجته إلى كثرة المداد فى الصحيفة الرَّخْوَةِ أكثر من حاجته إليه
فى الصحيفة الصُّلْبَةِ . فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد ؛ ويمكن

في الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل إليها في القلم الصُّلْب الخالي من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة

(في بَرَى القلم ؛ وفيه خمسة أنظار)

النظر الأول

(في اشتقاقه وأصل معناه)

يقال بَرَيْتَ القلم أَبْرِيه بَرَّيًّا وِبَرَايَة غير مهموز ، وهو قلم مَبْرِيٌّ ، وأنا بَارٍ للقلم بغير همز أيضا . قال الشاعر :

يا بَارِي القَوْسِ بَرَّيًّا ليس يُحْكِمُهُ * لا تُفْسِدِ القوس ، أعطِ القَوْسَ بَارِيهَا

ويقال أيضا بَرَوْتُ القلم والعُودَ بَرَوًّا بالواو ، والباء أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البرى بُرَايَةً (بضم الموحدة في أوله) على وزن نُزَالَةٍ وَحْثَالَةٍ ، والفُعالة اسم لكل فضلة تفضل من الشيء ، وتقول في الأمر : أبر قلبك .

النظر الثاني

(في الحث على معرفة البراية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال ؛ منها جودة بَرَى القلم ، وإطالة جِلْفَتِهِ ؛ وتحريف قَطَّتِهِ ، وحسن التأتى لأمتطاء الأنامل ، وإرسال المدة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف .

ومن كلام المقرّ الغلائی ابن فضل الله ، طيب الله مهجعه ! : من لم يحسن الاستمداد ، وبرى القلم ، والقطّ وإمساك الطومار ، وقسمة حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة في شيء .

ويحكى أن الضحّاك كان إذا أراد أن يرى قلمًا ، توارى بحيث لا يراه أحد ، ويقول : الخط كله القلم . وكان الأنصارى إذا أراد أن يرى فعل ذلك ، فإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتى لا يراها أحد .

وقال إسحاق بن حمّاد : لاحدقْ لغير مميّز لصنوف البراية . ورأى إبراهيم بن المحبس رجلاً يأخذ على جارية قلمَ الثلث ، فقال : أعلمتها البراية ؟ قال : لا ، قال : كيف تحسن أن تكتب بما لا تحسن برأيتك ؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط .

قال المقرّ العلّائى ابن فضل الله : ورأيت بخط أبى على بن مقلة رحمه الله ، نعمّ نعمّ ملاك الخط حسن البراية ، ومن أحسنها سهل عليه الخط ، ولا يقتصر على علم فن منها دون فن ، فإنه يتعين على من تعاطى هذه الصناعة أن يحفظ كل فنّ منها على مذهبه : من زيادة فى التحريف ، ومن النقصان منه ، ومن اختلاف طبقاته . ومن وعى قلبه كثرة أجناس قَطِّ الأقلام ، كان مقتدرًا على الخط ، ولا يتعلّم ذلك إلا عاقل ، والقلم للكاتب كالسيف للشجاع .

وقال الضحّاك بن عجلان : القلم من أجناس الأقلام كاللّبن من أجناس الألبان فى الصناعة ، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك . ومن كلام المقرّ العلّائى ابن فضل الله : جَوْدَةُ البراية نصفُ الخط .

ومنهم من ذهب إلى أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم ، حتى حكى الغزالى رحمه الله فى نصيحة الملوك أن صاحب بن عبّاد كان وزيرًا لبعض الملوك ، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسدونه ، ولم يزالوا حتى ذكروا للملك أنه لا يحسن براية القلم ، وعمدوا إلى أقلامه فكسروا رءوسها ، ثم إن الملك أمره بكتيب كتاب فى المجلس ، فوجد أقلامه كلّها مكسرة الرءوس فأخذ قلمًا منها ، وكتب به إلى أن انتهى إلى آخر الكتاب بخط فائق رائع ، فساءل له الملك : إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن برى القلم ، فقال : إن أبى علمنى كاتبًا ولم يعلمنى نجّارًا .

النظر الثالث

(في معرفة محل البراية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشَّيْبَانِيّ: يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصبة،
يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة على أصلها، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح
من الفارس. وإلى هذا المعنى أشار أبو تَمَّام الطائي بقوله في أبياته المتقدمة:
وأقبلت * أعاليه في القِرطاس وهى أسافل

وقال أبو القاسم: إذا أخذ القلم لبرية فلا يخلو من استقامة في البنية أو أعوجاج
في الحلقة، فإن كان مستويا فالبرية من رأسه، وهو حيث استدق، وإن كان
مُعَوَّجًا ودعت الضرورة إليه، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقل آلتواء من أعلاه.

النظر الرابع

(في كيفية إمساك السكّين حال البرى)

قال ابن البربري: إذا بدأت بالبراية فأمسك السكين باليد اليمنى، والأنبوبة
باليُسرى، وضع إبهامك اليمنى على قفا السكين، ثم اعتمد على الأنبوبة اعتمادا رقيقا.

النظر الخامس

(في صناعة البراية)

قال العتّابي: سألت الأضمعي يوما بدار الرشيد: أى نوع من البرى أصوب
وأكتب؟ فقلت: البرية المستوية القطعة التي عن يمين سنّها برية تأمن معها
الحجة عنه المدة والمطة، الهواء في شقها فتيق، والريح في جوفها تحرق، والمداد
في خرطومها رقيق.

واعلم أنه ربما حَسُنَ الخط باعتبار براية القلم ، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته ، فقد قيل : إن الأحول المحزر كان عجيب البراية للقلم ، فكان خطه رائقا بهجاً من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصاري المحرر : كنت أكتب في ديوان الأحول ، فقربت منه وأخذت من خطه ، وسرقت من دواته قلماً من أقلامه ، فجاد خطي به ، فلاحته منه نظرة إلى دواتي ، فرأيت القلم فعرفه ، فأخذه وأبعدني . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلها .
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَرِّيَّ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ .

المعنى الأول - في صفته ، ومقداره في الطول ، والتعقير .

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : ويجب أن يكون في القلم الصُّلْبُ أكثر تعقيراً ، وفي الرَّخْوِ أَقَلُّ ، وفي المعتدل بينهما . وصفته أن تتبدى بترؤك بالسكين على الاستواء ، ثم تُمِيلُ القِطْعُ إِلَى مَا يَلِي رَأْسَ الْقَلَمِ ، ويكون طول الفتحة مقدار عُقْدَةِ الإِبْهَامِ ، أو كَمَا قِيرَ الْحَامِ ، وإلى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السمرى رحمه الله في أرجوزته بقوله :

وَطَوَّلَهَا كَعُقْدَةِ الْإِبْهَامِ لَا * أَعْلَى وَلَا أَدْنَى يَكُونُ أَرْدَلَا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله : كل قلم تقصّر جِلْفَتُهُ ، فإن الخط ينجى به أَوْقَصَ ، والوَقْصُ قِصْرُ الْعُنُقِ ، ولذلك سمي متفاعلاً في عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أَوْقَصَ ، وكأنه يريد بالقِصْرِ مادون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب : أَطْلُ خُرْطُومَ قَلَمِكَ . فقيل له :
أَلَا خُرْطُومُ قَالَ : نَعَمْ . وَأَنْشُدْ .

كَأَنَّ أَنْوَفَ الطَّيْرِ فِي عَرَصَاتِهَا * خِرَاطِيمُ أَقْلَامٍ تُخْطُّ وَتُجَمُّ

وقال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان لرغبان، وكان يكتب بقلم قصير البرية :
أتريد أن يوجد خطك ؟ قال : نعم . قال : فأطل جلفة قلمك وأسمها ، وحرف
القطعة وأيمها ، قال رغبان : ففعلت ذلك بفاد خطي . وقال الشيخ عماد الدين بن
العفيف رحمه الله : إذا طالت البرية ، فإنه يحيى الخط بها أخف وأضعف وأجلى ،
وإذا قصرت ، جاء الخط بها أصفى وأثقل وأقوى .

المعنى الثاني - النحت .

قال الوزير أبو علي بن مقلة : وهو نوعان ، نحت حواشيه ، ونحت بطنه . أما
نحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتي السن معا ، ولا يجعل على
إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا لجلفة القلم دق
أو غلط . قال : ويجب أن يكون جانباه مسيفين ، والتسيف أن يكون أعلاه ذاهبا
نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرى المداد من القلم . قال : وأما نحت
بطنه فيختلف بحسب اختلاف الأقلام في صلابة الشحم ورخاوته ، فأما الصلْبُ
الشحمة فينبغي أن يُنحت وجهه فقط ، ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط
الذي يؤثر الكاتب أن يكتبه . وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتى
تنتهي إلى الموضع الصلْب من جرم القلم ، لأنك إن كتبت بشحمته ، تشطى القلم
ولم يصف جريانه .

ومن كلام ابن البربري : لاتقصع البراية ، ولا تحالف بين حدى القلم ؛ فإن ذلك
حياكة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الجلفة على أنحاء : منها أن يرهف جانبي البرية ، ويُسَمَّن وسطها شيئا يسيرا ؛
وهذا يصلح للبسوط والمعلق والمحقق .

ومنها ما تستأصل شحمته كلها ، وهذا يصلح للارسل والمزوج والمفتوح .

ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية في الأيمن؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها ما يرهف من جاتبي وسطه ، ويكون مكان القطعة منه أعرض مما تحته ؛ وهذا يصلح في جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثالث - الشق : وفيه مهيعان .

المهيع الأول

(في فائزته)

قال الوزير أبو علي بن مقله رحمه الله : لو كان القلم غير مشقوق ما استمرت به الأنامل ، ولا أتصل الخط للكاتب ، ولكثر الاستمداد ، وعُدم المشق ، ولما لم المداد إلى أحد جنبي القلم على قدر قتل الكاتب له .

المهيع الثاني

(في صفة الشق ، وفيه مذكران)

المذكر الأول

(في قدره في الطول)

قال ابن مقله : ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم في صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شقه إلى مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنى فيه أنه إذا زاد على ذلك أُنْفَتَحَت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ . وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغي أن يكون شقه إلى آخر الفتحة ؛ وربما زاد على ذلك

بمقدار إفراطه في الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السمرمري رحمه الله في أرجوزته فقال :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّقَّ أَيْضًا يَخْتَلِفُ * بِحَسَبِ الْأَقْلَامِ، فَافْهَمْ مَا أَصِفُ
فَإِنْ يَكُنْ مُعْتَدِلًا شُقَّ إِلَى * مُقْدَارِ ثُلُثِ الْحِلْفَةِ أَنْقَلْ وَأَقْبِلَا
وَالرَّخْوُ لِلنِّصْفِ أَوْ الثَّلَاثِينَ زِدْ * وَالصُّلْبُ بِالْفَتْحَةِ الْحَقُّ تَسْتَفِدْ
وَرَبَّمَا زَادُوا عَلَى ذَاكَ إِذَا * أَقْرَطَ فِي الصَّلَابَةِ، أَعْرِفْ ذَا وَذَا

المُدْرَكُ الثَّانِي

(في محله من الحِلْفَةِ في العرض)

وقد تقدّم من كلام ابن مقلة رحمه الله في المعنى الثالث أنه يجب أن يكون الشق متوسطا لحِلْفَةِ القلم ، وعليه جرى الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله فقال :
وليكن غَلَطُ السنين جميعا سواء . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظَ من الأيسر دون العكس على كل حال ؛ وهذا إنما يأتي إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار ، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوى الاعتماد على اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع - القَطُّ وفيه مهيعان :

المهيج الأول

(أَشْتَقَاةٌ وَمَعْنَاهُ)

يَقَالُ قَطَطْتُ الْقَلَمَ أَقَطُّهُ قَطًّا فَإِنَا قَاطُ . وَهُوَ مَقْطُوطٌ وَقَطِيطٌ : إِذَا قَطَعْتَ سِنَّهُ
وَأَصْلُ الْقَطِّ الْقَطْعُ ، وَالْقَطُّ وَالْقَدُّ مُتَقَارِبَانِ ، إِلَّا أَنَّ الْقَطَّ أَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِيمَا يَقَعُ
السِّيفُ فِي عَرْضِهِ ، وَالْقَدُّ مَا يَقَعُ فِي طُولِهِ . وَكَانَ يَقَالُ : إِذَا عَلَا الرَّجُلُ الشَّيْءَ

بسيفه قدّه ، وإذا عرضّه قَطَّه . وذلك أن مخرج الطاء والdal متقاربان ، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه ، ومدّ حاجبيه .

المهيع الثاني

(في صفته)

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَجْنَاسَ الْقَطِّ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ مَقَاصِدِ الْكُتَّابِ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْبَرَايَةِ ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ الْكِتَابَةِ . قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ عَجَلَانَ : مَنْ وَعَى قَلْبَهُ كَثْرَةَ أَجْنَاسِ قَطِّ الْأَقْلَامِ ، كَانَ مُقْتَدِرًا عَلَى الْخَطِّ . وَقَالَ الْمُقَرَّرُ الْعَلَاءِيُّ ابْنَ فَضْلِ اللَّهِ تَعْمَدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ : كَانَ بَعْضُ الْكُتَّابِ إِذَا أَخَذَ الْأَنْبُوبَةَ لِيَبْرِيهَا تَقَرَّسَ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُطَّ تَوَقَّفَ ثُمَّ تَحَرَّى ، فَتَوَقَّفَ ثُمَّ يَقُطُّ عَلَى تَثَبُّتٍ .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقط على نوعين :

النوع الأول - المحترف ، وطريق بريه أن يحرف السكين في حال القط ، وهو ضربان ، قائم ومصوب : أما القائم فهو ما جعل فيه ارتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوب ، فهو ما كان القشر فيه أعلى من الشحم .

النوع الثاني - المستوى ، وهو ما تساوى سنائه ، وأجودهما المحترف ، وقد صرح بذلك الوزير أبو علي بن مُقَلَّة ، فقال : وأحدها ما كان ذا سنٍّ مرتفع من الجهة اليمنى ارتفاعا قليلا إذا كان القلم مصوبا ، وهذا معنى التحريف ؛ وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار كما تقدّم عند ذكر سِنِّي القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذًا من جهة اليسار إلى جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوية ، لأن المستوى أقلّ تصرفا من المحترف . قال : وقد كان بعض من لا يعتدّ به يقط القلم على ضدّ

ما يعتمده الأستاذون، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره، فكان خطه لا يجيء إلا رديئا، وإذا كانت القطعة على الضد من ذلك، كان الكاتب متصرفا في الخط، متمكنا من القراطاس. قال الوزير ابن مقلة: وأصحح السكين قليلا إذا عزمْتَ على القَطِّ ولا تنصّبها نصبا، يريد بذلك أن تكون القطعة أقرب إلى التحريف، وأن تكون مصوّبة. قال الشيخ شمس الدين بن أبي رقية: سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام، والتحريف والتدوير، فقال: الرقاع والتواقيع أميلُ إلى التدويرين بينَ، قِطْعَةً مُرَبَّعَةً، والنسخ والمحقق والمشعر أميلُ إلى التحريف، والمحقق أكثر تحريفا منهما. وقد فسر ابن الوحيد قول ابن البوّاب: لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير، إن المعنى أن لكل قلم قِطْعَ صفة، فقطعة الريحاني أشدها تحريفا، ثم يَقُلُّ التحريف في كل نوع من أنواع قط الأقلام حتى تكون الرقاع أقلها تحريفا.

النظر السادس

(في معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالرّاية، وما لكل من سِنِّي القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف: من لم يَدْرِ وجه القلم، وصدره، وعرضه، فليس من الكتابة في شيء. وقد فسر ذلك الوزير أبو علي بن مقلة فقال: أعلم أن للقلم وجهًا وصدرًا وعرضًا، فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قِطْعَهُ، وهو ما يلي لمة القلم وأما صدره فهو ما يلي قشرته، وأما عرضه، فهو نزولك فيه على تحريفه.

قال: وحرف القلم هو السنّ العليا وهي اليمنى.

الجملة السادسة

(في مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطعة، وتفرعها عن قلم الطومار، ونسبتها من مساحته على اختلاف مقاديرها في الدقة والغليظ والتوسط، وما ينبغي أن يكون في دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام التي جرى الاصطلاح عليها بين الكتاب، وأعظمها وأجلها وأكثرها مساحة في العرض هو قلم الطومار : وهو قلم كانت الخلفاء تعلم به في المكتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر، ويؤخذ منه من أعلى الفتحة ما يسع رؤوس الأنامل ليمكن الكاتب من إمساكه، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة، ثقل على الأنامل ولا تحتمله، ويتخذ أيضا من القصب الفارسي، ولا بد من ثلاثة شقوق لتسهيل الكتابة به ويجري المداد فيه . ولهم قلم دونه يسمى مختصر الطومار، وبه يكتب النواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتماد على المراسيم ونحوها . وقدروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون معتريضا، وهو أصل لما دونه من الأقلام، فقلم الثلاثين من هذه النسبة مقدر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدر باثنتي عشرة شعرة، وقلم الثلث مقدر بثمان شعرات، ومختصر الطومار مابين الكامل منه والثلاثين . وكل من هذه الأقلام فيه ثقل وهو ما كان إلى الشيع أميل، وخفيف، وهو ما كان إلى الدقة أقرب . إذا تقرّر ذلك فطول الألف في كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه في مثله ويجعل طولها نظير ذلك، ففي قلم الطومار يضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة في مثلها خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولها، وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطومار

وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة وكذلك الجميع فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علي بن مقلة : ينبغي أن تكون أقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبرى للقلم الذي هو بصدد أن يحتاج إلى تآبته ليحده مهياً ، فلا يتأخر لأجل برايته .

الآلة الثانية - المِقلّة : وهي المكان الذي يوضع فيه الأقلام ، سواء كان من نفس الدواة أو أجنبية عنها ، وقد لاتعدّ من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالباً .

الآلة الثالثة - المُدِّيّة ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(في معناها وأشتقاقها)

قال الجاحظ : يقال بضم الميم وفتحها وكسرهما وتجمع على مدّى : وهي السكين ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا بَغَاءَ الذِّبْ فَذَهَبَ بَابِنِ أَحَدَاهُمَا ، فَقَالَتْ لِسَاحِبَتِهَا : إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنِكَ ، وَقَالَتِ الْآخَرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنِكَ . فَتَحَاكَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى ، فخرَجَتَا إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ ، فَقَالَ : اثْنُونِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَتِ الصَّغْرَى : لَا تَفْعَلْ رَحِمَكَ اللَّهُ هُوَ أَبْنَاهُ ، فَقَضَى بِهِ لِلصَّغْرَى " قال أبو هريرة : إِنْ سَمِعْتُ بِالسَّكِينِ إِلَّا يَوْمُئِذٍ مَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا الْمُدِّيَّةَ .

ثم الأصل في السكين التذكير ، قال أبو ذؤيب :

يُرَى نَاصِحًا لِي مَا بَدَأَ ، فَإِذَا خَلَا ، * فَذَلِكَ سِكِّينٌ عَلَى الْخَلْقِ حَاقِظٌ ^(١)

(١) في اللسان والصاح يري ناصحاً فيما بدا .

قال الكسائي : ومن أنث أراد المديّة وأنشد :

فَعَيْثُ^(١) فِي السَّنامِ غَدَاةٌ قُرٌّ * بِسَكِينٍ مَوْثِقَةٍ النَّصَابِ

ويقال سَكِينَةٌ بالهاء، وهو قليل . وفي حديث المَبْعَثِ "أنه لما شَقَّ الْمَلِكُ بطنه صلى الله عليه وسلم قال : ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ" وتجمع على سَكَكِينَ، سميت مُدِيَّةً أخذًا من مَدَى الأجل وهو آخره : لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره ، وسميت سَكِينًا لأنها تَسْكُنُ حركة الحيوان بالموت . ونِصَابُ السكين أصلُها، ونِصَابُ كل شيء أصله قال الشاعر :

وإنَّ نِصَابِي إن سَأَلْتِ ، وأُسْرَتِي * من الناس حَى يَقْتُنُونَ الْمَرْثَ^(٢)

• أى وإن أصلى . ويقال أَنْصَبْتُ السكين إذا جعلت لها نِصَابًا، كما يقال أَقْبَضْتُها إذا جعلت لها مَقْبِضًا، وأَقْرَبْتُها إذا جعلت لها قَرَابًا، وأَغْلَقْتُها إذا جعلت لها غِلَافًا، والحديدَةُ الذاهبة في النِصَابِ سِيلَانٌ . ويقال أَحْدَدْتُ السكين فأنا أَحَدُهُ إِحْدَادٌ وَحَدَّ السكينُ نَفْسَهُ صار حَادًا، وأَحَدٌ فهو مُحَدٌّ ، وسكين حَادٌّ، فإذا أُمِرَتْ مِنْ أَحَدِهِ قُلْتُ أَحَدِدُهُ، ومن حَدَّهُ قُلْتُ حَدَّهُ .

الوجه الثاني

(في صفتها)

قال بعض الكُتَّاب : هى مِسْنُ الأَقْلَامِ ، تَسْتَحَدُّ بها إذا كَلَّتْ ، وتطلق بها إذا وَقَفَتْ ، وتَلُمُّها إذا تَسَعَّتْ . فتجب المبالغة في سَقَمِها وإحْدَادِها ليتمكن من البرى ، فيصفو جوهر القلم ، ولا نشطى قَطَطُهُ . وينبغى أن لا يستعملها في غير البراية لثلاث تكا^(٣) وتفسد . قال الصولي : وَأَحْدَدُ سَكِينِكَ ولا تستعملها لغير ذلك . قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : وآسَحَدُ السكين حَدًا، ولتكن ماضية جدًا، فإنها

(١) أى أثري السنام بالسكين انظر اللسان (٢) المَرْثَمُ من الابل الكريم تقطع أذنه ويترك لها زئمة

(٣) أى وحدتها أيضا كما يستفاد من نهاية عبارته .

إذا كانت كالة جاء الخط رذيثا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
فساد البراية من بلاد السكين . قال محمد بن عمر المدائني : ينبغي أن تكون لطيفة
القد ، معتدلة الحد . فقد كره المبالغة في سقيها ، لتمكن الباري من بريها . ولا عيب
في حملها في الكرم والخلف ، فقد روى المدائني عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال :
اتخاذ الرجل السكين في خقه من المروءة . قالوا : وأحسنها ما عرض صدره ،
وأزهر حده ، ولم يفضل عن القبضة نصابه ، وأستوى من غير أعوجاج . قال
الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدي وجماعة من الكُتّاب يستحسنون
العقاية : وهي التي صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكيننا ، فقال :
وسكين عتيقة الحديد ، وثيقة الشـعيرة ، مُحْكَمَة النَّصَاب ، جامعة الأسباب ، أحد
من البين ، وأحسن من اجتماع محبين ، وأمضى من الحسام ، في برى الأفلام . والله
القائل في وصفها :

أنا إن شئت عدة لعدو * حين يُحْشَى على النفوس الحِمَامُ

أنا في السلم خادم لدواة * وبحدى تقوم الأفلامُ

الآلة الرابعة - المِقْطُ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرى في الصحاح إلا أنه

قال فيه : مِقْطَةٌ بالتأنيث .

قال الصولي : ينبغي أن يكون المِقْطُ صُلْبًا فتمضى القِطَّةُ مستوية لامتْظِيَّة .

قال الوزير أبو علي بن مقالة رحمه الله : إذا قططت فلا تقط إلا على مِقْطٍ أملس

صُلْبٍ غير مُثَلَّم ولا خَشِنٍ لئلا يَتَشَطَّى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :

ويتعين أن يكون من عود صُلْبٍ كالآيُوس والعاج ، ويكون مسطَّح الوجه الذي

يَقُطُّ عليه ، ولا يكون مستديرا : لأنه إذا كان مستديرا تشَطَّى القلم ، وربما تهلت

القِطَّةُ فتأتى الإدارات والتشعيرات غير جيِّدة . قلت وينبغي أن لا يكون مع ذلك

مانعا كالحديد والنحاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا تجيء القطة صالحة .

الآلة الخامسة - المحبرة، وهي المقصود من الدواة، وتشتمل على ثلاثة أصناف .

الصنف الأول - الجونة، وهي الظرف الذى فيه اللبقة والخبر .

قال بعض فضلاء الكتاب : وينبغي أن تكون شكلا مدور الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين ، يوقدهما خط ، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد فى زواياه فيفسد المداد ، فإذا كان مستديرا كان أبقي للداد ، وأسهل فى الاستمداد .

الصنف الثانى - اللبقة ، وتسميها العرب الكُرُفَ تسمية لها بأسم القطن الذى يُتخذ منه فى بعض الأحوال كما سيأتى ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(فى اشتقاقها)

يقال أَلَقْتُ الدواة وَلَقْتُهَا ، أخذنا من قولهم : فلان لا تُلَيِّقُ كَفَّهُ درهما أى لا تحسبه ولا تُمسكه ، وأنشد الكسائى :

كَفَّاكَ كَفَّ مَا تُلَيِّقُ دِرْهَمًا * جُودًا ، وَكَفَّ تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدَّمَ

يصفه بالجود ، أى كَفَّاكَ مَا تُمَسِّكُ درهما ، ويقال : مَالَقَتِ الْمَرَاةُ عِنْدَ زَوْجِهَا أى مَا عَاقَت . قال المبرد : دخل الأَصْمَعِيُّ عَلَى الرَّشِيدِ بَعْدَ غَيْبَةٍ غَابَهَا ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ حَالُكَ يَا أَصْمَعِي ؟ فَقَالَ : مَا أَلَاقَتْنِي نَحْوُكَ أَرْضُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : نَأْمَسُكَ الرَّشِيدُ عَنْهُ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَا أَهْلَ الْمَجْلِسِ ، قَالَ لَهُ : مَا مَعْنَى الْأَقْتَنِي ؟ قَالَ : مَا حَبَسْتَنِي ، فَقَالَ : لَا تَكَلِّتْنِي فِي مَجْلِسِ الْعَامَةِ بِمَا لَا أَعْلَم . قَالَ الْجَاهِظُ : وَلَا تَسْتَحْقِ أَسْمَ اللَّيْقَةِ حَتَّى تُلَاقَ فِي الدَّوَاةِ بِالنَّقْسِ : وَهُوَ الْمِدَاد .

الوجه الثاني

(فيما نتخذ منه ونتعاهد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصوف والقطن ، ويقال فيه الكُرسُف ،
والبرُس ، والطُوط ، والعُطْبُ ، والأولى أن تكون من الحرير الخشن : لأن أنتفاشها
في المحبرة وعدم تليدها أعون على الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين على الكاتب
أن يتفقد اللِّقَّة ويطيِّبها بأجود ما يكون ، فإنها تُروِّح على طول الزَّمن ، والله القائل :

مُتَطَرِّفٌ شَهِدْتُ عَلَيْهِ دَوَاتُهُ * أن الفتي لا كان غيرَ ظَرِيفٍ

إن التفَقَدَ للدَّوَاةِ فضيلةٌ * موصوفةٌ للكاتب الموصوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيِّب دواته بأطيب ما عنده من طيب نفسه ، فسئل عن
ذلك ، فقال : لأني أكتبُ به أَسْمَ الله تعالى وأَسْمَ رسوله صلى الله عليه وسلم وأَسْمَ
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فلحسُه بالسنتنا ونمحوه
بأكمننا .

قال الشيخ علاء الدين السُّرْمَرِيُّ : ويتعين على الكاتب تجديد اللِّقَّة في كل
شهر ، وأنه حين فراغه من الكتابة يُطبق المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه ،
يفسد الخط . ونظم ذلك في أرجوزته فقال :

وَجَدَدِ اللَّيْقَةِ كُلِّ شَهْرٍ * فَشَيْخُنَا كَانَ بِهَذَا يُغْرِى

لأجل ما يقع فيها من قَذَى * فَيَتَنَشَّى مِنْ ذَاكَ فِي الْخَطِّ أَدَى

وينبغي له مع ذلك أن يصونها عن الأشياء القَدِرَةِ كالبصاق ونحوه ، فقد حكى
محمد بن عمر المدائني أن بعض العلماء رأى صبياً يمسح في دواته فزجره ، وقال
لعلَّه : أَمْنَعُ الصَّبِيَّانِ عَنْ مِثْلِ هَذَا ، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المداثني : كأنه تخرج أن يكتب القراء بمداد غير نظيف . قال المداثني : وكان بلغني عن ابن عباس أنه أجاز أن يبصق الرجل في دواته ، فسألت أحمد بن عمرو البزاز عن ذلك فأنكره ، وقال : هذا حديث كذب ، وضعه عاصم بن سليمان الكودن ، وكان كذاباً بذكرته لأبي داود الطيالسي فقال : هو كذاب يجب أن تعرفوا كذبه ، صفوا له مسألة حتى يحدثكم بحديثي ، فقال : بحثت أنا وعمر بن موسى الحارثي في جماعة ، فقال له عمر : ما تقول في الرجل يَبْزُق في الدواة ويستمد منها ؟ وكان قد ذهب بصره ، فقال : حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر أنه كان يبزق في الدواة ويستمد منها ، ثم قال : وحدثنا هشام بن حسان عن عكرمة عن ابن عباس مثل ذلك ، قال : فهمز بعض أصحابنا وقال : كان ابن عباس لا يبصر ، قال : ففهم ، فقال : نعم . كان ابن عباس لا يرى بذلك بأسا . .

الصنف الثالث - المداد والخبر وماضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأول

(في تسميتهما وأشتقاقهما)

أما المداد فسمي بذلك لأنه يمد القلم أي يُعِينه ، وكل شيء مددت به شيئا فهو مداد ، قال الأخطل :

رَأَتْ بَارِقَاتٍ بِالْأَكْفِ كَأَنَّهَا * مَصَابِيحُ سُجْرٍ أُوقِدَتْ بِمِدَادٍ ^(١)

سمي الزيت مدادا لأن السراج يمد به ، فكل شيء أمددت به الليقة مما يكتب به فهو مداد ، وقال ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ : هو من المداد لامن الإمداد . ويقال : أمد القلم في الخير مثل ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ ﴾ ومدّه في الشر ، مثل ﴿ وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مِدًّا ﴾ . ويقال فيه أيضا نَقَسَ

(١) في اللسان رأوا بواو الجماعة .

ونَقَسَ ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أفصح ، ويجمع على أنقاس .

وأما الخبر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الخبر يراد به اللون الخالص الصافي من كل شيء ، قال ابن أحمري ذكر امرأة :

تَبَّهْ بِفَاحِمٍ جَعِيدٍ * وَأَبْيَضَ نَاصِعِ الْخَبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفي الخبر ”يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ رَجُلٌ قَدْ ذَهَبَ خَبْرُهُ وَسَبَّرُهُ“ بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال ابن الأعرابي : خبره حسنه ، وسبَّره هتته ، وقال المبرد : قال التوزي : سألت الفراء عن المداد لم سمي خبراً ؟ فقال يقال لِلْمُعَلِّمِ خَبْرٌ وَخَبْرٌ يَعْنِي بَفَتْحِ الْحَاءِ وَكسرها ، فأرادوا مداد خبَر أي مداد عالم ، فحذفوا مداد وجعلوا مكانه خبراً . قال : فذكرت ذلك للأصمعي ، فقال : ليس هذا بشيء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه خبَر إذا كثرت صَفَرَتِهَا حَتَّى صَارَتْ تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ ، والخبر الأثري بقى في الجلد ، وأنشد :

لَقَدْ أَشْمَمْتُ بِي آلَ فَيْدٍ وَغَادَرْتُ * بِجِلْدِي خَبْرًا بِنْتُ مَصَّانَ بَادِيَا

أراد بالخبر الأثر ، يعني أثر الكتابة في القرطاس ، قال المبرد : وأنا أحسب أنه سمي بذلك لأن الكتاب يُخَبَّرُ به أي يُحَسَّنُ ، أخذوا من قولهم خَبَرْتُ الشَّيْءَ تَجَبُّرًا إِذَا حَسَّنْتَهُ .

الوجه الثاني

(في شرف المداد والخبر ، واختيار السواد لذلك)

في الخبر ”يُؤْتَى بِمَدَادٍ طَالِبِ الْعِلْمِ وَدَمِ الشَّهِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُوضَعُ أَحَدُهُمَا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَالْآخَرُ فِي كِفَّةِ الْآخَرِ“ فلا يرجح أحدهما على الآخر ، قال بعض الحكماء : صورة المداد في الأبصار سوداء ، وفي البصائر بيضاء . وقد قيل : كواكبُ

الحِكم في ظلم المداد . ونظر جعفر بن محمد إلى قتي على ثيابه أثر المداد ، وهو يستره منه ، فقال له : يا هذا ! إن المداد من المروءة . وأنشد أبو زيد :

إذا ما المنسك طيب ريح قوم * كفتني ذاك رائحة المداد

وما شيء بأحسن من ثياب * على حافات حم السواد

وقال بعض الأدباء : عطفوا دفاتر الآداب بسواد الجبر . وكان في حجر إبراهيم ابن العباس قرطاس يمشق فيه كلاما فأسقط ، فمسحه بكفه ، فقبل له لو مسخته بغيره ؟ فقال المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد في ذلك :

إنما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوى عطر الرجال

وأنشد غيره :

من كان يعجبه أن مس عارضه * منك يطيب منه الريح والنسما

فإن منكي مداد فوق أتملي * إذا الأصابع يوما مست القلما

على أن بعضهم قد أنكروا ذلك ، وقال : المداد في ثوب الكاتب سخافة ، ودناءة منه وقلة نظافة . قال أبو العالية : تعلمت القراءة والكتابة ، وما شعر بي أهلي ، وما روى في ثوبي مداد قط . وأنشدوا :

دخيل في الكتابة يدعيها * كدعوى آل حرب في زياد

يشبه ثوبه للحو فيه * إذا أبصرته ثوب الحداد

فدع عنك الكتابة لست منها * ولو لطخت وجهك بالمداد

وقال فارس بن حاتم : يريق الجبر تهدي العقول لخبايا الحكم : لأنه أبق على الدهر ، وأنمي للذكر ، وأزيد للأجر .

وأعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مدار الربع منها وأنشدوا في ذلك :

رُبُّعُ الْكَتَابَةِ فِي سَوَادٍ مِدَادِهَا * وَالرُّبْعُ حُسْنُ صِنَاعَةِ الْكُتَّابِ

وَالرُّبْعُ مِنْ قَلَمٍ تُسَوَّى بِرِيهِ * وَعَلَى الْكَوَاغِدِ رَابِعُ الْأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما أخير فيه السواد دون غيره لمضادته لون

الصحيفة . قال : وليس شيء من الألوان يضاد صاحبه كمضادة السواد للبياض .

قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مُبَيِّضٌ * وَالْفَرْعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوَّدٌ

ضِدَّانٍ لِمَا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا * وَالضَّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضَّدِّ

ويقال في المداد : أسود قاتم ، وهو أول درجة السواد ، وحالك وحائك ،

وحلوكوك ، وحلبوب ، وداج ، ودجوجي ، وديجور ، وأدهم ، ومدهام .

قال المدائني : حدثني بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبي عبيدة .

كتب جعفر بن حدار بن محمد إلى دعلج بن محمد يستهديه مدادا :

يَا أَحْيَى لِلوَدَادِ لَا لِلدَّادِ * وَصَدِيقٍ مِنْ بَيْنِ هَذَا الْعِبَادِ

وَالَّذِي فِيهِ أَلْفٌ مَجْدٍ طَرِيفٌ * قَدْ أَمَدَّتْ بِأَلْفِ مَجْدٍ تِلَادِ

أَنَا أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِ دَوَاتِي * أَصَبَحْتُ تَقْتَضِي قَيْصَ حَدَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وَسَوْدَاءُ مَقَاتِلَهَا مِثْلُهَا * وَأَجْفَانُهَا مِنْ لُحَيْنٍ صَقِيلِ

إِذَا أَذْرَفَتْ عَبْرَةً خَلَّتْهَا * كَغَالِيَةٍ فَوْقَ خَدِّ أَسِيلِ

الوجه الثالث

(في صنعتهما، وفيه نظران)

النظر الأول - في مادتهما .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوَادَّ لَذَلِكَ مِنْهَا مَا يُسْتَعْمَلُ بِأَصْلِهِ وَلَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى كَبِيرِ عِلَاجٍ وَتَدْيِيرٍ كَالْعَفْصِ، وَالزَّاجِ، وَالصَّمْغِ، وَمَا أَشَبَّهَا . وَمِنْهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَى عِلَاجٍ وَتَدْيِيرٍ، وَهُوَ الدِّخَانُ . قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ خُلُوفُ بْنُ شُعْبَةَ الْكَاتِبُ : وَيُتَوَخَّى فِي الدِّخَانِ أَنْ يَكُونَ مِنْ شَيْءٍ لَهُ دَهْنِيَّةٌ، وَلَا يَكُونَ مِنْ دِخَانِ شَيْءٍ يَابِسٍ فِي الْأَصْلِ لِأَنَّ دِخَانَ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُهُ وَرَاجِعٌ إِلَيْهِ .

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ الْكَاتِبُ : كَانَ يَأْتِينَا رَجُلٌ فِي أَيَّامِ نُحْمَارِيهِ بِمِدَادٍ لَمْ أَرِ أَنْعَمَ مِنْهُ، وَلَا أَشَدَّ سَوَادًا مِنْهُ . فَسَأَلْتُهُ مِنْ أَىِّ شَيْءٍ اسْتَخْرَجْتَهُ ؟ فَكُنْتُ ذَلِكَ عَنِ، ثُمَّ تَلَطَّفْتُ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لِي : مِنْ دَهْنِ بَزْرِ الْفُجْلِ وَالْكَنْانِ، أَضَعُ دُهْنَ ذَلِكَ فِي مَسَارِجٍ وَأَوْقِدُهَا، ثُمَّ أَجْعَلُ عَلَيْهَا طَاسًا حَتَّى إِذَا نَقِدَ الدَّهْنَ، رَفَعْتُ الطَّاسَ، وَجَمَعْتُ مَا فِيهَا بِمَاءِ الْآسِ وَالصَّمْغِ الْعَرَبِيِّ . وَإِنَّمَا جَمَعُهُ بِمَاءِ الْآسِ لِيَكُونَ سَوَادُهُ مَائِلًا إِلَى الْخَضِرَةِ، وَالصَّمْغُ يَجْمَعُهُ وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّطَايِيرِ .

قَالَ صَاحِبُ الْحَلِيَّةِ : وَإِنْ شِئْتَ أَخَذْتَ مِنْ دِخَانِ مَقَالِي الْحَمِصِ وَشَبَّهَ، وَتَلَقَّى عَلَيْهِ مَاءً، وَتَأَخَذَ مَا يعلو فوقه وَتَجَمَّعَ بِمَاءِ الْآسِ، وَالْعَسَلِ وَالْكَافُورِ وَالصَّمْغِ الْعَرَبِيِّ وَالْمَلْحِ، وَتَمَدَّهُ وَقَطَعَهُ شَوَابِيرَ، وَالدِّخَانُ الْأَوَّلُ أَجُودُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

النظر الثاني - في صنعتهما، وفيه مساكن

المسلك الأول

(في صناعة المداد، وبه كانت كتابة الأولين من أهل الصناعة وغيرهم)
قال الوزير أبو علي بن مقلّة رحمه الله : وأجود المداد ما أُتخذ من سُخَامِ النَّقْطِ ،
وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال ، فيجاء بنخله وتصفيته ، ثم يلقى في طنجير ، ويُصَبُّ
عليه من الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر
درهما ، ومن الصَّمْغِ المسحوق خمسة عشر درهما ، ومن العَفْصِ عشرة دراهم ،
ولا يزال يساط على نار لينة حتى يشتج حُرْمُه ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء
ويرفع إلى وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلى أنه لا ينحصر في سُخَامِ النَّقْطِ ، بل
يكون من دُخَانٍ غيره أيضا كما تقدّم . نعم ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك
إلى الكافور لتطيب رائحته ، والصَّبِرِ ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن
الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب .

المسلك الثاني

(في صناعة الحبر، وهو صنفان)

الصنف الأول - ما يناسب الكاغِدَ أى الورق : وهو حبر الدُّخَانِ ، ونحن
نذكر منه صفات إن شاء الله تعالى .

”صفة“ يؤخذ من العَفْصِ الشامي قدر رطلٍ يَدُقُّ جريشا ويُنَقَعُ في ستة أرطال
ماءً مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا ، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف
أو الثلثين ، ثم يصفى من مئزر ويترك ثلاثة أيام ، ثم يصفى ثانيا ، ثم يضاف لكل رطل
من هذا الماء أوقية من الصَّمْغِ العربي ، ومن الزاج القُبْرِيّ كذلك ، ثم يضاف إليه
من الدخان المتقدم ذكره ما يكفي من الحلاكة . ولا بد له مع ذلك من الصَّبِرِ
والعسل ليمتنع بالصَّبِرِ وقوعُ الذباب فيه ، ويُحَفَظُ بالعسل على طول الزمن ؛ ويجعل

(١) بعد أن تَسْحَق الدُّخَانُ بِكُلُوةٍ كَفَكَ
بالسكر النبات والزعفران الشعر والزنجار إلى أن تُجِيدَ سَحْقُهُ ، ولا تَصْخَنهُ في صلاية
ولا هَاوُنَ يَفْسُدُ عَلَيْكَ .

الصنف الثاني - ما يناسب الرِّقَّ ، هو يَسْمَى الحَبْرُ الرَّأْسُ ، ولا دُخَانُ فِيهِ ،
ولذلك يَحْيَى بَصَاصاً بَرَّاقاً ، وبه إضرار للبصر في النظر إليه من جهة بَرِيقِهِ ، وَيَفْسُدُ
الكَاغِدُ عَلَى طُولٍ ، ونحن نذكر منه .

”صفة حبر“ وهي ، يُؤْخَذُ مِنَ الْعَفْصِ الشَّامِي رِطْلٌ وَاحِدٌ فَيُجْرَشُ ، وَيُلْقَى عَلَيْهِ
مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ ثَلَاثَةُ أَرْطَالٍ ، وَيَجْعَلُ فِي طِنَجِيرٍ ، وَيُوضَعُ عَلَى النَّارِ وَيُوقَدُ تَحْتَهُ
بِنَارٍ لَيِّنَةٍ حَتَّى يَنْضَجَ ، وَعَلَامَةُ نَضْجِهِ أَنْ تَكْتَبَ بِهِ فَتَكُونَ الْكَتَابَةُ حُمْرَاءَ بَصَاصَةً ،
ثُمَّ يُلْقَى عَلَيْهِ مِنَ الصَّمْغِ الْعَرَبِيِّ ثَلَاثُ أَوَاقٍ ، وَمِنَ الزَّاجِ أَوْقِيَةٌ ثُمَّ يَصْنَعُ وَيُودَعُ
فِي إِنَاءٍ جَدِيدٍ ، وَيَسْتَعْمَلُ عِنْدَ الْحَاجَةِ .

”صفة حبر سَفَرِي“ يَعْمَلُ عَلَى الْبَارِدِ مِنْ غَيْرِ نَارٍ ، يُؤْخَذُ الْعَفْصُ فَيُجْرَشُ جَرِشاً
جَيِّداً وَيَسْحَقُ لِكُلِّ أَوْقِيَةٍ عَفْصٍ دَرَاهِمُ وَاحِدَةٍ مِنَ الزَّاجِ ، وَدَرَاهِمُ مِنَ الصَّمْغِ الْعَرَبِيِّ ،
وَيُلْقَى عَلَيْهِ وَيُرفَعُ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ . فَإِذَا أَحْتَاجَ إِلَيْهِ صُبَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ قَدَرُ
الْكُفَايَةِ وَاسْتَعْمَلَهُ .

الوجه الرابع

(فِي لَيْقِ الْأَفْتَاتِحَاتِ)

وهي ما يكتب به فَوَاتِحُ الْكَلَامِ : مِنَ الْأَبْوَابِ ، وَالْفُصُولِ وَالْأَبْتِدَاءِ
وَنَحْوِهَا ، وَلَا مَدْخَلَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي فَنِي الْإِنْشَاءِ وَالْدِّيُونَةِ ، إِلَّا الذَّهَبُ فَإِنَّهُ يَكْتَبُ بِهِ
فِي الطُّغْرَاوَاتِ فِي كُتُبِ الْقَائِنَاتِ ، وَفِي الْأَسْمَاءِ الْجَلِيلَةِ مِنْهَا ، كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ

(١) بياض بالاصل . وفي الضوء ثلث أوقية بعد الخ .

المكتابات من فن الإنشاء إن شاء الله تعالى، وباقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتَّاب النسخ إلا أنه لا بأس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .
ونحن نذكر منه ما الغالب استعماله وهو أصناف :

الصفى الأول - الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُحَلَّ ورق الذهب ، وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذى يستعمل فى الطلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافى النقى ، ويقتل فيه فى إناء صينى أو نحوه حتى يضمحل خرمه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافى النقى ويفسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ، ثم يصفى الماء عنه ويؤخذ ما رسب فى الإناء ، فيجعل فى مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من اللبقة ، والزر اليسير من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليل من ماء الصمغ المحلول ، ويكتب به . فإذا جف صقل بمصقلة من خرز حتى يأخذ حده ، ثم يزك بالخبز من جوانب الحرف .

الصفى الثانى - اللآزورد ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدنى ، وباقى ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى الدهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقى عليه قليل من ماء الصمغ العربى ، ويجعل فى دواة كدواة الذهب المتقدم ذكرها ، وكلما رسب حرك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كي لا يسود ويفسد .

الصفى الثالث - الزنجفر ، وأجوده المغربى ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتى ينعم ، وإن سحق بماء الرمان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يلاق بليقة كما يلاق الخبز ، ويجعل فى دواة ويكتب به .

الصفى الرابع - المغرة العراقية ، وهى بما يكتب به فى نفائس الكتب ،

وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان . وطريقه في الكتابة كما في الزنجفر ، والله أعلم .

الآلة السادسة - الملوأق ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به الدواة أى تحرك به اللبقة . قال بعض الكتّاب : وأحسن ما يكون من الآنوس لثلا يغيره لون المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا ، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة - المرملة ، وأسمها القديم المتربة ، جعلها آلة للتراب ، إذ كان هو الذى يُترَب به الكتُب . وتشتمل على شيئين :

الأول - الظرف الذى يُجعل فيه الرمل ، وهو المسمى بذلك . ويكون من جنس الدواة إن كانت الدواة نحاسا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا على حسب ما يختاره ربّ الدواة . وحملها من الدواة ما إلى الكتّاب مما بين المحبرة وباطن الدواة مما يقابل المنشأة الآتى ذكرها ، ويكون فى فيها شباك يمنع من وصول الرمل الخشن إلى باطنها . وربما أُتخذت مرملة أخرى أكبر من ذلك تكون فى باطن الدواة لاحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لصغرها . وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مرملة كبيرة تقارب حبة الرّانج^(١) ، لها عنق فى أعلاها ، تكون فى الغالب من جنس الدواة من نحاس ونحوه ، وربما أُتخذت من خشب لُقْضاة الحكم ونحوهم .

ومما ألغز فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعز :

ظَرِيفَةُ الشَّكْلِ وَالتَّمَثَالِ ، قَدْ صُنِعَتْ * نَحْيَى الْعُرُوسَ وَلَكِنْ لَيْسَ تَغْتَلِمُ
كَأَنَّهَا مِنْ ذَوَى الْأَلْبَابِ خَاشِعَةٌ * تَبْكِي الدَّمَاءَ عَلَى مَاسِطَرِّ الْقَلَمِ

(١) أى الجوز الهندى .

وتسمى المتربة أيضا، وفي ذلك يقول الوجه المناوى :

يَا مَادِحًا أَمْرًا وَلَمْ يَأْتِهِ * وَلَمْ يَنْلِ مِنْهُ وَلَا جَرَّةَ

لَا تَغِيْطُ الْكَاتِبَ فِي حَالِهِ ، * فَإِنَّهُ الْمُسْكِينُ ذُو الْمِتْرَبَةِ

الثانى - الرمل، وقد اختار الكُتَّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره ، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل ؛ وخيره ما كان دقيقا .
وهو على أنواع :

النوع الأول - ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق للجبل المُقَطَّم من الجهة الشرقية، وهو أكثر الأنواع وأعمُّها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى - يؤتى به من الوَاحَاتِ، وهو رمل متجَرِّ شديدُ الحمرة، يتَّخَذُ منه الكُتَّابُ حجارةً لَطَافًا تُحْتَبَسُ بالسكين ونحوها على الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيوم وما والاها .

النوع الثالث - يؤتى به من جزيرة بحر القلزم من نواحي الطُّور، وهو رمل دقيق أصفر اللون، قريب من الزعفران، وله بهجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع - رمل بين الحمرة والصفرة، به سُدُورٌ بَصَاصَةٌ يَحَالُفُ الناظر سُدُورُ الذهب ، وهو عزيز الوجود جدًّا، وبه يُرْمَلُ الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة - المنشأة، وتشتمل على شيئين أيضا .

الأول - الظرف، وحاله كحال المِرمَلَةِ فى الهيئة والمحلِّ من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لأشْبَاطَ فى فَمِهِ ليتوصَّل إلى اللصاق، وربما آتخذ بعض ظرفاء الكُتَّابِ مِنْشَأَةً أُخْرَى، غير التى فى صدر الدواة من رِصَاصٍ على هيئة حُقٍّ لطيف، ويجعلها

في باطن الدواة كالمِرملة المتوسطة ، فإن اللصاق قد يتغير بمكنه في النحاس ، بخلاف الرصاص .

الثاني - اللصاق ، وهو على نوعين : أحدهما اللّش المتخذ من البر ، وطريقه ان يطبخ على النار كما يطبخ للقماش ، إلا أنه يكون أشد منه ، ثم يجعل في المنشأة ، وهو الذي يستعمله كُتّاب الإنشاء ولا يقولون على غيره لسرعة اللصاق به ، وموافقة لونه للورق في نصاعة البياض ، والثاني المتخذ من الكثيراء ، وهو أن تبلّ الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللصاق ، ثم تجعل في المنشأة . وكثيرا ما يستعمله كُتّاب الديونة ، وهو سريع التغير إلى الخضرة ولا يسرع اللصاق به . وينبغي أن يستعمل في اللصاق في الجملة الماورد والكافور لتطيب رائحته .

الالة التاسعة - المنفذ ، وهي آلة تشبه المخرز . تتخذ لحزم الورق ، وينبغي أن يكون محل الحاجة منها متساويا في الدقة والغلظ ، أعلاه وأسفله سواء ، لثلا تختلف أثقاب الورق في الضيق والسعة ، خلا أن يكون ذبابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ في المقصود ، وحكمه في النصب في الطول والغلظ حكم المديّة ، وقد سبق . وأكثر من يحتاج إلى هذه الآلة من الكُتّاب الدواوين ، وربما احتاج إليها كاتب الإنشاء في بعض أحواله .

الالة العاشرة - المِزْمَة ، قال الجوهري : المِزْم بالكسر خشبتان تشدّ أوساطهما بحديدة تكون مع الصياقلة والأبارين ، ولم يزد على ذلك . وهي آلة تتخذ من النحاس ونحوه ، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرّج حال الكتابة لينع الدرّج من الرجوع على الكاتب ، ويُحبس بحبس على الدفتين .

الالة الحادية عشرة - المِفرشة ، وهي آلة تتخذ من حرّ كنان : بطانة وظهارة ، أو من صوف ونحوه ، تُفرش تحت الأقلام وما في معناها مما يكون في بطن الدواة .

الآلة الثانية عشرة - الممسحة، وتسمى الدفتر أيضا، وهي آلة تتخذ من حرق متراكبة ذات وجهين ملونين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القماش، يمسح القلم بها طنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يحف عليه الحبر فيفسد، والغالب في هذه الآلة أن تكون مدورة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سعة التواة . وفيها يقول القاضي الفاضل رحمه الله :

مَسْحَةٌ نَهَاها * يُجِنُّ لَيْلَ الظُّلَمِ
كَأَنَّها مُذْ خُلِقَتْ * مِنْ دِلِّ كَمِ الْقَلَمِ

وقال نور الدين علي بن سعيد المغربي فيها :

وَمَسْحَةٍ لَاحَتْ كَأَنَّي تَبَدَّدَتْ * بِهِ قَطْعُ الظُّلَمَاءِ، وَالصُّبْحُ طَالِعُ
وَلَمَّا أَطَالَ اللَّيْلُ فِيها وَرُودُهُ، * حَكَّتُهُ، وَمُدَّتْ لِلصَّبَاحِ الْمَطَالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

وَمَسْحَةٍ تَنَاهَى الْحُسْنَ فِيها * فَاصْتَحَتْ فِي الْمَلَاَحَةِ لَا تُبَارَى
وَلَا تُنْكَرُ عَلَى الْقَلَمِ الْمُؤَا فِي * إِذَا فِي وَصْلِها خَلَعَ الْعِذَارَا

الآلة الثالثة عشرة - المسقاة، وهي آلة لطيفة تتخذ لصب الماء في المحبرة وتسمى المآوردية أيضا : لأن الغالب أن يجعل في المحبرة عوض الماء ماورد لتطيب رائحتها، وأيضا فإن المياه المستخرجة كماء الورد والخلاف والريحان ونحو ذلك لا تحل الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء . وتكون هذه الآلة في الغالب من الخبزون الذي يخرج من البحر الملح، وربما كانت من نحاس ونحوه، والمعنى فيها أن لا تخرج المحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة .

الآلة الرابعة عشرة - المسطرة، وهي آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلقاتها؛ وأكثر من يحتاج إليها المذهب .
الآلة الخامسة عشرة - المصقلة، وهي التي يُصقل بها الذهب بعد الكتابة، وهي من آلات النواة لاحالة .

الآلة السادسة عشرة - المهرق (بضم الميم وفتح الراء) وهو القرطاس الذي يكتب فيه ، ويجمع على مَهَارِق . قلت : وعد صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآتاري منها المداد، وهو ظاهر، والمخيط، وفي عده بعد .

الآلة السابعة عشرة - المسنن، هو آلة تُخذ لإحداث السكين؛ وهو نوعان : أكهب اللون ، ويسمى الرومى، وأخضر، وهو على نوعين : حجازى، وقوصى؛ والرومى أجودها ، والحجازى أجوده الأخضر .

الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه في بعض الأبيات المتقدمة ؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملة الأولى

(فما نطق به القراءان الكريم من ذلك)

وقد نطق القراءان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللوح . قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامة بفتح اللام على أن المراد اللوح واحد الألواح ؛ سمي بذلك لأن المعاني تلوح بالكتابة فيه ؛ ثم اختلفوا : فقرا نافع برفع محفوظ على أنه نعت للقراءان بتقدير بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح ، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغير والتبديل والتحريف . قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، وقرأ الباقون بالجر على نعت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة في اللوح المحفوظ تصدق ذلك ، وهو أم القراءان ، منه نُسَخَ القرآن الكريم والكتب المنزلة ، ومنه تَنَسَّخُ الملائكة أعمال الخلق . قال ابن عباس : وهو لوح من دُرَّة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وأصله في حجر ملك . وقال أنس : اللوح المحفوظ في جبهة إسماعيل عليه السلام ، وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

قال ابن عباس : وفي صدر اللوح مكتوب " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعده وآتبع رسله أدخله الجنة " . وسُمي محفوظاً لأن الله تعالى حَفِظَهُ عن الشياطين ، وقيل : حَفِظَهُ بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيى بن يَعْمَر في أوج بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والأرض اللوح ، والمعنى أنه شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وهو ذو نور وعلو وشرف . وقد ورد في القرآن بلفظ الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبي : كانت من زبرجدة خضراء . وقال سعيد بن جبيرة : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زمرّد أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس . من برد : وقال الحسن : خَشَبٌ : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : " الألواح التي أُنْزِلَتْ على موسى من سِدْرِ الْجَنَّةِ ، وكان طول كل لوح منها اثني عشر ذراعاً " . وقال وهب بن منبه : من صخرة صماء ألانها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

وَأَخْتَلَفَ فِي عِدْدهَا ، فَقِيلَ : سَبْعَةٌ ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِي عُبَاسٍ ، وَقِيلَ لَوْحَانٌ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ أَبِي عُبَاسٍ أَيْضًا ، وَجُمِعَتْ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي إِيقَاعِ الْجَمْعِ عَلَى الثَّنِيَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ يَرِيدُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَأَخْتَارَهُ الْفَرَّاءُ . وَقِيلَ عَشْرَةٌ . قَالَ أَبُو مَنِبَهٍ ، وَقِيلَ تِسْعَةٌ . قَالَه مُقَاتِلٌ . وَقَالَ أَنَسٌ : تَزَلَّتِ التَّوْرَةُ وَهِيَ سَبْعُونَ وَقَرَّبَعِيرٌ .

الثانى - الرق (بفتح الراء) قال تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ قال المبرد : هو ما يرقق من الجلود لِيُكْتَبَ فِيهِ . قال المعافى بن أبى السيار : ومن ثمَّ اسْتَبْعِدَ حمله عَلَى اللوح المحفوظ ، والمنشور المبسوط ، وأختلف في الكتاب المسطور فيه : فقيل اللوح المحفوظ ، وقيل القرآن ، وقيل ما كتبه الله تعالى لموسى وهو يسمع صرير الأقلام .

الثالث - القرطاس والصحيفة ، وهما بمعنى واحد وهو الكاغد .

أما القرطاس ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَعَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ قال أبو السيار : القرطاس كاغد يتخذ من بردى مصر ، وكل كاغد قرطاس ، قال : والجمهور على كسرها ، وضها أبو زيد وعكرمة وطلحة ويحيى بن يعمر ، والذي حكاه الجوهري عن أبي زيد يخالف ذلك ، فإنه قال فيه قَرَطَسٌ بفتح القاف من غير ألف بعد الراء ، والمراد بالكتاب في الآية الكريمة المكتوب لأنفس الصحيفة . قاله المعافى .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ وقال جل وعز : ﴿ إِنَّ هَذَا لَنَبِيٌّ صَحِيفٍ ﴾

(١) يظهر أنه وقع هنا تخطيط من النسخ والحاصل على ما يؤخذ من كتب التفسير أنه اختلف في الرق فقيل الجلود وقيل اللوح المحفوظ . واختلف أيضا في الكتاب المسطور فيه فقيل القرآن وقيل ما كتبه الخ . فتنبه .

الأولى صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) وتجمع أيضا على صحائف ، وسمى المصحف مُصْحَفًا لجمعه المصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطأ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصِّين يكتبون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكلا ، وعندهم أخذ الناس صناعة الورق ، وأهل الهند يكتبون فى خرق الحرير الأبيض ، والفرس يكتبون فى الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون فى الخفاف (بالخاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رقاق ، وفى النحاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا خوص عليه ، واحدا عسيب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغنم . وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لقربهم منهم . وآسَمْتُ ذلك إلى أن بُعثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن والعرب على ذلك ، فكانوا يكتبون القرآن حين ينزل ويقرؤه عليهم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فى الخفاف والعُسب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن ” بَعَثْتُ أَنْتَبَعَ الْقُرْآنَ مِنَ الْعُسْبِ وَالْخَفَافِ “ . وفى حديث الزهري ” قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم والقرآن فى العُسب “ وربما كتب النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بعض مكاتباته فى الأَدم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وأجمع رأى الصحابة رضى الله عنهم على كتابة القرآن فى الرِّقِّ لطول بقائه ، أولأنه الموجود عندهم حينئذ . وبقى الناس على ذلك إلى أن ولى الرشيدُ الخِلافةَ وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب الناس إلا فى الكاغد :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التروير، بخلاف الورق، فإنه متى نُحِيَ منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشْطُهُ . وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قُرْب وبعد، واستمر الناس على ذلك إلى الآن .

الجملة الثالثة

(في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة، ومعرفة أجناسه)

الورَق (بفتح الراء) أسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده ورقة، وجمعه أوراق، وجمع الورقة ورقات . وبه سمي الرجل الذي يكتب ورّاقا . وقد نطق القرآن الكريم بتسميته قرطاسا وصحيفة كما مر بيانه . ويسمى أيضا الكاغد بغين ودال مهملة، ويقال للصحيفة أيضا طرس، ويجمع على طروس، ومهْرَق (بضم الميم وإسكان الهاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف)، ويجمع على مهّارق . وهو فارسيّ معترّب، قاله الجوهريّ . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرّفا صقيلا، متناسبا الأطراف، صبوراً على مُرُور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغداديّ: وهو ورق ثخين مع ليونة ورقّة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدّا، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربما استعمله كُتّاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها كما سيأتي بيانه في المكاتبات السلطانية . ودونه في الرتبة الشاميّ؛ وهو على نوعين: نوع يعرف بالحمويّ، وهو دون القطع البغداديّ . ودونه في القدر وهو المعروف بالشاميّ، وقطعه دون القطع الحمويّ، ودونهما في الرتبة الورق المصريّ؛ وهو أيضا على قطعين: القطع المنصوريّ، وقطع العادة والمنصوريّ أكبر قطعا . وقبلما يُصقل وجهاه جميعا . أما العادة فإن فيه مايصقل وجهاه ويسمى في عرف الوراقين المصلوح . وغيره عندهم على رتبتين: عال

(١) أي نوع دونه الخ فتنه .

ووسط . وفيه صنفٌ يعرف بالقوى صغير القطع ، خشن غليظ خفيف الغرف ، لا يُنتفع به في الكتابة يُتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك . وإنما نهت على ذلك وإن كان واضحاً لأمرين : أحدهما أن لا تُحلى كتابنا من بيان الورق الذي هو أحد أركان الكتابة ؛ الثاني أنه قد ينتقل الكتاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصري كما لا يعرف المصريون ورق غير مصر معرفتهم بورق مصر ، فيقع الاطلاع على ذلك لمن أراحه . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجية فهو ردىء جداً ؛ سريع البلى ، قليل المكث ؛ ولذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الأولى طلباً لطول البقاء .

وسياتى الكلام على مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الدبونة عند ذكر ورق كل فن ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالى .

تم الجزء الثانى ، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث ؛ وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى ،

فى الكلام على نفس الخط)